ترجمة: سها سامح حسن
الهيئة المصرية العامة للكتاب
الانتشار العربي

اسطنبول بإرثها الثقافي المزدوج، وأرواحها الهائمة وخرافاتها الطالعة من أعماق البُسْفور.

أورهان باموق، روائي تركي، ولد في 7 يونيو/حزيران 1952 في اسطنبول لأسرة ميسورة الحال، وترعرع في حي نيشان طاش، وهو أحد أحيائها الراقية، وفاز بجائزة نوبل في الأدب 2006، ليكون أول تركي يحصل على جائزة نوبل. يعتبره الكثير من النقّاد من كُتّاب ما بعد الحداثة، بدأ الرسم في الخامسة عشرة من عمره، وفي الثامنة عشرة قرر أن يصبح فناناً، لكن الرسم وعين الرسّام والذاكرة البصرية، التي أظن أنها تكون في أوج تألقها عند الرسامين، بقيت معه في كل كتاباته تقريباً. تأثرت شعبية باموق في وطنه الأم ببعض الأحداث التي جرت في 2005، حين رفع بعض المحامين الأتراك قضايا ضد باموق بعد أن صدرت منه تصريحات بشأن إبادة جماعية للأرمن على أيدي الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى، في الفترة من 1915 حتى 1917، ومقتل حوالي ثلاثين ألف كردي في الأناضول. وتمّ إسقاط التهم في يناير/كانون الثاني 2006. وصرّح بعد ذلك بأن نيته كانت جلب الانتباه إلى قضايا حرية التعبير، ويتزايد قرّاء باموق باستمرار في تركيا حيث تحقق كتبه أعلى المبيعات، وفي جميع أنحاء المعمورة حيث تُرجمت أعماله إلى أكثر من أربعين لغة، منها العربية. وفاز بالعديد من الجوائز الوطنية والدولية.

يصف باموق ميلاده وحياته في اسطنبول في الكتاب الأسود وفي جودت بك وأولاده، وبتفصيل أكثر في مذكراته الشخصية اسطنبول: الذكريات والمدينة، تلقى تعليمه في روبرت كولج في اسطنبول، ودرس الهندسة المعمارية في

جامعة اسطنبول للتقنية نتيجة ضغوط عائلية ليصبح مهندساً أو معمارياً. إلاّ أنه ترك الهندسة المعمارية بعد ثلاث سنوات ليتفرغ للكتابة، وتخرّج من معهد الصحافة في جامعة اسطنبول 1976، وانتسب إلى جامعة كولومبيا من 1985 إلى 1988، وهي الفترة التي كان فيها أيضاً زميلاً زائراً في جامعة أيوا Iowa. ثم عاد إلى اسطنبول ومكث فيها حتى 2006، ثم عاد إلى الولايات المتحدة ليعمل أستاذاً زائراً في كولومبيا.

تزوج من الين تشرجن في 1982، وانفصلا بالطلاق في 2001، له ابنة تدعى رؤيا، أخوه الأكبر شوكت باموق (الذي يظهر أحياناً كشخصية روائية في أعمال أورهان، شوكت، على سبيل المثال، هو الأخ الأكبر لشخصية تحمل اسم أورهان في رواية (اسمي أحمر)، مؤرخ معروف عالمياً بأعماله في تاريخ الاقتصاد. يقوم بالتدريس في إحدى جامعات اسطنبول.

بدأ باموق الكتابة بانتظام منذ 1974، فازت روايته «الظلام والنور» بجائزة ميليت في مسابقة الرواية عام 1979 مناصفة مع رواية لمحمد أروغلو، وهي الرواية التي طبعت بعد ذلك بعنوان جودت بك وأولاده عام 1982، وفازت بجائزة «أورهان كمال» للرواية في 1983. وتحكي قصة ثلاثة أجيال من أسرة ثرية من اسطنبول، تعيش في حي نيشان طاش، الحي الذي ترعرع فيه باموق، وفاز باموق بعدد من الجوائز عن أعماله المبكرة، منها جائزة مادارالي للرواية في 1984 عن روايته الثانية «البيت الصامت»، وفازت ترجمتها الفرنسية بجائزة الإبداع الأوروبي في 1991، وفازت روايته «القلعة البيضاء»، المنشورة في تركيا 1985، بجائزة الإندبندت للقصة

المترجمة في 1990، وبعدها ذاعت شهرته خارج تركيا، (صدرت ترجمتها العربية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة الجوائز في 2006 ـ ترجمة إيزابيل كمال). كتبت نيويورك تايمز بعد صدور الرواية: «ارتفع نجم جديد في سماء الشرق ـ أورهان باموق ـ» وتدور أحداث القلعة البيضاء في القرن السابع عشر في اسطنبول. حيث يقع الراوي، وهو عالم إيطالي شاب، أسيراً في يد جنود أحد الباشاوات الأتراك، يضعه في السجن فترة ثم يهديه كعبد، بعد إصراره على التمسك بدينه، إلى خوجة تركي مغرم بالمعرفة. ويندهش الشاب الإيطالي من الشبه الكبير، في الشكل، بينه وبين الخوجة. يطلب منه الخوجة أن يعلمه كل ما يعرفه من علوم الغرب، ويُصبحُ الخوجة، الذي هو سيده، تلميذه في الوقت ذاته، ويتعاونان معاً في صناعة الكثير من الآلات واختلاق الكثير من الحكايات المسلية للسلطان، ليتم التزاوج بين الثقافة الغربية والثقافة التركية، وفي النهاية ينتحل الخوجة شخصية الشاب لينقذه من القتل. هكذا يتم تزاوج الثقافات بعد صراع دموي، ولا تكون السيادة دائماً لثقافة المنتصر عسكرياً، هذا ما يمكن أن يقوله التاريخ أحياناً، وهو ما يمكن أن يفهم من القلعة البيضاء.

بعد القلعة البيضاء بدأ باموق تجريب تقنيات ما بعد الحداثة في رواياته، متجاوزاً النزعة الطبيعية الصارمة التي كانت تتسم بها أعماله المبكرة، ولم يحقق باموق النجاح على المستوى الشعبي إلاّ متأخراً بعض الشيء، لكن روايته الكتاب الأسود (الكتاب بالعربية في الأصل التركي) أصبحت من أكثر الأعمال شيوعاً وإثارة للجدل في الأدب التركي المعاصر، نتيجة لتعقد بنيتها وثرائها، وكتب باموق في 1992

النص السينمائي لفيلم الوجه الغامض، عن رواية الكتاب الأسود، وأخرجه المخرج التركي البارز عمر كفور. وفي هذه الرواية يتناول باموق اسطنبول المعاصرة. ويرى البعض أن رؤية باموق لإسطنبول تشبه رؤية جيمس جويس لدبلن، وهي رواية تنتمي لتقنيات ما بعد الحداثة، تَبدأُ كقصة لغزٍ يتعلق بالهوية، والسرد فيها معقّد، وبها تناقضات روحانية صوفية، وقصص متضمنة في قصص.

وقد أثارت روايته الرابعة «الحياة الجديدة» ضجة في تركيا بمجرد نشرها في 1995 وتعتبر من أسرع الكتب مبيعاً في التاريخ التركي. ومنذ ذلك الوقت صار باموق شخصية بارزة في تركيا، وكان باموق في 1995 ضمن مجموعة من الكُتَّاب حوكموا بسبب كتابة مقالات تنتقد أسلوب تركيا في التعامل مع الأكراد. نشر باموق في 1999 كتابه القصصي «الألوان الأخرى». واستمرت الشهرة العالمية لباموق في الزيادة بعد نشر «اسمي أحمر» في عام 2000، تمزج الرواية بين السري والرومانسي والفلسفي في خلفية تعود بنا إلى القرن السادس عشر في مدينة اسطنبول؛ حيث تفتح نافذة على عهد السلطان العثماني مراد الثالث خلال تسعة أيام يتساقط فيها الجليد في شتاء 1951، من خلال مجموعة من الرسامين الذين يقومون بإعداد الكتب ورسمها للسلطان، حيث تثار قضية موقف الدين من الرسم والتصوير وتقليد أساليب الرسامين في الغرب، وتدعو القارىء للاطلاع على التوتر بين الشرق والغرب بشغف شديد. وتُرجمت «اسمي أحمر» إلى أكثر من عشرين لغة، من بينها العربية، وفازت في 2003 بجائزة آي إم بي إيه سي دبلن، وهي أكبر الجوائز الأدبية الدولية، بعد جائزة نوبل، من حيث القيمة المادية. إذ تبلغ قيمتها مئة وسبعة وعشرين ألف دولار. وقد

سُئل باموق بعد الفوز بها: «ما تأثير الفوز بجائزة آي إم بي إيه سي على حياتك وأعمالك؟» فردَّ: «لا شيء تغير في حياتي لأنني أعمل طوال الوقت. قضيتُ ثلاثين عاماً في كتابة القصة. وفي السنوات العشر الأولى كنت قلقاً بشأن النقود، ولم يسأل أحدٌ كم كسبتُ من النقود. في العقد الثاني صرفتُ النقود ولم يتساءل أحد عن ذلك، وقضيت السنوات العشر الأخيرة وكل شخص يتوقع أن يسمع كيف أصرف النقود، ولن أقول».

تتناول رواية باموق «ثلج» الصادرة في 2002 (ونشرت ترجمتها الإنجليزية في 2004) الصراع بين النزعة الإسلامية والنزعة الغربية في تركيا الحديثة. وقد اختارت نيويورك تايمز «ثلج» ضمن أفضل عشرة كتب في 2004، وهي أكثر روايات باموق انشغالاً بالسياسة، ويطرح فيها قضايا التعصب الديني والصراع بين النظام السياسي والجماعات الإسلامية، ويتهم النظام السياسي بافتعال الأحداث التي تُنسب إلى الجماعات الإسلامية، واختراقها واستدراجها إلى العنف لتبرير أعمال القمع والاعتقال والتوتر. وتحكي الرواية قصة «كا»، وهو شاعر ولاجيء سياسي، قضى اثني عشر عاماً في ألمانيا. يسافر إلى بلدة صغيرة في الأناضول ليدرس موجة من موجات الانتحار بين الفتيات اللائي منعن من لبس الحجاب في المدرسة. ويلتقي «كا» أيضاً بحبيبته أيام الشباب. تحمل الرواية صورة موحية، الثلج يغطي البلدة وكأنه حجاب على رأسها، ويستعيد «كا» صوته الشعري قبل اغتياله.

ونشر أيضاً «اسطنبول الذكريات والمدينة» في 2003 (ونشرت ترجمتها الإنجليزية في 2005، وستصدر قريباً

ترجمة عربية لها عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ضمن سلسلة الجوائز ـ ترجمة الدكتورة أماني توما). وفاز باموق بخمسة وعشرين ألف يورو قيمة جائزة السلام الألمانية عن أعماله الأدبية التي «تتجاوز فيها تركيا الأوروبية والإسلامية». وقد استلم الجائزة، وهي من أهم الجوائز الألمانية، في كنيسة بولس في فرانكفورت، وستنشر ترجمة كتابه التالي «الألوان الأخرى» في المملكة المتحدة في ربيع 2008 وروايته التالية «متحف البراءة».

تتميز كتب باموق بالالتباس أو عدم التحديد الناتجين جزئياً عن الصراع بين القيم الأوروبية والإسلامية. إنها غالباً مزعجة أو محيرة، لكنها تحتوي على حبكات مثيرة ومعقدة وشخصيات عميقة. يفوح من أعماله أيضاً أريج المناقشات حول الفنون الخلاّقة، كالأدب والرسم، والافتنان بها ـ رواية «اسمي أحمر» تدور حول النقش والرسم وتحمل اسم لون، واللون الأحمر أحد رواتها. وكثيراً ما تتناول أعمال باموق الجذور العميقة للتوتر بين الشرق والغرب والتقاليد والعلمانية.

الحياة الجديدة:

يقول أورهان باموق عن «الحياة الجديدة» كتابي محاولة لتقديم رؤيا من خلال تجربة الحب، إنه يقدم تأثير الحب على روح المرء بمزاج جاد، تغمر الرغبة الشديدة الراوي في عالم جديد، في حياة جديدة، تكاد تنضج بالحب، واصلة إلى درجة عالية من الوعي.. والعنوان مقتبس عن دانتي «الحياة الجديدة» La Vita Nuova. هل يرى باموق في جنان نظيرة لبيريس Beaatrice دانتي؟ يقول باموق: نعم.

لكن جنان أقل سذاجة وأقل مثالية. ليست كائناً خيالياً في نظر المحب. إنها تجلس بجواره لمسافات طويلة في الحافلة. يلهوان معاً. ومن الناحية الأخرى، يُقمَع الجانب الجنسي أيضاً.

إعادة قراءة الماضي بعدسة الحاضر والحاضر بعدسة الماضي هي الشغل الشاغل لباموق في الحياة الجديدة، تبدأ الرواية بالجملة التالية: «ذات يوم قرأت كتاباً فتغيرت حياتي كلها». هذا ما يعلنه في البداية عثمان، راوي باموق ابن الاثنين والعشرين ربيعاً. وقد دفعه الكتاب وجنان المتألقة رفيقته الحبيبة إلى سلسلة من الرحلات بالباصات، تحدث خلالها حوادث مروعة عبر مشاهد طبيعية مهجورة، كان عثمان يسعى إلى اكتشاف رؤية المؤلف المجهول لعالم جديد، وكانت جنان تأمل في العثور على محمد، حبيبها السابق، الذي اختفى بعد إطلاق النار عليه.

والرواية ثمرة رحلتين قام بهما أورهان باموق إلى الأناضول، يقول عبد القادر عبد اللي، وهو مترجم عدد لا بأس به من أعمال باموق إلى العربية: في رواية الحياة الجديدة صوّر باموق رحلتين قام بهما إلى الأناضول. تفصل بين الرحلة الأولى والثانية عشر سنوات، رصد باموق في الرحلة الأولى الذين يعملون للمحافظة على الهوية القومية من خلال المحافظة على الأشياء التركية الأصيلة، والأشياء التي دخلت إلى هذه الثقافة، وغدت جزءاً لا يتجزأ منها، ويمكن تسمية هذا الفعل «محافظة مادية». وفي الرحلة الثانية وجد أن تلك الأشياء قد اندثرت، وفُقد أصحابها، وحلّ محلها شكلانية مختلفة ولوحات الكولا، رمز عصر الاستهلاك

الغربي، وفي هذا يصوّر «التغريب المادي» منتقداً الحالتين. وفي حوار معه يؤكد باموق على الضياع ما بين الحالتين قائلاً: تركيا الواقعة بين الشرق والغرب تنتمي إلى أوروبا جغرافياً، ولكن انتماءها سياسياً ما زال يحمل علامة استفهام.

تحكي الرواية قصة شاب جاد في الثانية والعشرين من عمره، اسمه عثمان، يدرس الهندسة، ويعيش مع أمه الأرملة في اسطنبول، يرى الشاب كتاباً غريباً في يدي فتاة جميلة في مطعم الجامعة. وفي ذلك المساء، يلمح الكتاب نفسه، وهو في طريقه إلى البيت، في كشك على الطريق. وقد وقع هذا الطالب فجأة تحت سيطرة جمال الفتاة، يشتري الكتاب، ويقرؤه في جلسة، فتتغير حياته كلها. وبحماس التحول الديني يحكي عثمان عن تأثير الكتاب عليه بدون أن يقول أي شيء، إلاّ فيما بعد، عن الكتاب نفسه. نعرف فقط أن الكتاب يلف قارئه بهالة من الضوء الملائكي، ويقدم وعداً بحياة جديدة، وكأن الكتاب لم يكتب إلاّ له، حتى أنه يكشف له عن معنى وجوده. ولوقت طويل يبقى حتى عنوان الكتاب سراً. ولا نعرف بالضبط ما يعد به الكتاب الغامض الذي أثّر في عثمان؛ نفهم فقط أنه كتاب خطير. يخترق نوره «الساطع» وعي الراوي حتى وعثمان وجنان يشاهدان آلاف القبل والتصادمات في فيلم يعرض على شاشات الفيديو في الباصات التي كانا يستقلانها.

يخلط الشاب بين حبه للكتاب وحبه لجنان؛ وبحثاً عن الحياة الجديدة، يبدأ الاثنان جولات عشوائية لمسافات طويلة في الحافلات والمقاهي، وتتسم علاقتهما في تلك الجولات بعفة تحبط الراوي، لأن قلب جنان مع شخص آخر، مع

محمد، الصديق الذي قدّم لها الكتاب، وقد اختفى بعد طلقات نارية. حين تختفي جنان هي الأخرى، يبحث عثمان عن محمد، وكان أبوه، دكتور فاين، قد أرسل الكثير من الجواسيس لمراقبة ابنه المتمرد وقتل قرّاء الكتاب. ودكتور فاين هو أحد المحافظين الأتراك الذين يقاومون التأثيرات المدمرة للأدب الغربي.

تدور الأحداث في زمن مبهم، ربما في السبعينيات أو الثمانينيات من القرن العشرين، وتتم الجولات بشكل أساسي في سهول الأناضول، في بلدة تتمركز فيها تماثيل كمال أتاتورك، بسماواتها الرحبة وأشجار الحور النحيلة، والليالي الباردة والشمس الحارقة. ويرى رونالد رايت، في قراءة للترجمة الإنجليزية للرواية، أن أكثر المشاهد وضوحاً هي المشاهد الداخلية: كتاب ساخر وعالم سينمائي سوداوي، حيث تظهر صور الحب والموت بشكل لا ينتهي على شاشات الفيديو في الحافلات المملة، وصور الليالي المخملية، وأغاني البوب المزعجة وحوادث الطرق المرعبة. وتكثر حوادث الاصطدام دون إخلال بالعمل؛ وكأنها نقطة الانطلاق في فيلم من أفلام هوليود بحثاً عن المزيد من التدمير الهائل للأرواح والممتلكات: في أرض الوفرة يجب تحطيم الأشياء وتهشيمها، ويتذكر المرء تلك المهرجانات التي يظهر فيها أصحاب الثروات وهم يشعلون النيران في ثرواتهم على الملأ.

تتعامل الحياة الجديدة مع مصادر إلهامها بعناية كما لو كانت عملاً موسيقياً فاتناً ومعقداً. وهو تشبيه يرد في نص الرواية. ويثير الكتاب اللغز في الكتاب سرباً من الأشباح، ويتساءل رونالد رايت: أي كتاب هو؟ هل يمكن أن

يكون الكتاب المقدس؟ القرآن؟ حكايات أماديس؟ أليس في بلاد العجائب؟ أصل الأنواع؟ البيان الشيوعي؟

وحين تاتي الإجابة تمثل تغيراً فجائياً لذيذاً، ومن لحظتها تُستدعى الغرفة 101 لأوريل، كما تستدعى العوالم الجديدة الجريئة لكل من شكسبير وهكسلي، واهتمام ريلكة بالزمن والجوهر، والروحانية الصوفية عند ابن عربي، ضمن تلميحات أخرى لا يمكن حصرها، يبدو أن الكتاب المضيء الذي أحدث كل هذه التغيرات هو كل كتاب يغير العالم باستمرار، يتساءل باموق عن الثمن الذي ينتزع من ثقافة ما حين تحجر القراءةُ والكتابةُ الكلامَ وقبل كل شيء عن الثمن الذي دُفع حين غيرت تركيا الأبجدية، من العربية إلى اللاتينية، تحت حكم أتاتورك في عام 1928.

ويرى رونالد رايت أنه يمكن اقتفاء الخط الخطأ بين البكاء على التقاليد المفقودة والوعد المتبخر بالحداثة في كل البلاد، ولكن هناك بلاداً قليلة يظهر فيها هذا الخط قريباً جداً من سطح القومية كما في تركيا. بعد فتح ما تبقى من بيزنطة، سمحت النخبة التركية لنفسها بالوقوع تحت سيطرة إغراءات المواقف الأوروبية، وأوحت بانها تحقق حضارتها الخاصة. وبعد الحرب العالمية الأولى استخدمت جمهورية كمال أتاتورك ما يفترض أنها الأفكار الليبرالية الغريبة لتطلِّق البلاد من ماضيها. منع اللباس القومي، وتحرك رأس المال، وشلّت المؤسسة الدينية، وقمعت النظم الروحية؛ وأكثر هذه الرموز قوة ـ في إشارة واضحة إلى تحول جوهري في الولاء من الديني إلى الدينوي ـ ومن الماضي الشرقي إلى المستقبل الغربي ـ كان تحول الكتابة من استخدام الأبجدية العربية إلى استخدام الأبجدية الرومانية.

وأبطال باموق الغارقون في الحداثة، الذين يقيمون في بناية شتوية صغيرة في اسطنبول، هم أحفاد هذه الإصلاحات، إلاّ أن أسماءهم ما زالت تختار من منابع تاريخية عميقة. الراوي، الذي لا نعرف اسمه في النصف الأول من الرواية، هو عثمان ـ اسم لكل تركي، فتركيا هي الدولة العثمانية، وصدى لاسم عثمان بن عفان، والشاب الذي قدّم الكتاب للفتاة اسمه محمد، وهو لا يستدعي اسم النبي فقط لكنه يستدعي أيضاً اسم محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية.

أثناء مغامرات عثمان وجنان، يعلّقان على ما فعله وطنهم بنفسه في القرن العشرين، يرى عثمان أن تركيا أصبحت أرضاً تعاني من داء النسيان، عاجزة عن قراءة تاريخها. حتى أولئك الذين استفادوا من التقدم ـ تجار البضائع، على سبيل المثال، الذين يبدو أنهم يشكلون شكلاً من أشكال الأخوة الروحية فيما بينهم ـ يشعرون أنهم حققوا ذلك على حساب أرواحهم، ويقول والد محمد: إن أي شخص يعرف أن مواعيد القطارات أعدى أعداء مواعيد الصلوات. ومن صفقة أبرمتها تركيا مع فاوست حصلت على نسختها المشوّهة من الحلم الأوروبي؛ في البلدات التي يمر به عثمان عمارات خرسانية... تحاصر تماثيل أتاتورك وكأنها جدران سجن.

ويرى رونالد رايت أن الحياة الجديدة التي يبحث عنها محمد وجنان وعثمان ليست مجرد مستقبل فاتن ابتلعته تركيا ولا تستطيع هضمه؛ لكنها أيضاً، وبصورة تنطوي على المفارقة، الذاكرة المشفّرة، ذاكرة الماضي. إلاّ أنه قد يكون من

الخطأ قراءة هذه الرواية باعتبارها شكلاً من أشكال التعصب القومي، إن باموق كاتب أبرع من أن يقع في ذلك، إنه يعرف أن الثقافات تستعير من الثقافات الأخرى وتسرق منها باستمرار؛ تكمن المشكلة في الاختيارات والأساليب. يقول عثمان بأمانة: إن هذه اللعبة الجديدة التي تدعى الرواية هي أعظم ابتكارات الثقافة الغربية. ومع أنها ليست من نتاج الثقافة التركية إلاّ أنه يقرؤها ويكتبها. وباموق هنا ليس سيريالياً مثل بورخيس أو من كُتّاب ما بعد الحداثة مثل كالڤينو، الكاتبين اللذين سبق أن قارنه البعض بهما. إنه يلتقي بصورة أفضل بالوقار المازح لامبرتو إيكو.

كتب أورهان باموق هذا الشيء الصعب والنادر: قصة أفكار. وقد حققت «الحياة الجديدة» نجاحاً غير مسبوق في تركيا ربما لأنها تتناول ببراعة وذكاء العلل الثقافية الفريدة التي تعاني منها البلاد. لكن إنجاز باموق عالمي أيضاً، يجعل القارىء الغربي خاصة، يفهم أن منطق الخسة والتفاهة والجشع يهدد الحضارة. كل الشباب التركي أغواهم شيطان الثروة، المنتصر الدنيء بالخروج في نهاية القرن من ساحة معركة العقائد. (رونالد رايت ـ 1997).

الأعمال:

- «جودت بك وأولاده»، رواية، اسطنبول، 1982، الترجمة إلى الإنجليزية Cebdet Bey and Sons، فيكتوريا هولبروك. الترجمة العربية، فاضل جتكر، وزارة الثقافة السورية.

- «البيت الصامت»، رواية، اسطنبول، 1983، الترجمة

العربية، عبد القادر عبد اللي، دار المدى، 2006.

- «القلعة البيضاء»، رواية، اسطنبول، 1985، الترجمة إلى الإنجليزية White Castle فيكتوريا هولبروك، مانشستر، المملكة المتحدة، دار كركنيت المحدودة للنشر، 1990، بالإضافة إلى طبعات أخرى. الترجمة العربية، إيزابيل كمال؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006، وهناك ترجمة أخرى، عبد القادر عبد اللي، دار ورد للطباعة والنشر، 2001.

- «الكتاب الأسود» (كلمة كتاب بالعربي في الأصل التركي)، رواية، اسطنبول، 1990، الترجمة إلى الإنجليزية The Black Book، جنلي جَن، نيويورك، ستراوس وجيرو، 1994، وصدرت ترجمة جديدة بقلم مورين فريلي في 2006 (فبر في المملكة المتحدة). الترجمة العربية، عبد القادر عبد اللي، دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع، 2003.

- «الوجه السري»، نص سينمائي، اسطنبول، 1992.

- «الحياة الجديدة» (كلمة حياة بالعربي في الأصل التركي)، رواية، اسطنبول، 1995 الترجمة إلى الإنجليزية The New Life، جنلي جن، نيويورك: فرار وستراوس وجيرو، 1997، الترجمة العربية، دار نينوى، 2004.

- «اسمي أحمر» رواية، اسطنبول، 1998، الترجمة إلى الإنجليزية My Name is Red، إرداغ م. جُكنار، نيويورك: ألفرد أ. نوف، 2001، الترجمة العربية، عبد القادر عبد اللي، دار المدى، 2000، طبعة ثانية، 2006.

- «الألوان الأخرى»، مقالات، اسطنبول، 1999.
- «ثلج»، رواية، اسطنبول، 2002، الترجمة إلى الإنجليزية Snow، مورين فريلي، نيويورك: ألفرد أ. نوف، 2004.
- «اسطنبول: الذكريات والمدينة»، مذكرات، اسطنبول، 2003، الترجمة إلى الإنجليزية: Istanbul: Memories and the City، مورين فريلي، نيويورك: ألفرد أ. نوف، 2005، الترجمة العربية، عبد القادر عبد اللي، وزارة الثقافة السورية، سلسلة الكتاب.

الجوائز:

- جائزة مسابقة ميليت الصحفية للرواية، تركيا، 1979، مناصفة مع محمد أروغلو، عن روايته «الظلام والنور».
- جائزة أورهان كمال للرواية، تركيا 1983، عن روايته «جودت بك وأولاده».
- جائزة مادارالي للرواية، تركيا 1984، عن روايته «البيت الصامت».
- جائزة الإندبندنت للقصة المترجمة، المملكة المتحدة، 1990، عن روايته «القلعة البيضاء».
- جائزة الإبداع الأوروبي، فرنسا، 1991، عن الترجمة الفرنسية لروايته «البيت الصامت».
- جائزة أفضل كتاب مترجم، فرنسا، 2002، عن روايته «اسمي أحمر».
- جائزة جرينز كفور، إيطاليا، 2002، عن روايته «اسمي أحمر».

- جائزة آي إم بي إيه سي دبلن الأدبية الدولية، إيرلندا، 2003، عن روايته «اسمي أحمر».
- جائزة السلام الألمانية للكتاب، ألمانيا، 2005.
- جائزة Medicis Etranger، فرنسا، 2005، عن روايته «ثلج».
- جائزة نوبل، السويد، 2006.

عبد المقصود عبد الكريم

الفصل الأول

قرأت كتاباً في يوم ما فتغيّرت حياتي كلها. منذ الصفحة الأولى تأثرت بقوة الكتاب؛ فشعرت بجسدي ينأى بنفسه ويبتعد عن الكرسي؛ حيث جلست أقرأ الكتاب الذي كان أمامي فوق المائدة. وبالرغم من شعوري بانعزال جسدي فإن كل إحساسي ظلّ متوحداً فوق هذه المنضدة حتى أن تأثير الكتاب لم يكن على روحي وحدها، بل كان أيضاً على كل نواحي شخصيتي، كان تأثيراً قوياً لدرجة أن الضوء انبعث من الصفحات وأنار وجهي وغشى تألقه عقلي وتفكيري ولكنه منحه أيضاً صفاء الفكر، كان الضوء من النوع الذي من خلاله يمكنني إعادة تشكيل نفسي، ويمكن أن أضلّ فيه طريقي، فلقد شعرت فيه بالفعل بظلال وجود ما يجب أن أعرفه وأؤمن به، جلست إلى المنضدة أُقلب الصفحات وعقلي واع بالكاد بأنني أقرأ وحياتي كلها تتغير وأنا أقرأ الكلمات الجديدة في كل صفحة، وشعرت أنني لست مستعداً تماماً لكل شيء كان يحدث لي، وأنني عديم الحيلة حتى أني بعد فترة نأيت بوجهي بعيداً بحركة غريزية كما لو كنت أحمي نفسي من القوة التي تنبعث من الصفحات، أصبحت على وعي - ولكن بخوف شديد - بالتحول الكامل للعالم من حولي وانتابني شعور بالوحدة لم أختبره من قبل قط، كما لو كنت تركت في بلاد حيث لا أعرف معالم الأرض أو اللغة أو حتى التقاليد.

وارتبطت بالكتاب بصورة أكثر شدة في ظل هذا الإحساس بالعزلة. لا شيء مثل الكتاب يمكن أن يكشف لي ماذا يكون عليه تصرفي الضروري، ماذا يمكن أن أؤمن به، أو ألاحظه وما المسار الذي كانت حياتي تتخذه في هذه البلاد التي وجدت نفسي فيها، استأنفت القراءة، أقلّب الصفحات كما لو كنت أقرأ الآن دليلاً، يرشدني خلال أرض غريبة موحشة.

ساعدني، شعرت كأني أقولها، ساعدني لأجد الحياة الجديدة، حياة آمنة وسالمة من كل أذى، ولكني عرفت أن هذه الحياة الجديدة مبنية على كلمات هذا الدليل. فقرأته كلمة.. كلمة، محاولاً أن أجد مساري وفي نفس الوقت كنت ـ لدهشتي ـ أتخيل العجائب التي سوف تحيد بي عن الطريق المستقيم.

كان الكتاب أمامي على المنضدة، ضوؤه منعكس على وجهي، ولكنه بدا مشابهاً للأشياء الأخرى في الحجرة. في أثناء تقبلي ـ بكل سرور وعجب ـ لإمكانية وجود حياة جديدة في هذا العالم الجديد الموجود أمامي، كنت على وعي بأن هذا الكتاب ـ الذي غيّر حياتي بشدة ـ كان في الواقع شيئاً عادياً تماماً. فلقد قام عقلي بفتح أبوابه ونوافذه تدريجياً على عجائب هذا العالم الجديد الذي وعدتني به الكلمات، وعبثاً حاولت أن أستعيد الصدفة التي قادتني إلى هذا الكتاب، ولكن هذه الذكرى لم تكن أكثر من صورة سطحية لم تؤثر بشكل كامل في وعيي. عندما واصلت القراءة، حثّني نوع معين من الخوف على عكس هذه الصورة: العالم الجديد الذي كشفه الكتاب، وكان غريباً جداً ومدهشاً لدرجة أنه لكي أهرب من كوني منغمساً في هذا الكون، كنت قلقاً من أن أحس بأي شيء متصل بالحاضر.

ماذا لو رفعت عيني من على الكتاب ونظرت حولي في غرفتي، إلى دولابي، سريري، أو نظرت عبر النافذة ولم أجد العالم كما عرفته؟ لقد سكنني هذا الخوف.

مرّت الدقائق والصفحات الواحدة تلو الأخرى، مرّت قطارات على بعد، سمعت أمي تخرج ثم تعود، أنصت إلى صوت المدينة اليومي، رنين جرس بائع الزبادي في الشارع، محركات السيارات، كل الأصوات المألوفة بالنسبة لي أصبحت كما لو كانت تأتي من خارج الأرض، في البداية ظننت أن هناك مطراً شديداً بالخارج ولكن اتضح أن هذا صوت بعض الفتيات يمارسن نط الحبل، فظننت أن الأمور بدأت تتضح ولكن بعد ذلك سمعت صوت قطرات المطر على نافذتي، قرأت الصفحة التالية والتي تليها وصفحات أخرى بعدها، فرأيت الضوء يتسرب خلال عتبة الحياة الجديدة، ورأيت ما عرفت وما لم أعرفه، رأيت حياتي والمسار الذي سوف تتخذه.

كلما قلّبت الصفحات، كلما انتشر عالم ـ لم أكن أبداً أستطيع تخيله أو إدراكه ـ في نفسي وسيطر على روحي، وأصبحت كل الأشياء التي عرفتها من قبل تفاصيل تافهة، ولكن الأشياء التي لم أكن على وعي بها من قبل ظهرت الآن من مخابئها وأخذت ترسل لي إشارات. فلو كنت سُئلت عن كنه هذه الأشياء، لما استطعت الإدلاء بإجابة محددة فيما ما زلت أقرأ، وعرفت أنني أحرز تقدماً بطيئاً على طريق بلا عودة، وعلى وعي بأن اهتمامي وفضولي السابقين للأشياء قد انتهى وانقضى خلفي، ولكني كنت متحمساً ومبتهجاً بالحياة الجديدة التي تتفتح أمامي حتى أنني شعرت بأن الكون بأسره يستحق اهتمامي، كنت أؤرجح

ساقي بشيء من الحماس لهذه الرؤية؛ عندما تتحول كل من الثروة، التعددية، وتعقد الاحتمالات إلى نوع من الرعب.

كنت مرعوباً من أن أرى ـ في الضوء الذي انبعث من الكتاب على وجهي ـ غرف بالية، حافلات طائشة، أشخاصاً ملوثين بالوحل، خطابات باهتة، مدناً مفقودة، حيوات مفقودة، أشباحاً. كان المشهد يشتمل على رحلة، لقد كان دائماً عن رحلة، رأيت نظرة تلاحقني في هذه الرحلة، نظرة بدا أنها تظهر في آخر الأماكن المتوقعة فقط لتختفي، جاعلة نفسها منشودة أكثر لأنها كانت صعبة المراس، نظرة حنونة خالية من الذنب واللوم. . . . . . . لقد رغبت في أن أصبح هذه النظرة، رغبت في أن أكون موجوداً في عالم يُرى بهذه النظرة، أردت ذلك بشدة حتى أنني آمنت تقريباً بوجودي في هذا العالم، ولم يكن حتى من الضروري أن أقنع نفسي: فلقد عشت هناك فعلاً. أو لنفترض أنني عشت هناك، فإن الكتاب يجب أن يكون ـ بالطبع عني. فهناك شخص ما تخيل أفكاري ووضعها بالفعل على الورق.

قادني هذا إلى أن أفهم أن الكلمات ومعانيها ليست بالضرورة متشابهة. فمنذ البداية عرفت أن الكتاب كُتب من أجلي أنا، ولم يكن هذا بسبب أن هناك عبارات منذرة أو كلمات رائعة حتى أن كل كلمة وكل معنى مجازي قد انتشر في نفسي، بل لأنني كنت تحت تأثير انطباع بأن الكتاب كان عني، لم أستطع فهم كيف أنني أصبحت منساقاً لهذه المشاعر، ولكن ربما أكون قد فهمتها فقط لكي أفقدها، محاولاً أن أرى طريقي خلال جرائم القتل، الحوادث، الموت والعلامات المفقودة التي امتلأ بها الكتاب.

هكذا كان الوضع عندما قرأت وجهة نظري وقد تحولت

بواسطة الكتاب، والكتاب قد تحول بواسطة وجهة نظري، ولم تعد عيناي المغشيتان تستطيعان تمييز العالم الموجود داخل الكتاب من الكتاب الموجود في خلال العالم، كان وكأنه عالم واحد، كون كامل بكل ألوانه وأشيائه تمّ احتواؤه بين الكلمات الموجودة في الكتاب، وهكذا استطعت أن أقرأ بداخله كل الاحتمالات الموجودة في عقلي. بدأت أفهم أن كل شيء همس به الكتاب ـ في البداية ـ لي، ثم سحقه داخلي، وفي النهاية أجبرني عليه دون شفقة، كان حاضراً دائماً، هناك، راقداً في عمق روحي. فالكتاب قد وجد الكنز المفقود الذي كان راقداً تحت السطح لأعوام طويلة وأظهره إلى السطح، فشعرت أنني أستطيع استخدام ما قرأته بين السطور والكلمات لحسابي. وعندما وصلت إلى مكان ما في الصفحات الأخيرة، أردت أن أقول إنني ـ أيضاً ـ أتيت بنفس الأفكار، ولكن جاء هذا متأخراً جداً، بعد أن أصبحت مأخوذاً كلياً بالعالم الذي وصفه الكتاب حتى أنني رأيت الموت يظهر في الضوء الباهت قبيل الفجر، يشع كالملاك. موتي أنا بالذات.

وفهمت فجأة أن حياتي أثريت خارج نطاق معرفتي. فقداني لهذا الكتاب كان الشيء الوحيد الذي جعلني خائفاً، ولكني لم أعد خائفاً من كوني غير قادر على إدراك ما أخبرني به الكتاب عما في الأشياء العادية المحيطة بي في حجرتي أو في الشارع، أمسكت الكتاب بين يدي وشممت رائحة الورق والحبر الذي فاح من الصفحات، كما كنت أفعل في طفولتي عندما أنتهي من قراءة كتاب كوميدي من أوله إلى آخره. فالرائحة كانت كما هي.

نهضت من على المنضدة وضغطت جبهتي على زجاج

النافذة البارد، كما اعتدت أن أفعل عندما كنت طفلاً، ونظرت لأسفل إلى الشارع. منذ خمس ساعات ـ بعد منتصف الليل بقليل حينما وضعت الكتاب على المنضدة وبدأت أقرأ ـ كانت هناك شاحنة متوقفة عبر الشارع ولكنها ذهبت الآن. تمّ تفريغ الشاحنة من حمولتها: دواليب بمرايا، مناضد ثقيلة، مشاجب، صناديق، أباجورات وما إلى ذلك، فهناك عائلة جديدة انتقلت إلى الشقة الخالية عبر الشارع، وحيث إن الستائر لم توضع بعد استطعت أن أرى ـ في ضوء مصباح عار يضيء المشهد ـ والدين في منتصف العمر، الابن الذي يبدو في مثل عمري، وابنتهما، كانوا يأكلون وجبة المساء أمام التليفزيون، كان لون شعر الفتاة بنياً فاتحاً، وشاشة التليفزيون كانت خضراء.

شاهدت جيراني الجدد لفترة، وأحببت مشاهدتهم، ربما لأنهم كانوا جدداً أو ربما لأن مشاهدتهم تجعلني في مأمن. فلم أكن أريد أن أواجه التحول الكامل لعالم مألوف انقلب رأساً على عقب، ولكني كنت على وعي بأن حجرتي لم تعد كما هي، والشوارع لم تعد هي نفسها، حتى أصدقائي أو أمي لم يعودوا كما كانوا في السابق. فقد كانوا جميعاً يلمحون بعداء ما، بشيء سيىء ومهدد لم أستطع أن أسميه، تراجعت من أمام النافذة ولكني لم أستطع الرجوع إلى الكتاب الذي يأمرني بالعودة إلى المنضدة. كان الشيء الذي أخذ حياتي من مسارها الطبيعي هناك على المنضدة خلفي، ينتظرني مهما أدرت ظهري له لا يهم، فبداية كل شيء كانت هناك في صفحات هذا الكتاب، ولم أعد أستطيع تأجيل الشروع في هذا الطريق.

كوني انقطعت عن حياتي السابقة أشعرني بالرعب لدرجة

أنني أردت أن أُطمئن نفسي بافتراض أن حياتي سوف تستعيد نمطها السابق وأن لا شيء حدث لي كحادثة أو مصيبة، مثل الأشخاص الذين تحوّلت حياتهم بلا رجعة بواسطة كارثة ما، ولكن وجود الكتاب مفتوحاً خلفي كان محسوساً وواضحاً جداً لكل حواسي حتى أنني لا أستطيع تخيل كيف ستكون حياتي إذا رجعت لنظامها القديم.

كنت على هذه الحالة في غرفتي عندما نادتني أمي للعشاء، جلست كشخص مبتدىء غير معتاد على مكان جديد، يحاول أن يقيم حواراً، كان التليفزيون مفتوحاً، وكان أمامنا أطباق من حساء البطاطس وقطع اللحم المطبوخ، وكرات مدمس بارد وسلطة خضراء وتفاح، ذكرت أمي في حديثها جيراننا الجدد عبر الشارع، كذلك جلوسي المحمود في غرفتي «أعمل» فترة الظهيرة بأكملها، خروجها للتسوق، هطول المطر، وأنباء المساء في التليفزيون ومذيع النشرة. أحب أمي؛ فهي امرأة جميلة، لطيفة ومتحكمة في نفسها ومتعاطفة مع الآخرين، لقد شعرت بالذنب لقراءتي لهذا الكتاب الذي جعلني غريباً عن عالمها.

لو كان هذا الكتاب كُتب لكل الناس، لما أمكن للحياة أن تتدفق بهذا البطء واللامبالاة: ومن ناحية أخرى فلا يعقل لطالب الهندسة المتعقل أن يعتقد أن هذا الكتاب كُتب خصيصاً له، ولكن إذا لم يكن موجهاً لي - ولي أنا وحدي - فكيف يمكن للعالم الخارجي أن يستمر كما كان تماماً؟ وكنت خائفاً حتى أن أعتقد أن الكتاب يمكن أن يكون لغزاً وُضع لأجلي فقط. فيما بعد عندما قامت أمي لغسل الأطباق، أردت أن أساعدها، فمن الممكن للمستها أن ترجعني للحاضر بدلاً من العالم الذي أقحمت نفسي

فيه. فقالت: «لا تزعج نفسك، عزيزي، سأقوم بهذا بنفسي». جلست أشاهد التليفزيون لفترة، لعلني أتمكن من الاندماج في هذا العالم، أو أشارك في المشهد على الشاشة. ولكن جهازنا هذا الذي نشاهده، مجرد مصباح رديء، نوع من المهام المنزلية. لذلك ارتديت سترتي وحذائي وقلت لأمي: «أنا خارج».

ـ فقالت أمي: «متى تعود؟ هل أنتظرك؟».

ـ «لا. لا تنتظريني، فلسوف تنامين أمام شاشة التليفزيون مجدداً».

ـ «هل أطفأت أنوار غرفتك؟».

هكذا خاطرت بالخروج إلى المناطق التي قضيت فيها طفولتي، حيث عشت لمدة اثنين وعشرين عاماً، مشيت في الشوارع كما لو كنت في منطقة خطرة في مملكة غريبة، لمس هواء ديسمبر/كانون الأول الندي وجهي كنسمة خفيفة، مما جعلني أعتقد أن هناك أشياء قليلة من المحتمل أن تكون قد تسللت من عالمي القديم واخترقت هذا العالم الجديد الذي دخلته، أشياء علي أن أتعارض معها في الشوارع التي تتكوّن منها حياتي، فشعرت برغبة في الركض.

مشيت بسرعة بجانب الأرصفة، متجنباً صفائح القمامة العملاقة وبرك الطين، أشاهد عالماً جديداً يظهر ويتحقق مع كل خطوة أتخذها، أشجار الحور التي عرفتها منذ طفولتي ظلت كما هي، ولكنها كانت محرومة من ارتباطها بذكرى ما، لاحظت هذه الأشجار المجهدة، المنازل المعروفة لي، المباني السكنية ذات اللون الغامق التي شاهدت بناءها منذ كانت مجرد خليط من الرمل والماء والإسمنت إلى أن تمّ رفع الأسقف وصبّها، وحيث كنت

ألعب مؤخراً انتقل إلى هنا رفقاء لعب جدد، ولكن هذه الصورة لم تبدُ كقطع غير قابلة للتحويل من حياتي، ولكنها بمثابة صور فوتوغرافية لم أستطع أن أتذكر متى تمّ تصويرها: تعرّفت على الظلال، النوافذ المضاءة، الأشجار في المنطقة، الحروف المكتوبة على المداخل، ولكن الأشياء التي أدركتها لم يكن لها أي تأثير على عقلي، وكان عالمي القديم حولي بأكمله، أمامي في الشارع، هنا وهناك وفي كل مكان، في انعكاس الصورة على نافذة واجهة محل البقالة، أضواء الشارع عند ميدان محطة «رينكوي»، أفران المخبز ما زالت تعمل، صناديق الفاكهة الخاصة ببائع الخضراوات، عربات اليد، محل «الحياة» للمعجنات، الشاحنات المتداعية، أغطية هذه الشاحنات المصنوعة من القماش المشمع، الوجوه المجهدة الغامضة، جزء من قلبي ـ حيث كنت أحمل الكتاب خلسة كما لو كان خطيئة ـ قد حصن نفسه ضد كل هذه الأشكال التي تتلألأ تحت أضواء المدينة، وأردت أن أركض، أن أهرب من هذه الشوارع المعروفة، أهرب بعيداً عن حزن الأشجار المبللة بماء المطر، عن لافتات البقال والجزار المضاءة بحروف النيون، المنعكسة على الإسفلت وتجمعات مياه المطر، هبت رياح خفيفة، أسقطت قطرات المطر من على الأشجار، وكان هناك طنين في أذني جعلني أقرر أن هذا الكتاب يجب أن يكون لغزاً وهبت إياه، فحل بي الخوف، وأردت أن أتحدث مع أشخاص آخرين.

وعند ميدان المحطة، قصدت «مقهى الشباب» حيث كان بعض أصدقائي من الجيران يلتقون هناك في الأمسيات، يلعبون الورق ويشاهدون كرة القدم، أو يقضون وقتهم فقط، كان هناك شخص أعرفه من الجامعة والذي كان يقضي وقته في متجر والده

للأحذية، وشخص آخر من الحي ـ والذي كان يلعب في اتحاد هواة كرة القدم ـ وكانا جالسين على مائدة في الخلف ينعكس عليهم ضوء أبيض وأسود ينبعث من شاشة التليفزيون وهم يتحدثون. وأمامهم كانت هناك صحف بالية تساقطت في أجزاء من كثرة قراءتها، وكوبان من الشاي، سجائر وزجاجة بيرة تمّ شراؤها من البقال وأخفيت في مقعد الكرسي، كنت بحاجة إلى محادثة طويلة، تستمر لساعات وساعات، ولكني أدركت سريعاً أنني لن أستطيع التحدث مع الاثنين. ومسكني حزن وآسف جعل الدموع تتجمع في عينيّ للحظة، ولكني لملمت شتات نفسي بكبرياء، فلم أكن أستطيع أن أبوح بمكنونات روحي إلّا لأشخاص مختارين، من بين هؤلاء الذين لهم وجود بالفعل في العالم الذي لمّح له الكتاب.

وهكذا صدقت أنني أملك مستقبلي ملكية تامة، ولكني أيضاً عرفت أن ما يملكني في الحاضر هو الكتاب. فالكتاب لم ينفذ إلى نفسي فقط مثل سر أو خطيئة، ولكن أيضاً جرّني إلى نوع من عدم القدرة على التحدث، التي يختبرها الشخص في الأحلام، أين هي الأرواح المتشابهة (المتناسخة) التي أستطيع التحدث معها؟ أين البلاد التي أجد فيها الحلم الذي تحدث إلى قلبي؟ أين هؤلاء الذين قرأوا الكتاب أيضاً؟

مشيت عبر قضبان القطار، ورجعت عبر الشوارع، أتعثر في أوراق شجر الخريف الصفراء الملتصقة بالرصيف، شعور عميق بالتفاؤل أثار بداخلي. لو كان بإمكاني أن أمشي دائماً هكذا، بسرعة وبدون توقف، لو فقط أستطيع الذهاب في رحلات دائماً، فبدا كأني سأصل إلى الكون الذي في هذا الكتاب، تألق الحياة

الجديدة الذي شعرت به داخلي، موجود في مكانٍ ما بعيد، في أرض يصعب الوصول إليها، ولكني أحس أن طالما أنا قادر على الحركة فأنا أقترب أكثر، ويمكنني على الأقل أن أترك حياتي القديمة وراء ظهري.

عندما وصلت إلى الشاطىء، كنت مندهشاً من أن البحر يبدو شديد السواد. لماذا لم ألحظ من قبل أن بحر «مرمرة» شديد السواد، شديد الصرامة والقسوة في الليل؟ شعرت كما لو كانت الأشياء تتحدث بلغة ما، بدأت أسمعها ـ ولو حتى في صورة صمت مادي، جذبني إليه الكتاب. للحظة شعرت بوزن البحر المتمايل بخفة مثل ضوء موتي غير المبرر الذي شعرت به أثناء قراءتي للكتاب، ولكن هذا لم يكن إحساس بـ «أن النهاية قد أتت» نتج عن الموت الحقيقي؛ ولكنه كان أكثر منه فضول وإثارة لشخص ما يبدأ حياة جديدة وهذا الإحساس حرّكني.

مشيت جيئة وذهاباً على الشاطىء، كنت قد اعتدت أن آتي إلى هنا مع أطفال الحي لكي ننظر ونتفحص الأشياء التي يرسلها البحر إلى الشاطىء مثل علب الصفيح، الكرات البلاستيكية، الزجاجات، الأحذية الخفيفة، المصابيح، الدمى البلاستيكية، كنا نبحث عن شيء، تميمة سحرية جاءت من كنز ما، أداة لامعة جديدة، لا نعرف كيف نبدأ في استخدامها. وللحظة شعرت أنني إذا ما تفحصت واكتشفت أحد هذه الأشياء من هذا العالم القديم ـ من وجهة نظري التي وضحت بواسطة الكتاب ـ فمن الممكن لهذا الشيء أن يتحول إلى القطعة السحرية التي يبحث عنها الأطفال دائماً. وفي ذات الوقت كنت محاطاً بشعور بأن هذا الكتاب قد عزلني عن العالم، واعتقدت أن البحر المظلم سوف يهيج فجأة ويسحبني لداخله ويبتلعني،

كنت محاطاً بالقلق وأخذت أمشي بسرعة ليس من أجل رصد العالم الجديد وهو يتحقق مع كل خطوة أتخذها، ولكن لأكون وحدي مع الكتاب في غرفتي في أقرب وقت ممكن. فكنت تقريباً أجري، بالفعل أرى نفسي كشخص خُلق من الضوء المنبعث من الكتاب، مما جعلني أهدأ.

كان لوالدي صديق حميم في مثل سنه، وكان يعمل في السكك الحديدية التابعة للحكومة لسنوات عديدة حتى تمت ترقيته إلى منصب مفتش، وكان يكتب مقالات في مجلة لمحبي السكك الحديدية. وإلى جانب هذا، كتب قصصاً مصورة للأطفال، وكانت هناك مرات كثيرة كنت أجري إلى البيت لكي أنغمس في قراءة إحدى هذه القصص المصورة مثل «بيتر وبرتف»، أو «كامر يزور أمريكا»، التي أعطاها لي العم «رفقي». ولكن قصص الأطفال هذه كانت دائماً ما تصل إلى النهاية، ويُكتب في الصفحة الأخيرة كلمة «النهاية»، تماماً مثل الأفلام. فقراءة هذه الحروف السبعة لا تصل بي فقط إلى نقطة الخروج من البلاد التي أردت البقاء فيها، ولكنها تجعلني على وعي مؤلم ـ مرة أخرى ـ بأن هذه المملكة السحرية هي فقط مكان إبداع العم «رفقي».. رجل السكة الحديد.

وعلى النقيض فإن كل شيء في الكتاب ـ الذي أردت قراءته ثانية ـ حقيقي، ولهذا حملت الكتاب بداخلي، ولم تبد الشوارع المبللة التي اجتزتها حقيقية ولكنها بدت كجزء من واجب منزلي ممل، كُلفت به كعقاب، وهكذا بدا لي ـ بعد كل هذا ـ أن الكتاب كشف لي معنى وجودي.

عبرت طريق السكة الحديد، واقتربت من المسجد وكنت

على وشك أن أخطو في بركة وحل فقفزت متفادياً إياها، فانزلقت قدمي ثم تعثرت فوقعت أرضاً على إحدى ركبتي على الرصيف المليء بالوحل. فرفعت نفسي لكي أقف فوراً وكنت على وشك المضي في طريقي. وإذا برجل عجوز ملتح رآني وأنا أنزلق وأقع قال لي: «لقد وقعت وقعة سيئة، يا إلهي، هل تأذيت؟» فقلت له: «نعم. فلقد مات والدي بالأمس، وقمنا بدفنه اليوم، ولقد كان رجلاً سيئاً وسكيراً. يضرب أمي ولا يريد أن يرانا حوله. ولقد عشت كل هذه السنوت في «فيران باج».

«فيران باج»! من أين أتيت بمدينة بهذا الاسم؟ ربما صدّق الرجل العجوز أكاذيبي، ولكن للحظة قصيرة أقنعت نفسي بأنني كنت واثقاً جداً من مهارتي، ولم أستطع الإجابة على إذا ما كنت أنا الذي أختلق هذه الأكاذيب، أم هو الكتاب، أم أن وجه العجوز المليء بالدهشة هو الذي حثّني على الكذب. ولكني أخذت أقول لنفسي: «لا تخف أبداً، لا تخف. فالعالم الذي في الكتاب حقيقي». ولكني كنت خائفاً. لماذا؟

لقد سمعت عن آخرين قرأوا كتاباً فقط لكي تتحطم حياتهم إلى أجزاء صغيرة. فلقد قرأت تقريراً عن شخص قرأ كتاباً يسمى «المبادىء الأساسية للفلسفة»، ونظراً لاتفاقه مع الكتاب ـ الذي قرأه في ليلة واحدة ـ انضم إلى حركة الحماية التقدمية الثورية للبروليتاريا في اليوم التالي مباشرة، فقط لكي يتم القبض عليه بعد ثلاثة أيام وهو يسرق مصرفاً، وانتهى الأمر به بتمضية عشر سنوات في السجن. وعرفت أيضاً عن هؤلاء الذين سهروا على قراءة كتب ـ لليلة كاملة ـ مثل «الإسلام والقيم الجديدة» أو «خيانة الغرب» وبعد ذلك تركوا الحانة وذهبوا إلى المسجد، يجلسون

على الأبسطة المرشوشة بماء الورد، وبدأوا في التحضير للحياة الأخرى التي يتوقعونها بعد خمسين عاماً أخرى. حتى أنني التقيت بشخص ما تأثر بكتب تحمل عناوين مثل «الحب يحررك» أو «اعرف نفسك»، وبالرغم من أن هؤلاء الناس من النوع الذي يؤمن بالنجوم والأبراج، فإنهم أيضاً بإمكانهم القول بصدق: «هذا الكتاب قد غيّر حياتي بين ليلة وضحاها».

في الواقع، لم يكن الشيء المخيف في عقلي هو التغيرات الشديدة في هذه السيناريوهات، كنت خائفاً من الانعزال، كنت خائفاً من الأشياء التي يمكن لأحمق مثلي أن تنتهي به الأمور لفعلها. مثل الفهم الخاطىء للكتاب، أن أكون سطحياً أو ـ كما هو الحال ـ غير سطحي، أو أن أكون مختلفاً، غارقاً في الحب، أن أكون على دراية بألغاز الكون وأبدو سخيفاً وأنا أقضي حياتي كلها أشرح هذا اللغز لهؤلاء الذين ليس لديهم أي اهتمام، أو أن أذهب إلى السجن باعتباري شخصاً ذا أفكار غريبة ومجنونة وأفهم أخيراً أن العالم أشد قسوة مما كنت أتخيل، وكوني عاجزاً عن جعل الفتيات الجميلات يقعن في حبي. لو كانت محتويات هذا الكتاب حقيقية، لو كانت الحياة حتماً كما قرأت في الكتاب، لو كان عالم مثل هذا ممكن، إذاً فمن المستحيل فهم لماذا يحتاج الناس إلى الصلاة، لماذا يقضون حياتهم في المقاهي يثرثرون أو لماذا يضطرون إلى الجلوس أمام التليفزيون في المساء لكي لا يموتوا مللاً، غير راغبين في غلق الستائر على الدوام، فقط لكي يشاهدوا ما قد يحدث في حالة حدوث شيء نصف ممتع في الشارع مثل مرور سيارة مسرعة، صهيل حصان أو سكير يتمايل.

لا أستطيع أن أحدِّد كم من الوقت مضى قبل أن أدرك أنني

أقف أمام عمارة العم «رفقي» وأنظر محدقاً لأعلى إلى شقته بالطابق الثاني عبر الستائر نصف مفتوحة. وربما أدركتُ ذلك بدون إدراكي له وكنت أقف غريزياً أرسل له تحياتي في ليلة ميلاد حياتي الجديدة. وكانت هناك أمنية غريبة في عقلي، لقد أردت أن ألقي نظرة مقربة على الأشياء التي رأيتها في منزله عندما قمنا أنا وأبي بزيارته آخر مرة: عصافير الكناريا في القفص، البارومتر المعلّق على الحائط، الإطارات المتقنة لصور قطارات السكة الحديد، عربات السكة الحديد الصغيرة، طبق الحلوى الفضي، خرامة التذاكر الخاصة بالمحصل، ميداليات خدمة السكة الحديد تحتل نصف واجهة العرض والنصف الآخر يوجد به حوالي أربعين أو خمسين كتاباً، وأعلى هذه الواجهة يوجد براد شاي «ساموفار» غير مستعمل، وأوراق اللعب على المنضدة.

موجة من الإصرار اجتاحتني فجأة من مكان مجهول، دفعتني إلى أن أقف أعلى الحائط حول الفناء وأن أرى ليس فقط جهاز التليفزيون الذي تشاهده العمة «راتيب» أرملة العم «رفقي» ولكن أيضاً أردت أن أرى رأسها، كانت جالسة على الكرسي المريح لزوجها الراحل، بزاوية ميل 45 درجة ناحية التليفزيون وقد انكمش رأسها بين كتفيها، تماماً مثلما تفعل أمي حينما تشاهد التليفزيون، ولكن بدلاً من ممارسة الحياكة، كانت هذه تدخن كالمدخنة.

لقد مات «ريلمان رفقي» قبل والدي بعام، حيث مات والدي إثر نوبة قلبية العام الماضي، أما العم «رفقي» فلم تكن وفاته طبقاً لأسباب طبيعية. في هذا المساء كان في طريقه إلى المقهى ـ كما يبدو ـ حيث أُطلق عليه النار وقُتل، ولم يتم القبض على القاتل قط، وقيل بعض الكلام عن غيرة جنسية، والذي لم

يصدق أبي حرفاً منه خلال السنة الأخيرة من حياته، ولم ينجب هذا الزوج ـ العم رفقي وزوجته ـ أي أطفال.

بعد منتصف الليل، بعد أن ذهبت أمي إلى النوم بوقت طويل، جلست بلا حراك على المنضدة محدقاً في الكتاب القابع بين مرفقيّ وبدأت ـ تدريجياً وبحماسة من كل قلبي ـ أخرج من عقلي كل شيء يعرّف هذه المنطقة على أنها خاصتي ـ الأضواء التي تنطفىء في المنطقة كلها وفي المدينة، حزن الشوارع الخالية المبللة بالماء، نداء بائع البوظة وهو يدور مرة أخيرة حول المبنى، صياح مبكر لزوج من الغربان، صوت القطار الصبور على القضبان بعد مرور آخر قطار بفترة طويلة ـ وسلمت نفسي كلياً للضوء المنبعث من الكتاب، وهكذا فإن كل الأشياء التي شكّلت وأسّست حياتي وتوقعاتي ـ الخروج للغداء، الأفلام، زملاء الدراسة والصحف اليومية، المياه الغازية ومباريات كرة القدم، المقاعد والمعدية، الفتيات الجميلات، الأحلام السعيدة، حبيبتي المستقبلية، زوجتي، مكتب العمل، الصباح والإفطار، تذاكر الحافلات، الاهتمامات التافهة، واجب الإحصاء الذي لم ينته، سروالي القديم، وجهي وبيجامتي، الليل، المجلات التي أثارتني، سجائري، حتى سريري المخلص الذي استقبلني لأكثر الغفلات التي كنت أحتاجها ـ كلها تسربت من عقلي تماماً.

ووجدت نفسي أتجول في أرض من نور.

الفصل الثاني

لقد وقعت في الحب في اليوم التالي، كان الحب مدمراً تماماً كالضوء المنبعث من الكتاب على وجهي، مثبتاً لي كيف حادت حياتي كليَّة عن الطريق. بمجرد أن استيقظت في الصباح، استرجعت كل ما حدث لي في اليوم السابق، وعرفت في الحال أن المملكة الجديدة التي ظهرت أمامي لم تكن مجرد حلم يقظة مؤقت، ولكنها حقيقية مثل جسدي وأطرافي، إيجاد آخرين من الذين كانوا في نفس الورطة مثلي كان بمثابة ضرورة قصوى، لكي أنقذ نفسي من الشعور بالوحدة غير المحتمل الذي داهمني في العالم الجديد الذي علقت به.

تساقط الجليد أثناء الليل، وتجمّع على حواف النوافذ، وفي الممرات والأسطح. في الضوء الأبيض البارد القادم من الخارج بدأ الكتاب المفتوح على المنضدة هزيلاً وأكثر براءة مما كان عليه، مما أعطاه طابعاً مشؤوماً. وبالرغم من ذلك نجحت في تناول الإفطار مع أمي كالعادة، وأن أشم رائحة الخبز المحمص، تصفحت الطبعة الصباحية لجريدة «ميليت» وألقيت نظرة على عمود «جلال سليق» كما لو كان كل شيء طبيعياً، تناولت بعض الجبن وابتسمت في وجه أمي الحنون، أصوات الفناجين، الملاعق وبراد الشاي، ضوضاء شاحنة الموالح في الشارع كان يخبرني أن أثق في التدفق الطبيعي للحياة، ولكني لم

أُخدع. فعندما خطوت إلى الخارج كنت متأكداً أن العالم تغيّر كلياً، حتى أنني لم أكن محرجاً من ارتدائي للمعطف البالي وغير المريح لوالدي المتوفى، سرت إلى المحطة وركبت الترام، ثم نزلت من الترام وركبت المعدية، ونزلت عند «كاراكوي» وشققت طريقي صاعداً السلالم، ثم صعدت إلى الحافلة ووصلت إلى ميدان «تاكسيم» في طريقي إلى الجامعة. ثم توقفت قليلاً وشاهدت بعض الغجر يبيعون الأزهار على الأرصفة. كيف يمكنني الوثوق بأن الحياة ستستمر كما كانت في الماضي؟ أو أنسى أنني قرأت هذا الكتاب يوماً؟ للحظة بدا المشهد أمامي مرعباً جداً لدرجة أنني شعرت برغبة في الهرب.

في محاضرة عن ضغط الميكانيكا، دوّنت المخطط بجدية، الأرقام والمعادلات المكتوبة على السبورة السوداء. عندما لم يكن الأستاذ ـ ذو الرأس الأصلع ـ يكتب شيئاً على السبورة كنت أعقد ذراعيّ أمام صدري وأستمع إلى صوته العذب. هل كنت أستمع فعلاً؟ أم أتظاهر فقط بالإنصات مثل كل الحاضرين، لاعباً دوري كطالب في قسم الهندسة المدنية في جامعة التقنية؟ لم أستطع أن أجد إجابة، ولكن بعد برهة، عندما شعرت أن العالم القديم المألوف بلا أمل بشكل غير محتمل، أخذ قلبي ينبض بسرعة، وأخذ رأسي يسبح كما لو كان هناك مخدر يسري خلال عروقي، وكنت أشعر بالإثارة بسبب القوة التي تنبعث من الكتاب وتنتشر تدريجياً من مركزها في عنقي لتسري عبر جسدي بالكامل. لقد أبطل العالم الجديد كل الوجود وحوّل الحاضر إلى ماض. فالأشياء التي رأيتها ولمستها كانت بالية بشكل مثير للشفقة.

عندما وقعت عيناي على الكتاب لأول مرة ـ قبل ذلك

بيومين ـ كان في يدي فتاة من قسم الهندسة المعمارية، كانت تشتري شيئاً من الكانتين في الطابق الأسفل، واحتاجت أن تخرج محفظتها، ولأنها كانت تحمل شيئاً آخر بيدها الأخرى، فلم تكن قادرة على التفتيش في حقيبتها. وكان الشيء الذي في يدها الأخرى كتاباً ـ ولكي تحرِّر يدها ـ كانت مجبرة على وضع الكتاب جانباً على المنضدة للحظة حيث كنت جالساً، حدقت في الكتاب الموضوع على منضدتي للحظة، وكان هذا كل شيء عن المصادفة التي غيّرت حياتي. وفي طريقي إلى البيت هذا المساء، عندما رأيت نسخة منه بين المجلدات والكتيبات، بين دواوين الشعر وكتب التنبوءات، وقصص الحب والكتب السياسية التي تُباع على الرصيف، قمت بشراء الكتاب.

هرع معظم الطلاب ـ في اللحظة التي قرع فيها جرس الظهيرة ـ صاعدين السلالم لكي يقفوا في صف الكافيتريا، ولكني جلست فقط هناك على مقعدي. ثم قمت بالتجول في القاعات. . . ذهبت إلى الكانتين. . . . مررت عبر الملاعب. . . تسكعت بجانب المعارض ذوات الأعمدة. . . . دخلت إلى فصول خاوية، ونظرت عبر النوافذ لأرى الأشجار التي رقد عليها الثلج في الجراج عبر الشارع، شربت بعض المياه من دورة المياه، مشيت ومشيت، صعوداً ونزولاً حول قاعة «تاسكيسلا». لم أر الفتاة في أي مكان ولكني لم أكن قلقاً.

بعد ساعة الظهيرة، أصبحت الممرات أكثر ازدحاماً، مشيت في الطرقات عبر مدرسة الهندسة المعمارية، دخلت إلى ورش الرسم، وشاهدت ألعاب العملات تُلعب على المناضد، فجلست في زاوية وجمعت جريدة كانت واقعة مبعثرة على

الأرض وقرأتها، ذهبت إلى الطرقات مرة أخرى، صعدت وهبطت السلالم، استمعت إلى محادثات عن كرة القدم، السياسة، وما كان على الشاشة ليلة أمس. انضممت إلى مجموعة تسخر من قرار نجمة سينمائية بإنجاب طفل، فعرضت عليهم سجائري وقداحتي، وكان أحدهم يقول نكتة فاستمعت إليه، ثم ماذا بعد. بينما كنت أفعل كل هذا، كنت أيضاً أجيب بطريقة حسنة على كل من يستوقفني ويسألني إذا ما كنت رأيت كذا أو كذا، الآونة التي لم أتمكن فيها من أن أجد مجموعة من الأصدقاء لأمرح معهم، أو لم أجد نوافذ لأنظر منها، أو مسافات لأمشيها، كنت أمشي بسرعة وبإصرار شديد في اتجاه أو آخر كما لو كان هناك شيء مهم في عقلي وأنني في عجلة من أمري. ولكن طالما أنه لا هدف معين لدي، فهل أجد نفسي أمام مدخل المكتبة، أو صاعداً السلالم، أو أركض إلى شخص طلب مني سيجارة. قمت بتغيير اتجاهي، ألتحم بالحشد أو أقف لكي أشعل سيجارتي. كنت على وشك أن ألقي نظرة على إعلان علّق حديثاً في لوحة الإعلانات، حيث أخذ قلبي يخفق ثم هوى وتركني بلا مساعدة. كانت هناك ـ الفتاة التي سبق أن رأيت الكتاب في يدها ـ تبتعد عني في الزحام ولكنها كانت تبتعد ببطء شديد كما في الأحلام، وبدت ـ لسبب ما ـ تدعوني إليها. فقدت عقلي، فلم أعد أنا نفسي، وعرفت هذا لحظتها فسمحت لنفسي أن أتبعها.

كانت ترتدي فستاناً شاحباً وليس أبيض، كانت ألوان الظلال فاتحة فلم أستطع تمييز لونها، لحقت بها قبل أن تصل إلى السلالم، وحين ألقيت نظرة عليها من قريب، كان إشعاع وجهها قوياً، تماماً مثل الضوء الذي ينبعث من الكتاب ولكنه أكثر لطفاً

بكثير. كنت في هذا العالم، أتنفس على عتبة الحياة الجديدة، كلما نظرت إلى هالة نور وجهها، كلما فهمت أن قلبي لن يحمل لي أي اعتبار بعد الآن.

أخبرتها أنني قد قرأت الكتاب، وأنني قرأته بعدما رأيته في يدها، وأنه كان لي عالماً قبل أن أقرأ الكتاب ولكن الآن بعد أن قرأته أصبح لي عالم آخر. وقلت لها: إننا يجب أن نتحدث، عن أنني تُركت وحدي كلية. فقالت: «عندي محاضرة الآن».

هوى قلبي بين قدميّ. فربما خمّنت الفتاة ارتباكي، وفكرت فيما قلت للحظة. ثم اتخذت القرار وقالت: «وهو كذلك، لنبحث عن حجرة غير مشغولة ونتحدث».

وجدنا فصلاً في الطابق الثاني غير مستخدم. تعثرت ساقاي وأنا أمشي، لم أستطع إدراك كيف سأخبرها بأنني على وعي بالعالم الذي وعدني به الكتاب، على اعتبار أن الكتاب همس لي، متحدثاً بحرية كما لو كان يبوح بسر. قالت الفتاة إن اسمها «جنان» وأخبرتها باسمي.

سألتني: «لماذا أنت مشدود للكتاب هكذا؟»

جاءتني رغبة مفاجأة أن أقول لها لأنك قرأته يا ملاكي، ولكن كيف جاءتني هذه الكلمة «ملاكي» بأي حال؟ كان عقلي في تشتت. عقلي دائماً ما يتشتت يا ملاكي، ولكن هل من الممكن أن يساعدني شخص ما؟

قلت لها: «لقد تغيّرت حياتي كلها بعد قراءة هذا الكتاب. الغرفة، المنزل، العالم الذي عشت فيه توقّف عن كونه ملكي، جعلني أشعر بأنني بلا مأوى. لقد رأيت الكتاب أولاً بين يديك، إذاً فلقد قرأتِهِ حتماً، أخبريني عن العالم الذي سافرت إليه

ورجعت، أخبريني ماذا أفعل لأضع قدمي في هذا العالم. أعطني تفسيراً لماذا نحن ما زلنا هنا. قولي لي كيف يمكن للعالم الجديد أن يكون مألوفاً كبيتي بينما بيتي غريب كأنه عالم جديد».

من يدري كم من الوقت كنت لأستمر على هذه الوتيرة وبأدق التفاصيل، ولكن عيني بدت للحظة عاشية، كان ضوء ثلج الشتاء واضحاً جداً ومتواصلاً في فترة الظهيرة في الخارج، حتى أن نوافذ الفصل الصغير ـ المفعم بالطباشير ـ بدت وكأنها صُنعت من ثلج. نظرت ناحيتها، خائفاً من أن أنظر في وجهها.

سألتني: «ماذا أنت فاعل لكي تصل إلى العالم الذي في الكتاب»؟

كان وجهها شاحباً، ولون شعرها بنياً فاتحاً، ونظراتها لطيفة؛ لو كانت من هذا العالم، فلقد بدت أنها مرسومة من الذاكرة؛ ولو كانت قادمة من المستقبل فهي رمز الخوف والحزن، نظرت إليها دون أن أعي أنني أنظر، كما لو كنت خائفاً من النظر إليها بشدة فيتحول الموقف إلى حقيقة.

قلت لها: «أنا على استعداد أن أفعل أي شيء».

فنظرت إليّ بلطف، ظهر شبح ابتسامة على شفتيها، كيف يجب أن تتصرف عندما تنظر إليك فتاة ساحرة وذات جمال غير عادي بهذا الشكل؟ كيف تمسك أعواد الثقاب وتشعل سيجارة، كيف تنظر من النافذة، تتحدث إليها، تواجهها، تتنفس؟ إنهم لا يدرسون هذه الأشياء في الفصول قط. الأشخاص أمثالي يتلوون ألماً دون جدوى، محاولين إخفاء خفقان قلوبهم.

فسألتني: «ماذا تعني بأي شيء؟»

قلت: «كل شيء». ثم غرقت في الصمت، مصغياً إلى

ضربات قلبي. لا أدري لماذا ولكن جاءتني فجأة صورة لرحلات طويلة تبدو بلا نهاية، طوفان من الخرافات والأساطير، متاهات وشوارع تختفي، أشجار حزينة، أنهار موحلة، حدائق، بلاد. لو كنت سأصبح مؤمناً بها في يوم ما، فيجب أن أخاطر بهذه الأماكن.

ـ «هل ستكون راغباً في مواجهة الموت على سبيل المثال؟»

ـ «نعم سأكون».

ـ «حتى لو عرفت أن هناك أشخاصاً يمكن أن يقتلوك لأنك قرأت الكتاب؟»

حاولت أن أبتسم، وسمعت طالب الهندسة بداخلي يقول: إنه مجرد كتاب، بالرغم من كل شيء، ولكن جنان كانت تراقبني بكل انتباهها، وفكرت بشك أنني لن أحظى بمكان مقرب منها أو من العالم الموجود في الكتاب إذا ما كنت مبالياً وقلت شيئاً خطأ.

قلت وأنا أتقمص دور شخصية ما لا أعرف لها اسماً: «لا أعتقد أن شخصاً ما سيقتلني أو أي شيء من هذا القبيل. ولكن حتى لو كانت هذه هي القضية، فلن أكون ـ حقاً ـ خائفاً من الموت».

لمعت عيناها العسليتان للحظة خاطفة في الضوء الأبيض الباهت الذي تسلّل إلى الغرفة. «هل تعتقد أن هذا العالم موجود فعلاً؟ أم أنه مجرد خيال جاء في حلم وتمت كتابته في كتاب؟» قلت: «هذا العالم يجب أن يوجد. فأنتِ جميلة جداً لأعرف أنك قادمة من هناك».

أخذت خطوتين سريعتين في اتجاهي، وأمسكت برأسي بين يديها، ورفعت نفسها لأعلى ثم قبلتني في شفتي. تلكأ لسانها في

فمي لفترة قصيرة، تراجعت للخلف لتدعني أضمّ جسدها المرن على طول ذراعي. قالت لي: «أنت شجاع جداً».

شممت رائحة عطر ما، وخطوت في اتجاهها كما لو كنت ثملاً. مرّ من أمام القاعة طالبان صاخبان.

قالت جنان: «انتظر دقيقة واستمع إليّ من فضلك، يجب أن تخبر «محمداً» بكل شيء قلته لي. لقد ذهب بالفعل إلى العالم الذي في الكتاب ونجح في أن يعود. لقد جاء مرة أخرى من هناك، وهو يعرف، هل تفهم؟ ولكنه لا يؤمن بأن هناك آخرين يمكنهم أن يصلوا إلى هناك. لقد عاش خلال أشياء رهيبة وفقد إيمانه، فهل تتحدث إليه؟».

- «ومن هو محمد؟».

- «كن أمام حجرة رقم 201 خلال عشر دقائق، قبل بداية الدرس».

قالت ذلك ثم خرجت فجأة من الباب واختفت. أصبحت الغرفة خالية تماماً، كما لو كنت غير موجود أيضاً، ووقفت هناك مذهولاً، لم يقبلني أحد هكذا من قبل، ولم ينظر لي أحد هكذا، والآن تُركت وحدي. كنت خائفاً، أفكر في أنني لن أراها مجدداً، ولن أكون قادراً على الاعتماد على نفسي مجدداً، أردت أن أجري وراءها، ولكن قلبي كان يخفق بسرعة حتى أنني كنت خائفاً من أن أتنفس. لقد غشى الضوء الأبيض الناصع ليس فقط عينيّ ولكن أيضاً عقلي، كل هذا بسبب الكتاب، قلت لنفسي هذا وفوراً عرفت أنني أحب الكتاب وأريد أن أتواجد في عالمه، أريد هذا بشدة لدرجة أنني اعتقدت للحظة أن الدموع سوف تنفجر من عينيّ. لقد كان وجود الكتاب هو الذي يجعلني أستمر وأعرف

بطريقة ما أن الفتاة سوف تحتضنني مرة أخرى بالتأكيد، ولكن الآن شعرت أن العالم كله قد توقف وتركني.

سمعت صوتاً ما، فنظرت لأسفل فشاهدت جماعة من طلاب هندسة البناء (المعمار) يقذفون بعضهم البعض بكرات من الثلج بالقرب من حافة المنتزه. فشاهدتهم دون أن أتذكر ما كنت أرى، فلم يعد بداخلي أي شيء من أحاسيس طفل. لقد تخطيت هذه المرحلة.

إن هذا يحدث لكل منا، ففي يوم ما، يوم عادي، عندما نتخيل أننا نقوم بجولاتنا الروتينية في العالم حاملين بقايا التذاكر وأعقاب التبغ في جيوبنا، رؤوسنا مليئة بموضوعات الأخبار، ضوضاء الزحام، الأحداث المزعجة، وندرك فجأة أننا بالفعل في مكان آخر، وأننا لسنا في المكان الذي أخذتنا إليه أقدامنا. لقد تخطيت هذا منذ وقت طويل. لقد ذبت في لون أكثر شحوباً من اللون الشاحب الذي صنعه الثلج حيث كنت أقف وراء زجاج النافذة. إذا ما هبطت إلى الأرض أو أي نوع من الواقع، فيجب أن تجد فتاة، هذه الفتاة، تتمسك بها وتفوز بحبها. ما أسرع قلبي في تعلم كل هذا الهراء! لقد وقعت في الحب. لقد سلمت نفسي إلى أعمق وأقصى حدود قلبي. نظرت إلى ساعة يدي، بقيت ثماني دقائق لأذهب.

مشيت كالشبح في الطرقات عالية الأسقف، واعياً بشكل غريب بجسدي، بحياتي، بوجهي وبقصتي. هل ألتقيها صدفة في الزحام؟ ولو صادفتها، فماذا أقول؟ ماذا كان شكل وجهي؟ لا أستطيع أن أتذكر، ذهبت إلى دورة المياه بجوار درجات السلم، وضعت فمي على صنبور المياه وشربت، نظرت إلى المرآة لأرى

فمي الذي تمّ تقبيله منذ وقت قصير. أمي، لقد وقعت في الحب، إنني أنزلق، أمي، إني خائف ولكني سأفعل أي شيء من أجلها، سأسأل جنان من هو محمد على أي حال؟ لماذا هو خائف؟ أنا لا أهاب شيئاً. لو أن أحداً فهم الكتاب وآمن به ـ كما فعلت أنا ـ فمن الطبيعي ألا يخاف من أي شيء.

عدت إلى الزحام، ووجدت نفسي مجدداً أمشي بسرعة كما لو كان لدي عمل مهم، صعدت إلى الدور الثاني ومشيت بجانب النوافذ المرتفعة التي تطل على نافورة الفناء، مشيت ومشيت، تاركاً نفسي خلفي، أفكر في جنان مع كل خطوة، مررت بجانب زملائي في الفصل الذين اجتمعوا لحضور الدرس التالي. خمنوا ماذا حدث! منذ فترة قصيرة قبلتني فتاة جذابة جداً وكيف! كانت ساقاي تأخذاني بسلاسة إلى قدري، قدر يشتمل على غابات مظلمة، غرف في فنادق، أشباح أرجوانية وزرقاء اللون، حياة، وسلام، وموت.

عندما بلغت الحجرة رقم 201 قبل ثلاث دقائق من بداية الدرس، رأيت محمد وسط الزحام في القاعة حتى من قبل أن أرى جنان تقف بالقرب منه، كان شاحباً طويلاً ونحيلاً مثلي، حزيناً، شارداً، ومنهكاً. كانت لدي ذكرى غامضة بأني رأيته من قبل في صحبة جنان. هو يعرف أكثر مني، وخمنت أنه أكبر سناً بسنتين تقريباً. كيف عرف من أنا، لا أستطيع القول، ولكنه أخذني جانباً، خلف الدواليب.

ـ «سمعت أنك قرأت الكتاب، ماذا فيه من أجلك؟».

ـ «حياة جديدة».

ـ «هل تصدق ذلك».

ـ «نعم أصدق».

بشرته كانت منهكة جداً لدرجة جعلتني أخاف من الأشياء التي مرّ بها حتماً. قال لي: «انظر، استمع إليّ، لقد ذهبت من أجل هذا أيضاً، اعتقدت أنني قادر على إيجاد هذا العالم، كنت دائماً راكباً في حافلة ذاهباً إلى مكان ما، ذاهباً من مدينة إلى أخرى، معتقداً أنني سوف أجد هذه الأرض، هؤلاء الناس، هذه الشوارع بعينها. صدقني في النهاية لا يوجد شيء إلّا الموت. فهم يقتلون دون رحمة، ومن الممكن أن يكونوا يراقبوننا الآن». قالت جنان: «لا تُثِر خوفه الآن».

أطبق الصوت، ونظر محمد إليّ للحظة كما لو كان يعرفني منذ سنوات. وشعرت أنني خذلته.

قلت وأنا أنظر إلى جنان: «أنا لست خائفاً»، ثم أضفت بطريقة شخصيات الأفلام، تلك الشخصيات التي تلعب دور القوي: «أنا قادر على المضي قدماً حتى النهاية». كان جسد «جنان» الرائع على بعد خطوات قليلة مني، بيني وبين «محمد»، ولكنه كان أقرب إليه.

قال «محمد»: «لا يوجد شيء لتمضي فيه قدماً حتى النهاية، إنه مجرد كتاب. جلس أحدهم وكتبه. كالحلم، لا يوجد شيء تفعله سوى قراءته وإعادة قراءته فحسب.

قالت لي جنان: «أخبره بما أخبرتني به».

قلت: «هذا العالم موجود». وتمنيت أن أمسك بجنان من ذراعها الطويلة الرشيقة وأسحبها ناحيتي. توقفت ثم قلت: «سوف أجد هذا العالم».

قال محمد: «عالم من هراء، هذا العالم لا وجود له. فكّر

في الأمر كما لو كان تصرفاً أحمق اقترف في حق الأطفال من قبل شخص كبير مخدوع، اعتقد الرجل الكبير أنه سيكتب كتاباً لتسلية الراشدين بنفس الطريقة التي اتبعها مع الأطفال. ومن المشكوك فيه أن يكون هو نفسه قد فهم ما يعنيه. فهذه القراءة للتسلية ولكن لو أنك صدقتها، فحياتك ضائعة».

«هناك عالم كامل هناك». قلت مثل الرجال الأقوياء ـ ولكن الأغبياء ـ في السينما: «وأنا أعرف أني سوف أجد سبيلاً لأصل إليه».

«في هذه الحالة، محاولات سعيدة. . . . . .» واستدار مبتعداً، ونظر إلى جنان نظرة من طراز (ألم أخبرك بهذا)، وكان على وشك المغادرة عندما توقف وسأل: «ما الذي جعلك متأكداً جداً من وجود هذه الحياة؟».

ـ «لأنه جاءني انطباع أن الكتاب يحكي قصة حياتي». فابتسم بود ومشى مبتعداً.

قلت لجنان: «لا تغادري، هل هو حبيبك؟» قالت: «لقد أعجبته حقاً، ليس لأجله ولكن لأجلك. فهو يخاف على الأشخاص أمثالك».

«هل هو حبيبك؟ لا ترحلي قبل إخباري بكل شيء».

قالت: «هو يحتاج إليّ».

لقد سمعت هذه الكلمات كثيراً في الأفلام حتى أنني دعمت جوابي المتحمس بالتلقائية واليقين وقلت: «لو تركتني أموت».

ضحكت وانضمَّت إلى الطلاب المتزاحمين في الحجرة

201، للحظة جاءتني نزوة بأن ألحق بها وأجلس. عندما نظرت إلى حجرة الدرس من النوافذ الطويلة في الرواق، رأيتهما جالسين على مقعد وجداه ليجلسا معاً ـ بين الطلاب الآخرين الذين يلبسون المعاطف الكاكية والثياب الباهتة والجينز الأزرق، كانا ينتظران الدرس بدون حديث، عندما دفعت جنان بشعرها البني الفاتح بلطف خلف أذنها، جاعلة قطعة أخرى من قلبي تذوب. على النقيض من كيفية وصف الحب في الأفلام، فلقد شعرت أنني بائس ـ أكثر من مجرد بائس ـ يتبع قدميه حيثما تقودانه.

ماذا كنت تعتقد أنني أكون؟ ما لون الحوائط في بيتها؟ عن أي شيء تتحدث هي وأبوها؟ هل حمامهم يلمع من النظافة؟ هل لديها إخوة وأخوات؟ ماذا تتناول على الإفطار؟ هل هما حبيبان؟ وفي هذه الحالة ما الذي جعلها تقبّلني بهذا الشكل؟

كانت حجرة الدرس الصغيرة حيث قبلتني فارغة. لقد رجعت إلى هناك كجيش مهزوم يتوقع بإخلاص ـ وبرغم كل شيء ـ حدوث معركة جديدة، خطوات أقدامي أحدثت صدى في الحجرة الفارغة، قامت يداي البائستان الملومتان بفتح علبة سجائر، رائحة الطباشير، الضوء الأبيض المصنوع من ثلج ـ ضغطت بجبهتي على زجاج النافذة. هل هذه هي الحياة الجديدة التي رأيت نفسي فيها في بداية هذا الصباح؟ كنت مرهقاً من كل ما حدث داخل عقلي، ولكن ما زال طالب الهندسة الذي بداخلي مشغولاً في ركن ما، يقوم بحساباته: كنت في حالة لا تسمح لي بحضور درسي، إذاً سوف أنتظرهم إلى أن ينتهوا خلال ساعتين. ساعتين!

ضغطت جبهتي إلى زجاج النافذة البارد، لا أدري لكم من

الوقت، ولكني كنت مليئاً بشعور من رثاء الذات؛ لقد أحببت التمرغ في رثاء الذات واعتقدت أن الدموع ستنهمر من عينيّ عندما بدأت بلورات الثلج تنجرف تحت وطأة الرياح، خلف الشارع المنحدر الذي يؤدي إلى «دولما بهسي»، استطعت أن أرى شجر الدّلب وشجر الكستناء. ما أصلبها! الأشجار لا تعرف أنها أشجار، فكرت في ذلك. غادرت الطيور الأغصان المغطاة بالثلج. راقبتها بإعجاب.

راقبت بلورات الثلج التي تتساقط في تجمعات لطيفة، تتلكأ بلا قرار لتلاحق مثيلاتها، غير قادرة على اتخاذ أي قرار عندما تهب رياح خفيفة وترسلهم بعيداً، وأحياناً تتأرجح نتفة ثلج وحيدة في الهواء للحظة ثم تقف، وكأنها غيَّرت رأيها، ثم تدور وتبدأ في الارتفاع ببطء باتجاه السماء. ولاحظتُ أن كثيراً من نتف الثلج تعود إلى السماء قبل أن تستطيع الهبوط في الوحل، في الحقيقة، أو على الرصيف أو على الأشجار. هل يعرف أحد ذلك؟ هل لاحظه أحد؟

هل لاحظ أحد من قبل أن النقطة الحادة للمثلث المتكوّن عند التقاطع ـ والذي يبدو كجزء من الحديقة ـ يشير إلى «برج ليندر»؟ هل لاحظ أحد أن أشجار الصنوبر ـ التي تحت تأثير رياح الشرق لكل هذه الأعوام ـ مالت على الرصيف في تناسق مثالي مشكّلة مظلة ثمانية الشكل فوق محطة «الميني باص»؟ عندما شاهدت الرجل الذي يحمل في يده كيساً من البلاستيك ورديّ اللون ويقف على الرصيف تساءلت إذا كان أي أحد قد أدرك أن نصف سكان اسطنبول يتجولون حاملين أكياساً بلاستيكية. غير واع تماماً بهويتك، تساءلت إذا كان شخص ما قد رأى آثار

أقدامك ـ يا ملاكي ـ في الآثار المتروكة من قِبل الكلاب الجائعة وجامعي القمامة على الجليد والرماد الذي يغطي حدائق المدن الميتة. هل هكذا أرى العالم الجديد، الذي انكشف لي كسر في هذا الكتاب الذي اشتريته من على الرصيف منذ يومين؟

كان قلبي ـ وليس عيناي ـ هو من شعر بوجود جنان في الضوء الرمادي والجليد العميق على نفس الرصيف، كانت ترتدي معطفاً بنفسجياً، وبجانبها محمد مرتدياً سترة رمادية ويمشي على الجليد كروح شريرة لا تترك آثاراً، جاءتني رغبة ملحّة في أن أركض وراءهما.

توقفا ليتحدثا في نفس البقعة حيث كان بائع الكتب موجوداً منذ يومين. تأذت جنان وتراجعت عن موقفها، مصاحبة لإشاراتهما العامة دلت على أنهما ـ بالإضافة إلى الكلام ـ يتشاجران وكأنهما زوج من العشاق كبار السن اعتادا الشجار.

ثم بدءا يمشيان مجدداً فقط ليتوقفا ثانية، كنت على مسافة بعيدة ولكني ما زلت أستطيع أن أستنتج من لغة جسديهما والنظرات التي يوجهها الناس لهما، أنهما كانا يتشاجران بعنف أكثر الآن.

ولم يستمر هذا الوضع كثيراً، فلقد استدارت «جنان» وبدأت تبتعد عائدة إلى المبنى حيث كنت، بينما يتبعها «محمد» بعينيه قبل أن يستمر في طريقه باتجاه ميدان «تاكسيم». وهوى قلبي بين قدمي، كان هذا عندما رأيت الرجل الذي يقف عند محطة «الميني باص» يعبر الشارع، حاملاً الكيس البلاستيكي الوردي اللون. مركزاً اهتمامي حيث كانت عيناي على القوام الرشيق المغطى بالمعطف البنفسجيّ، كانوا في حالة لا تسمح

لهم بملاحظة شخص ما يعبر الشارع، ولكن كان هناك شيء ما خطأً في تصرفات هذا الرجل. على بعد بضع خطوات من أحجار الرصيف سحب الرجل ـ مسدساً ـ من الكيس الورديّ. ووجهه إلى محمد، الذي رأى المسدس أيضاً.

في البداية رأيت محمد يصاب بالطلقة وينتفض، ثم بعد ذلك سمعت الطلقة الثانية وتوقعت أن أسمع الثالثة بعدها. تعثر محمد ثم وقع، أسقط الرجل كيسه البلاستيكي وقصد الحديقة.

كانت جنان ما زالت تقترب، خطواتها المجروحة رقيقة كخطوات طائر صغير، لم تكن قد سمعت طلقات المسدس، مرّت شاحنة مليئة بالبرتقال المغطى بالثلج محدثة جلبة في التقاطع، كما لو كان العالم قد رجعت له الحركة من جديد، لاحظت بعض الاضطراب عند محطة «الميني باص»، كان محمد يحاول الوقوف، على مسافة كان الرجل يجري دون الكيس البلاستيكي أسفل التل باتجاه استاد «إينونيو»، يجري هارباً عبر الثلج في الحديقة مثل مهرج مُصرّ على تسلية الأطفال، وفي صحبته زوج من الكلاب المرحة.

كان يجب عليّ أن أركض نازلاً السلالم لأقابل جنان في منتصف الطريق وأخبرها بما حدث، ولكني كنت مشدوداً إلى رؤية محمد وهو يتمايل وينظر حوله في تشويش. لكم من الوقت؟ لفترة، فترة طويلة، حتى انعطفت جنان حول ناصية «تاسكيسلا» واختفت من مجال نظري.

ركضت هابطاً السلالم واندفعت بسرعة ماراً بجماعة من رجال الشرطة في ثياب مدنية، طلاب، وحراس يقفون في الجوار. عندما وصلت إلى المدخل الرئيسي، لم تكن جنان في

أي مكان. بسرعة صعدت إلى أعلى ولكني لم أرها هنا أيضاً. ثم جريت إلى التقاطع وما زلت لا أرى أي شيء أو أي شخص له علاقة بالمشهد الذي رأيته لتوي، لم يكن هناك أي أثر لمحمد أو للكيس البلاستيكي الذي تخلص منه الرجل ذو المسدس في أي مكان، كان الثلج حيث وقع محمد قد ذاب وتحول إلى وحل. مرّ طفل عمره سنتان يرتدي قبعة مع أمه الجذابة حسنة المظهر.

قال الطفل: «ماما، أين ذهب الأرنب؟ أين يا أمي؟».

ركضت في جنون عبر الشارع باتجاه محطة «الميني باص». بدا العالم مرة أخرى يرتدي صمت الجليد ولا مبالاة الأشجار، اندهش اثنان من سائقي الحافلات ـ يبدوان متشابهين تماماً ـ من استفساراتي، ولم يكن عندهما أية فكرة عما أتحدث عنه. والأكثر من ذلك، أن صاحبهما ـ ذا المظهر الجاف الذي يحضّر لهما الشاي ـ لم يسمع أيضاً أي طلقات مسدس، بالإضافة إلى أن لا شيء على الإطلاق يثير دهشته، كان المشرف في المحطة ممسكاً بصفارته، محدقاً فيّ كما لو كنت المجرم الذي ضغط الزناد، وتجمعت الطيور السوداء على شجرة الصنوبر فوق رأسي. حشرت نفسي في «الميني باص» في آخر لحظة قبل أن يغادر المحطة وطرحت أسئلتي بقلق.

«رجل وامرأة شابان استدعيا سيارة أجرة هناك ورحلا، كان هذا من فترة قصيرة». قالت هذه الجملة سيدة عجوز، وأشارت بإصبعها نحو ميدان «تاكسيم». وكنت أعرف أن ما أفعله ليس من العقل في شيء ولكني ما زلت أجري في هذا الاتجاه. فكرت في أني وحدي في هذا العالم وسط البائعين والمركبات، والمحال التي حول الميدان، كنت على وشك التوجه إلى «بيوجلي» عندما

تذكرت مستشفى العناية بالطوارىء، فذهبت مسرعاً إلى شارع «سيراسيلفيلر» وعبرت مدخل الطوارىء وسط رائحة المخدر والمطهر كما لو كنت ـ أنا نفسي ـ في حالة صدمة عصبية.

رأيت رجالاً يرقدون في بركة من الدماء، سراويلهم ممزقة وثنيتها السفلية ملفوفة لأعلى، رأيت وجوهاً زرقاء لضحايا التسمم والقرحة المعدية الذين تمّ إجراء غسيل معدة لهم، وتمّ وضعهم على النقالات وتركهم في الثلج خلف النباتات لكي يتنفسوا الهواء النقي، أرشدت رجلاً عجوزاً، سميناً وقصيراً ولكنه لطيف، إلى الطريق، كان يبحث عن الطبيب المناوب من باب إلى باب، كل هذا وهو ممسك بقوة بقطعة من القماش حوّلها إلى ضمادة لذراعه ليتجنب النزيف حتى الموت، رأيت اثنين من الأصدقاء القدامى اللذين ـ بعد أن طعنا بعضهما البعض بنفس السكين ـ كانا الآن يعطيان أوراقهما بأدب ويعتذران للضابط الذي قبض عليهما لأنهما فشلا في تذكر إحضار السكين ـ أداة الجريمة، انتظرت دوري ثم علمت من الممرضات أولاً ثم من الشرطة فيما بعد، أنه لم يظهر أي طالب ـ في هذا اليوم ـ يعاني من طلق ناري وتصحبه فتاة ذات شعر بني فاتح.

توقفت أيضاً عند مستشفى «بيوجلي المحلية»، حيث جاءني انطباع أنني رأيت نفس الأصدقاء الذين طعنوا بعضهما البعض، نفس الفتيات المنتحرات اللاتي قررن شرب المطهر، نفس الممتهنين الذين انحشر ذراعهم في الآلات أو أصيب أصبعهم تحت الإبرة، نفس الركاب الذين تحطمت أجسادهم بين الحافلة والمحطة، أو بين الرصيف والمعدية، تفحصت تقارير الشرطة بعناية، وقمت بعمل وثيقة رسمية من أجل رجل شرطة أصبح

مرتاباً في ما يريبني. وفي الطابق العلوي في قسم الولادة كنت خائفاً من أن تنفجر عيناي بالدموع عندما أشمّ رائحة العطر الذي يسكبه أب جديد مسرور في أيدينا بسخاء.

كان الظلام يحلّ عندما رجعت إلى مسرح الجريمة، تجولت بين الحافلات الصغيرة وسلكت طريقي عبر الحديقة الصغيرة؛ حيث تمرّ الغربان بغضب فوق رأسي ـ في البداية ـ ثم أخذت تراقبني وهي تتسلل عبر الأغصان. من المحتمل أنني كنت في ذروة حياة المدينة، ولكني سمعت صمتاً مطبقاً في أذني كما لو كنت قاتلاً طعن شخصاً ما وتوارى عن الأنظار. على بُعد رأيت ضوءاً أصفر باهتاً في الحجرة الصغيرة حيث قبلتني جنان، وافترضت أن هناك درساً قائماً الآن، نفس الأشجار التي أربكني حزنها في هذا الصباح الباكر، تحوّلت الآن إلى كومة خرقاء من اللحاء.

مشيت على الثلج بحذائي، أتتبع آثار أقدام الرجل ذي الحقيبة البلاستيكية الضائعة، الذي كان ـ منذ أربع ساعات مضت ـ يثب ويتزحلق في طريقه عبر الثلج كمهرج رائق البال، ولكي أتأكد من أن آثار أقدامه كانت هناك حقاً، ظللت أتبع أثره طوال الطريق وصولاً إلى الطريق السريع، ثم استدرت راجعاً، وأثناء رجوعي لاحظت أن آثار أقدامي وآثار أقدام هذا الرجل ـ ذي الحقيبة البلاستيكية المفقودة ـ متطابقة ولا يمكن فصلها. ظهر في التو كلبان ـ لونهما أسود ـ من بين الشجيرات يبدوان مذنبين تماماً كما أبدو أنا، فقط لكي أرتعب وأهرب، توقفت للحظة وحدّقت في السماء التي كانت سوداء كالكلبين.

تناولت أنا وأمي العشاء أمام التليفزيون. نشرة الأخبار،

الوجوه التي تظهر على الشاشة، أعداد جرائم القتل، الحوادث، الحرائق، والاغتيالات كلها بدت بعيدة بالنسبة إليّ كالأمواج العاصفة على جزء صغير من محيط يمكن رؤيته من بين الجبال. وبالرغم من ذلك، الرغبة في أن أكون «هناك»، أن أكون جزءاً من هذا المحيط الكئيب على هذه المسافة ظلت تتحرك بداخلي، الصور تتراقص على شاشة التليفزيون الأبيض والأسود، الذي لم يكن الهوائي الخالص به مثبتاً بطريقة صحيحة، ولكن لم يتم التنويه عن طالب تمّ إطلاق النار عليه.

حبست نفسي في غرفتي بعد العشاء وكان الكتاب مفتوحاً تماماً كما تركته على المنضدة، تماماً كما. . . . كنت خائفاً منه. كانت هناك قوة وحشية في استدعاءات الكتاب لي لكي أعود وأترك نفسي بإخلاص ـ من كل قلبي ـ له. بالتفكير في أني لن أكون قادراً على مقاومة هذا النداء، نزلت هارباً إلى الشوارع مرة أخرى ومشيت في الثلج والوحل على طول الطريق إلى البحر مرة أخرى. ظلمة المياه أعطتني قلباً قوياً.

جلست إلى المنضدة وأنا منشرح، كما لو كنت أسلم جسدي لمهمة مقدسة، عرضت وجهي للضوء المنبعث من الكتاب، لم يكن الضوء قوياً جداً في البداية، ولكن عندما بدأت أقلّب الصفحات وصل الضوء إلى داخلي بعمق شديد حتى أنني أحسست بكياني كله يهتز، ورغبة مُلحة لكي أحيا وأجري تتحرك بنفاد صبر وحيوية في تجويف صدري، وأخذت أقرأ حتى الفجر.

الفصل الثالث

قضيت الأيام القليلة التالية في البحث عن جنان. لم تكن في المدرسة في اليوم التالي، ولا اليوم الذي يليه أو الذي يليه. في البداية بدا غيابها مبرراً، واعتقدت أنها سريعاً ما ستكون هناك، ولكن كما كان وضع العالم القديم ينسحب تدريجياً من تحت قدمي، كنت مرهقاً من البحث، المشاهدة والتأمل، فقد كنت غارقاً في الحب من أخمص قدمي إلى أعلى رأسي، والأكثر أنني ظللت أقرأ خلال الليل وتحت تأثير الكتاب شعرت أنني وحيد كلياً، وكنت واعياً تماماً ـ وبألم ـ أن هذا العالم متوقف على سلسلة من الإشارات التي يُساء تفسيرها وخليط متغلغل من العادات غير العنصرية، وأن هذه الحياة الحقيقية تقع في مكان ما إما في الخارج أو الداخل، إنما حتماً في مكان ما داخل هذه الحدود، وأصبحت أدرك أن ملاكي الحارس لا يمكن أن يكون أحداً غير جنان.

تصفحت الجرائد اليومية، الملحقات المحلية، والمجلات الأسبوعية حيث الاغتيالات السياسية، جرائم القتل العادية التي ارتكبت تحت التأثير، الحوادث المروعة، والحرائق التي كُتبت بكل التفاصيل. ولكني لم أصادف أي مفتاح لهذا اللغز. بعد قراءة الكتاب طوال الليل، وصلت إلى «تاسكيسلا» عند الظهيرة، على أمل أن أجري إليها في حالة ظهورها. مشيت بتثاقل في

الطرقات، أنظر بين الحين والآخر إلى «الكانتين»، أصعد وأهبط السلالم، أتفحص الملعب، أذرع المكتبة، أمرّ عبر الأعمدة، وأتوقف أمام الحجرة حيث قبّلتني. حولت انتباهي بالذهاب إلى فصل أينما استطعت استجماع صبري، فقط لأعيد الكرّة من جديد، مجدداً ومجدداً، البحث والانتظار وقراءة الكتاب طوال الليل هو كل ما أستطيع فعله.

بعد مضي أسبوع على ذلك، حاولت أن أدخل في دائرة معارف جنان، بالرغم من أنني افترضت أن ليس لها أصدقاء كثيرون، سواء هي أو محمد، اثنان من زملائهما في الفصل عرفا أن محمداً يعيش في فندق قريب من «تاكسيم» حيث يقوم بعمل مكتبي بجانب وظيفته كحارس ليلي، ولكن لا أحد عنده فكرة لماذا لم يظهر محمد في المدرسة. كشفت لي فتاة عدوانية ـ كانت تذهب مع جنان إلى المدرسة الثانوية، ولكنها لم تكن صديقتها يوماً ـ أن جنان تسكن في مكان ما في «نيسانتاسي». واحدة أخرى ـ قالت إنهما قضيا الليل مرة يضعان خططاً معاً لينتهيا من المشروع قبل الوقت المحدد ـ أخبرتني أن جنان لها أخ لطيف ووسيم يعمل في مجال عمل والده، ولكنها بدت مهتمة بأخيها أكثر من اهتمامها بجنان، لم أحصل على العنوان من خلالها ولكن عن طريق إخبار مكتب الاستعلامات أنني أنوي إرسال بطاقة تهنئة بمناسبة العام الجديد لكل زملائي.

قرأت الكتاب خلال الليل كله، حتى طلوع النهار حينما تعبت عيناي وقلّت قوة تحملي من قلة النوم. أثناء قراءتي كان الضوء الذي ينعكس على وجهي يبدو أحياناً قوياً متألقاً جداً، ففكرت أن ليس فقط روحي ولكن جسدي أيضاً يذوب وهويتي

تتحطم في الضوء المنبعث من الصفحات. ثم تخيلت أن الضوء يتسع ببطء ليشملني داخله، في البداية كان مثل ضوء يتسرب من شرخ في الأرض، ثم يصبح قوياً أكثر فأكثر وينتشر ليشمل العالم كله حيث مكاني أيضاً. للحظة حلمت بهذا العالم الجديد الجسور: مملكة فيها الأشجار الخالدة والمدن المفقودة التي أستطيع بالكاد رؤيتها، حيث أقابل جنان في الشارع وتحتضنني.

بقي مساء واحد على نهاية ديسمبر/كانون الأول، وذهبت أخيراً إلى حي جنان في «نيسانتاسي». مشيت لوقت طويل بلا هدف في الشارع الرئيسي؛ حيث كانت هناك امرأة حسنة المظهر تقوم بالتسوق مع أطفالها في المتاجر المزينة بالأضواء بمناسبة العام الجديد، تفحصت واجهات محلات الطعام الحديثة، بائعي الجرائد، محال الكيك الفرنسي، ومتاجر الملابس.

كان ذلك عندما خفّ الزحام وبدأت المحال في إغلاق أبوابها، قرعت جرس باب إحدى شقق المباني خلف الشارع الرئيسي. فتحت خادمة الباب، فقلت لها إنني واحد من زملاء جنان، فدخلت الخادمة وكان التليفزيون مفتوحاً على حديث سياسي، سمعت همساً، جاء والدها إلى الباب ـ وهو رجل طويل يرتدي قميصاً أبيض ويحمل فوطة مائدة ناصعة البياض في يديه. دعاني للدخول، كانت الأم ـ التي رسمت على وجهها علامات التساؤل ـ والأخ حسن المظهر والطلعة يجلسان إلى مائدة العشاء حيث كان الكرسي الرابع فارغاً. أما الأخبار فكانت ما يدور في التليفزيون. أخبرتهم أنني زميل جنان من مدرسة الهندسة المعمارية، وأنها لا تذهب إلى المدرسة وكل أصدقائها يشعرون بالقلق عليها، وبعض منا اتصلوا ولكن لم يتلقوا إجابات مرضية.

إلى جانب أن معها واجب الإحصاء غير المكتمل وأنا أحتاجه وأعتذر لاضطراري للسؤال عليه واسترجاعه، كان معطف والدي الباهت اللون معلقاً على ذراعي الأيسر، من المؤكد أنني بدوت كذئب سيىء الطباع متخفٍ في فراء شاحب.

«تبدو شاباً لطيفاً»، قالها والد جنان كبداية، ثم أخبرني أنه سيكون صريحاً، وأنه يريدني أن أجيب عن أسئلته في المقابل. هل لدي أي انتماء سياسي؟ هل أنا يميني أم يساري، متزمت أم اشتراكي؟ لا، حسناً. هل أنا منضم إلى أية منظمة سرية خارج الجامعة؟ لا، أنا لست منضماً إلى أية منظمة.

كانت هناك فترة من الصمت. ارتفع حاجبا الأم في تأييد وتعاطف، انحرفت عينا الأب ـ العسلية اللون كعيون جنان ـ إلى شاشة التليفزيون وتجولت للحظة في أرض الأحلام، ثم عادت مرة أخرى إليّ بقرار حاسم.

جنان تركت المنزل، اختفت. حسناً، ربما كان الاختفاء ليس بالكلمة الصحيحة. فهي تتصل بالمنزل كل يوم تقريباً من مكان ما بعيد، إذا كان لثبات خط التليفون أي دلالة، فهذا يخبرهم بألا يقلقوا، فهي بخير متجاهلة استجوابات أبيها الملحة وتوسلات أمها فهي ترفض قول أي شيء أكثر وتغلق الخط. وتصوراً لهذا الموقف، فإنهم كانوا منصفين في ارتيابهم في أن ابنتهم تُستغل من قبل منظمة سياسية لتقوم بعمل قذر. لقد أخذوا في الاعتبار الذهاب إلى الشرطة، ولكنهم توقفوا لأنهم على ثقة في ذكاء ابنتهم ومقتنعين أنها تستطيع دائماً إخراج نفسها من أي مأزق. أما الأم ـ التي أجرت جرداً على مظهري بدءاً من شعري نزولاً إلى حذائي، حتى تذكار والدي

(معطفه) الذي تركته معلقاً على ظهر الكرسي الشاغر ـ طلبت مني بصوت مليء بالدموع أن أتكلم إذا ما كنت أعرف أي شيء يمكن أن يلقي الضوء على الموقف.

أبديت اندهاشاً على وجهي وقلت إنه لا فكرة لدي، سيدتي، لا فكرة على الإطلاق. للحظة كنا جميعاً مأخوذين بالتحديق في طبق كبير من «بوريك» وسلطة الجزر المبشور على المائدة، اعتذر الأخ حسن الطلعة الذي كان يدخل ويخرج من الحجرة، موضحاً أنه لم يستطع إيجاد كشكول واجباتي غير المكتمل فلمّحت بأنني أستطيع تحديد موقعه في حجرة جنان بنفسي، ولكن بدلاً من إرشادي إلى حجرة نوم ابنتهم المفقودة، أشاروا لي بلا اهتمام إلى مكانها الخالي على مائدة الطعام، كنت عاشقاً ذا كبرياء، فرفضت، ولكن رؤية صورتها ذات الإطار على البيانو عندما هممت بالمغادرة، جعلتني أندم على قراري، كانت الصورة لجنان وهي في التاسعة من عمرها وشعرها في جديلتين على جانبي رأسها، وكانت ترتدي زي الملاك الذي كان ـ كما أعتقد ـ لمسرحية مدرسية، والذي اقتبست تفاصيله حتى الجناحين الصغيرين من الغرب، وتقف بين والديها وتبتسم بخفة من خلال ملامح الوجه الحزينة الخاصة بالطفولة.

كم كان الليل عدائياً ومريراً في الخارج! كم كانت الشوارع كئيبة بلا رحمة! أدركت لماذا تحشر الكلاب الضالة نفسها في بعضها البعض بكل هذا الحرص في الشوارع، أيقظت أمي بحنان، التي غلبها النعاس أمام التليفزيون، ألمس عنقها الشاحب وأشم رائحتها، وأتمنى أن تحتضنني. ولكن بمجرد أن دخلت إلى حجرتي شعرت بكل شيء بقوة أكثر بأن حياتي الحقيقية سوف تبدأ.

في هذه الليلة قرأت الكتاب مرة أخرى، أستسلم له، وأتوسل لكي أتحطم. قرأته بإعجاب، مملكات جديدة، مخلوقات جديدة، وصور جديدة ظهرت أمامي، تراءت لي سحب من نار، محيطات من ظلام، أشجار بنفسجية، أمواج قرمزية. ثم كما يحدث في الصباح في الربيع عندما تشرق الشمس في بعض الأحيان فوراً بعد سقوط الأمطار فجأة رأيت في مقابل اقترابي الواثق المتفائل الانسحاب من المباني السكنية الكريهة، ممرات ملعونة، نوافذ خربة، الصور الفوضوية في عيني وعقلي اتضحت، وأصبح الحب واضحاً في هالة رائعة من اللون الأبيض، تحمل طفلاً بين ذراعيها، كان هذا الطفل هو الفتاة التي رأيت صورتها في الإطار على البيانو.

نظرت الفتاة إليّ وهي تبتسم، ربما كانت على وشك قول شيء ما، أو ربما كانت قد تكلمت بالفعل ولكني لم أكن قادراً على سماعها، شعرت بأني غير ناجح، كنت على اتفاق أليم مع صوت داخلي يخبرني أنني لن أكون قط جزءاً من هذه الصورة الجميلة، وطغى عليّ شعور بالندم، ثم لاحظت لخوفي العميق كلاهما يرتفع، متصاعدان في أسلوب غير معتاد، ثم يختفيان.

أيقظت هذه التخيلات رعباً في داخلي حتى أنني فعلت تماماً كما في اليوم الأول عندما قرأت الكتاب، حركت وجهي بعيداً بخوف كما لو كنت أهرب من الضوء الذي انبعث من الصفحات. كنت متألماً لرؤية جسدي هنا، في هذه الحياة الأخرى، متروكاً بلا حياة في صمت حجرتي، السلام الذي توفره منضدتي، ثبات ذراعي ويدي، متعلقاتي، علبة سجائري، مقصي، كتبي الدراسية، الستائر، سريري.

تمنيت أن جسدي ـ الذي كان شاعراً بي من خلال دفئه ونبضه ـ من الممكن أن يتنازل عن هذا العالم، إنما في الوقت نفسه كنت على وعي بأن سماع هذه الأصوات من المبنى، الصياح البعيد لبائع «البوظة»، والسهر ليلاً لقراءة كتاب كانت مظاهر مقبولة لكوني موجوداً داخل هذه اللحظة، استمعت فقط إلى أصوات السيارات البعيدة، نباح الكلاب، النسيم الخفيف، اثنين يتحدثان في الشارع (يقول أحدهما، لقد جاء الغد بالفعل)، وصخب واحد من هذه القطارات المخيفة التي تغلبت فجأة على كل الأصوات التي في الليل. بعد فترة طويلة، عندما بدأ كل شيء يختفي تحت تأثير الصمت المطبق، ظُهر سبح أمام عينيّ، وفهمت كيف أن الكتاب تشعب بعمق في روحي. عندما عرضت وجهي مرة أخرى للضوء المنبعث من الكتاب الراقد مفتوحاً على المنضدة أمامي، كان الأمر كما لو كانت روحي صفحة بيضاء نقية من كراسة. من المؤكد أنه هكذا تمّ بث محتويات الكتاب داخل روحي.

ذهبت وفتحت درجاً وسحبت منه كراسة حقيقية، ذات مربعات للرسم البياني والخرائط، كنت قد اشتريتها لمادة الإحصاء منذ أسابيع قبل أن يجيء الكتاب في طريقي ولكني لم أكن قد استخدمتها بعد. قلبت أول صفحة واستنشقت رائحتها النظيفة البيضاء، أخرجت قلمي الحبر وبدأت أكتب كل ما أضافه الكتاب لي، جملة. . . . جملة، في الكراسة. بعد كتابة كل جملة من الكتاب، كنت أذهب إلى الجملة التالية ثم التي تليها. وعندما يبدأ الكتاب فقرة جديدة، أبدأ أنا أيضاً فقرة جديدة، وأدركت بعد فترة أنني كتبت بالضبط نفس الفقرة كما هي في الكتاب. كيف أعدت تحريك كل شيء أضافه الكتاب لي، فقرة بعد فقرة، ولكن

بعد فترة رفعت رأسي لأتفحص الكتاب ثم الكراسة. لقد كتبت بالفعل ما كان في الكراسة، ولكن المحتوى كان مثل ما في الكتاب بالضبط، كنت مسروراً جداً بهذا لدرجة أني بدأت أكرّر نفس العملية كل ليلة حتى أولى ساعات النهار.

لم أعد أحضر محاضراتي. أجوب الطرقات مثل شخص هارب من روحه، ليس لدي غالباً أدنى اهتمام بأين أو متى تُعقد المحاضرات، ولا أسمح لنفسي بلحظة سلام، طفت بالكانتين، ثم بالمكتبة، الفصول، فقط لأنتهي مجدداً في الكانتين، وكل مرة ألاحظ أن جنان لم تكن موجودة في أي من هذه الأماكن يتملكني ألم عميق في أحشائي يجعلني أعاني بشدة.

عندما مرّ الوقت، أصبحت معتاداً على هذا الألم ونجحت في التعايش معه و ـ إلى حد ما ـ إبعاده عني. ربما كان المشي بسرعة فائقة أو التدخين يساعد ولكن الأكثر حسماً كان إيجاد طرق صغيرة لشغل نفسي، مثل قصة يحكيها شخص ما، قلم الرسم البنفسجي الجديد، هشاشة الأشجار التي أراها من النافذة، وجه جديد أراه صدفة في الشارع، كل هذه الأشياء كان بإمكانها أن تريحني ـ حتى ولو لفترة قصيرة ـ من الإحساس بألم الغضب والوحدة الذي يشعّ من معدتي لكل جسمي. حين أذهب إلى مكان ما حيث يمكنني مصادفة جنان ـ مثل الكانتين ـ فإنني لا أستهلك كل الاحتمالات في التو بتفحص المكان بتعجل، لكني أنظر أولاً إلى ركن حيث تتحدث بعض الفتيات المدخنات اللائي يرتدين الجينز الأزرق ـ وفي نفس الوقت ـ أتخيل أن جنان تجلس في مكان ما ورائي مباشرة، وكنت أبدأ في تصديق هذه التخيلات كلياً حتى أنني أكره الالتفات والنظر للوراء خوفاً من أن تختفي،

وبدلاً من ذلك، أقضي وقتي أتفحص الفراغ بين هؤلاء الطلاب الذين يقفون أمام خزينة الكانتين وهؤلاء الجالسين إلى المنضدة حيث كانت جنان ـ منذ وقت ليس بطويل ـ تضع الكتاب أرضاً أمامي، وبذلك أكسب لحظات إضافية قليلة من السعادة في دفء وجود جنان الذي يتحرك من خلفي بخفة، وأنتهي بتصديق الرؤى أكثر من ذي قبل. ولكن ـ عندما أدير رأسي ولا أرى جنان ولا علامة من حضورها حولي في أي مكان ـ هذه الرؤية التي تسري في عروقي كمادة حلوة تتحول إلى سم يحرق معدتي.

لقد قرأت وسمعت مرات كثيرة أن الحب هو معاناة عذبة، كان هذا أثناء الفترة حينما كان كثيراً ما يقع في طريقي هذا النوع من الهراء، غالباً في كتب عن قراءة الكف، أو في صفحات البيت وأسلوب المعيشة في المجلات ـ بجوار قراءة الطالع، وصور السلطات، ووصفات كريمات الوجه، بسبب الألم الفظيع في معدتي، الوحدة والغيرة اليائسة التي شعرت بها قد فصلتني بالكامل عن البشرية وجعلتني بلا أمل على الإطلاق لدرجة أنني رجعت ليس فقط إلى علم الفلك وحب الراحة، ولكن أيضاً إلى الإيمان الأعمى بعلامات معينة مثل: إذا كان عدد الدرجات التي تقود لأعلى فردي، إذاً فجنان في الطابق العلوي؛ لو كان أول شخص يخرج من الباب أنثى، فهذا يعني أنني سأرى جنان في هذا اليوم؛ إذا رحل القطار عندما أنتهي من العد لسبعة، فسوف تجدني وستتحدث؛ إذا كنت أول شخص ينزل من المعدية، فاليوم هو يوم مجيئها.

كنت أول شخص ينزل من المعدية، لم أخطُ على شقوق الرصيف، أحصيت بطريقة صحيحة وكان عدد أغطية الزجاجات

التي على أرض المقهى عدداً فردياً. تناولت الشاي مع عامل لحام متدرب يرتدي سترة بنفسجية اللون تتماشى مع معطف طويل، كنت محظوظاً حتى أكون قادراً على إيجاد حروف اسمها من الحروف التي على لوحات أرقام أول خمس سيارات أجرة صادفتها، نجحت في الذهاب من طرف ممر «كاراكوي» تحت الأرض إلى الطرف الآخر وأنا كاتم أنفاسي. عددت إلى الرقم تسعة آلاف من دون أن أتحرك من مكاني بينما أحدق في نافذة منزل أسرة جنان في «نيسانتاسي». ابتعدت عن أصدقائي غير المدركين أن اسمها لا يعني فقط «توأم الروح» ولكنه أيضاً يدل على (يمثل) الإله. آخذاً الإلهام من حقيقة أن بين اسمينا سجعاً، فقمت بطبع دعوات زفافنا في خيالي، وقمت بتجميلها بكلمات مسجوعة ذكية مثل التي تأتي مع حلوى الكراميل من نوع «حياة جديدة». نجحت في توقع عدد النوافذ المضاءة التي ظللت أعدها لمدة أسبوع كامل في الثالثة صباحاً، بدون أن أتخطى حد الخطأ بنسبة خمسة في المائة، تلك النسبة التي سمحت لنفسي بها، رددت بيت الشعر الشهير للشاعر «فوزيلي»: «جنان يوك إس جان جيركمز» على مسمع تسعة وثلاثين شخصاً، جابراً إياهم على فهم تفسيري: «لو أن توأم الروح غائب فلا حاجة للروح ذاتها: «اتصلت بها وسألت عنها تحت ثمانٍ وعشرين هيئة مختلفة، مستخدماً في كل مرة نبرة صوت مختلفة، ولم أكن لأذهب إلى البيت قبل أن أردد اسم جنان تسعاً وثلاثين مرة، مكوناً اسمها في خيالي من الأحرف التي أستخرجها من لوحات الإعلانات، الملصقات، اللافتات ذات أضواء النيون، في واجهات عرض الصيدليات محلات الكباب واليانصيب. وما زالت جنان لم تأت بعد.

كنت عائداً إلى البيت في منتصف ليلة ما، وكنت قد فزت بصبر في ألعاب الحظ والأرقام التي لعبتها ـ لأضاعف مكسبي أو أخسر كل شيء ـ والتي قربت جنان مني قليلاً في أجمل أحلامي، عندما لاحظت أن الأضواء مضاءة في غرفتي. إما أن تكون أمي قلقة لأني تأخرت، أو أنها كانت تبحث عن شيء، ولكن ظهرت في عقلي صورة مختلفة تماماً.

تخيلت نفسي جالساً إلى المنضدة، في غرفتي بالأعلى حيث شاهدت الأضواء. تخيلتها بعاطفة وقوة إرادة حتى أنني ظننت أني أستطيع تقريباً أن أرى ـ للحظة قصيرة ـ رأسي في وهج ضوء مصباحي البرتقالي الواهي، في مواجهة الجزء الصغير من الحائط الأبيض المتسخ الذي كان مرئياً بالكاد من بين الستائر الثقيلة المفتوحة. في نفس اللحظة، أعلن شعور مذهل من الحرية عن نفسه في صورة الإحساس المثير الذي اختبرته حتى أنني كنت مندهشاً. لقد كان الأمر بسيطاً على الدوام، قلت لنفسي: الرجل الذي رأيته في الحجرة بعينيّ رجل آخر يجب أن يظل هناك في هذه الحجرة، أما أنا ـ من ناحية أخرى ـ فيجب أن أهرب من البيت، من الحجرة، أهرب من كل شيء، بما في ذلك رائحة أمي، سريري، سنوات عمري الاثني والعشرين التي عشتها. حياة جديدة يمكن أن تبدأ بمجرد مغادرتي لهذه الحجرة؛ فلو أنني سأظل أترك هذه الحجرة في الصباح فقط لكي أعود إليها في الليل، فلن أستطيع أن أصل إلى جنان ولا لهذه الأرض.

عندما دخلت إلى حجرتي، نظرت إلى سريري كما لو كنت أرى متعلقات شخص آخر، الكتب التي تكوّمت في ركن واحد من منضدتي، المجلات الخليعة التي لم أمسّها منذ رأيت جنان،

علبة السجائر التي تجف على المدفأة، العملات المعدنية التي أحتفظ بها في طبق، سلسلة مفاتيحي، دولابي الذي لم ينغلق بطريقة صحيحة؛ وبالنظر لكل أشيائي التي تربطني بعالمي القديم، وفهمت أنه يجب عليّ أن أنجح في الهرب.

فيما بعد، عندما كنت أقرأ وأنقل الكتاب، شعرت أن ما كنت أكتبه يشير إلى اتجاه معين في هذا العالم. فيبدو أنني لا يجب أن أكون في مكان واحد ولكن في كل مكان وفي نفس التوقيت، كانت غرفتي في مكان ما، وكان هذا مكاناً واحداً، لم تكن في كل مكان. سألت نفسي: «لماذا أذهب إلى تاسكيسلا في الصباح، عندما لن تكون جنان هناك؟» كانت هناك أماكن أخرى لم تكن جنان فيها أيضاً، أماكن كنت أذهب إليها بلا جدوى ولكني لن أذهب إليها بعد الآن، سوف أذهب فقط حيث يأخذني النص، حيث يجب أن تكون جنان والحياة الجديدة. أثناء ما أنا أكتب كل ما أضافه الكتاب، تحركت داخلي تدريجياً معرفة الأماكن التي يجب عليّ الذهاب إليها، وكنت راضياً أنني أصبح تدريجياً شخصاً آخر. بعد ذلك بكثير، عندما كنت أراجع الصفحات التي ملأتها مثل رحالة راضياً عما حقّقه من تقدم، استطعت أن أرى بوضوح الإنسان الجديد الذي كنت أتحول إليه.

كنت أنا الشخص الذي وجه نفسه على الطريق المؤدي إلى الحياة الجديدة التي وجدها عن طريق الجلوس وكتابة الكتاب جملة... جملة ونقله إلى كرّاسته، كنت الشخص الذي قرأ كتاباً غيّر حياته كلها، وقع في الحب، وجاءه شعور بأنه يتقدم في الطريق إلى حياة جديدة، كنت الشخص الذي طرقت أمه باب حجرته وقالت: «أنت تجلس طوال الليل تكتب، ولكن على

الأقل لا تدخن من فضلك». كنت أنا الشخص الذي قام من على المنضدة بعد ساعة الصفر في الليل عندما لم يكن مسموعاً في الناحية إلّا أصوات عواء الكلاب من على بُعد، وألقى نظرة أخيرة على الكتاب الذي قضى ليالي طويلة في استذكاره والصفحات التي ملأها تحت تأثيره، كنت الشخص الذي أخرج مدخراته من درج جواربه ـ ودون أن يطفىء أضواء حجرته ـ ووقف عند باب حجرة نوم أمه يستمع بحب إلى صوت تنفسها، كان هذا الشخص هو أنا ـ يا ملاكي ـ الذي تسلل من منزله بعد منتصف الليل مثل غريب هلوع وامتزج بظلمة الشوارع، كنت الشخص الذي على الرصيف، عيناه مثبتتان على نوافذ حجرته المضاءة كما لو كان يتأمل بالدموع والرثاء حياة شخص آخر ضعيفة وواهية، كنت أنا الذي أجري إلى حياتي الجديدة بحماس، مستمعاً إلى أصداء وقع أقدامي في صمت الليل.

كان الضوء الوحيد الذي ما زال مضاءً في الحي هو الوهج الباهت في نوافذ منزل العم رفقي رجل السكة الحديد. وفي لحظة كنت أقف عند حائط الحديقة وأنظر بين الستائر غير المغلقة تماماً لأرى تحت الضوء الواهي زوجته، العمة «راتيب»، وهي تجلس وتدخن. في إحدى قصص العم رفقي للأطفال، كان هناك بطل جسور ـ مثلي ـ لجأ إلى الشوارع الحزينة لطفولته في البحث عن أرض الذهب، مستمعاً إلى نداء الأماكن الغامضة، صخب البلاد البعيدة، وصوت هدير في الأشجار التي ظلت غير مرئية. مرتدياً على ظهري المعطف الذي تركه لي والدي الراحل الذي أقيل على المعاش من هيئة السكك الحديد، مشيت في قلب الظلام.

قام الليل بإخفائي، حفظني وأرشدني إلى الطريق. توجهت

إلى الأجزاء الداخلية من المدينة التي تهتز بثبات، طرقها الثابتة قاسية مثل شرايين مريض الشلل، شوارعها المضاءة بالنيون تتردد فيها أصداء عويل الشاحنات المزعجة المحمّلة باللحم، اللبن والأطعمة المعلبة، أعلمت صفائح القمامة التي تتجشأ النفايات في أجوافها لتخرجها على الرصيف المبتل الذي يعكس الأضواء؛ سألت الأشجار المعذبة التي لا تقف ثابتة قط على الاتجاهات؛ رمشت بعيني لأرى مواطنين رجال في المتاجر كئيبة الإضاءة، ما زالوا جالسين عند موظفي الخزينة لمراجعة حساباتهم؛ بقيت بعيداً عن رجال الشرطة الذين يقومون بعملهم أمام منطقة مراكز الشرطة؛ ابتسمت بأسى للسكارى، للمشردين، المتشككين، المنبوذين الذين ليس لديهم أخبار عن حياة جديدة متألقة، تبادلت نظرات سوداء مع سائقي الأجرة التابعين لشركة «تشيكر»، الذين يتسحبون من حولي مثل المذنبين غير القادرين على النوم في جو الأضواء الحمراء المتراقصة؛ لم أنخدع في النساء الجميلات المبتسمات لي على لوحات إعلانات الصابون، ولم أضع ثقتي في الرجال الوجهاء على إعلانات السجائر، ولا حتى تمثال «أتاتورك»، أو الطبعة الأولى لجرائد الغد التي تمّ العبث بها من قبل السكارى والمصابين بالأرق، أو رجل اليانصيب الذي يشرب الشاي في مقهى يعمل طوال الليل، ولا حتى في صديقه الذي لوّح لي وناداني قائلاً: «هون عليك أيها الشاب». قادتني الرائحة العميقة للمدينة الفاسدة إلى موقف الحافلات الذي يفوح برائحة البحر و«الهامبرجر»، الحمامات العامة والعادم، رائحة الجازولين والقاذورات.

محاولاً أن أتجنب أن أصبح ثملاً بواسطة الحروف البلاستيكية على قمة مكاتب خطوط الحافلات التي تعدني بمواقع

جديدة لحدوث جريمة ما، قلوب جديدة، حيوات جديدة، ومئات المدن المزدهرة بالألوان، أخذت نفسي إلى مطعم صغير. هناك، ابتعدت عن معجنات القمح، الحلوى والسلطات المعروضة في ثلاجة العرض الواسعة، متسائلاً في أي معدة وعلى بُعد كم من مئات الأميال سيتم هضم هذه الأشياء. الآن هي تقف فقط هناك في صفوف مرتبة مثل الأحرف البلاستيكية لأسماء المدن وشركات الحافلات. ثم نسيت من كنت قد بدأت أنتظره. ربما كنت أنتظرك ـ يا ملاكي ـ لتأخذيني بعيداً، تحذريني بلطف وطيبة، وتضعينني على الطريق الصحيح، ولكن لم يكن هناك أحد في المطعم إلّا أم تحمل طفلها واثنان من المسافرين الفظين يأكلان بشراهة ووجوههما ناعسة، كانت عيناي تبحث عن علامات الحياة الجديدة عندما رأيت لافتة على الحائط تحذر: «ممنوع العبث بالأضواء». ولافتة أخرى تقول: «هناك رسوم لاستخدام المرافق». وواحدة ثالثة تعلن بحروف صارمة متعمدة: «ممنوع تقديم المشروبات الكحولية». جاءني انطباع بأن الغربان السوداء كانت تطير عبر نوافذ عقلي؛ ثم بدا أن لدي إحساساً داخلياً بأن حتفي سيأتي من نقطة الرحيل هذه، تمنيت أن أستطيع أن أصف لكِ ـ يا ملاكي ـ الحزن المخيم على هذا المطعم الذي ينغلق ببطء على نفسه، ولكني كنت متعباً جداً؛ حيث سمعت عويل القرون يطن في أذني مثل الغابات التي لا تنام، أحببت الروح المضطربة التي تقرقر في محركات الحافلات الباسلة التي تذهب كل واحدة منها إلى مكان آخر، سمعت جنان تناديني من مكان بعيد حيث كانت تبحث عن نقطة الدخول التي ستأخذها إلى البداية، ولكني كنت صامتاً، كنت مشاهداً سلبياً على أمل أن يشاهد ـ نظراً لعطل فني ـ فيلماً دون صوت لأن رأسي كان يقع على المائدة وغرقت في النوم.

نمت ولم أعرف كم من الوقت. عندما استيقظت كنت ما أزال في نفس المطعم ولكن في حضور زبائن آخرين، وشعرت أنني أصبحت قادراً على أن أشرح الآن للملاك نقطة الرحيل إلى رحلة عظيمة سوف تأخذني إلى خبرات فريدة، كان هناك أمامي ثلاثة شباب يسدّدون نقودهم وحسابات أجرة الحافلة في صخب، ورجل وحيد تماماً وضع معطفه وحقيبته البلاستيكية على المائدة بجانب طبق الحساء الذي كان يقلّب ويشم فيه رائحة حياته الحزينة؛ ونادل يقرأ الجريدة ويتثاءب في الجزء ذي الإضاءة الخافتة من المطعم حيث اصطفت الموائد في صفوف. وكان بجانبي الحائط الزجاجي المتجمد الممتد من السقف نزولاً إلى ألواح الأرضية المتسخة، خلف هذا الحائط الزجاجي كان الليل الأزرق الداكن، وفي الظلام كانت محركات الحافلات تدور داعية إياي لمملكة أخرى.

ركبت إحداها بعشوائية في ساعة غير محددة، لم يكن الصباح قد جاء بعد ولكن اليوم بدأ أثناء ما نحن نتقدم، أشرقت الشمس، وعيناي كانتا مملوءتين بالضوء والنعاس. ثم ـ بدا أنني ـ غرقت في النعاس.

صعدت إلى حافلات، ونزلت من حافلات، تسكعت في مواقف الحافلات فقط لأصعد على متن المزيد من الحافلات، نائماً في مقعدي، تتحول أيامي إلى ليالٍ، أرسو وأقلع في مدن صغيرة، مسافراً في الظلام، وقلت لنفسي: الرحالة الصغير كان مصمماً بشدة على إيجاد المملكة المجهولة، سمح لنفسه بالتنقل بلا توقف في الطرقات التي سوف تأخذه إلى البداية.

الفصل الرابع

كانت ليلة شتاء باردة، يا ملاكي، وقد كنت مسافراً لأيام، كنت على متن إحدى الحافلات العديدة التي أستقلها كل يوم، دون أن أعرف من أين أرحل وإلى أين أتوجه، أو حتى معدل السرعة التي كنت أسير بها. كنت جالساً في حافلة متعبة ومزعجة، في مكان ما في الخلف على الجانب الأيمن في داخل الحافلة المظلم، نصف نائم ونصف مستيقظ، وأحلم أكثر مما أنام، وأقرب إلى الأشباح التي بالخارج في الظلام من أحلامي، استطعت أن أرى من خلال جفوني نصف المفتوحة شجرة ضامرة وحيدة في سهل لا نهائي خالٍ من الأشجار مضاء بواسطة الضوء العالي للأضواء الأمامية المصابة بالحول، صخرة كبيرة ومطبوع عليها إعلان عن عطر، قطبي القوة، الأضواء المهددة للشاحنات التي نصادفها بغير انتظام، ولكني كنت أشاهد الفيلم أيضاً على شاشة الفيديو الموضوعة أعلى مقعد السائق. حينما تتكلم البطلة تأخذ الشاشة لوناً بنفسجياً كلون سترة جنان الشتوية، وعندما يعود البطل سريع الكلام المندفع برّده اللاذع، يتحول لون الشاشة إلى أزرق كئيب ينفذ بين الحين والآخر إلى داخل عظامي ونخاعي بشكل ما، وكما يحدث غالباً، كنت أفكر فيك وأتذكرك، عندما يأتي اللون البنفسجي والأزرق الكئيب معاً في نفس الإطار ولم يتبادلا القبلات بعد.

كان هذا في ذات اللحظة، في الأسبوع الثالث من رحلتي أثناء ما كنت أشاهد الفيلم، حيث تذكرت كوني متأثراً ـ بشكل مذهل ـ بشعور قوي بعدم الاكتمال، من التوقع والترقب، كنت أنفض رماد سيجارتي في المنفضدة، التي كنت أغلق غطاءها بضربة حادة وحاسمة من جبهتي، تصاعد نفاد الصبر الغاضب بداخلي بسبب عدم قدرة العاشقين على اتخاذ القرار ـ اللذين لم ينجحا بعد في تقبيل بعضهما البعض ـ وهي تتحول إلى شعور من التوتر أعمق وأكثر أهمية. جاءني إحساس بأن شيئاً عميقاً وأصيلاً يقترب، ها هو يأتي، الآن! مثل الصمت الساحر الذي يخيم على كل شخص شاملاً المتفرجين في اللحظة التي تسبق تتويج الملك. في هذا الصمت يكون الصوت المسموع فقط هو خفق أجنحة زوج من اليمام يطير عبر المشهد الملكي. ثم سمعت الرجل العجوز بجانبي يتأوه، واستدرت نحوه، كانت رأسه الصلعاء تتأرجح في الظلام بسلام، ترقد على النافذة المتجمدة، هي نفس الرأس التي تحتوي على الآلام المتواصلة التي سبق أن وصفها لي منذ مائة متر وقبل مدينتين بائستين كانتا نسختين متطابقتين من بعضهما، خمّنت أنه ربما يكون الطبيب الذي يذهب إليه في المستشفى قد نصحه عندما ذهب إليه هذا الصباح بأن يضغط رأسه على ألواح زجاجية باردة كالثلج كعلاج لورم مخه؛ ولكني أدرت عيني راجعاً إلى الطريق المظلم، اجتاحتني موجة من الفزع لم أشعر بمثلها منذ أيام. ماذا كان هذا التوقع العميق الذي لا يقاوم؟ لماذا يجتاحني الآن هذا التعجل نافد الصبر؟

اهتززت بقوة من جراء صوت اصطدام قوة ملحوظة انتزعت أحشائي الداخلية، أُلقيت من على مقعدي وكنت على وشك الوقوع على المقعد الذي أمامي عندما اصطدمت بمكونات من

صلب، صفيح، ألومنيوم وزجاج، تصطدم كلها بغضب وأصطدم أنا بها فأجرح وأتحطم. وعلى الفور، سقطت راجعاً مرة أخرى إلى نفس مقعد الحافلة كشخص مختلف تماماً.

لم تعد الحافلة أيضاً هي نفس الحافلة بعد ذلك. واستطعت أن أرى من خلال ضباب أزرق ـ من حيث كنت جالساً في ارتباك ـ أن كابينة السائق بالإضافة إلى المقاعد التي تليه مباشرة قد انسحقت وتحوّلت إلى فتات واختفت.

من المؤكد أن هذا ما كنت أبحث عنه، هذا ما كنت أريده. كم كنت واعياً لما اكتشفته في قلبي! السلام، النوم، الموت، الوقت! كنت هنا وهناك في نفس الوقت، كنت في سلام وأشن حرباً دموية، مصاباً بالأرق كشبح قلق وأيضاً أشعر بالنعاس بشكل غير محتمل، حاضراً في ليلة أبدية وأيضاً في زمن يتدفق بدون عائق. وهكذا دخلت في الحركة البطيئة ـ تماماً كما في الأفلام ـ وقمت من على مقعدي، أدور حول جثة متعهد الحافلة الشاب الذي سافر إلى أرض الموت، وما زال ممسكاً بزجاجة في يده. خرجت من الحافلة عبر الباب الخلفي وخطيت إلى حديقة ظلام الليل.

كانت نهاية هذه الحديقة الجدباء غير المحدودة هي الطريق الإسفلتي المغطى الآن بشظايا الزجاج، أما النهاية من الناحية الأخرى فكانت مملكة لا رجوع منها، تقدمت بلا خوف إلى داخل الليل المخملي، مقتنعاً بأن هذه هي الأرض السعيدة التي داعبت مخيلتي برقة وكأنها الجنة، كان الأمر كما لو كنت أمشي أثناء نومي، ولكني كنت مستيقظاً، ماشياً ولكن بقدمين لا تلمسان الأرض. ربما لم يكن لي قدمان، لكن ربما لم أعد أتذكر منذ

كنت وحيداً تماماً، كنت هناك بنفسي وكنت وحيداً بنفسي، بجسدي المخدر وضميري، كنت مليئاً بكياني الخاص.

جلست في مكان ما بجانب صخرة في ظلمة هذه الجنة وتمددت على الأرض، النجوم هنا وهناك فوقي وبجانبي صخرة حقيقية، لمستها باشتياق، شاعراً بسرور لا يصدق من لمسة كانت حقيقية. ذات مرة، كان هناك عالم حقيقي فيه اللمسة لمسة، الروائح كانت روائح، والأصوات حقيقية. هل من الممكن ـ أيتها النجمة ـ أن يكون الزمن الآخر قد أعطى الزمن الحاضر لمحة منه؟ أستطيع أن أرى حياتي الخاصة في الظلام. لقد قرأت كتاباً ووجدتك. إذا كان هذا الموت، فلقد ولدت من جديد. أنا هنا في هذا العالم، مخلوق جديد تماماً بلا ذاكرة وبلا ماضٍ، أنا مثل نجم تليفزيوني جديد جذاب يظهر في مسلسل جديد، أو منذهل بشكل طفولي مثل هارب يرى النجوم لأول مرة بعد سنوات من كونه مسجوناً في قبو، سمعت نداء الصمت، الذي لم أختبر مثله من قبل، وظللت أسأل: لماذا الحافلات، الليالي، المدن؟ لماذا كل هذه الطرق، الجسور، الوجوه؟ لماذا الوحدة التي مثل نسر يتغلب على الليل؟ لماذا الكلمات التي تؤخذ بالمظاهر؟ لماذا الوقت الذي يذهب بلا عودة؟ استطعت سماع صوت طرقعة الأرض وتكتكة ساعة يدي، الزمن هو صمت ثلاثي الأبعاد، هكذا قال الكتاب. إذاً قُضي لي أن أموت بدون أدنى فهم للأبعاد الثلاثة، بدون إدراك الحياة، العالم، والكتاب، وبدون حتى أن أراك مرة أخرى، يا جنان. هكذا كنت أتحدث إلى النجوم، هذه النجوم الجديدة تماماً، عندما جاءني بشكل طفولي فكر طفولي: أني سأظل طفلاً حتى الموت، وبشعوري بدفء الدم الذي يقطر من جبهتي على يدي، شعرت بسعادة

اكتشاف ـ مرة أخرى ـ الخصائص الملموسة، المرئية، والتي لها رائحة للأشياء، نظرت إلى هذا العالم، وأنا سعيد وأحبك يا جنان.

رجعت حيث تركت الحافلة المنكوبة في الموقع حيث صدمت شاحنة إسمنت بكل قوتها، وخيّم على المحتضرين سحابة إسمنت مثل مظلة خارقة، ضوء أزرق عنيد كان يتسرب من الحافلة، كان الركاب سيئي الحظ الذين ظلوا على قيد الحياة والآخرون الذين لن يظلوا أحياء طويلاً يخرجون من الباب الخلفي للحافلة، بحذر كما لو كانوا يخطون على سطح كوكب غريب. أمي، أنت ما زلت هناك، ولكني خرجت. أمي. أمي، الدم يملأ جيوبي كالعملات المعدنية، تمنيت أن أتواصل معهم، مع الرجل ذي الطابع الأبوي يزحف على طول الأرض، وقبعته على رأسه، وفي يديه حقيبة بلاستيكية؛ الجندي المتأفف الذي انحنى يتفحص بعناية التمزق في بنطاله؛ السيدة العجوز التي تركت نفسها لمحادثة مليئة بالفرح الآن حيث إنها ضمنت الفرصة لتوجه الحديث للرب مباشرة، تمنيت أن أغرس أهمية هذا الوقت الفريد والخالي من الخطأ إلى مندوب التأمين الخبيث الذي كان يعدّ النجوم، إلى الابنة المذهولة التي تتوسل أمها، إلى السائق الميت، إلى الرجال ذوي الشوارب الغرباء عن بعضهم البعض الذين يشبكون أيديهم ويرقصون فرحاً بأنهم أحياء، يتمايلون بخفة مثل أشخاص وقعوا في الحب من أول نظرة، تمنيت إن استطعت إخبارهم بأن هذه اللحظة الفريدة هي سعادة نادراً ما تمنح لمخلوقات الله من أمثالنا، قائلاً إنك ـ يا ملاكي ـ سوف تظهري فقط مرة واحدة في العمر في هذا الوقت الرائع تحت المظلة الخارقة من تراب الإسمنت، وأسألهم لماذا نحن ـ كلنا ـ سعداء

هكذا الآن بالذات، كنت أنت ـ الأم والابن اللذين تمسكا ببعضهما البعض بشدة مثل زوج من العشاق الجسورين وانتحبا بحرية للمرة الأولى في حياتهما، أنت ـ المرأة الجميلة التي اكتشفت أن الدم أكثر حمرة من طلاء الشفاه، وأن الموت أكثر رحمة من الحياة، أنت ـ الطفل الناجي الذي يقف عند جسد أبيه الميت يعتصر دميته ويشاهد النجوم، إني أسألك: من الذي منحنا هذا الرضا، هذه القناعة، هذه السعادة؟ أعطاني الصوت الذي بداخلي كلمة واحدة كإجابة: الرحيل...... الرحيل. ولكني كنت قد فهمت بالفعل أنه لم يحن موعد موتي بعد، سألتني السيدة العجوز التي كانت ستموت عن قريب عن مكان كابينة المساعد لتخرج حقائبها من مكانها حالاً لأنها ـ بالرغم من أن وجهها كان أحمر اللون من الدماء ـ تأمل أن تذهب إلى المدينة القادمة حيث تلحق بالقطار في الصباح، تُركت ممسكاً بتذكرة القطار، تلك المبتلة بالدماء الخاصة بها.

صعدت الحافلة عبر الباب الخلفي لأتجنب النظر إلى ركاب الصف الأول الذين التصقت وجوههم الميتة بالزجاج الأمامي، أصبحت واعياً بصوت المحرك الدائر، مذكراً إياي بصخب المحركات الفظيع في كل الحافلات التي ركبتها؛ ما سمعته لم يكن صمت الموت ولكن أصواتاً حية تختلط مع ذكريات، رغبات، وأشباح، مساعد الحافلة كان ما زال ممسكاً بنفس الزجاجة وبطفل نائم بسلام لامرأة دامعة العيون، كان الجو بارداً بالخارج، جلست أنا أيضاً، شاعراً بالألم في ساقي. أما جاري في المقعد ذو الرأس المتألم فقد فارق هذا العالم مع الحشد المتسرع من ركاب الصفوف الأمامية، ولكنه كان ما زال يجلس في صبر. كانت عيناه مغلقتين أثناء ما كان نائماً، أما الآن فعيناه

مفتوحتان من الموت، ظهر رجلان خارجان من مكان ما في الأمام، يحملان بغلظة جثة مغطاة بالدماء فوق أكتافهما، حملاها إلى الخارج في البرد.

كان ذلك فيما بعد أن أصبحت واعياً بالمصادفة الأكثر سحراً على الإطلاق أو الحظ الذي لا تشوبه شائبة: كانت شاشة التليفزيون فوق مقعد السائق ما زالت سليمة وكان العاشقان على شريط الفيديو بين ذراعيّ بعضهما البعض أخيراً، مسحت الدم من على جبهتي ووجهي وعنقي بمنديلي، وفتحت غطاء المنفضدة الذي كنت قد أغلقته بجبهتي بعنف منذ قليل؛ وأشعلت سيجارة برضا وبدأت أشاهد الفيلم.

تبادلا القبلات مجدداً ومجدداً، يمتصان طلاء الشفاه والحياة، تعجبت لماذا في طفولتي اعتدت أن أحبس أنفاسي أثناء مشاهد القُبل، لماذا اعتدت أن أؤرجح ساقيّ وأركز على نقطة على الشاشة فوق العشاق بقليل. آه، القبلة! كم استعدت جيداً ذكرى المذاق الذي لمس شفتي في هذا اليوم في الضوء الأبيض الآتي من خلال زجاج النافذة المغطى بالثلج. قبلة واحدة فقط في حياتي كلها، بكيت بالدموع مردداً اسم «جنان».

عندما انتهى الفيلم، لاحظت أولاً الأضواء الأمامية ثم الشاحنة نفسها وهي تقف بإجلال في حضور المشهد الحزين حيث الجثث الباردة ترتجف أكثر من قبل البرد في الخارج، كيفما اتفق، كانت هناك محفظة مكتظة في جيب جاري في المقعد، الذي كانت عيناه الفارغتان ما زالتا مثبتتين على شاشة التليفزيون المظلمة، كان اسمه «محمود»، ولقبه «ماهلر». أوراقه الرسمية، صورة لابنه الجندي الذي يشبهني. وقصاصة مهترئة بها خبر عن

مصارعة الديوك تمّ قصه من «بريد دينزلي» 1966. النقود التي ستدعمني لعدة أسابيع مقبلة، وثيقة الزواج أيضاً يمكن أن تكون ذات نفع. وشكراً.

تمّ نقلنا ـ نحن الناجين المعتقلين ـ إلى المدينة ممددين كالجثث الخنوع التي بجانبنا، محاولين البقاء دافئين من البرد في سرير الشاحنة، متأملين النجوم. ابقوا هادئين، بدا وكأن النجوم تقول لنا، كما لو كنا غير هادئين؛ انظر كيف ننتظر الوقت المناسب. أثناء اهتزازي في توافق مع الشاحنة حيث كنت راقداً أشاهد بعض السحب المسرعة والأشجار القلقة التي تحول بيننا وبين الليل المخملي، اعتبرت أن هذه العربدة المتحركة، المضاءة بكآبة التي تمّ فيها حجز الأحياء في حضن قوي مع الأموات كانت مشهداً يليق بفيلم سينمائي ممتاز، فيه ملاكي العزيز ـ الذي أتخيل كونه مرحاً وفرحاً ـ تتنزل من السماء وتكشف لي أسرار حياتي وقلبي؛ إلّا أن المشهد الذي اقتبسته من إحدى قصص العم «رفقي» المفضلة فشل في أن يتجسد. هكذا، كنت متروكاً وحيداً مع النجم الشمالي، الدب الأكبر، وهذا الرمز ـ أعدّ أقطاب الكهرباء المظلمة وأغصان الأشجار التي تسري فوقنا. ثم جاءتني فكرة بأن هذه ليست اللحظة المثالية بعد كل ذلك، إن هناك شيئاً مفقوداً، لكن طالما أنني أملك روحاً جديدة في جسدي، حياة جديدة أمامي، رزم من النقود في جيبي، وهذه النجوم المنثورة في السماء، فلماذا أهتم؟ سوف أبحث عن العنصر المفقود.

ما هذا الذي يجعل حياة الإنسان غير مكتملة؟

ساق مفقودة، أجابت الممرضة ذات العيون الخضراء التي وضعت بعض الغرز في ركبتي. قيل لي ألا أقاوم. حسناً، هل

تتزوجينني إذاً؟ لا يوجد كسور أو شروخ طفيفة في الساق أو القدم. حسناً، إذاً، هل تمارسين الحب معي؟ قليل من الغرز الرهيبة على جبهتي أيضاً. دموع الألم في عيني، عرفت ما كان الخطأ منذ البداية؛ كان يجب أن أدرك وأرى الخاتم في بنصر الممرضة. من المحتمل أن تكون وعدت شخصاً ما بالزواج يعمل في ألمانيا، كنت مخلوقاً جديداً، ولكن لست جديداً تماماً، كنت في هذه الحالة عندما غادرت المستشفى والممرضة الناعسة.

وصلت إلى فندق «الضوء الجديد» في نفس الوقت الذي أُذن لصلاة الفجر، وطلبت من الموظف الليلي أفضل غرفة في الفندق، قمت بإثارة نفسي بالنظر إلى عدد قديم من مجلة «حورييت» وجدتها في الخزانة المغبرة في الغرفة، كان ملحقاً ملوناً لطبعة يوم الأحد وفيها صورة لصاحبة مطعم «نيسانتاسي» في اسطنبول وقد كشفت أجزاء من جسدها للكاميرا، بالإضافة إلى قطتيها المخصيتين وكل الأثاث الذي طلبته من ميلانو. ثم استغرقت في النوم.

كانت المدينة تدعى «سيرينير» حيث مكثت حوالي ستين ساعة، قضيت منها ثلاثاً وثلاثين ساعة نائماً في فندق «الضوء الجديد»، الذي كان مكاناً ساحراً كاسمه. 1 ـ محل الحلاق: حيث وُضِع على المكتب الأمامي صابون للحلاقة من نوع «أو بي» في غلاف من الألومنيوم. 2 ـ غرفة القراءة للشباب: يفندون أوراق اللعب المصنوعة من الورق الناعم، يشاهدون تمثال «أتاتورك» في الميدان حيث رجل عجوز مشتت الذهن يتسكع، يشاهدون أيضاً الجرارات التي تمر وشخصي الذي يعرج قليلاً ـ بالإضافة إلى التليفزيون، الذي يدار باستمرار، بغض النظر عن النساء، هناك لاعبو كرة القدم، جرائم القتل، أنواع الصابون،

مشاهد القبلات. 3 ـ عند كشك بائع السجائر الذي يحمل علامة سجائر «مارلبورو»: بجانب السجائر، يوجد شرائط الكراتيه والأفلام الإباحية الخفيفة، ورق لليانصيب القومي وتذاكر لرياضة «توتو»، قصص رخيصة، سم فئران، وتقويم على الحائط عليه جميلة تبتسم ذكرتني بجنان. 4 ـ المطعم: حبوب الفاصوليا، كرات اللحم الصالحة للأكل. 5 ـ مكتب البريد: اتصلت بالبيت. أمي لا تستطيع أن تفهم، وتبكي. مقهى المدينة: جلست ومرة أخرى بدأت أقرأ بسرور عناوين الأخبار في «حورييت» عن حادث الطريق السعيد التي كنت أحملها بداخلي (اثنا عشر قتيلاً!) الذي صرت أحفظه الآن، عندما اقترب مني ـ من الخلف مثل الظل ـ رجل في منتصف الثلاثينيات أو أوائل الأربعينيات وقد بدا وكأنه خليط من قاتل مأجور وشرطي متخفٍ؛ وقرأ لي ماركة الساعة التي سحبها من جيبه «زينيت»، وأنشد:

إذا غفر الخمر للحب في قصيدة مجنونة.

ألا يلائم الموت نفس النظرية؟

سكير من خمر المجادفة.

أنت ظمآن مثل الصقر.

لم ينتظر جوابي ولكن خرج من المقهى، تاركاً وراءه رائحة مركزة من صابون «أو بي» للحلاقة.

في أثناء سيري الذي يأخذني دائماً بلا صبر إلى موقف الحافلات، تعجبت لماذا كل مدينة صغيرة لطيفة يجب أن يكون لها رجل مجنون مضحك سكير خاص بها، كان صاحبنا المولع بالخمر والشعر موجوداً في إحدى الحانتين الموجودتين في المدينة حيث بدأت أشعر بعطش مُسكر فائت ذكره بنفس عمق

أفكار حبك، يا جنان. سائقون ناعسون، حافلات مرهقة، مساعدون غير حليقي الوجه! خذني إلى هذه المملكة المجهولة حيث أريد أن أذهب! خذني إلى باب الموت، غير واعٍ وجبهتي تنزف دماً، إذاً يمكن أن أصبح شخصاً آخر! كانت هذه حالتي العقلية عندما تركت المدينة التي تدعى «سيرينير» وأنا جالس في الصف الأخير الطويل لحافلة خربة، وهناك عدة غرز في جسدي ومحفظة ممتلئة لرجل ميت في جيبي.

ليل! ليلة طويلة، طويلة جداً وعاصفة، قرى مظلمة وحظائر أغنام أكثر ظلمة، أشجار خالدة، محطات خدمة مثيرة للشفقة، مطاعم خالية، جبال صامتة، وأرانب قلقة تجري من خلف المرآة المظلمة لنافذتي. في بعض الأحيان كنت أفحص ضوءاً بعيداً يتلألأ وراء النجوم، وأتأمل نوع الحياة الذي أتخيل وجوده لحظة بلحظة تحت هذا الضوء، كنت أجد مكاناً لنفسي ولجنان فيه؛ وعندما أسرعت الحافلة مبتعدة عن الضوء المتلألىء، تمنيت لو كنت تحت هذا السطح بدلاً من الجلوس في مقعدي المهتز غير المريح. أحياناً تنظر عيناي إلى الركاب في الحافلات التي نصادفها في محطات الخدمة، استراحة الحافلات، مفترقات الطرق حيث الأشجار تنتظر بعضها البعض في احترام، أو على الكباري الضيقة، وأتخيل أنني رأيت جنان تجلس بينهم؛ مأخوذاً بتخيلاتي أتخيل أنني ألحق بالحافلة الأخرى، وأصعد إليها، وآخذ جنان بين ذراعي، ولكن أحياناً أشعر بأنني فاقد الأمل ومجهد جداً حتى تمنيت لو كنت الرجل الذي رأيته ـ من خلال الستائر نصف المغلقة ـ جالساً على منضدة ويدخن عندما مرّت حافلتنا الغاضبة خلال الشوارع الضيقة لمدينة ما منعزلة في منتصف الليل الفائت.

لكني ما زلت أعرف أنني أريد حقاً أن أكون في مكان آخر، في زمن آخر غير هذا الزمان، مثل اللحظة المناسبة حينما يكون الشخص لم يختر بعد بين الحياة والموت؛ هناك وسط الأموات الذين ماتوا في ثورة المصادفة المثيرة للشفقة...... قبل الصعود إلى السموات السبع، محاولاً أن أعوّد عيني على الرؤية الغامضة ببرك الدماء وشظايا الزجاج المكسور على عتبة هذه المملكة التي لا رجعة منها، فربما أقوم بالتفكير بسرور إذا ما كنت سأدخل أم لا. هل يجب أن أتراجع؟ أو أتقدم؟ ما شكل الصباح في هذا العالم الآخر؟ ماذا سيكون عليه الأمر لو هجرت هذه الرحلة كلياً وفقدت نفسي في هذا الليل عميق الأغوار؟ كنت لأرتجف وأنا أفكر في الوقت الفريد في هذه المملكة؛ حيث يمكنني التخلص من كياني وربما الاتحاد مع جنان، وكنت أشعر بالإلحاح في ساقي وغرز جبهتي لأحقق السعادة غير المتوقعة التي سوف تأتي تباعاً.

آه، يا من يركب في حافلات الليل! إخوتي المتواضعون! أنا أعرف أنكم أيضاً تبحثون عن لحظة انعدام الجاذبية. آه، لتكون لا هنا ولا هناك! لتصبح شخصاً آخر وتجوب الحديقة الهادئة التي بين العالمين! كم أعرف جيداً أن مشجع كرة القدم الذي يرتدي سترة جلدية ليس منتظراً المباراة لتبدأ ولكنه يترقب ساعة الخطر عندما ينزف بغزارة فيصبح البطل الأحمر اللون كالدم، وأعرف أيضاً أن المرأة العجوز التي لا تكف عن أخذ شيءٍ ما من حقيبتها البلاستيكية وتدسه في فمها في الحقيقة لا تريد بشدة أن تعيد الشمل مع أخواتها وبناتهن ولكن تريد الوصول إلى عتبة العالم الآخر، وماسح الأراضي الذي ينظر بعين إلى الطريق وبالعين الأخرى إلى أحلامه لا يخمن مساحة أراضي

مجلس المدينة ولكنه يفكر في النقطة التي على مفترقات الطرق حيث تصبح كل المدن تاريخاً، وأنا واثق أن تلميذ المدرسة الثانوية ذا الوجه الباهت الذي ينعس في مقعده لا يحلم بتقبيل حبيبته ولكنه يحلم بالتصادم القوي عندما يقبل زجاج نافذة الحافلة بعاطفة وقوة مشاعر. أو ليست هذه هي نفس الأفراح التي تهاجمنا كلنا بالرغم من كل شيء؟ حينما يضغط السائق على الفرامل أو يزيد من سرعة الحافلة وسط الرياح، نفتح أعيننا فوراً لنحدق في الطريق المظلم، محاولين اكتشاف إذا ما كانت ساعة الصفر قد جاءت، لا، ليس بعد!

قضيت تسعاً وثمانين ليلة في مقاعد الحافلات بدون سماع ولو لمرة رنين هذه الساعة المبهجة في روحي، هناك مرة واحدة عندما توقفت الحافلة فجأة واصطدمت بشاحنة دواجن، لكن ولا واحدة من الدجاجات المرتبكة التي تمت إصابتها تركت واحداً من الركاب الناعسين في حالهم. وليلة أخرى، كانت الحافلة تنزلق بسعادة على الطريق السريع المغطى بالثلج عندما نظرت إلى الخارج من نافذتي المتجمدة وشعرت بالإشعاع الناتج عن مواجهة الله وجهاً لوجه. وكنت على وشك اكتشاف العنصر الوحيد المشترك مع كل الوجود، الحب، الحياة، والزمن، ولكن الحافلة الطائشة تعلقت بحافة الفراغ المظلم، وتوقفت.

قرأت في مكان ما أن الحظ ليس أعمى، ولكن فقط جاهل، انغمست في التفكير بأن الحظ هو مسكن لهؤلاء الذين لا يعرفون الاحتمالات والإحصاء. كان الباب الخلفي حيث نزلت إلى الأرض. وحيث عدت إلى الحياة؛ الباب الخلفي حيث قابلت الحياة الصاخبة في استراحات الحافلات: مرحباً. بائعو حبوب محمصة، بائعو شرائط كاسيت، رجال كبار

يحملون حقائب، سيدات عجائز بحقائب بلاستيكية، أهلاً! ولكي لا أترك المسألة للحظ، بحثت عن أقل الحافلات أمناً، اخترت الطريق الأكثر وعورة، واستفتيت مقاهي الموظفين لأعرف السائق الأكثر حرماناً من النوم، وخطوط الحافلات التي تحمل أسماء على غرار «الطريق الآمن»، «الطريق الآمن الحقيقي، الطريق الآمن السريع، الطريق الآمن الطائر، أسرع من البرق». مساعدو الحافلات يسكبون زجاجات العطر في يدي، ولكن ليس هناك واحدة منها لها عطر الوجه الذي أبحث عنه، أحضروا بسكويتاً من نوع ما على أطباق فضية زائفة، ولكن مذاقها لم يكن مثل الذي تقدمه أمي مع الشاي، أكلت شيكولاتة منزلية صنعت بلا كاكاو حقيقي، لكن ساقي لم تتشنج مثلما اعتادت أن تفعل عندما كنت طفلاً. أحياناً كان المساعد يقدم كل أنواع الحلوى والكراميل في سلال، ولكن وسط أنواع مثل «جولدن»، «مابل»، «فروتو»، لم أصادف قط أياً من الأنواع التي كان العم رفقي يحبها، نوع يدعى كراميل «حياة جديدة». عددت الأميال في نومي وحلمت وأنا مستيقظ، تكوّرت في مقعدي، وانكمشت وتحولت إلى شيء مجعد، حشرت ساقيّ في المقعد، حلمت أني أمارس الحب مع جاري في المقعد. عندما استيقظت، وجدت رأسه الأصلع على كتفي، ويده المثيرة للشفقة في حجري، كل ليلة ألعب في البداية دور الجار المتحفظ على بعض الركاب سيئي الحظ، ثم دور الشخص الماهر في التحدث، لكن مع الصباح نكون قد أصبحنا على وفاق تام وأكون الشخص محل الثقة الذي لا غبار عليه. سيجارة؟ إلى أين أنت ذاهب؟ ما مجال عملك؟ في حافلة كنت مندوب تأمين متنقلاً؛ وفي أخرى ـ حيث كان

الجو بارداً لدرجة التجمد ـ ادعيت أنني سوف أتزوج قريباً من ابنة عمي التي هي حب حياتي. متصرفاً كشخص يشاهد أطباقاً طائرة، كشفت لرجل يبدو كالجد أنني أترقب ملاكاً؛ ومرة أخرى قلت إن مديري وأنا سنكون سعداء لتصليح كل ساعات يدك التي بها عطل. ساعتي من نوع «موفادو»، قال الرجل العجوز ذو السِّن الصناعي؛ لا تخلف الوقت قط. بينما كان مالك الساعة نائماً وفمه مفتوحاً، اعتقدت أنني سمعت تكتكة الساعة التي تعطي دائماً الوقت المضبوط. ما الوقت؟ حادثة! ما الحياة؟ وقت! ما الحادثة؟ حياة، حياة جديدة! بالخضوع إلى هذا المنطق البسيط ـ الذي كنت مندهشاً أن لا أحد وصل إليه من قبل ـ قررت أن أترك استراحات الحافلات، يا ملاكي، وأن أذهب إلى مواقع الحوادث.

شاهدت ركاباً في المقاعد الأمامية طُعنوا بقسوة عندما اصطدمت حافلتهم بإهمال وخيانة بمؤخرة شاحنة تحمل قضباناً من الصلب أطرافها موجهة للخارج، رأيت سائقاً ـ في محاولة جاهدة لتفادي قطة ـ قاد حافلته المتهورة إلى داخل واد شديد الانحدار، كانت جثته مشوهة بشدة، ولم يستطع أحد التعرف عليها، رأيت رؤوساً تحطمت إلى أجزاء، أجساداً تمّ تمزيقها، أيادي انسحقت؛ رأيت سائقين أخذوا عجلة القيادة إلى داخل أحشائهم، أمخاخ انفجرت مثل رؤوس الكرنب، آذان دامية ما زالت ترتدي الأقراط، نظارات محطمة وأخرى سليمة، مرايا، أمعاء حمراء تمّ وضعها بعناية على ورق جرائد، أمشاط، فاكهة تمّ سحقها، عملات معدنية، أسنان مكسورة، زجاجات للأطفال، أحذية من كل الأنواع، والروح التي تمّ التضحية بها بحماسة في سبيل لحظة الحقيقة.

في صباح أحد أيام الربيع الباردة كنت قد تلقيت سراً خبراً من قبل ضباط المرور ولحقت بحافلتين اصطدمت مقدماتهما ببعضهما في صمت السهل الخالي من الأشجار، كانت قد مرّت نصف ساعة منذ لحظة التصادم المتحمس السعيد الذي تفجر في صخب، لكن السحر الذي يجعل الحياة محتملة وذات معنى كان ما زال معلقاً في الهواء، كنت أقف بين العربات التي تخص الشرطة ورجال الشرطة الفرنسيين، الذين يفحصون الإطار الأسود لإحدى الحافلتين اللتين انقلبتا، عندما أخذت شهيقاً مبهجاً من الحياة الجديدة والموت، ارتجفت ساقي وآلمتني الغرز في جبهتي، شققت طريقي للأمام بإصرار كما لو كنت على موعد مهم، مخترقاً جموع الناجين المرتبكين في الغسق المليء بالندى.

صعدت إلى الحافلة ـ كان الوصول إلى مقبض الباب صعباً بطريقة ما ـ وكنت أمرّ مخلفاً كل المقاعد خلفي، أشعر بالرضا لكوني أخطو على نظارات، أشياء من الزجاج، سلاسل، والفاكهة التي خضعت للجاذبية ووقعت على السقف. عندئذٍ بدا أنني تذكرت شيئاً، ذات مرة اعتدت أن أكون شخصاً آخر، وأن شخصاً ما اعتاد أن يرغب في أن يصبح أنا. لقد حلمت بحياة حيث الوقت مركز ومضغوط وحيث الألوان تتدفق في عقلي كالشلال، أليس كذلك؟ خطر ببالي الكتاب الذي تركته خلفي على منضدتي، وتخيلت أن الكتاب يحدق في السقف مثل الميت الذي يحدق في السماء بفم مفتوح، تخيلت أمي محتفظة بالكتاب على منضدتي بين كل الأشياء التي تركتها في حياتي السابقة التي انقطعت، كنت أتخيل نفسي أقول: انظري أمي، إن ما أبحث عنه وسط شظايا الزجاج، قطرات

الدماء، والأموات هو عتبة نوع آخر من الحياة، عندما لمحت محفظة، كان هناك جسد قد صعد فوق المقعد ـ قبل أن يموت ـ واتجه نحو النافذة، لكنه رقد في سلام عند نقطة التوازن، وعرض مشهداً كاملاً للمحفظة التي في جيبه الخلفي.

أخذت المحفظة ووضعتها في جيبي بخفة، ولكن لم يكن هذا ما استدعيته منذ لحظة واحدة وادعيت أنني لا أتذكره. ما كان في عقلي هو الحافلة الأخرى؛ حيث وقفت أنظر خلال الزجاج المحطم والستائر الصغيرة التي ترفرف بخفة على النوافذ، قرأت الحروف الحمراء والزرقاء القاتلة على الحافلة الأخرى التي تقول «الطريق الأكثر أمناً».

قفزت خارجاً من إحدى إطارات النوافذ التي تحطم زجاجها تماماً وبدأت أركض، أخطو على قطع من الزجاج المنثور بين الجثث الأخرى التي لم يحملها رجال الشرطة بعيداً بعد، لم أكن مخطئاً، الحافلة الأخرى كانت حقاً نفس حافلة «الطريق الأكثر أمناً» التي حملتني بأمان من مدينة تافهة إلى مدينة غامضة، صعدت على متن هذا الصاحب القديم وجلست في نفس المقعد حيث كنت راكباً منذ ستة أسابيع، وبدأت أنتظر مثل راكب صبور لديه ثقة متفائلة في هذا العالم. ما الذي كنت أنتظره؟ ربما كنت أنتظر رياحاً ما، ساعة محددة، أو ربما أنتظر رحالة. بدأ نور الشفق يخبو، شعرت بوجود أرواح أخرى لأحياء أو أموات جالسين مثلي على المقاعد، وسمعتهم ينادون على بعض الأرواح المجهولة؛ كانوا يشهقون كما لو كانوا يتحدثون إلى الجميلات في كوابيسهم أو ـ في أحلامهم عن الجنة ـ كانوا يتشاجرون مع الموت. ثم أحست روحي المتحفزة بشيء ما أكثر عمقاً: ركزت

على كابينة السائق حيث اختفى كل شيء ما عدا الراديو، حيث ـ بجانب الشهقات والبكاء ـ كانت هناك موسيقى مغلفة بهالة غاية في الجمال.

أطبق الصمت للحظة قصيرة، ولاحظت أن الضوء يصبح أكثر كثافة. في الندى رأيت أشباحاً سعيدة لأموات ومحتضرين. لقد ذهبت إلى أبعد ما يكون، أيها الرحالة! لكن أعتقد أنك يمكن أن تذهب لأبعد! فأنت تتمايل في الترقب ببهجة، لا تعرف إذا ما كان هناك باب آخر وحديقة سرية أخرى حيث الحياة والموت، المعنى والحركة، الوقت والصدفة، الضوء والسعادة كل ذلك يجتمع معاً. وفجأة ارتفعت نفس الرغبة الملحة مرة أخرى من أعمق أعماقها وأحاطت جسدي بالكامل، في أن أكون هنا وهناك معاً. بدا وكأني سمعت عدة كلمات، ارتجفت، وكان بعد ذلك، يا جميلتي، أنك أتيت من الباب ـ يا جنان، مرتدية نفس الرداء الأبيض الذي كنت ترتدينه في ممر ساعة «تاسكيسلا» حيث رأيتك لآخر مرة. كان وجهك مغطى بالدماء.

لم أسألك، «ماذا تفعلين هنا؟» وأنت يا جنان، لم تسأليني أيضاً ماذا أفعل هنا. كنا نعرف.

أخذتك من يدك وأجلستك بجانبي، في المقعد رقم 38. ومسحت الدم عن وجهك وجبهتك بمنديلي الكاروهات الذي اشتريته من «سيرنير». ثم، يا حبيبتي، أمسكت يدك، ولفترة جلسنا في صمت. كانت الدنيا تضيء أكثر؛ وصلت عربات الإسعاف، وعلى راديو السائق الميت كانوا يذيعون ويغنون أغنيتنا.

الفصل الخامس

لحقنا بالحافلة الأولى التي غادرت المدينة بعد أن تلقت جنان أربع غرز في جبهتها، حيث مشينا بطول حوائط الحديقة المنخفضة، المباني الحزينة، الشوارع الخالية من الأشجار، الواعية بالحركة الميكانيكية لرفع وهبوط أقدامنا على الرصيف، أتذكر نوعاً ما المدن الثلاث التي تلت: واحدة كانت عاصمة مداخن المصانع، والثانية عاصمة حساء العدس أما الأخيرة فهي مدينة الذوق السيىء، لكن بعد ذلك، أثناء ما كنا ننتقل من مدينة إلى مدينة، نغفو ونفيق في الحافلات، كل شيء تشوش واختلط ببعضه، رأيت حوائط وقد بلي الجص من عليها، حيث تُركت الملصقات من قبل الشباب منذ عهد العازفين القدامى وكانت لا تزال معروضة؛ رأيت جسوراً دمرتها الفيضانات، ولاجئين من أفغانستان يبيعون مصاحف القرآن بحجم أصبع الإبهام. من المؤكد أنني رأيت أشياء أخرى بجانب شعر جنان البني الفاتح الملقى على كتفيها، مثل عامة الناس في موقف الحافلات، الجبال الأرجوانية، لوحات الإعلانات البلاستيكية اللامعة، الكلاب المرحة التي تطارد حافلتنا بمرح إلى خارج المدينة، باعة متجولين ينادون على بضاعتهم الصغيرة في الحافلة. في إحدى الاستراحات غير المعروفة عندما فقدت جنان الأمل في العثور على أي مفتاح لما أسمته «تحرياتها»، وضعت وجبات في

حجورنا من مواد غذائية اشترتها من هؤلاء الباعة. مثل البيض المسلوق الجامد، فطائر اللحم، الخيار المقشور، وبعض المياه الغازية المحلية التي لا اسم لها. ثم كان الصباح، ثم ليل، ثم صباح ذو غيوم، الحافلة تغير الساعات، ثم ليلة كاحلة أكثر من الظلمة من حولنا، وشاشة الفيديو فوق مقعد السائق تشع ضوءاً أحمر برتقالياً بلون طلاء الشفاه الرخيص، عندما بدأت جنان تستعيد قصتها.

بدأت «علاقة» جنان بمحمد (على حد قولها) منذ عام ونصف العام. كان لديها إحساس مبهم أنها ربما رأته من قبل في «تاسكيسلا» يتجول بين طلاب الهندسة وطلاب المعمار، ولكن المرة الأولى التي شاهدته فيها فعلاً كان في حفل عُقد من أجل قريب لها عاد من ألمانيا في فندق في تاكسيم. عند منتصف الليل، كانت هي ووالداها قد ذهبوا إلى ردهة الفندق، حيث ترك الشاب الشاحب، الطويل، النحيل الواقف خلف مكتب الاستقبال انطباعاً في ذهنها. قالت جنان موجهة لي ابتسامة حنون، ولكني عرفت أن هذا لم يكن الموضوع: «ربما لأنني لم أستطع إدراك أين وسبق أن رأيته».

عندما بدأت الدراسة في الخريف، رأته مجدداً في طرقات «تاسكيسلا»، وفوراً بعد ذلك «وقعا في الحب». كانا يمشيان في نزهات طويلة معاً في شوارع اسطنبول، يذهبان إلى السينما، يترددان على الكانتين والمقاهي الخاصة بالطلاب. قالت جنان ـ مستعملة الصوت الذي احتفظت به التفسيرات الجادة ـ: «في البداية لم نكن نتحدث كثيراً عن الأشياء. ولكن لم يكن هذا لأن محمداً كان خجولاً أو لا يحب الكلام. كلما عرفته أكثر، كلما

أشركته أكثر في حياتها، وكلما لاحظت كم يمكنه أن يكون اجتماعياً، مثابراً، معبراً، وحتى عدوانياً. كان صمته يأتي من حزنه». قالت جنان ذلك، وهي غير ناظرة إليّ ولكن إلى مشهد المطاردة على شاشة التليفزيون، ثم أضافت ـ «وشبح ابتسامة يلوح على شفتيها ـ كان يأتي من حزن شديد». أسرعت سيارات الشرطة التي كانت تطير فوق بعضها البعض ومن فوق الجسور لتسقط في أنهار، تصطدم الآن ببعضها البعض وتتشابك في عقدة.

حاولت جنان جاهدة أن تحلّ عقدة حزنه وأسفه، ونجحت إلى حد ما في النفاذ إلى الحياة التي ترقد وراء هذا الحزن، وكان محمد من البداية قد أتى على ذكر حياة سابقة عندما كان شخصاً آخر يعيش في مقاطعة ما. أثناء ما كانت جرأته تزداد، قال إنه ترك هذه الحياة خلفه، وإنه راغب في حياة جديدة، وإن ماضيه لا يعني شيئاً بالنسبة له، كان هو في مرة شخصاً آخر، ثم منّى نفسه بأن يصبح شخصاً آخر. وحيث إن جنان عرفت فقط نفسه الجديدة، نصحها بأن تتعامل فقط مع شخصيته الحالية وتترك شخصيته الماضية. أما الأهوال التي صادفها خلال بحثه فلم تكن جزءاً من وجوده السابق ولكن جزءاً من حياته الجديدة التي كان ـ ذات مرة ـ يبحث عنها بحماسة. كانت هذه هي الحياة. . . . الحياة التي صادفها في الكتاب». قالت جنان ذلك لي في أحد مواقف الحافلات الكئيبة القذرة حيث كنا نتشاجر ـ في جو من الصداقة والمرح ـ على أي حافلة نستقلها ونحن جالسون إلى مائدة عليها علبة طعام عمرها عشر سنوات، نجحنا في التقاطها من على رفوف بقالة ما غزتها الفئران في هذه المدينة البالية. بالإضافة إلى حركة الساعة التي اكتشفناها

في محل قديم لتصليح الساعات وقصص كوميدية للأطفال على الرفوف المغبرة في محل رياضيات «توتو».

كانت هذه المرة الأولى التي ذكرنا فيها الكتاب في التسعة عشر يوماً بعد أن جرينا إلى بعضنا البعض في الحافلة المنكوبة، أخبرتني جنان أن جعل محمد يناقش الكتاب كان صعباً بنفس درجة جعله يتحدث عن أسباب حزنه غير المبرر والحياة التي تركها خلفه. كان هناك مرات عديدة عندما كانا يمشيان في شوارع اسطنبول بإحباط، أو يتناولان الشاي في أحد المقاهي في «البوسفرس»، أو يستذكران معاً. عندما طلبت منه الكتاب، سائلة إياه عن هذا الشيء السحري، ولكنه كان يرفض بوضوح ووقاحة، مخبراً إياها بأنه ليس من الصواب لفتاة مثل جنان حتى أن تتخيل أرض العقاب الأبدي، تحطيم القلب، وسفك الدماء لأن في هذه الأرض الخادعة التي يضيئها الكتاب، يتسكع كل من الموت، الحب، والرعب، مثل أشباح سيئة الحظ في هيئة رجال مضطهدين، محطمي القلوب ذوي وجوه جليدية يحملون بنادق محشوّة بالرصاص.

كان الأمر من خلال مثابرتها واعتراضاتها على القلق حتى أن جنان أصبحت قادرة على اجتذاب محمد، ولو بشكل متواضع. قالت: «ربما كان يريد مني أن أقرأ الكتاب وأن أنقذه من تأثيره الحلو والمر في نفس الوقت، ويجب أن أذكر، أنني كنت واثقة في ذلك الوقت من أنه يحبني». ثم، حينما كانت حافلتنا تنتظر بصبر ـ عند تقاطع طريق السكة الحديد ـ قطاراً بدا أنه ليس في عجلة من أمره، أضافت: «أو ربما، كان يتمنى بلا وعي أن نتمكن من الدخول معاً إلى هذه الحياة التي ما زالت حية

في ركن ما من عقله». مرت بجانب نافذة حافلتنا سلسلة من عربات قطار البضائع المُحملة بالقمح، الآلات، والزجاج المحطم، واحدة بعد الأخرى، مثل أشباح من بلدة أخرى مخالفة للقانون وتمّ تهذيبها، وهي تحدث جلبة مثل القطارات التي تصرخ محركاتها خلال منطقة سكني القديمة.

تحدثنا ـ أنا وجنان ـ قليلاً عن التأثير الذي مارسه الكتاب علينا، كان التأثير قوياً جداً، غير قابل للجدال، وصحيحاً جداً لدرجة أن الكلام عنه سيحول محتويات الكتاب إلى نوع من الثرثرة الطفولية، لغو عقيم، كان الكتاب شيئاً ما، ضرورته غير قابلة للجدل في حياة كلينا حتى أنه يوجد بشكل ملموس بيننا، أساسي مثل ضوء الشمس والماء. لقد بدأنا رحلتنا على الطريق استجابة للضوء الذي انبعث من صفحات الكتاب على وجوهنا، وحاولنا التقدم على هذا الطريق باتباع غرائزنا، ولكن دون أن نتمنى بالضرورة معرفة أين كان هذا الذي يوجهنا.

وبالرغم من أننا غالباً ما كنا نتجادل طويلاً وبصورة شديدة حول أية حافلة نستقلها، كانت هناك حقيقة واحدة عندما أعلن الصوت المعدني عن موعد الرحيل والمكان المقصود عبر مكبر الصوت في استراحة الركاب (التي كانت واسعة جداً على مدينة بهذا الصغر)، غرست فيّ جنان شعوراً بالشوق للذهاب إلى هناك حتى أنني ـ بالرغم من اعتراضي ـ رضخت لرغبتها. وفي مرة أخرى تتبعنا شاباً صغيراً يحمل حقيبة من البلاستيك إلى الحارة المخصصة للحافلات، ترافقه أمه الدامعة العينين وأبوه الذي ينفث دخان السجائر، فقط لأن حجم الشاب وانحناءة كتفيه الخفيفة ذكّرتها بمحمد، وصعدنا على متن حافلته ـ حيث أخبرتنا

علامة بأن الخطوط الجوية التركية هي المنافس الرئيسي لخطوط الحافلات ـ فقط لكي نلاحظ أن الشاب قد غادر من ثلاث مدن ونهرين قذرين وشقّ طريقه إلى بعض المباني المخصصة للجنود المحاطة بسور من الأسلاك الشائكة وأبراج المراقبة، حيث الأحرف على الأبواب تعلن أن «السعادة هي أن تكون تركياً». ركبنا حافلات كثيرة ومتنوعة ذهبت إلى قلب السهوب، وأحياناً، فقط لأن جنان انجذبت إلى حافلة ما لونها أحمر وأخضر، أو أي شيء آخر، انظر! كيف أصبح حرف «ر» في (أسرع من البرق) مسحوباً من الاهتزازات والسرعة، متعرجاً مثل شعاع البرق. عندما أثبتت تحريات جنان عدم جدواها في موقف الحافلات القذر والأسواق الناعسة في المدن المغبرة حيث وصلنا، كنت أسألها لماذا ولأي مكان نحن مسافران؛ مذكراً إياها بأن النقود التي سرقتها من جيوب الركاب الموتى كانت تتناقص، كنت أدعي أنني أحاول فهم المنطق غير المنطقي لتحدياتنا.

لم تفاجأ جنان على الإطلاق عندما أخبرتها عن تطلعي من النافذة في غرفة الدرس في «تاسكيسلا» ورؤيتي لمحمد وقد أُطلق عليه الرصاص. بالنسبة لها، كانت الحياة مليئة بنقاط التلاقي الملحوظة والمقصودة، التي يسميها بعض الحمقى بطيئي الفهم «مصادفات». بعد أن أصيب محمد بوقت قصير، أحست جنان بأن شيئاً غير عادي قد حدث من تحركات الرجل الذي يدير كشك الهامبرجر عبر الشارع، وتذكرت أنها سمعت طلقات نارية، أدركت جنان بحاستها ما حدث وجرت إلى محمد، الذي رقد مجروحاً. إذا ما أرجعنا الأمر إلى الآخرين، فربما يعتبرون وجود سيارة أجرة في نفس النقطة التي أصيب فيها محمد مصادفة، وحقيقة أخذهم إلى مستشفى «كاسيمباسا» العسكري

كانت معتمدة على حقيقة أن سائق الأجرة قد أنهى خدمته العسكرية مؤخراً في الأسطول البحري، لم يكن الجرح في كتف محمد خطيراً جداً، وكان سيخرج من المستشفى في خلال يوم أو يومين، لكن عندما وصلت جنان إلى المستشفى في الصباح التالي، وجدت أنه رحل واختفى.

«ذهبت إلى الفندق، وألقيت نظرة سريعة على تاسكيسلا، وتوقفت عند أماكنه المفضلة التي يتردد عليها، ثم انتظرت في البيت اتصاله الهاتفي، بالرغم من أني عرفت أن كل هذا كان دون جدوى». قالت جنان ذلك بوضوح تام تركني مملوءاً بالإعجاب. «لكني أدركت أنه قد رجع إلى هناك، إلى هذه المملكة؛ فهو لم يرجع إلى الكتاب منذ وقت طويل».

كنت أنا «رفيق دربها» في رحلتها إلى هذه المملكة؛ كنا نساند بعضنا البعض في إعادة اكتشاف هذا المكان، لم يكن من الخطأ أن نعتقد أن عقلين «أفضل» من عقل واحد في بحثنا عن الحياة الجديدة، لم نكن مجرد رفيقي سفر ولكن توأمي روح؛ كنا لبعضنا البعض بمثابة دعم غير مشروط؛ كنا مبدعين تماماً مثل ماري وعلي اللذين أشعلا نار المعسكر باستخدام النظارات؛ وهكذا كنا لمدة أسابيع جالسين بجانب بعضنا البعض في الحافلات الليلية نضغط جسدينا في بعضهما.

في بعض الليالي، بعد أن ينتهي الفيلم الثاني في جهاز الفيديو بوقت طويل مردداً أصداء الضوضاء الصاخبة لطلقات الرصاص والطائرات الهليوكوبتر المنفجرة، فترة طويلة بعد أن أدركنا التعب ورحل الركاب الثابطو الهمة إلى أرض الأحلام، استسلمت أنفاسنا إلى الموت في رحلتنا التي بلا راحة أثناء ما

كنا جالسين على الإطارات المهتزة، كنت أهتز مستيقظاً لمرور الحافلة على مجرى مائي، أو فرملة مفاجئة، وكنت أحدق طويلاً وبشدة إلى جنان وهي نائمة مثل الطفل بجانب النافذة، رأسها مستلقٍ على الستائر القصيرة التي ضمتها معاً لتصنع منها وسادة، شعرها البني الفاتح يصنع غيمة جميلة على هذه الوسادة ويسقط على كتفيها. أحياناً كانت ذراعاها الطويلتان الجميلتان يصلان ناحية ركبتيّ الشغوفتين مثل زوج من أفرع الأشجار الهشة المتوازية؛ وأحياناً كان ذراع واحد يثبت اليد التي تستند عليها رأسها كوسادة ثانية، واليد الأخرى تمسك مرفق الذراع الثابتة بانسيابية. عندما نظرت إلى وجهها رأيت ألماً يذوي حاجبها، أحياناً ما كان حاجباها البنيان ينعقدان حتى تظهر علامات استفهام في منتصف جبهتها وتملأني بالخوف. ثم أرى شعاعاً في بشرتها الشاحبة، وأحلم بجنة مخملية حيث الأزهار متفتحة والسناجب تقفز مرحة في وقت الغروب، داعية إياي إلى بلاد العجائب حيث تلتقي عظمة وجنتها بمقدمة رقبتها الرشيقة، أو لو انحنى رأسها إلى الأمام في نقطة صعب الوصول إليها حيث يسقط شعرها على مؤخرة عنقها، كنت أنظر إلى المملكة الذهبية في وجهها - لو نجحت في الابتسام ولو حتى قليلاً خلال نومها - وعلى شفتيها الممتلئتين للغاية والشاحبتين للغاية، والمشققتين قليلاً أحياناً؛ لأنها غالباً ما تعض هاتين الشفتين، وكنت أقول لنفسي: أنا لم أتعلم هذا في المدرسة، ولم أقرأ عنه في أي كتاب، لكن كم من الجميل - يا ملاكي - مشاهدة المحبوب وهو نائم!

تكلمنا بالفعل عن الملاك وأيضاً عن الموت الذي يبدو وكأنه الأخ غير الشقيق ذي الكرامة والكئيب للملاك، ولكننا فعلنا

ذلك من خلال كلمات كانت هشة وضعيفة مثل الأشياء سهلة الكسر التي ساومت عليها جنان عند أكشاك السوق، محلات الأدوات المنزلية، أو متاجر الناعسة للأقمشة والملبوسات و ـ بعد أن لعبنا بها لفترة قصيرة ـ تركناهم خلفنا في مقاهي المحطة أو على مقاعد الحافلات، كان الموت في كل مكان، وخصوصاً هناك لأنه يشع خارجاً من هذا المكان، كنا نبحث عن إشارات لنصل إلى هناك ونجد محمداً، لكن تركنا آثار خلفنا. لقد تعلمنا كل هذا من الكتاب ـ تماماً كما علمنا عن اللحظات الفريدة للحوادث، البداية حيث يكون العالم الآخر مرئياً، عند مداخل السينما، حلوى «الحياة الجديدة»، الأشخاص الذين اغتالوا محمداً وربما حتى نحن، عن مخيمات الفنادق حيث كانت خطواتي مسموعة، عن الصمت المستمر، عن الليالي والمطاعم سيئة الإضاءة، يجب أن أرتب الأمور بهذا الشكل؛ بعد كل ما قيل وتمّ، صعدنا على متن حافلة ما مرة أخرى؛ بعد كل ما قيل وتمّ بدأنا رحلتنا على الطريق مرة ثانية؛ أحياناً حتى قبل حلول الليل، يكون مساعد الحافلة يتفحص التذاكر، والركاب يتعارفون، والأطفال والركاب الأكثر قلقاً يشاهدون الطريق الجبلي الإسفلتي الناعم كما لو كانوا يشاهدون شاشة الفيديو، عندها تظهر ومضة مفاجئة في عينيّ جنان وتبدأ الحديث.

قالت في إحدى المناسبات: «عندما كنت صغيرة، كنت أحياناً ما أستيقظ في منتصف الليل، وأفتح الستائر وأنظر خارجها، يكون هناك رجل يمشي في الشارع، رجل سكير، أحدب، سمين، رجل الحراسة الليلي. دائماً رجل. . . . كنت خائفة، وأحببت سريري، ولكن تمنيت أن أكون في الخارج هناك أنا أيضاً».

فيما بعد في هذه الليلة، قالت: «تعلمت من الأولاد وأنا ألعب «الاستغماية» مع أصدقاء أخي في منزلنا الصيفي. أو في المدرسة الإعدادية، وأنا أشاهدهم ينظرون إلى شيء ما أخرجوه من مكاتبهم. أو عندما كنت أصغر كثيراً، عندما كنا في منتصف اللعب وفجأة يكونون في حاجة لقضاء حاجتهم، الطريقة التي كانوا يحركون بها سيقانهم.

وفيما بعد تحدثت أكثر: «كنت في التاسعة من عمري، سقطت على شاطىء البحر وجرحت ركبتي. صرخت أمي بفزع وبكت، ذهبنا لزيارة طبيب الفندق. فقال لي يا لك من فتاة جميلة، يا لك من فتاة لطيفة. غسل جرحي بمطهر البروكسيد، قائلاً إنني فتاة ذكية. الطريقة التي نظر بها إلى شعري، جاءتني فكرة أن الطبيب أحب النظر إليّ، كان يملك عينين ساحرتين نظرتا لي من عالم آخر، كانت جفونه ثقيلة قليلاً، جاعلة إياه ربما يظهر بمظهر ناعس، ولكنه ما زال يراني ويرى كل شيء حولي بوضوح».

وفي ليلة أخرى، كنا نتكلم عن الملاك مرة أخرى. قالت جنان: «إن عيني الملاك في كل مكان، على كل شيء، دائماً حاضرة، إنما البشر البائسون مثلنا، ما زالوا يعانون من غياب هذه العيون. هل هذا بسبب أننا كثيرو النسيان؟ بسبب ضعف إرادتنا؟ أم أننا لا نستطيع أن نحب الحياة؟ أعرف أنني سأنظر خارج نافذة الحافلة يوماً ما، أو ليلة ما على الطريق، وأنا ذاهبة إلى مدينة أخرى، وستلتقي عيناي بعينيّ الملاك، يجب أن أتعلم كيف أنظر، لكي أتمكن من الرؤية. لدي إيمان في الحافلات. لدي إيمان أيضاً في الملاك. . . . . . أحياناً. . . لا، بل دائماً. نعم، دائما حسناً، أحياناً.

«الملاك الذي أبحث عنه جاء خارجاً من الكتاب. هناك بدا الملاك وكأنه فكرة شخص آخر، مثل ضيف من نوع ما، لكني ما زلت متعاطفة معه. أنا واثقة أن اللحظة التي سأراه فيها، سيصبح لغز الحياة واضحاً بالنسبة لي، شعرت بحضوره في مواقع الحوادث وأيضاً راكباً في الحافلة. كل شيء قاله محمد أصبح حقيقة. أينما يذهب محمد، يشعّ الموت من حوله بزهو، هل تعلم؟ ربما الأمر كذلك لأنه يحمل الكتاب بداخله، لكني أيضاً سمعت عن ضحايا حوادث يذكرون الملاك وهم لا يعرفون شيئاً البتة عن الكتاب أو الحياة الجديدة. فأنا أتبع خطاه. أصل الإشارات التي يتركها خلفه ببعضها البعض.

«في ليلة ممطرة، أخبرني محمد بأن الأشخاص الذين يريدون قتله موجودون في كل مكان. من الممكن أن يكونوا في أي مكان على الإطلاق، ومن الممكن حتى أن يكونوا يستمعون إلينا في هذه اللحظة. لا تأخذ كلامي على محمل الخطأ، ولكن أنت نفسك يمكن أن تكون واحداً منهم. في مرات كثيرة يفعل الشخص عكس ما يعتقد تماماً، أو يعتقد أنه يفعل. أنت على الطريق إلى هذه المملكة، لكنك تتجه إلى الداخل،أنت تعتقد أنك تقرأ الكتاب، ولكنك تعيد كتابته. عندما تتخيل أنك تساعد فأنت تزرع الأذى. معظم الناس لا يريدون حياة جديدة ولا عالماً جديداً. لذلك فهم يقتلون مؤلف الكتاب».

كان هذا كيف جاءت جنان على ذكر الكاتب لأول مرة، أو الرجل العجوز الذي كانت تذكره بأنه «المؤلف»، محدثة إياي بلغة لم تكن واضحة تماماً ولكنها تقال بأسلوب أثارني، ليس بسبب محتواها ولكن بسبب أن ما قالته له ميزة الغموض، كانت

تجلس على واحد من مقاعد الصف الأمامي في حافلة جديدة نسبياً، وكانت عيناها مثبتتين على الخط الأبيض المتلألىء في منتصف الطريق الإسفلتي؛ لكن ـ لسبب ما غريب ـ ما كان غائباً في هذا الليل الأرجواني هو الأضواء الأمامية القادمة التي تنتمي إلى الحافلات الأخرى، الشاحنات، والسيارات.

«أعرف أنه عندما تحدث محمد والكاتب العجوز، فهما كل شيء في عيون بعضهما البعض، كان محمد يبحث عنه وقد وجده والتقاه بالفعل. عندما التقيا، لم يتحدثا كثيراً، كانا هادئين؛ تجادلا قليلاً ثم صمتا. فقد كتب الرجل العجوز الكتاب أيضاً عندما كان صغيراً أو كما يدعي الوقت الذي كتب فيه بشبابه. كاتب شاب صغير، قال ذلك بحزن. فيما بعد، «هم» قد أرهبوا الرجل العجوز وجعلوه يتنصل مما كتبه بأم يده، وهو ينظر في أعماق روحه. لا شيء يدعو للمفاجأة في ذلك. ولا حتى «أنهم» قتلوه في النهاية... ولا حتى أن دور محمد قد حان حيث إن الرجل العجوز قد مات.... لكن نحن سنجد محمداً قبل أن يجده القتلة.... ما المهم في ذلك: أن هناك آخرين قد قرأوا الكتاب ويؤمنون به. لقد التقيت بهم يجوبون المدن، مواقف الحافلات، المحلات؛ أنا أعرفهم، أتعرف إليهم من أعينهم، كما ستفهم في يوم ما، وربما أنت تفهم بالفعل. إذا فهمت اللغز الغامض، وإذا حققت تقدماً نحوه، فالحياة رائعة.

لو كنا في مطعم محبط ومليء بالذباب في استراحة منعزلة عندما كانت جنان تخبرني بكل هذا، كنا ندخن السجائر مع الشاي المجاني الذي قدمه لنا نادل ناعس، ونأكل حلوى الفراولة المطبوخة التي لها طعم البلاستيك. أما لو كنا نهتز في

المقاعد الأمامية لحافلة متهالكة، لكانت عيناي مثبتتين على شفتي جنان المكتنزتين وفمها السخي، لكن كانت عيناي مثبتتين دائماً على الأضواء غير المنتظمة للشاحنات التي تمرّ بنا من آن لآخر. ولو كنا في موقف حافلات مزدحم وسط جموع العامة الذين يحملون أكياساً بلاستيكية، حقائب من الكارتون، وأجولة، لكانت جنان أنهت ما كانت تقول فجأة! وتجري بسرعة من على المائدة وتختفي، تاركة إياي بارداً كالثلج ووحيداً في زحام الناس.

أحياناً كنت أعدّ الدقائق لساعات بلا توقف، فقط لأجدها في محل من محلات الدرجة الثانية في الحارة الخلفية لمدينة ما حيث كنا ننتظر وصول الحافلة؛ تفحص مكواة ثياب مكسورة أو واحداً من هذه الأفران القديمة التي تعمل بالفحم، ولم يعد يتم تصنيعها. أحياناً كانت تستدير نحوي بابتسامة غامضة على وجهها وجريدة محلية غريبة في يده، وتقرأ لي أمر البلدية الذي وُضع ليمنع الماشية من استخدام الطريق العام في طريقها للبيوت في المساء، أو الملاحظة التي وضعت من قبل شركة الهلال للغاز، معلنة عن ابتكاراتها الجديدة في المتجر المحلي التي أحضروها من اسطنبول. غالباً ما أجدها تتحدث بحميمية مع أشخاص في الزحام؛ وقد تكون في محادثة عميقة مع سيدة مسنة ترتدي منديلاً على رأسها، أو تُقبل مراراً فتاة لها وجه شبيه بالبطة على حجرها، أو تستنفد معرفتها الخاصة المدهشة بخطوط الحافلات ونهايات الخطوط لكي تساعد غرباء كريهين تفوح منهم رائحة صابون الحلاقة «أو بي». عندما آتي إليها بتردد ومقطوع الأنفاس تماماً. فكانت تتصرف وكأننا على الطريق فقط لكي نحل مشاكل الناس الآخرين، كانت تخبرني: «هذه المرأة العزيزة كانت

ستقابل ابنها هنا بعد أن تمّ تسريحه من قبل الجيش، لكنه لم يكن على متن الحافلة القادمة من «فان». كنا نسأل عن مواعيد الحافلات بالنيابة عن أناس آخرين، نستبدل لهم تذاكرهم، نهدىء من روع أطفالهم الباكين، نحرس لهم حقائبهم وأغراضهم عندما يذهبون إلى دورة المياه». «فليكافئك الرب» قالت ذلك ذات مرة سيدة عجوز ممتلئة الجسم ذات سن ذهبية، ثم التفتت ناحيتي، ورفعت حاجبها وأضافت: «أنت فعلاً تعرف أن زوجتك جميلة جداً، أليس كذلك؟».

ذات مرة انطفأت شاشة الفيديو المشعة بعد منتصف الليل، وتوقفت كل الحركات في الحافلة ما عدا الدخان الذي تصاعد مرتعشاً من سجائر أكثر الركاب حزناً وقلقاً، تحركت أجسادنا تدريجياً معاً في مقاعدنا المتأرجحة بخفة، شعرت بشعرك على وجهي، جنان، ويديك الرشيقتين على ركبتي و ـ على رقبتي ـ أنفاسك التي تفوح برائحة النوم، الإطارات تدور ومحرك الديزل مستمر في تكرار أنينه المستمر، والزمن ينتشر في الفراغ بيننا مثل سائل قاتم، دافىء، وثقيل، حساسية وليدة لهذا الوقت الأولي في عظام سيقاننا المخدرة، والخاملة، والمتخشبة أثارت أجسادنا بالرغبة.

أحياناً، عندما يحترق ذراعي فجأة لأقل لمسة من ذراعها، أبقى منتظراً طوال الليل أن تقع رأسها على كتفي (داعياً الله أن يدعها تسقط)، أحياناً أكون متصلباً في مقعدي خوفاً من أن أزعج خصلات شعرها التي على رقبتي، أعد أنفاسها بمهابة وإجلال، متسائلاً عن معنى الحزن الذي يمر سريعاً بحاجبها. عندما كان وجهها ـ الشاحب في وميض ضوء مفاجىء ـ يفزع مستيقظاً تحت

نظرتي، كم كنت فرحاً أنها لم تنظر من النافذة في ارتباكها المبدئي لترى أين كانت، ولكنها نظرت في عينيّ المطمئنتين، وابتسمت، بقيت ساهراً طوال الليل، حريصاً على جعل رأسها لا يميل على زجاج النافذة البارد كالثلج ويتجمد، خلعت السترة البنية القاتمة اللون التي اشتريتها في «إرزينجان» ووضعتها على ركبتيها. عندما كان السائق يقود متمايلاً بطيش هابطاً الطريق الجبلي، أقوم أنا بحراسة هيئتها النائمة الملتوية، في حالة انتُزعت من مقعدها وتأذت. وبالرغم من ذلك أحياناً ـ في مكان ما في عمق يقظتي ـ وأنا أستمع إلى صخب المحركات، تنهدات الركاب ورغباتهم الحزينة في الموت، تتركز عيناي على نقطة ما بين بشرة رقبتها الناعمة وتعاريج أذنها الرقيقة، وأفقد نفسي في حلم يقظة من أحلام الطفولة بركوب القارب أو بمعركة بكرات الثلج التي تذوب بعد ذلك لتتحول إلى أحلام السعادة الزوجية التي ستكون عليها حياتنا يوماً ما.

بعد ذلك بساعات، عندما أمرني بالاستيقاظ شعاع شمس لعوب كان بارداً ومنكسراً كالزجاج المنحوت، أدركت أن الحديقة المثيرة التي تفوح برائحة اللافندر التي تهدهد رأسي كانت طوال الوقت رقبتها؛ وبعد أن بقيت هادئاً لفترة أطول بين النوم واليقظة هناك، طرفت بعيني أحيي النهار المشرق بالخارج، الجبال باهتة الزرقة والعلامات الأولية للحياة الجديدة، فقط لأنظر بحزن كيف كانت عيناها بعيدتين جداً عني.

«الحب» بدأت تتحدث في مساء ما كأنها راوٍ متمكن غير مرئي، نافخة النار في الكلمة التي علقت في حلقي مثل قطعة الفم الساخن، «الحب يشير إلى الطريق، يفرغ منك الأشياء التي

صنعت منها الحياة، يحملك في النهاية إلى غموض الخلق. لقد فهمت ذلك الآن. نحن على الطريق إلى هناك».

أكملت حديثها، غير منتبهة لصورة «كلنت إستوود» التي تحدق فيها على غلاف مجلة قديمة تُركت على مائدة في موقف حافلات في مكان ما، «اللحظة التي رأيت فيها محمداً، عرفت أن حياتي كلها سوف تتغير. فقبل أن أراه كانت لي حياة، ولكن بعد أن عرفته، حياتي تحولت، كان الأمر كما لو كان كل شيء من حولي قد غيّر لونه وشكله ـ البشر، الأفرشة، المصابيح، المناضد، الشوارع، السحب، المداخن، كل شيء بمعنى كل شيء. كنت ـ بكل تقدير وإعجاب ـ قد بدأت الرحلة لكي أكتشف هذا العالم الجديد. اشتريت الكتاب وأنا أفكر أنني لم أعد في حاجة إلى كتب أو قصص خيالية، لكي أعرف العالم الذي انفتح أمامي حقاً، فيجب عليّ أن أقوم بالبحث، برؤية كل شيء بأم عيني، لكن عندما قرأت الكتاب نفسه، فهمت على الفور ما يرقد خلف كل شيء يجب أن أراه. شجعت محمداً ـ الذي كان قد رجع حزيناً من البلاد حيث كان قد ذهب في البحث عن الحياة الجديدة ـ وأقنعته بأننا معاً سوف نصل إلى هناك. رجوعاً إلى هذه الأيام، قرأنا الكتاب مجدداً مرات ومرات، لكن كل مرة بعيون جديدة. أحياناً كنا نقضي أسابيع في فقرة واحدة، وأحياناً أخرى يكون كل شيء واضحاً كالجرس فور قراءته، ذهبنا لمشاهدة أفلام، قرأنا كتباً وجرائد أخرى، مشينا عبر الشوارع، والأوقات حينما كان الكتاب في عقولنا ـ عندما حفظناه عن ظهر قلب ـ لمعت شوارع اسطنبول ببريق غير عادي حتى تخيلنا أن المدينة أصبحت تنتمي لنا، كانت لنا طريقة لمعرفة أن الرجل المسن الذي رأيناه على ناصية الشارع يقف مائلاً على عصاه يخطط

ليضيع وقته في المقهى حالما يحين الوقت ليحضر حفيده بعد المدرسة، عرفنا أن أنثى الحصان التي تجر العربة الأخيرة من بين الثلاث عربات التي مرت كانت أم الحصانين الهزيلين اللذين يجران العربتين الأخريين، عرفنا لماذا أكثر الرجال الآن يرتدون جوارب زرقاء؛ عرفنا كيف نفك رموز جدول مواعيد القطارات بقراءته من أسفل لأعلى، أو أن الحقيقة التي يحملها الرجل السمين كثير العرق الذي ركب الحافلة كانت مليئة بملابس داخلية قد أخذها من المنزل الذي سرقه لتوه، كنا نذهب إلى مقهى ونقرأ الكتاب مرة أخرى ثم نقوم بمناقشته لساعات. كان هذا هو الحب، أحياناً كنت أعتقد أن الحب هو الطريقة الوحيدة لفهم عالم بعيد ـ كما في الأفلام ـ ولتنتقل إلى هناك.

قالت لي في ليلة ممطرة دون أن تخفض عينيها عن مشهد القبلات على الشاشة: «لكن بعد ذلك، كان هناك أشياء لا أعرف عنها شيئاً، أشياء لم أكن أبداً لأعرفها». وبعد أربعة أو خمسة أميال من الطريق الزلق عندما كان مشهد القبلات قد حلّ محله مشهد حيث كانت حافلة تشبه حافلتنا تسافر عبر مناظر ساحرة مختلفة تماماً، أضافت: «الآن نحن ذاهبون إلى هذا المكان غير المعروف بالنسبة لنا».

عندما كانت الملابس التي نرتديها جافة وخشنة من القذارة والغبار، وتاريخ كل الشعوب التي أثارت الغبار على هذه الأرض منذ أيام الحروب الصليبية قد استقر طبقة فوق أخرى على جلدنا، كنا نذهب للشراء بعشوائية من مدينة عشوائية قبل أن نغيِّر الحافلات. تشتري جنان لنفسها بعضاً من هذه التنانير القطنية الطويلة التي تجعلها تبدو كمعلمة محلية حسنة النية، وأشتري أنا نوعاً من القمصان كانت ترتديها نسخ باهتة من أنفس قديمة. فيما

بعد إذا ما نجحنا في أن ننظر إلى ما بعد مبنى مجلس البلدية، تمثال «أتاتورك»، وكالة أدوات «أرسليك»، الصيدلية والمسجد، ملاحظين الخط الأبيض الدقيق الذي تركته طائرة ما في السماء الصافية الزرقة، يمكن رؤيته من وراء اللافتة المصنوعة من قماش الكتان بمدرسة القرآن وحفل الختان الذي كان يقترب، كنا نتوقف حيثما كنا، حاملين في أيدينا حقائبنا البلاستيكية واللفافات، ولدقيقة كنا ننظر لأعلى إلى السماء بحرارة قبل أن نسأل بيروقراطياً شاحباً يرتدي ربطة عنق باهتة عن الطريق إلى الحمام العام للمدينة.

وبما أن الحمامات تكون مخصصة للنساء في الصباح، فقد كنت أقضي الوقت في الشوارع والمقاهي؛ وعندما أمشي بجوار فندق المدينة، أحلم بإخبار جنان أننا بحاجة إلى قضاء ليلة واحدة على الأقل في أرض ثابتة، في فندق ـ على سبيل المثال ـ بدلاً من ركوب الإطارات مجدداً والنوم في الحافلات. وفي بعض الأمسيات عندما أنجح في إخبارها بما كنت أحلم به، كانت جنان تعرض علي ثمار التحقيقات التي أجرتها في وقت الظهيرة بينما كنت أنا في الحمامات: مجلد لأعداد من مجلات رومانسية للصور، قصص كوميدية للأطفال والتي كانت هي الأقدم، عينات من لبان البالون لا أتذكر أنني تناولته قط، ودبوس شعر لم تكن أهميته واضحة بشكل مباشر. «سأخبرك ونحن في الحافلة»، كانت تقول لي، معطية إياي هذه الابتسامة الخاصة التي تظهر على وجهها عندما تكون قد رأت الفيلم الذي يُعرض على جهاز الفيديو من قبل.

في ليلة ـ بدلاً من عرض فيلم الفيديو المبتذل الذي كان يُعرض عادة في حافلتنا ـ ظهر مذيع جاد ومهذب على شاشة

التليفزيون لكي يعلن عن بعض الملاحظات عن الوفيات، قالت جنان: «إنني أشق طريقي لأصل إلى حياة محمد الأخرى، لكنه لم يكن محمداً، كان شخصاً آخر في هذه الحياة الأخرى». انعكست أضواء نيون حمراء واهنة على وجهها أثناء ما سرنا بسرعة بجانب محطة للوقود.

«لم يصرح محمد بالكثير عن الشخص الذي اعتاد أن يكون، فضلاً عن ذكر أخواته، منزله الكبير، شجرة التوت، وأنه اعتاد أن يحمل اسماً آخر وهوية أخرى، ذات مرة أخبرني كيف أنه في طفولته كان يحب قراءة مجلة تصدر بانتظام تدعى «مجلة الأطفال الأسبوعية». هل سبق لك أن قرأتها؟» تحركت أصابعها الرشيقة على الإصدارات المصفرة لمجلد للمجلة الأسبوعية العالق بين سيقاننا والمنضدة، وهي تشاهدني أقلّب خلال الصفحات دون أن أنظر إليها، قالت: «السبب في أنني أجمع هذه هو أن محمداً ادعى أن كل شخص سوف يعود في النهاية إلى مكان ما بين هذه الصفحات، هذه الصفحات تشتمل على طفولته. فهي التي صنعت الكتاب. هل تفهم؟» لم أفهم تماماً، وأحياناً لم أكن أفهم على الإطلاق، لكن جنان توجهت إليّ بطريقة شعرت معها أنني فهمت حقاً. قالت جنان: «مثلك، محمد أيضاً قرأ الكتاب وفهم أن حياته كلها سوف تتغير؛ ودفع بفهمه لآخر مدى إلى نهايته المنطقية. لقد كان يدرس الطب، ولكنه تركه لكي يكرّس كل الوقت للحياة التي في الكتاب. لقد فهم أنه يجب أن يهجر ماضيه كلياً لو كان سيصبح مخلوقاً جديداً كلياً؛ ولذلك قطع كل علاقاته مع والده وعائلته. . . . لكن لم يكن من السهل أن يصبح حراً وبمعزل عنهم، أخبرني أنه قد حقق بالفعل الحرية للمضي قدماً إلى حياته الجديدة بواسطة حادثة

طريق. صحيح: الحوادث عبارة عن تحولات، والتحولات هي الحوادث، فالملاك يصبح مرئياً في لحظة التحول السحرية، وعندها إذاً ندرك المعنى الحقيقي للفوضى التي تدعى الحياة. عندها فقط نستطيع أن نعود أدراجنا إلى الوطن».

عند سماع هذه الكلمات، كنت أضبط نفسي حالماً بأمي التي تركتها خلفي، حجرتي، أشيائي، فراشي؛ وأشعر بأنني متسرع بشكل غادر ومذنب، كنت أشيد خيالات تربط ما كان في أحلامي سوية مع أحلام جنان بالحياة الجديدة.

الفصل السادس

جهاز التليفزيون دائماً ما يكون موضوعاً في مكانٍ ما فوق مقعد السائق، وفي بعض الأمسيات لم نكن نتحدث ولكن تظل أعيننا معلقة فوق الشاشة؛ ولأننا لم نكن قد قرأنا الصحف منذ أشهر، فقد كان التليفزيون ـ الذي يكون مليئاً بالصناديق، مفارش المائدة، ستائر مخملية، أساس خشبي مطلي بملمع الخشب، تمائم، عيون حاقدة، ملصقات، تحف، ويرتفع إلى حالة المذبح الحديث ـ هو النافذة الوحيدة التي نملكها في هذا العالم، فضلاً عن نوافذ الحافلة. شاهدنا أفلام الكراتيه حيث الأبطال سريعو البديهة يركلون ويلقون في آن واحد وجوه مئات المشردين السكارى، وكذلك الأفلام المقلدة المحلية بطيئة الحركة التي صنعت باستخدام ممثلين خرقى، رأينا أيضاً أفلاماً أمريكية مثل الفيلم الذي فيه البطل الأسمر الذكي والجذاب يخدع الشرطة كما يخدع أيضاً أفراد العصابة، أو أفلام الطائرات، حيث يقوم شباب حسنو الطلعة بأداء حركات بهلوانية انتحارية بطائراتهم، وأفلام الرعب حيث الفتيات الصغيرات الجميلات خائفات للغاية من مصاصي الدماء والأشباح. في الأفلام المحلية، التي كانت في المطعم عن أناس أثرياء لم يستطيعوا النجاح في إيجاد أزواج مخلصين ومناسبين لبناتهم اللاتي يتصرفن كسيدات، كل الأبطال ـ سواء كانوا رجالاً أو نساء ـ بدوا وكأنهم قد أمضوا وقتاً كانوا

فيه مطربين في مرحلة ما من حياتهم، وهم باستمرار يسيئون فهم بعضهم البعض بشكل كامل حتى أن سوء الفهم هذا يتحول في النهاية إلى نوع من الفهم. لقد أصبحنا معتادين على رؤية نفس الوجوه والأجسام في أدوار نمطية مثل رجل البريد المريض، المغتصب القاسي، الأخت طيبة القلب لكن بسيطة المظهر، القاضي رخيم الصوت، المرأة المتزوجة الغبية أو الذكية، حتى أننا عندما نرى في استراحة المحطة الأخت الطيبة القلب جالسة مع المغتصب القاسي ويتناولان سوية حساء العدس الأحمر بهدوء مع باقي الركاب الليليين الناعسين في «مطعم ممر الذكريات» حيث تم وضع صور لمساجد، لأتاتورك، لمصارعين، ونجوم السينما على الحوائط، نكون على قناعة بأننا قد خدعنا. بينما تتذكر جنان على مهل أياً من الممثلات الشهيرات في الصور التي على الحائط قد لعبت دور الضحية التي تعرضت للتحرش من قبل مغتصب في الأفلام التي قد رأيناها، تذكرت أنني نظرت إلى الرواد الآخرين في المطعم المبهرج، مفكراً أننا جميعاً ركاب على سفينة غامضة نتناول الحساء في حجرة الطعام الباردة والمضيئة ونبحر نحو الموت.

رأينا مشاهد مشاجرات كثيرة جداً على الشاشة، نوافذ كثيرة، زجاج، أبواب كلها محطمة، سيارات وطائرات كثيرة اختفت عن الرؤية واحترقت عن آخرها، منازل كثيرة، جيوش، عائلات سعيدة، رجال سيئون، خطابات غرامية، ناطحات سحاب، كنوز ابتلعتها النيران المستعرة، رأينا كل الدماء التي تتدفق من الجروح، من الوجوه، من الرقاب المذبوحة، وشاهدنا مشاهد مطاردات لا حصر لها حيث مئات وآلاف السيارات تجري مسرعة وراء بعضها البعض، تتخطى المنحنيات بسرعة كبيرة ثم

تصطدم ببعضها البعض بسعادة، شاهدنا عشرات الآلاف من الانتحاريين، رجالاً ونساءً، أجانب ومن البلد، بشوارب وبدون شوارب، يطلقون النار على بعضهم البعض دون توقف. «لم أعتقد أن الرجل يمكن أن ينخدع بسهولة». كانت جنان تقول بعد أن ينتهي شريط الفيديو الأول وقبل أن يبدأ الآخر. وبعد أن ينتهي الشريط الثاني ويفسح الطريق للبقع السوداء على الشاشة الفارغة، كانت تضيف: «ما زالت الحياة جميلة إذا كنت على الطريق إلى مكان ما». أو «لا أصدق أي شيء من هذا، لم أنخدع ولكني ما زلت أحبه». أو ـ تظل النهاية السعيدة للفيلم على وجهها لفترة ـ كانت تتمتم وهي بين النوم واليقظة: «سأحلم بالسعادة الزوجية».

عند نهاية الشهر الثالث من رحلتنا، كنت أنا وجنان قد شاهدنا حتماً أكثر من ألف من مشاهد القبلات مع كل قبلة، يطبق الصمت على المقاعد، لا يهم إلى أي مدينة صغيرة أو مدينة معزولة تتوجه إليها الحافلة، لا يهم من يكون الركاب، هل هم من النوع الذي يسافر بسلال البيض أو بيروقراطيون يحملون الحقائب؛ كنت واعياً، ليدي جنان، على ركبتيها أو حجرها، وللحظة أرغب في أن أفعل شيئاً مهماً يكون قوياً وعنيفاً بعمق. حتى نجحت في ليلة صيف ممطرة في عمل شيء لم أكن واعياً تماماً أني أريد فعله، أو فعل شيء ما قريباً منه.

كانت الحافلة المظلمة نصف ممتلئة؛ وكنا نجلس في مكان ما في المنتصف؛ وعلى شاشة الفيديو كانت السماء تمطر في مشهد استوائي بعيد وأجنبي للغاية. كنت قد قربت وجهي ـ بغريزية ـ بالقرب من النافذة، وبذلك أصبحت قريباً من جنان،

ولاحظت أنها تمطر بالخارج، كانت جنان تبتسم لي عندما قبلتها على شفتيها كما يفعلون في الأفلام والتليفزيون، أو هكذا تخيلت أنهم يفعلون؛ قبلتها بكل قوتي وهي تقاوم، بكل رغبتي، وغضبي، ودمي المتدفق.

قالت لي: «لا يا عزيزي، لا! أنت تشبهه كثيراً ولكنك لست هو. هو في مكان آخر».

هل كان الوهج الوردي على وجهها انعكاساً للافتات النيون لشركة البترول التركية الأكثر عزلة، والأكثر لعنة؟ أو انعكاساً لفجر مذهل يشرق في العالم الآخر؟ كان هناك دم على شفتي الفتاة، الكتب تخبرنا بما يحدث في مثل هذه المواقف، والأبطال في الأفلام يردون بقلب الموائد، تحطيم النوافذ، وتحطيم سياراتهم بالاصطدام بالحوائط، توقعت مذاق قبلة على شفتي، ولكني كنت متأزماً. ربما كانت فكرة خلاقة جاءت إلى ذهني: أنا لست هنا، أخبرت نفسي؛ إذا لم أكن هنا، ما الفرق الذي سيصنعه وجودي؟ لكن بعد ذلك بدأت الحافلة في الاهتزاز بحماس متجدد وشعرت أنني على قيد الحياة أكثر من أي وقت مضى، الألم الذي بين ساقي تفاقم وأصبح حاداً، مما جعلني راغباً في إجهاد نفسي، أن أنفجر، ثم أتراجع. ثم أصبحت الرغبة حتماً أعمق؛ فيجب أن تكون شملت العالم كله، عالم جديد. توقعت هذا دون معرفة ما يمكن أن يحدث؛ كنت أنتظر، عيناي رطبتان، جسدي يعرق: كنت أسعى إلى شيء دون معرفة ما هو، عندما انفجر كل شيء بسلام، ليس بسرعة جداً، ولا ببطء جداً، ثم خفت واختفى.

سمعنا أولاً الضوضاء الرائعة ثم لحظة الصمت الهادىء

الذي يتبع الحادثة، أدركت أيضاً أن جهاز التليفزيون قد انفجر متحولاً إلى شظايا هو والسائق معاً؛ وعندما بدأت الصيحات والأنات، أخذت جنان من يدها وقدتها بحنكة وأمان هابطاً بها إلى وجه الأرض. واقفين في المطر الغزير، أدركت أن الحافلة لم تعان من الدمار الكامل، كان هناك اثنان أو ثلاثة من الضحايا بالإضافة إلى سائقنا أما الحافلة الأخرى التي تتبع شركة تدعى بـ «الطريق السريع»، فقد انثنت إلى نصفين على جسد سائقها الميت وتدحرجت في حقل من الوحل، وكانت مملوءة بالموتى والمحتضرين. كما لو كنا نخطو هابطين إلى مركز الحياة، نزلنا تدريجياً إلى حقل الذرة حيث تدحرجت الحافلة، واقتربنا منها شاعرين بأننا مسحورين.

عندما اقتربنا، رأينا فتاة تكافح لكي تخرج من نافذة انفتحت بعد أن انفجرت متحطمة؛ كانت تشق طريقها بقدمها أولاً؛ كان سروالها «الجينز» الأزرق مغطى بالدماء، ظل ذراعها ممتداً إلى داخل الحافلة حيث كانت تمسك بيد شخص ما ـ مددنا رأسينا للداخل لنرى أن هذه اليد تنتمي إلى شاب يبدو عليه الإعياء لدرجة أنه لا يقدر على التحرك، حررت الفتاة ذات الجينز الأزرق نفسها بمساعدتنا، لكنها لم تدع يده من يدها ولو للحظة واحدة. ثم انحنت على اليد وظلت تشدها، وهي تكافح لتسحب يد الشاب إلى الخارج، لكن استطعنا أن نرى أنه كان منحشراً بين الكروم والمعادن المطلية التي انسحقت معاً كالورق المقوى، كان الفتى في وضع مقلوب، ناظراً إلينا وإلى الكون المظلم والممطر عندما مات.

غسلت مياه الأمطار الدماء عن شعرها الطويل، وعن عينيها ووجهها، كانت تبدو في مثل عمرنا، كان وجهها ـ الذي انتعش

من ماء المطر ـ يحمل تعبيراً طفولياً باستثناء نظرة شخص قابل الموت وجهاً لوجه، أيتها الفتاة المبتلة، نحن آسفان جداً من أجلك. في الضوء القادم من حافلتنا، نظرت الفتاة للحظة إلى الشاب الميت وهو جالس في مقعده.

قالت: «أبي. . . . أبي سيغضب جداً الآن». تركت يد الشاب الذي مات، ثم أخذت وجه جنان بين يديها، وأخذت تهدهده كما لو كانت أختاً بريئة تعرفها منذ مئات السنوات. قالت: «أيتها الملاك، لقد وجدتك أخيراً، هنا في النهاية، بعد كل هذه الرحلات في المطر». أدارت وجهها الجميل المغطى بالدماء باتجاه جنان، وهو يتوهج بالإعجاب، بالاشتياق، والسعادة. قالت: «النظرة التي تلاحقني دائماً، التي تبدو وكأنها تظهر في آخر الأماكن المتوقعة فقط لكي تختفي، والتي تجعل نفسها منشودة لتختفي أكثر، كانت من البداية وكل هذا الوقت نظرتك، أنتِ تعرفين كيف بدأنا رحلتنا على الطريق بالحافلة وسافرنا من مدينة إلى أخرى، ونحن نقرأ الكتاب مجدداً، فقط لكي نلتقي بنظرتك، أيتها الملاك، فقط لننظر بالمقابل في عينيك».

ابتسمت جنان قليلاً، كانت مندهشة قليلاً، غير متأكدة قليلاً، لكنها فرحة وحزينة بسبب الهندسة المختبئة في اعتقاد الفتاة الخاطىء.

«استمري في الابتسام لي»، قالت الفتاة المحتضرة ذات الجينز الأزرق. (لقد فهمتُ أنها ستموت حتماً، يا ملاكي) «ابتسمي لي لأستطيع أن أرى في وجهك ولو لمرة إشراقة العالم الآخر؛ فإنه يذكرني بدفء المخبز في يوم مُلىء بالجليد حيث توقفت عندما مررت من أمامه بعد المدرسة بحقيبة ظهري في يدي

واشتريت فطيرة بالسمسم؛ يذكرني بسعادة القفز من على مصدات الأمواج إلى البحر في يوم صيف حار. تذكرني ابتسامتك بقبلتي الأولى، العناق الأول، أشجار الجوز التي تسلقتها بنفسي إلى أن وصلت إلى قمتها، ليلة الصيف حينما سموت فوق نفسي، الليلة التي كنت فيها سَكْرى بسعادة، الشعور بأنني تحت لحافي، عيون الولد الجميل الذي نظر إليّ بحب، كل هذه الذكريات توجد في المملكة الأخرى حيث أرغب في أن أكون، ساعديني لكي أقبل بسعادة روحي وهي تتناقص مع كل نفس آخذه».

ابتسمت جنان لها بلطف.

قالت الفتاة، وهي واقفة في حقل الذرة الذي يردد أصوات صرخات الموت والذكرى. «آه، أنتم الملائكة! كم أنتم مرعبون! كم أنتم قساة بلا شفقة، وبالرغم من ذلك كم أنتم جميلو الطلعة! بينما كل كلمة، كل شيء، كل ذكرى تمتصنا تدريجياً وتحولنا إلى تراب، فكل شيء تلمسونه أنتم وإشعاعكم الذي لا يفنى يظل بسلام خارج الزمن. ولذلك، منذ أن قرأنا أنا وحبيبي المنحوس الكتاب، ونحن نبحث طويلاً عن نظرتك من نوافذ الحافلات. الآن أرى أنها نظرتك، أيتها الملاك، هي اللحظة الفريدة التي وعد بها الكتاب، هذه لحظة العبور بين المملكتين؛ الآن وأنا لست هنا ولا هناك، أفهم ماذا كان يقصد بالرحيل؛ والآن كم أنا سعيدة بفهمي لمعنى السلام، الموت، والزمن، استمري في الابتسام لي ـ يا ملاك ـ ابتسمي».

لم أستطع تذكر ما حدث بعد ذلك لوقت ما.. ما حدث لي كان شيئاً كأن تفقد رأسك في نهاية نوبة مبهجة من السُّكر والشرب، وفي الصباح تقول: «وعند هذه النقطة انقطع الفيلم». أتذكر أن الصوت انقطع أولاً، واستطعت تقريباً أن

أرى كيف كانتا ـ الفتاة وجنان ـ تنظران إلى بعضهما البعض. من المؤكد أن الصورة انقطعت كما انقطع الصوت؛ لأن ما رأيته فيما بعد فشل في أن يصبح جزءاً من ذكرياتي، وتبخر دون أن يُسجل بأي أثر للذكرى.

أتذكر بغموض الفتاة ذات الجينز الأزرق وهي تذكر شيئاً عن الماء، لكني لا أستطيع استرجاع كيف عبرنا حقل الذرة لنصل إلى ضفة النهر، أو إذا ما كان نهراً في الواقع أم أنه مجرد جدول مائي مُلىء بالوحل، ولم أستطع تحديد مصدر الضوء الأزرق الذي استطعت أن أرى فيه قطرات المطر تسقط على جسم من ماء مكونة دوائر متحدة المركز.

رأيت الفتاة بعد فترة تأخذ وجه جنان مرة أخرى بين يديها، كانت تهمس بشيء ما إلى جنان، لكني لم أستطع أن أسمع، أو أن الكلمات التي همست بها كما لو كانت في حلم لم يصل لي، شعرت بالذنب، فكرت في أنني يجب أن أترك الفتاتين بمفردهما، أخذت خطوتين باتجاه النهر، لكن غاصت قدمي في الأرض المنخفضة المليئة بالوحل، وأصابت خطواتي غير الثابتة فريقاً من الضفادع بالفزع فقفز في الماء مصدراً صوتاً مميزاً، طفت علبة سجائر متجعدة على الماء ببطء متجهة نحوي؛ كانت علبة من نوع «مالتيب»، وهي تتمايل هنا وهناك بواسطة قطرات المطر الصغيرة التي تضربها على الجانبين؛ ثم ـ بفخر وثقة ـ تقدمت بزهو إلى أرض الاحتمالات، لم يكن هناك أي شيء آخر يُرى بوضوح في مجال رؤيتي الغامض فضلاً عن علبة السجائر وظلال جنان والفتاة التي اعتقدت أنني أستطيع رؤيتها تتحرك. أمي، أمي، لقد قبلتها ورأيت نفسي أموت، كنت أقول هذا لنفسي عندما سمعت نداء جنان.

قالت: «ساعدني، أريد أن أغسل وجهها لكي أمنع والدها من أن يرى الدماء».

وقفت خلفها ومسكت الفتاة لأعلى، كان كتفاها ضعيفين، وإبطاها دافئين، شاهدت ما يكفيني من اهتمام ورحمة الأمومة في إيماءات جنان، وهي تغسل وجه الفتاة، تسكب الماء بملء يدها من البركة حيث رأيت علبة السجائر تبحر، تنظف بحنان الجرح الذي في جبهتها؛ لكن جاءني إحساس بأن نزيف الفتاة لن يتوقف. قالت الفتاة إنها عندما كانت صغيرة، كانت جدتها تحمّمها بهذا الشكل؛ اعتادت أن تخاف من الماء لفترة ما، لكن الآن عندما أصبحت أكبر أحبتها، لكنها كانت تحتضر.

قالت: «هناك أشياء يجب أن أخبركما بها قبل أن أموت، ساعداني لأصل إلى الحافلة».

كان هناك زحام بلا قرار، مثل هؤلاء الذين تراهم في نهاية ليلة جامحة ومرهقة من ليالي المهرجانات، يتجولون حول الحافلة التي انقلبت وانثنت حول نفسها، كان هناك شخصان يتحركان ببطء في الجوار بدون أي هدف واضح، ربما كانوا ينقلون الجثث مثل الحقائب. فتحت امرأة تحمل حقيبة بلاستيكية مظلتها ووقفت تنتظر كما لو كانت تنتظر حافلة أخرى، كان الركاب على حافلتنا القاتلة - وكذلك بعض الركاب من الحافلة التي تمّ تدميرها - يحاولون سحب بعض الأحياء الذين تمّ احتجازهم وسط الحقائب والجثث في الحافلة المتحطمة إلى الخارج في المطر. اليد التي كانت تمسكها الفتاة - التي كانت ستموت سريعاً - ما زالت هناك كما تركتها تماماً.

بدت الفتاة تقترب من الحافلة بدافع من الشعور بالواجب

والضرورة أكثر منه شعور بالحزن. قالت: «لقد كان حبيبي، كنت أنا من قرأ الكتاب أولاً، وكنت منبهرة وخائفة، كان من الخطأ أن أعطيه الكتاب ليقرأه، كان هو الآخر منبهراً أيضاً، لكن هذا لم يكن كافياً بالنسبة له؛ أراد أن يذهب إلى هذه الأرض. ظللت أخبره بأنه مجرد كتاب، لكنه لم يكن مقتنعاً. كنت أحبه. لذلك انطلقنا على الطريق، مسافرين من مدينة إلى أخرى، ملتمسين مظاهر الحياة، باحثين عما يختبىء تحت ألوان الحياة، نبحث عن الحقيقة ولكن لا نجدها. عندما بدأنا في التشاجر، تركته لتحرياته ورجعت إلى البيت إلى والدي وانتظرت، رجع محبوبي لي في النهاية، لكن بعد أن أصبح شخصاً آخر، أخبرني أن الكتاب قد ضلّل أناساً كثيرين، أخذ أشخاصاً كثيرين سيئي الحظ من المسار الطبيعي لحياتهم، وأنه مصدر لكثير من الشرور. الآن لقد أخذ عهداً على نفسه بأن يأخذ بثأره من الكتاب لكونه السبب في كثير من الإحباط وكثير من الحيوات المحطمة، أخبرته أن الكتاب بريء، موضحة له أن هناك كتباً كثيرة تشبهه. قلت له إن المهم هو استيعابك أنت، لما تقرؤه داخل الكتاب، لكني لم أستطع أن أجعله ينصت. فلقد كان يتقلب بالفعل في غضب حاقد يهاجم سيئي الحظ الذين يتم خداعهم، أثار موضوع دكتور «فاين»، لامساً معاناته مع الكتاب، ضد الحضارات الأجنبية التي تحطمنا، ضد الأشياء العصرية عديمة النفع التي تأتي من الغرب، ومعركته الكاملة ضد الأشياء المطبوعة، أتى على ذكر كل أنواع الساعات، والتحف، أقفاص الكناريا، المطاحن اليدوية، الأدوات اليدوية، لم أفهم أي شيء من هذا، لكني كنت أحبه، كان محاطاً بشعور غريب من الاستياء، لكنه كان لا يزال حب حياتي. لهذا السبب كنت أتتبعه إلى مدينة تدعى «جيودل» حيث

قال: إن هناك مؤتمراً سرياً يعقد من قبل التجار المتحدين تحت شعار «أهدافنا». يفترض أن تابعه المخلص كان سيحدد مكاننا ويأخذنا إلى دكتور «فاين»، لكن الآن يجب عليكما أن تذهبا إلى هناك بدلاً منا، أوقفا خيانة الحياة والكتاب، دكتور «فاين» ينتظرنا ـ تاجران شابان يبيعان المواقد وهبا نفسيهما للكفاح، أوراق هويتنا في جيب القميص الخاص بحبيبي، الرجل الذي سيأتي ليأخذنا ستفوح منه رائحة صابون الحلاقة «أو بي».

أغرقت الدماء وجهها من جديد؛ قبلت وداعبت اليد التي كانت تمسكها، وبدأت تنتحب، أمسكت جنان بكتفيها.

قالت الفتاة: «أنا من يقع عليها اللوم أيضاً، أنا لا أستحق حبك. لقد أقنعني حبيبي بأن أتبعه، لقد خنت الكتاب. لقد كتب عليه أن يموت دون أن يراك لأنه يقع عليه اللوم أكثر، سيكون أبي غاضباً جداً، لكني سعيدة أنني أموت بين يديك».

طمأنتها جنان بأنها لن تموت، لكننا كنا نريد أن نصدق في الحقيقة موتها، مفترضين أن المحتضرين لم يكشفوا قط عن موتهم الموشك في كل الأفلام التي شاهدناها. في دورها كملاك، ضمت جنان يد الفتاة إلى يد الشاب الميت كما يحدث في هذه الأفلام، ثم ماتت الفتاة، يداً في يد مع حبيبها.

اقتربت جنان من الشاب الميت الذي كان ينظر للعالم بالمقلوب ولصقت رأسها بالحافلة حيث النافذة قد تحطمت. فتشت جيبه ثم خرجت في المطر بابتسامة سعيدة على وجهها، ممسكة بأوراق هويتنا الجديدة.

كم أحببت رؤية ابتسامة جنان المزهوة! باستطاعتي رؤية المثلثين الغامقين على كل من جانبي شفتيها الممتلئتين يلتقيان

بنعومة بأسنانها الجميلة، المثلثان العزيزان اللذان يتكونان على جانبي فمها عندما تضحك! لقد قبلتني مرة، وأنا قبلتها مرة؛ الآن أرغب بشدة في أن نقبّل بعضنا البعض مرة أخرى ونحن واقفان تحت المطر، لكنها أخذت خطوة صغيرة بعيداً عني.

«في حياتنا الجديدة معاً، اسمك هو «علي كارا»، قالت ذاك، وهي تقرأ من بطاقات الهوية في يدها، واسمي هو «افسون كارا». حتى أننا نملك شهادة زواج». ثم أضافت وهي تبتسم، مستخدمة لهجة تعليمية مثل مدرّسة لغة إنجليزية حنون ومتعاطفة: السيد والسيدة «كارا» في طريقهما إلى مؤتمر التجار في مدينة «جيودل».

الفصل السابع

بعد فترة من الأمطار الصيفية التي لا نهاية لها، بعد مدينتين مختلفتين، وثلاث حافلات، وصلنا إلى المدينة التي تدعى «جيودل». كنا قد غادرنا لتونا موقف الحافلات المليء بالوحل، وكنا نقترب من الأرصفة الضيقة في حي التسوق عندما نظرت لأعلى إلى السماء ورأيت شيئاً غريباً، لافتة من القماش تناشد الأطفال الالتحاق بالمدرسة الصيفية للقرآن. في نافذة العرض الخاصة بمحلات الاحتكارات وتوتو للأدوات الرياضية، تمّ وضع زجاجات الخمر المبهرجة وبينها كان هناك ثلاث من دمى الفئران تبتسم كاشفة عن أسنانها، كانت الصور التي تمّ وضعها على باب الصيدلية تشبه النوع الذي يرتديه المعزّون على ياقاتهم في الجنازات التي تقام عقب الاغتيالات السياسية، يُكتب عليها تاريخ الميلاد والوفاة الخاصة بالمجني عليه تحت الوجوه التي ذكرت جنان بشخصيات الطبقة العليا المتحفظة في الأفلام المحلية القديمة، دخلنا إلى متجر واشترينا حقيبة بلاستيكية وقمصاناً من النايلون، على أمل أن نعبّر عن أنفسنا كائنين من التجار صغار السن المحترمين، كانت أشجار الكستناء بطول الرصيف الذي أخذناه إلى الفندق قد زرعت في صفوف متساوية بشكل مدهش. قرأت جنان لافتة تحت إحدى هذه الأشجار تعلن: «عمليات الختان تؤدى بالطريقة القديمة السليمة. وليس

بواسطة الليزر»، وقالت: «إنهم ينتظروننا». أبقيت أوراق المرحوم «علي كارا» والمرحومة «أفسون كارا» جاهزين في جيبي، لكن موظف الفندق القوي البنيان قليلاً وذا شارب هتلر ألقى نظرة عابرة على وثيقة الزواج.

قال: «هل أنتما هنا لحضور مؤتمر التجار؟ الجميع في مبنى المدرسة الثانوية لعقد الجلسة الافتتاحية. هل معكما أمتعة أخرى بجانب هذه الحقيبة؟».

قلت: «أمتعتنا احترقت في حريق في الحافلة، وكذلك أمتعة بقية الركاب. أين هذه المدرسة الثانوية؟».

قال الموظف: «الحافلات لها طريقة ما في الاحتراق، يا سيدي، الصبي سيأخذكما إلى المدرسة».

تحدثت جنان إلى الصبي بطريقة لطيفة لا تستعملها معي قط. «ما قصة هذه النظارة السوداء؟». أغاظته قائلة: «إنها تجعل العالم أسود، أليس كذلك؟».

قال الصبي: «النظارة لا تفعل ذلك، لأن أنا مايكل جاكسون».

قالت جنان: «ماذا تقول أمك عن هذا؟ انظر ما أجملها من سترة شغلتها لك؟».

قال الصبي: «لا دخل لأمي في كل هذا!».

بوصولنا إلى المدرسة «كينن إفرن» الثانوية ـ التي كُتب اسمها على لافتة بأضواء النيون ـ كنا قد جمعنا بصعوبة هذه الحقائق المتعلقة بالموضوع من «مايكل جاكسون»: كان في الصف السادس؛ والده يعمل في مسرح دار العرض الذي ينتمي

إلى نفس مالك هذا الفندق، لكنه كان مشغولاً بالمؤتمر؛ كل المدينة مشغولة بالمؤتمر؛ كان هناك بعض الأشخاص ضد كل هذه الأعمال؛ بالرغم من ذلك، أكّد حاكم المقاطعة على شيء مثل: «لن أسمح للخزي أن يرتبط بأية مدينة أكون فيها الحاكم!».

هناك ـ في المعارض التي أُقيمت في «كافيتريا» مدرسة «كينن إفرن» الثانوية ـ رأيت عروضاً لجهاز يخفي الوقت، عدسة سحرية تحول الأبيض والأسود إلى ألوان، أول جهاز تركي الصنع يتتبع ويكشف لحم الخنزير في أي منتج كان، مرطب بعد الحلاقة بدون رائحة، مقص يقص أوتوماتيكياً الكوبونات من الجرائد، مدفأة تعمل حينما يخطو صاحب المنزل إلى منزله، ساعة زنبركية تقدِّم حلاً لمشكلة النداء للصلاة، وهي: هل يجب أن تذاع بمكبرات الصوت أم يؤذن المؤذن للصلاة من المئذنة بما تتسع به رئتاه، هذه الساعة تضع حداً من تلقاء نفسها لقضية «الحضارة الغربية مقابل الحضارة الإسلامية» من خلال جهاز عصري: بدلاً من طائر الكوكو المعتاد، تمّ تعيين شخصين آخرين، إمام صغير يظهر في الشرفة السفلى في الوقت المحدد للصلاة ليعلن ثلاث مرات أن «الله أكبر!» ودمية رجل صغير يرتدي ربطة عنق لكن بلا شوارب يظهر في الشرفة العليا كل ساعة. مؤكداً أن «السعادة هي كونك تركياً، تركياً، تركياً».

عندما رأينا موديلاً ما من كاميرا، وجب علينا أن نوافق على الارتياب في أن هذه الاختراعات يجب أن تكون بالضرورة عمل طلاب المدارس الثانوية المحلية في المنطقة، على الرغم من أن الآباء والأعمام، والمعلمين الذين يتجولون في الزحام من الضروري أن يكونوا قد وضعوا أيديهم أيضاً في خلق هذه

المشاريع العلمية، مئات من مرايا الجيب تمّ وضعها في صفوف مقابل بعضها البعض في الفراغ بين إطار السيارة الداخلي والخارجي، وبهذا تقوم بعمل متاهة من الانعكاسات. عندما انغلق الغطاء عن الضوء القادم من الأشياء الخارجية التي تدخل من ثقب في متاهة المرايا، كانت صورة الضوء المحبوس قد أجبرت على أن تدور وتدور، وتنعكس على المرايا إلى ما لا نهاية. ثم في أي وقت تشعر أنك تريد أن تفعل ذلك، يمكنك النظر خلال هذا الثقب وترى الصورة الحقيقية التي تمّ سجنها هناك في الحجرة، لتكن شجرة، أو معلمة عصبية تفهم المعرض العلمي، تاجر الأجهزة الكهربائية السمين، طالباً ذا وجه مليء بحب الشباب، الأوراق الرسمية لأرض ملقاة بإهمال تحت كأس من عصير الليمون، صورة لوجه الجنرال «إفرن»، ساعياً بلا أسنان يبتسم للجهاز، شخصية غير شريفة، عينك ذاتها، وحتى جنان الجميلة الفضولية بذكاء والتي ظلت بشرتها منتعشة على الرغم من رحلاتها على الحافلات.

لاحظنا أشياء أخرى فضلاً عن هذه الأجهزة، على سبيل المثال، الموظف المحترم الذي يرتدي سترة كاروهات ويلقي كلمة، كان الزحام يتكون من جماعات صغيرة كانت تلقي علينا ـ كما تلقي على بعضها البعض ـ نظرات متفحصة، كانت هناك فتاة صهباء تضع شريطاً حريرياً في شعرها تردد مكررة القصيدة التي ستلقيها حالاً، مستكينة على تنورة أمها التي تضع إيشارباً، اقتربت جنان مني، كانت ترتدي تنورة مطبوعة لونها أخضر بلون الفستق كنا قد اشتريناها في «كاستمونو». أحببتها ـ أيتها الملاك ـ لقد أحببتها جداً، كما تعرفين جيداً، ابتعنا مشروب زبادي مثلجاً من كشك ووقفنا على حافة الزحام في ضوء الظهيرة المغبر في

الكافيتريا، شاعرين بالتشوش، التعب، والنعاس، فقط تقوم بفهم المشهد. ما كنا نشاهده بدا كأنه يخلق نوعاً من موسيقى الوجود، أو علم الحياة. ثم رأينا جهاز تليفزيون من نوع رديء اقتربنا لنفحصه عن كثب. «هذا التليفزيون الفريد يفترض أنه مشاركة «دكتور فاين» في المعرض». قال رجل يرتدي ربطة عنق فراشية الشكل. هل كان ماسونياً؟ لقد قرأت في الصحف أن الماسونيين يرتدون أربطة عنق فراشية الشكل. قال وهو يتفحص جبهتي بعناية، ربما لتجنب التحديق في جنان أكثر من اللازم: «من الذي أتشرف بمقابلته؟».

ـ قلت: «علي وأفسون كارا».

ـ «أنتما حديثا السن جداً! إن هذا يعطينا الأمل في رؤية أشخاص من الشباب مثلكما وسط كل رجال الأعمال المحبطين هؤلاء».

ـ «نحن لسنا محبطين، نحن نملك إيماناً حقيقياً». قالها شخص ضخم، رجل مرح ذو طابع أبوي، مناسب بما يكفي كي تسأله فتاة مدرسة ثانوية عن الوقت.

وهكذا انضممنا إلى المجموعة، ألقت الفتاة ذات الشريط في شعرها قصيدتها، غمغمت خلال القصيدة مثل نسمة صيف خفيفة. كان الشاب الوسيم ـ بشكل كاف ليلعب دور المطرب في فيلم محلي ـ يتحدث عن المنطقة التي يسكنها رجل عسكري متأفف دوماً، يتحدث عن مئذنة «سلجوك»، طيور اللقلق، محطة الكهرباء الجديدة التي تحت الإنشاء، والإنتاج الوفير لحليب الأبقار المحلية، أثناء ما كان الطلاب يشرحون مشاريعهم التي وضعت على موائد الكافيتريا، وقف آباؤهم أو معلموهم بجانبهم

ينظرون إلى الحضور بفخر. قابلنا الأشخاص الآخرين الذين كانوا في الحجرة وكانوا يشربون إما الزبادي أو عصير الليمون، يلتقون صدفة ببعضهم البعض ويتصافحون. التقطت أنفي نفحة من رائحة كحول، وصابون الحلاقة «أو بي»، لكن من أين تأتي تلك الرائحة، أو مِمَّنْ؟ ألقينا نظرة أخرى على تليفزيون دكتور فاين، كان الحديث يدور معظمه حول دكتور فاين هذا، لكنه ـ هو نفسه ـ لم يكن في أي مكان في الجوار.

عندما حلّ المساء، تركنا جميعاً مبنى المدرسة الثانوية، الرجال يقودون النساء، قاصدين المطعم. إحساس ضمني بالعداء كان ملموساً في الشوارع خلال المدينة، كنا قد لاحظنا من قبل أبواب محلات الحلاقين ومتاجر البقالة التي كانت لا تزال مفتوحة للعمل، المقهى حيث التليفزيون مفتوحاً، ونوافذ المبنى الحكومة المضاءة، واحد من طيور اللقلق التي ذكرها الرجل الوسيم كانت تشاهدنا ندخل المطعم من البرج الذي في الميدان حيث تجثم. هل كان هذا بدافع الفضول؟ أم بدافع من العداء؟

كان المطعم مكاناً مناسباً فيه حوض للأسماك وأصص للزهور، كان معلقاً على الحوائط صور لمشاهير الأتراك، الغواصة التاريخية التي غاصت تحت الماء في شرف، لاعبي كرة القدم ذوي رؤوس مائلة، ثمار تين بنفسجية، كمثرى ذهبية، وخراف مرحة. عندما امتلأ المكان بسرعة بالتجار وزوجاتهم، طلبة المدرسة الثانوية والمدرسين، وكل الذين أحبونا ولديهم إيمان بنا، شعرت كما لو كنت أتوقع هذا التجمع والإعداد لليلة كهذه طوال كل هذه الشهور. بدأت أشرب مع الآخرين لكن انتهى الأمر بأن شربت أكثر من أي واحد آخر، جلست مع

الرجال، نضرب كؤوس «الراكي» مع هؤلاء الذين ظلوا يتوافدون ليجلسوا بجانبي، متحدثين بجوع عن الشرف، المعنى المفقود للحياة، عن الأشياء التي فقدت.

حسناً، كان ذلك لأنهم أثاروا الموضوع أولاً، لكنني وجدت نفسي على اتفاق تام مع رجل ودود حتى أن كلينا كان مندهشاً بشدة؛ كان قد سحب علبة من أوراق اللعب من جيبه وأراني بفخر الورق الذي عليه وجوه رسمها عليه بيديه ـ محولاً الشايب إلى «شيخ» والولد إلى تابع «حواري» ـ وشرح بالتفصيل لماذا جاء الوقت المناسب الذي يجب أن تنشر فيه هذه الأوراق في المائة وسبعين ألف مقهى حيث تُمارس ألعاب الورق في بلدنا على حوالي مليوني ونصف مائدة للعب الورق.

كان الأمل بيننا في هذه الأمسية، ولكن هل كان الأمل هو الملاك؟ إنه شكل من أشكال الضوء، قالوا ذلك. قالوا: نحن نتناقص قليلاً مع كل نفس نأخذه. قالوا: نحن ننبش الأشياء التي سبق ودفناها، عرض أحدهم صورة لموقد. رجل آخر قال: هذه دراجة تناسب حجمنا تماماً. عرض علينا الرجل ذو ربطة العنق الفراشية الشكل زجاجة بها سائل: له نفس تأثير معجون الأسنان. ندم رجل عجوز على أنه أُجبر على ترك الشرب لكنه أخبرنا بحلمه: يقول لنا، لا تخف قط؛ فإنك لن تختفي. من هو؟ لم يكن دكتور فاين المطّلع على سر الأمور صعبة الفهم قد ظهر على الساحة بعد. لماذا لم يكن هنا؟ قال صوت: لو للحقيقة أن تقال، لو كان دكتور فاين قابل هذا الشاب الجميل، لكان أحبه مثل ابنه. صوت من هذا؟ كان صاحب الصوت قد اختفى بمجرد أن استدرت حولي. هشش! قالوا: لا تنشر اسم دكتور فاين

حولك! عندما يظهر الملاك آجلاً أو عاجلاً على شاشة التليفزيون، ستكون هناك مشاكل جدية. قالوا: كل هذا يفعله حاكم المنطقة، كل هذا الخوف؛ لكنه أيضاً ليس ضدنا كليةً. أغنى رجل في تركيا، «وهبي كوس» بنفسه، استطاع أن يصل إلى هنا كضيف مدعو. لم لا؟ علق أحدهم؛ «كوس» بالرغم من كل شيء هو ملك علينا نحن التجار.

أذكر أنهم قبّلوني على الخدين، وهنّأوني على كوني صغير السن، وبعد أن شرحت لهم عن شاشات التليفزيون، الألوان، والوقت، احتضنوني لكوني صريحاً جداً. فقط انتظر، قالها الرجل المرح الذي يدير متجر هيئة الاحتكارات؛ شاشة التليفزيون الخاصة بنا ستكون الستارة الأخيرة لهؤلاء الذين سيأتون من بعدنا؛ الشاشة الجديدة تعني ـ على كل حال ـ حياة جديدة. ظل الناس يأتون ليجلسوا إلى جانبي؛ أنا أيضاً أخذت أغيّر مكاني وأخبر الناس بكل شيء عن الحوادث، الموت، السلام، الكتاب، وهذه اللحظة... شعرت أنني تماديت كثيراً عندما بدأت أقول: «الحب...» وقفت لأرى جنان حيث تجلس ويستجوبها معلمو المدرسة وزوجاتهم. جلست وقلت: «الزمن هو حادثة؛ فنحن هنا في هذا العالم بالمصادفة». نادوا على مزارع يرتدي سترة جلدية، قائلين لي: إن هذا هو الشخص الذي يجب أن أسمعه، بعد أن رأوا كم أنا مهتم بالوقت. قال الرجل: «أنتم تبالغون في مديحي»، وهو يتنفس كرجل عجوز بالرغم من أنه لا يبدو كبيراً في السن، وأخرج من الجيب الداخلي لسترته اختراعه «المتواضع». كان مجرد ساعة للجيب، لكنها حساسة للسعادة؛ فهي تتوقف عندما تكون سعيداً لدرجة أن الساعة التي تكون سعيداً فيها يمكن أن تستمر للأبد؛ وعلى

النقيض؛ عندما تكون في حالة يأس، يسرع عقرب الثواني والدقائق، ويجعلك تلاحظ كيف مرّ الوقت بسرعة وكيف انتهت أحزانك في غمضة عين. ثم في الليل أثناء نومك بسلام، تقوم الساعة ـ هذا الشيء الصغير الذي يتكتك بصبر في راحة يد الرجل، الذي كان كبيراً في السن إلى حد ما ـ بتعديل الوقت بخصمه من وقت حياتك، وعندما تستيقظ في الصباح مثل كل شخص آخر، تكون لم تكبر في السن.

«الوقت»، قلت وحدقت للحظة في السمكة التي تسبح في الحوض بخفة وبطء، شخص ما جاء لي مثل الظل. قال: «إنهم يتهموننا، بكوننا معادين للثقافة الغربية. في الواقع، هذا ليس صحيحاً. هل عرفت ـ على سبيل المثال ـ أن الصليبيين المتبقين قد عاشوا في مساكن محفورة في الصخور في «كابادوشيا»؟». من كان المتحدث الذي تحدث إليّ بينما كنت أتحدث لمجرد سمكة؟ عندما استدرت حولي، كان قد ذهب. في البداية قلت لنفسي كان هذا مجرد ظل، ثم شعرت بالخوف عندما شممت نفحة من هذه الرائحة المهيبة؛ صابون الحلاقة «أو بي».

حالما غصت في مقعدي، بدأ رجل ذو طابع أبوي وشارب ضخم يستجوبني، وهو يلف سلسلة مفاتيحه حول أصبعه بقلق: من هم أهلي، كيف أدليت بصوتي، ما الاختراع الذي أثار انتباهي، ما الذي سيكون عليه قراري في الصباح؟ كنت ما زلت أفكر في السمكة وكنت سأعرض عليه كأساً آخر من «الراكي» عندما سمعت أصواتاً، أصواتاً، أصواتاً. ظللت ساكناً ثم وجدت نفسي بجانب تاجر الاحتكارات الطيب القلب. أخبرني أنه لم يعد يخاف من أي كان، ولا حتى من حاكم المنطقة الذي لديه

مشكلة بشأن دُمى الفئران في واجهة عرض متجره. لماذا هناك شركة واحدة فقط تبيع المشروبات الكحولية في هذه البلدة، هذه حالة احتكار؟ تذكرت شيئاً ما جعلني أخاف، وجعلني الخوف أقول أول شيء خطر على بالي. قلت: «إذا كانت الحياة رحلة، فلقد كنت على الطريق لستة أشهر، وتعلمت شيئاً أو اثنين ـ وبعد إذنك ـ أحب أن أضيفها». لقد قرأت كتاباً، ولقد فقدت عالمي كله. لقد بدأت الطريق لأجد عالماً جديداً. فماذا وجدت؟ شعرت وكأنك على وشك القول ـ يا ملاكي ـ ما هذا الذي وجدته، غرقت في الصمت للحظة وغرقت في التفكير، لكني لم أعرف ما كنت أقول عندما انزلق لساني: «ملاك». وبدأت ـ كما لو كنت استيقظت من حلم ـ أبحث عنك في الزحام، فجأة بعدما تذكرت: الحب، ها هي هناك بين تجار الأجهزة وزوجاتهم، الرجل ذو ربطة العنق الفراشية الشكل وبناته، كانت جنان ترقص مع طالب ثانوي فائر الجسم متعالٍ على موسيقى من مذياع في مكان ما بينما المدرسون وحالات الشيخوخة المسنة تتفرج بثقة.

جلست ودخنت سيجارة، كنت أعرف كيف أرقص فقط. . . . مثل العريس والعروس في الأفلام، تناولت بعض القهوة، طبقاً للساعة التي تقيس السعادة فمن المؤكد أن الوقت يمر بسرعة كبيرة للأمام، سيجارة أخرى، تصفيق حاد وإعجاب بالأزواج الراقصة، المزيد من القهوة، رجعت جنان ثانية لتكون مع النساء. المزيد من القهوة بعد.

ضغطت نفسي قريباً من جنان في طريق العودة للفندق مثل كل الناس وتجار المقاطعة الذين أخذوا بأذرع زوجاتهم. من كان في المدرسة الثانوية هذا؟ كيف تعرف عليك؟ من المؤكد أن طائر

اللقلق يشاهدنا من البرج حيث حُشرت، كان الموظف الليلي قد أعطانا مفتاحاً للغرفة رقم 19 كما لو كنا زوجاً وزوجة حقاً، عندما بدا شخص ما كأنه يعرف ماذا كان يفعله وكان أكثر إصراراً من أي شخص آخر على أن يقحم جسده الضخم العرقان بيننا ويقطع عليّ طريقي.

قال: «سيد كارا، لو تسمح لي بلحظة. . . .».

شرطة! فكرت؛ إنه قادم لنا لأننا ورثنا تحقيقات شخصية ووثيقة الزواج من ضحايا حادثة طريق.

تابع الرجل: «أتساءل إذا ما كان بإمكاننا أن نتحدث؟» كان يتصرف وكأنه يريدنا أن نتحدث رجلاً لرجل، كم تركتنا جنان برقة بمفردنا، كم كانت رشيقة في تنورتها المطبوعة، صاعدة الدرج وفي يدها مفتاح الغرفة رقم 19!.

لم يكن الرجل من سكان مدينة «جيودل» الأصليين، لكني نسيت اسمه بمجرد أن ذكره؛ فلنقل إن اسمه «السيد بومة»، ارتكازاً على حقيقة أنه كان يتحدث إليّ في وقت متأخر من الليل، لكن ربما كانت البومة ترتبط في ذهني بطيور الكناريا التي في القفص في ردهة الفندق التي كانت تقفز لفوق وتحت وعلى الأسلاك عندما بدأ «السيد بومة» في التحدث.

قال: «إنهم يضيفوننا ويقدمون لنا الطعام والخمر الآن، لكن غداً سيطلبون منا الإدلاء بأصواتنا. هل فكرت في ذلك؟ استفتيت الليلة ليس فقط تجار المقاطعة ولكن أيضاً كل شخص قد جاء من أنحاء البلد كلها، ستفتح أبواب الجحيم غداً، لذلك أريدك أن تفكر في الأمر الآن. هل فكرت جيداً في كل شيء؟ أنت التاجر الأصغر سناً بيننا. لمن ستعطي صوتك؟

«لمن تعتقد أنني يجب أن أعطي صوتي؟».

«ليس لدكتور فاين، هذا من المؤكد! صدقني يا أخي ـ لو كان لي أن أدعوك أخي ـ إن كل هذا ليس إلّا سوء حظ. هل يمكن أن يقال عن الملائكة إنهم يرتكبون الخطيئة؟ هل من الممكن أن نتعامل مع كل المصاعب التي تزعجنا؟ من المستحيل أن نكون أنفسنا بعد الآن، هناك حقيقة هي حتى الكاتب المعروف «جلال ساليق» قد أدرك ـ وهذا ما قاد إلى انتحاره: أن شخصاً آخر هو الذي يكتب عموده تحت اسمه. تحت كل صخرة ترفعها، تجدهم هناك، إنهم الأمريكان. بالطبع الأمر محزن أن تكتشف أننا لن نكون أنفسنا مرة أخرى، لكن ربما يتمكن تقويم ناضج من إنقاذنا من الكارثة. هكذا لم يعد أبناؤنا وأحفادنا يفهموننا بعد الآن، إذاً ماذا بعد ذلك؟ حضارات تأتي وحضارات تذهب. ماذا تنوي أن تفعل؟ تؤمن بأنك ثابت بينما تكون حضارتك على أهبة التحرك؟ ثم، عندما تبدأ الأشياء في التناقض والتحرك، تمسك مسدساً كمثل طفل ثرثار؟ من سوف تقتل عندما يكون كل الناس يتخذون هيئة مختلفة؟ كيف يستطيع الملاك أن يكون أداة مساعدة في الجريمة؟ إلى جانب ذلك، من هو الملاك على أية حال؟ ما هذا العمل الذي يتخصص في جمع المواقد القديمة، الفرجار، مجلات الأطفال، مشابك الغسل؟ لماذا من الواضح أن الملاك ضد الكتب والمطبوعات؟ كلنا نحاول أن نحيا حياة ذات معنى، لكننا ـ كلنا ـ نتوقف عند نقطة ما. من منا يمكن أن يكون نفسه؟ من هو الشخص المحظوظ الذي يسمع همس الملائكة؟ إن كل هذا مجرد رجم بالغيب، كلمات فارغة تهدف إلى خداع غير الحذرين، الأمور تخرج عن نطاق التحكم. هل سمعت؟ يقولون إن «كوس» في طريقه إلى هنا، «وهبي كوس».

لن تدع السلطات هذا يحدث. سيعاني البريء طويلاً من الإحساس بالذنب. لقد تمّ تأجيل عرض جهاز التليفزيون الخاص بدكتور فاين إلى الغد. لماذا في رأيك هو يتلقى معاملة خاصة؟ دكتور فاين هو الشخص الذي قادنا إلى هذا الحظ العاثر. يقال إنه سيشرح موضوع «الكولا»؛ هذا جنون؛ إن هذا ليس ما جئنا من أجله إلى هذا المؤتمر».

كان على استعداد لأن يقول المزيد، لكن جاء رجل يرتدي ربطة عنق حمراء إلى المكان، الذي لا يستحق أن يسمى بهواً. قال السيد بومة: «سيقضون طوال الليل الآن، ينقلون الأشياء الثقيلة». ثم رحل. رأيته يتبع تاجراً آخر إلى الخارج في الليل المظلم.

وقفت على أولى درجات السلم حيث صعدت جنان إلى أعلى. شعرت أنني محموم قليلاً، كانت ساقاي ترتعشان؛ ربما كان من تأثير الخمر أو القهوة، لكني كنت أعاني من اضطراب في ضربات القلب، وكان هناك عرق على جبهتي، لم أصعد لأعلى لكني جريت إلى كابينة الهاتف في الزاوية، طلبت الرقم، الخط كان مشغولاً، أدرت الرقم مرة أخرى، اتصلت بالرقم الخطأ، طلبت رقمك يا أمي: «أمي، سوف أتزوج يا أمي، هل تسمعينني؟ سوف أتزوج الليلة، بعد فترة قصيرة، الآن، في الواقع نحن متزوجان بالفعل، إنها في الغرفة بالأعلى، هناك سلم، لقد تزوجت ملاكاً، أمي، لا تبكي، أقسم أنني سوف أعود إلى البيت، لا تبكي يا أمي، سوف أعود ومعي ملاك في ذراعي».

لماذا لم أدرك من قبل أن هناك مرآة خلف قفص الكناريا مباشرة؟ لقد كان من الغريب أن أراها وأنا أصعد الدرج.

الغرفة رقم 19، كانت الغرفة حيث فتحت جنان الباب، حيتني وهي تمسك سيجارة في يدها، ثم عادت أدراجها إلى النافذة المفتوحة حيث كانت تشاهد ميدان المدينة؛ بدت الغرفة وكأنها الوطن الأم لشخص آخر والتي قد أصبحت فجأة مرحبة بنا. هادئة، دافئة، إضاءة خافتة. فراشان متماثلان.

جاء ضوء المدينة الحزين عبر النافذة المفتوحة، محدداً عنق جنان الطويل وشعرها، وحلقات من دخان السيجارة النافد الصبر والقلق (أو أنه فقط بدا كذلك؟) ترتفع خارجة من فم جنان ـ الذي لم أستطع رؤيته ـ لأعلى باتجاه نوع من الظلمة الحزينة التي قضى مرضى الأرق، النائمون القلقون، والموتى في مدينة «جيودل» سنوات عديدة يتنفسونها في السماء. ضحك سكير أسفل الدرج؛ شخص ما ـ ربما تاجر ـ أغلق باباً بقوة؛ رأيت جنان تلقي سيجارتها بإهمال من النافذة دون أن تطفئها، ثم مثل طفل شاهدت طرف السيجارة البرتقالي يقوم ببعض القفزات بينما يسقط، أنا أيضاً ذهبت عند النافذة ونظرت لأسفل إلى الشارع وميدان المدينة، لكن دون أن أرى أي شيء. ثم نظر كلانا خارج النافذة لفترة طويلة كما لو كنا نتأمل غلاف كتاب جديد.

قلت: «أنت أيضاً كنت تشربين، أليس كذلك؟».

ـ «كنت أشرب». قالت جنان بسرور.

ـ «كم من الوقت سيستمر هذا؟».

ـ قالت جنان بخفة «هل تعني الطريق؟»، مشيرة إلى الطريق المؤدي من ميدان المدينة إلى المقابر قبل أن يصل إلى موقف الحافلات.

ـ «أين تعتقدين أنه سينتهي؟».

ـ قالت: «لا أعرف، لكنني أريد أن أذهب إلى أبعد ما يكون. أليس هذا أفضل من الجلوس والانتظار؟».

ـ قلت «لقد نفدت كل النقود تقريباً».

كانت الأركان المظلمة على الطريق الذي أشارت إليه جنان منذ دقيقة مضاءة الآن بالكامل بواسطة الأضواء الأمامية القوية لمركبة ما سارت إلى ميدان المدينة وتوقفت في مكان خال.

ـ قلت: «لن نذهب إلى هناك قط».

ـ قالت: «أنت سكران أكثر مني».

كان الرجل الذي خرج من السيارة قد أغلق الباب ومشى باتجاه الفندق دون أن يصبح واعياً بوجودنا؛ خطا أولاً فوق عقب سيجارة جنان مثل شخص يسحق حياة شخص آخر بلا مشاعر، ثم دخل فندق «ترامب».

أطبق على مدينة جيودل صمت مستمر، كما لو كانت هذه المدينة الصغيرة الساحرة مهجورة تماماً. تبادلت بعض الكلاب النباح من على مسافة، ثم عاد الصمت يطبق على كل شيء مرة أخرى، تحركت أوراق أشجار الكستناء التي في الميدان مع النسيم من حين لآخر، لم يكن هناك صوت حفيف. من المؤكد أننا وقفنا في صمت عند النافذة لوقت طويل، ناظرين للخارج مثل أطفال يتوقعون شيئاً ما سيكون مسلياً. كان وهم محسوس من نوع ما، على الرغم من أني كنت واعياً بكل ثانية لم أستطع القول إذا ما كان الوقت يمر أو إذا ما كان ساكناً.

كان بعد ذلك بوقت طويل عندما قالت جنان: «لا! من فضلك لا تلمسني! فأنا لم أكن مع رجل من قبل».

كما يحدث أحياناً في الحياة الحقيقية أو عند تذكر الماضي، شعرت للحظة كأن الموقف والمدينة التي أراها من النافذة لم تكن حقيقية لكنها من وحي خيالي. ربما كانت مدينة جيودل الصغيرة التي أراها أمامي ليست حقيقية، ربما كنت أنظر فقط إلى صورة لمدينة على طابع بريد، مثل الطابع الذي أصدرته إدارة خدمة البريد في سلسلتها الخاصة بالموطن الأصلي. تماماً كما في المدن على هذه الطوابع، الميدان جعل مدينة جيودل تظهر وكأنها هدية تذكارية عن كونها مكاناً له شوارع للسير فيها، حيث يمكنك شراء علبة سجائر أو فحص نوافذ مغبرّة.

المدينة الخيالية، فكرت؛ المدينة التذكارية، عرفت أن عينيّ كانتا تبحثان عن هذين الشيئين الحقيقيين المرتبطين اللذين لا يُمحيان لذكرى مريرة لا يمكن نسيانها قط، التي تطفو على السطح من مكان ما عميق جداً وتصل بإرادتها الحرة، نظرت إلى الفراغ المظلم تحت الأشجار التي بجانب الميدان، رفرف الجرارات التي تلمع في الضوء القادم من مصدر مجهول، الحروف في أسماء الصيدلية والبنك المختفية جزئياً عن الأنظار، ظهر رجل مسن في الشارع، وبعض النوافذ بالتحديد. ثم، مثل شخص ما متحمس لصناعة السينما الذي حدد موقع الضوء المثالي للكاميرا والمصور الذي يصور فيلماً عن ميدان المدينة، بدأت أرى صورتي الخاصة تنظر من نافذة في الطابق الثاني من فندق «ترامب». كنت أقف هناك وأنظر من النافذة إلى الخارج في هذا الفندق المنعزل البعيد، وكنت أنتِ تتمددين على الفراش بجانب النافذة، عندما اقتربت بالكاميرا من الصور التي في عقلي، بدءاً بالريف، الطريق الذي سافرناه، المدينة، ميدان المدينة، الفندق، النافذة، كلانا ـ تماماً كما تفعل الكاميرا في المشاهد الخارجية للأفلام الأجنبية التي رأيناها في

الحافلات، تقترب مركزة على المدينة أولاً، ثم الحي، ثم الفناء، فمنزل، نافذة، بدا الأمر كما لو كانت كل المدن، القرى، الأفلام، محطات الوقود، والركاب الذين تخيلتهم وتذكرتهم ـ بلا كفاءة ـ تمت إذابتهم وخلطهم بالألم والشوق الذي شعرت به في مكان ما عميق بداخلي، لكنني لم أستطع تحديد إذا ما كان حزن المدن، الأشياء المعطلة، والركاب هو الذي أصابني بالعدوى، أم أنا الشخص الذي نشر الأسى في قلبي في كل أنحاء البلاد التي على الخريطة.

ذكرني ورق الحائط البنفسجي حول النافذة، بخريطة، كان الاسم التجاري للسخان الكهربائي في الزاوية هو «فيزوف»، فقد قمت بمقابلة التاجر المحلي الموزع له في وقت مبكر من المساء، كان صنبور المياه في الحوض الذي في الحائط أمامي يقطر، كانت المرآة على باب الدولاب من الداخل مواربة، تعكس المنضدة بين الفراشين والمصباح الصغير الموضوع فوقها، تدفق الضوء القادم من المصباح بنعومة على شكل جسد جنان النائم، الذي رقد على مفرش الفراش المزدان بأوراق الأشجار البنفسجية دون أن تخلع ملابسها المغبرة.

تحوّل شعرها البني الفاتح بشكل ما إلى بني محمر. كيف لم ألاحظ من قبل هذه الخصل الحمراء؟

ثم فكّرت أن هناك أشياء كثيرة جداً ما زال عليّ أن ألاحظها، أضاء عقلي مثل المطاعم التي في استراحة المحطات حيث نزلنا لتناول بعض الحساء، لكن عقلي كان أيضاً ـ في نفس الوقت ـ في تشوش تام، أفكار منهكة اخترقت ارتباك عقلي، تغير السرعات، اللهاث مثل أشباح الشاحنات الناعسة التي ظلت تمر

بواحد من هذه المطاعم، واستطعت في الحال سماع فتاة أحلامي تتنفس ورائي فيما هي تحلم بشخص آخر.

تمدد بجانبها ولفها بذراعيك! بعد كل هذا معاً، لا تستطيع الأجساد إلّا أن تشتاق الواحد للآخر. من هو دكتور فاين هذا بأي حال؟ عندما لم أعد أستطيع تحمل الموقف واستدرت لأنظر إلى ساقيها الجميلتين، تذكرت الأخوة (أخوة، أخوة!)، وأنهم يتآمرون بالخارج في سكون الليل، قابعين في انتظاري، تسللت فراشة إلى الداخل من الصمت الذي في الخارج وأخذت تدور حول ضوء المصباح، وتفقد نفسها في أجزاء صغيرة في ألم. قم بتقبيلها بعمق وعنف حتى تنفجر أجسادنا بالنار. هل سمعت صوتاً موسيقياً؟ أم كان عقلي يعزف المقطوعة الموسيقية التي تدعى «نداء الليل» التي طلبها كل المستمعين؟ مثلي مثل أي شاب في سني التي تظل حاجته الجنسية غير مشبعة يعرف كل هذا جيداً، نداء الليل لا شيء في الحقيقة أكثر من أن تجد نفسك في ممر ضيق مظلم كئيب وتعوي بمرارة بصحبة زوج من الشخصيات اليائسة في نفس الموقف المحرج، وينزلون بكلامهم اللاذع على الآخرين ويصنعون القنابل التي ستنسفهم، و ـ فلترحمنا، أيتها الملاك ـ يلعنون هؤلاء الذين يتاجرون في المؤامرة العالمية التي أقحمتنا في هذا الوجود البائس. أعتقد أن القيل والقال من هذا النوع يدعى «تاريخ».

راقبت جنان وهي نائمة لمدة نصف ساعة، ربما خمس وأربعين دقيقة، حسناً، حسناً، لمدة ساعة على الأكثر. ثم فتحت الباب وخطوت خارجاً، أغلقت الباب، ووضعت المفتاح في جيبي. بقيت جنان في الداخل. وأنا، أنا نُفيت للخارج.

امشِ إياباً وذهاباً في الشارع، ثم ارجع واحتضنها. قم بتدخين سيجارة، ارجع واحتضنها. قم بإيجاد مكان ما يفتح أبوابه، اسكر، كن شجاعاً، ارجع واحتضنها.

رآني المتآمرون وقفزوا إليّ أثناء نزولي على السلالم. قال أحدهم: «إذاً أنت «علي كارا»، تهانيّ لك، لقد قطعت كل هذا الطريق إلى هنا، وأنت حديث السن». «انضم إلينا» قالها بلطجي آخر في نفس السن، نفس الطول، ويرتدي بخشونة نفس ربطة العنق الرفيعة ونفس السترة السوداء، ونحن سنجعلك تعرف ما الذي يحدث عندما تبدأ المعركة غداً، كانوا يمسكون بسجائرهم وكأن أطرافها الحمراء بنادق موجهة إلى جبهتي، وابتسموا في وحشية، أضاف الأول: «لا نقصد إخافتك أو أي شيء آخر، لكننا نريد أن نحذرك فقط». استطعت أن أرى أنهم يعقدون نوعاً من جلسات النميمة في منتصف الليل، يرقصون لكي يمسكوا بالذين اهتدوا.

خرجنا إلى الشارع حيث لم يعد طائر اللقلق يرقبنا، ومررنا على نافذة عرض المحل الذي به زجاجات الخمر ودمى الفئران، ذهبنا إلى حارة خلفية حيث كنا قد خطونا عدة خطوات فقط عندما فُتح باب وأصبحنا وجهاً لوجه مع حانة مزدحمة تفوح منها رائحة «الراكي». جلسنا إلى مائدة مغطاة بقماش مهترىء وفي تتابع سريع جرعنا كأسين من «الراكي» ـ بدلاً من الأدوية، لو سمحت! ـ وسريعاً تعلمت أشياء قليلة عن معارفي الجدد كما عرفت أيضاً عن موضوع الحياة والسعادة.

كان الشخص الذي اعترض طريقي أولاً ـ لنطلق عليه اسم السيد «صدقي» ـ يعمل كبائع بيرة من «سيريسهير» والذي أخبرني

بقصته عن لماذا ليس هناك تعارض بين مهنته ومعتقداته لأنه كان من الواضح جداً ـ لو فكرت في الأمر ـ أن البيرة ليست في الحقيقة مشروباً كحولياً مثل الراكي، طلب زجاجة من البيرة من نوع «أفسوس» وصبّها في كأس ليرينا أن الفقاعات كانت لا شيء سوى ثاني أكسيد الكربون. أما صديقي الثاني فكان يعطي القليل من الانتباه إلى مثل هذه المعضلات، الأحاسيس، والاختلافات، ربما لأنه كان تاجر ماكينات حياكة، فبدلاً من أن يندفع مباشرة إلى قلب الأشياء مثل سائقي الشاحنات السكارى الناعسين الذين يلتقون بأقطاب القوة الكئيبة في منتصف الليل.

هنا كان السلام؛ السلام يوجد هنا، في هذه المدينة الهادئة، هنا في هذه الحانة الصغيرة، كنا هنا والآن، ثلاثة أصدقاء مخلصون في قلب الحياة، يتشاركون في مائدة. عندما فكرنا في كل شيء حدث لنا والذي يمكن أن يحدث غداً، كنا واعين جيداً كم هي قيمة هذه اللحظة الفريدة التي توجد بين ماضينا المنتصر ومستقبلنا الأليم البائس، أقسمنا أن نخبر بعضنا البعض بالحقيقة دائماً. تبادلنا الأحضان والقبل، ضحكنا حتى قفزت الدموع من أعيننا. امتدحنا أهمية العالم والحياة، رفعنا كؤوسنا عالياً على شرف حزب التجار الماجنين وجماعة مترابطة من الهدامين ذوي الآراء الذين كانوا في الحانة، كانت هذه هي الحياة على طبيعتها؛ لم يكن شيء واحد ولا شيء آخر، ولا في الجنة ولا في الجحيم، كانت هنا الآن، في الوقت الحالي، في هذه اللحظة، الحياة بكل مجدها. من هو ذلك المجنون الذي تواتيه الجرأة بأن يخالفنا؟ أين هو ذلك الأحمق الذي يمكن أن يحبطنا؟ من لديه الحق أن يلقبنا بالقمامة البائسة المثيرة للشفقة؟ لم تكن لدينا أية رغبة في

العيش في اسطنبول، ولا في باريس أو نيويورك. فلتدعهم ينعمون بالمراقص والدولارات، بناطحات السحاب ووسائل مواصلاتهم الأسرع من الصوت. فلندعهم يملكون إذاعاتهم وتليفزيونهم الملون، يا هؤلاء، نحن لدينا بعضنا، أليس كذلك؟ لكننا نملك شيئاً لا يملكونه هم: قلباً، نحن نملك قلباً، انظر، انظر كيف يتسرب ضوء الحياة إلى أعماق قلبي!

تذكرت أنني استجمعت جرأتي للحظة، يا ملاكي، وتساءلت لماذا، إذا كان علينا جميعاً أن نشرب هذا الترياق ضد التعاسة إذاً لماذا لا يشربه كل شخص؟ في خارج الحانة وفي قلب ليلة الصيف مع الأصدقاء المقربين، ظلّ الشخص الذي يمشي تحت الاسم المستعار «علي كارا» يسأل: لماذا كل هذا الألم، كل هذا الأسى والبؤس؟ لماذا. . . . لماذا؟

في الطابق الثاني من فندق «ترامب» يعكس المصباح الذي بجانب الفراش أضواء حمراء على شعر جنان.

ثم تذكرت كوني سحبت إلى داخل الأشياء المحيطة بالجمهورية، أتاتورك، والطوابع القانونية. كان مبنى الحكومة، حيث ذهبنا إلى المحراب الداخلي، المكتب الذي يخصّ حاكم المقاطعة، الذي قبلني على جبهتي. كان واحداً منا، أخبرنا بأمر فرمان تمّ إرساله من «أنقرة»، وأنه لن يصاب أحد بشيء غداً. لقد اختارني بالفعل، فهو يثق بي، ولو أنني شعرت بذلك، فيمكنني أن أذهب مباشرة وأقرأ الخطاب الذي كان ما زال رطباً من آلة الطباعة الجديدة تماماً.

«سكان مدينة «جيودل» المحترمون، السادة المهمون، الإخوة، الأخوات، الأمهات، الآباء، أعضاء مدرسة «الخطيب

الإمام» المتدينون الصغار. من الواضح أن بعض الناس غير واعين بحقيقة أنهم في مدينتنا على أنهم ضيوفنا. ما الذي يريدونه؟ هل هم هنا لكي يهينوا كل شيء مقدس في مدينتنا؟ تكريس حياتنا واهتمامنا بالدين، رسولنا، شيوخنا، وتمثال «أتاتورك» الذي يوجد بوفرة في مساجدنا وفي إجازاتنا المقدسة، لسنا فقط نرفض شرب الخمر، لن نستسلم لشرب «الكوكاكولا». نحن نعبد الله، ليس الصليب، أو أمريكا، أو إبليس، نحن لا نستطيع فهم لماذا اختيرت مدينتنا الهادئة لتكون موقعاً لمؤتمر لهؤلاء المجانين رسمياً، نسخ مقلدة من ماري وعلي، والعميل اليهودي «ماكس رولو»، الذي هدفه فقط هو تحقير المارشال «فيفزي ساكماك» الخاص بنا. من هو الملاك» ومن الذي لديه تعجل لكي يجعل من الملاك مثار سخرية على التليفزيون؟ هل نحن لنجلس ونشاهد بكسل بينما الوقاحة وعدم الاحترام تُرتكب ضد رجال الإطفاء الملتزمين الخاصة بنا والحاج «ستورك» الذي يشاهد مدينتنا طوال العشرين عاماً الأخيرة؟ هل الأمر كذلك لأن أتاتورك قد طارد الجيش اليوناني خارج البلاد؟ فلو لم نضع هؤلاء الوقحين الذين ندعوهم «ضيوفنا» في مكانهم الصحيح، إذا لم نلقن المشردين المسؤولين عن دعوة هؤلاء الناس الدرس الذي يستحقونه، فكيف سنواجه أنفسنا غداً؟ ستكون هناك مقابلة سياسية في العاشرة في ميدان «فاير هاوس». نحن نفضل الموت على الحياة بدون شرف».

قرأت الإعلان مرة أخرى. لو قُرأت من البداية للنهاية، أو لو أُعيد ترتيب الحروف في أول الكلام لكونت كلمات أخرى. هل يحصل الفرد على نسخة مختلفة تماماً؟ من الواضح أن لا، قال حاكم المقاطعة: إن شاحنات الإطفاء قد امتلأت بالماء من

المجرى المائي منذ الصباح. كان هناك إمكانية ـ ولكنها صغيرة ـ أن تخرج الأشياء عن نطاق التحكم غداً، ويمكن للنار أن تخرج عن نطاق السيطرة، وفي الحرارة ليس من السهل منع الحشد بواسطة ضغط المياه في خراطيم الحريق. لقد أكّد لمؤيدينا أن مكتبه سوف يوفر كامل التعاون، ووحدات الشرطة (البوليس الفرنسي) القادم من العاصمة المحلية كان سيضع حداً قاطعاً لأي نوع من الشغب الذي يمكن أن يحدث. قال حاكم المقاطعة: «عندما تهدأ الأمور ويظهر أعداء الجمهورية والأمة على حقيقتهم، فدعنا نرى من الذي بقي ليشوه إعلانات الصابون والنساء على لوحات الإعلانات، لنرَ من يمشي متفاخراً وهو خارج من محل الترزي سكراناً، يلعن الحاكم بكل الأشكال، بدون ذكر طائر اللقلق».

كان من المقرر أنني يجب أن أراقب محل الخيّاط، أنا الشاب المخلص. بعد أن جعلني الحاكم أقرأ لائحة المعارضة التي كتبها اثنان من مدرسي المدرسة اللذين كانا عضوين نصف سريين في اللجنة التنظيمية لحركة الترويج لحضارة حديثة، نادى على ساع ليرافقني، وأخبره أن يأخذ الشاب الصغير لمحل الخيّاط. قال الساعي ـ الذي يعرف باسم عم حسن ـ بمجرد أن أصبحنا في الشارع: «الحاكم دائماً ما يدفعنا لنعمل وقتاً إضافياً». كان اثنان من أعضاء البوليس السري منشغلين بتمزيق اللافتات القماشية الخاصة بمدرسة القرآن، ويعملون بهدوء مثل اثنين من اللصوص في ظلام الليل الأزرق. «نحن كلنا نكد في عملنا لمصلحة الأمة والدولة».

في محل الخياط، كان هناك جهاز تليفزيون على حامل

وجهاز فيديو تحته، يشارك الفراغ مع ماكينات الحياكة، الأقمشة، والمرايا، كان هناك رجلان أكبر مني قليلاً يعملان في هذا الجهاز، ممسكان بمفكات، أسلاك وأشياء من هذا القبيل، جلس رجل في الزاوية على مقعد بنفسجي يشاهدهم، كما تفعل صورته في مرآة كاملة الطول أمامه مباشرة، نظر لي من أعلى لأسفل أولاً ثم استدار بعينيه المتسائلتين إلى الساعي. قال العم حسن: «إن حاكم المقاطعة المبجل قد أرسله، إنه يترك هذا الشاب في رعايتك».

كان الرجل الجالس على المقعد البنفسجي هو نفس الشخص الذي ركن سيارته أمام الفندق قبل أن يخطو فوق عقب سيجارة جنان، ابتسم لي ببرود ودعاني للجلوس. بعد نصف ساعة شدّ نفسه ليدير جهاز الفيديو.

ظهرت الصورة على شاشة التليفزيون، كانت هناك صورة لشاشة أخرى. ثم رأيت ضوءاً أزرق، شيئاً ما ذكّرني بالموت، لكن عند هذه المرحلة كان الموت حتماً على مسافة بعيدة نوعاً ما. تجول الضوء الأزرق بلا هدف عبر السهب الواسع الخالي من الأشجار حيث كنا نركب على متن الحافلات. ثم كان الصباح، اخترق الفجر المشهد الذي كان يشبه المشاهد التي على نتائج الحائط (الروزنامة). من الممكن أن تكون المشاهد ترجع إلى فجر الخلق. كم كان رائعاً أن تسكر في مدينة غير معروفة و ـ بينما حبيبتي غرقت في النعاس سريعاً في غرفة فندق ـ أن تجلس مع أشخاص غامضين في محل خيّاط ما، وبدون أن تضطر للتساؤل عن معنى الحياة، تشاهده وهو يتكشف فجأة عبر هذه المشاهد.

لماذا يحدث أن يفكر المرء خلال الكلمات، لكنه يعاني من خلال المشاهد؟ «أريد! أنا أريد». قلت ذلك لنفسي دون أن أعرف إطلاقاً ما هذا الذي أريده. ثم ظهر على الشاشة ضوء أبيض، ربما أدرك الرجلان الشابان اللذان كانا يعملان على الجهاز مظهره من رؤية إشعاعه الذي انعكس على وجهي؛ وواجها الشاشة بنفسيهما، ورفعا الصوت، الآن قد تحوّل الضوء إلى الملاك.

قال الصوت: «أنا بعيد جداً، أنا بعيد جداً حتى أنني دائماً بينكم، استمعوا إليّ في صورة صوتكم الداخلي. حرّكوا شفاهكم بنفس الوتيرة مع شفتي».

غمغمت، محاولاً أن أبدو طبيعياً، مثل ممثل صوت غير محظوظ يقول الدوبلاج الخاص بترجمة غير متقنة لشخص آخر ويضعها في جزء الصوت المسجل.

قلت متحدثاً مثل هذا الصوت: «الوقت لا يمكن أن أتحمله، أثناء ما كانت جنان نائمة، أثناء ما كان الصباح يقترب. لكني استطعت أن أظلّ مصراً وأتحمله».

ثم كان هناك صمت. بدا الأمر كما لو كنت أستطيع رؤية ما في ذهني على الشاشة؛ لذلك لم يكن مهماً إذا ما كانت عيناي مفتوحتين أم مغلقتين طالما أن المشاهد في عقلي وفي العالم الخارجي متماثلة. الآن تكلمت ثانية.

«خلق الله الكون عندما تمنى أن يرى انعكاساً لصفاته الأبدية، أعاد خلق صورته الخاصة التي يراها في مرآته. إذاً فالقمر ـ الذي يخيفنا عندما يشع في الغابة ـ يتجسد على الصور التي نراها بوفرة على التليفزيون وشاشة السينما مثل طلوع الصباح

على السهب، السماء اللامعة، الماء خالص النقاء وهو يغسل الشواطىء ذات الصخور، كان القمر وحيداً تماماً عندما عاد إلى السماء المظلمة مثل جهاز التليفزيون الذي يعمل لنفسه في غرفة المعيشة عندما يرجع التيار الكهربائي بعد انقطاعه بينما العائلة تغرق في النعاس في الليل، رجع القمر وكل الخلق إلى الوجود، لكن لم يكن هناك أحد ليشاهدهم. مثل مرآة غير عاكسة ينقصها اللجين الذي في ظهرها، كانت الأشياء خالية من الروح، أنت تعرف ماذا يشبه هذا. من خلال مشاهدتك للكثير من هذا القبيل. الآن ألق نظرة أخرى على هذا الكون الخالي من الروح فمن الممكن أن يكون درس جديد لك».

قال الرجل الذي يمسك بالمثقاب: «هاك يا رئيس، هذا بالضبط عندما تنفجر القنبلة!».

استنتجت من محادثتهم أنهم زرعوا قنبلة في جهاز التليفزيون. هل يمكن أن أكون مخطئاً؟ لا، كنت محقاً؛ كان نوعاً من قنابل المشاهد التي تنفجر عندما يظهر إشعاع الملاك الذي يغشى العيون على الشاشة، عرفت أنني محق لأنه بجانب الفضول كان لدي التفاصيل الفنية الخاصة بقنبلة المشهد، شعور بالذنب أرهق عقلي. من ناحية أخرى، ظللت أفكر، «يجب أن يكون الأمر على هذا النحو». ربما يسير الأمر هكذا؛ في الصباح عندما يكون التجار ضائعين تماماً في المشاهد السحرية على الشاشة ومنغمسين في مناقشات حول الملاك، الضوء، والوقت، ستنفجر القنبلة بلطف ودفء لما في حوادث الطريق؛ وسيمتد الوقت ـ الذي تدفق في هؤلاء الناس الذين كانوا شغوفين للحياة، للشجار، وللتآمر ـ بعنف على المشهد ويجمد الإطار، أدركت بعد ذلك أنني لا أرغب في الموت بواسطة قنبلة أو أزمة قلبية،

ولكن في حادثة طريق حقيقية. ربما اعتقدت أن الملاك سيظهر لي في لحظة التفجير ويهمس في أذني بسر الحياة، متى... متى، يا ملاك؟

ما زال بإمكاني رؤية بعض المشاهد على الشاشة. نوع ما من الضوء الذي ربما كان ينقصه اللون، أو ربما كان الملاك، لكني لم أستطع أن أقول بالضبط، كن قادراً على عواقب القنبلة كان مثل تقييم الحياة بعد الموت، كنت متحمساً جداً للاستفادة من ميزة هذه الفرصة الفريدة لدرجة أنني ضبطت نفسي أمد الصورة التي على الشاشة بالكلمات. هل كنت أردّد فقط ما قاله شخص آخر؟ أو كانت هذه لحظة تعاطف وفهم كما يحدث في اتحاد الأرواح في الحياة التي بعد الموت؟ ها هو ما كنا نقول:

«عندما نفث الله من روحه في الخلق، رأت عين آدم هذا، فيما بعد رأينا المادة في هيئتها الحقيقية، نعم، تماماً كما يحدث للأطفال، لكن ليس في المرآة غير العاكسة التي نراها الآن، كنا أطفالاً مرحين في ذلك الوقت، نسمي ما نراه ونرى ما نسميه! رجوعاً إلى هذا الوقت، كان الوقت وقتاً، كانت المجازفة مجازفة، والحياة كانت حياة، كانت حالة من السعادة الحقيقية، لكن الشيطان كان غير راضٍ عن سعادتنا؛ والشيطان هو الذي فكّر بالمؤامرة الكبرى، واحد من أتباع المتآمر الأعظم كان رجلاً يدعى «جتينبرج» ـ يُعرف بأنه يشتغل بالطباعة ويتم محاكاته بواسطة الكثيرين ـ والذي يعيد إنتاج الكلمات بطريقة تتفوق على الأيدي العاملة، الأصبع الصبور، القلم المتأفف؛ والكلمات، الكلمات،الكلمات تنساب مثل حبات عقد وتتبعثر بعيداً وفي كل الاتجاهات. مثل الصراصير الجائعة والهائجة، غزت الكلمات أغلفة قطع الصابون، كراتين البيض، غزت أبوابنا وبالخارج في

الشارع. إذاً الكلمات والمادة، التي كانت قديماً لا تنفصل، الآن انقلبت ضد بعضها البعض. وعندما سألنا ضوء القمر ما الوقت، الحياة، الحزن، القدر، الألم، كنا مرتبكين مثل طالب يقضي الليل بطوله قبل الامتحان يستذكر دروسه بالحفظ والاستظهار، على الرغم من أننا كنا نعرف الإجابات ذات مرة عن ظهر قلب. قال أحمق: الوقت هو ضوضاء. قال آخر: الحادثة هي قدر. قال ثالث: الحياة هي كتاب. كنا مرتبكين ـ كما ترى ـ منتظرين الملاك أن يهمس بالإجابة الصحيحة في آذاننا».

قال الرجل الجالس على المقعد البنفسجي مقاطعاً: «علي، يا بني، هل تؤمن بالله؟».

فكرت في الأمر بعمق.

قلت: «حبيبتي جنان تنتظرني، في غرفة الفندق».

قال الرجل: «الله هو توأم الروح لكل شخص، إذاً اذهب إلى حبيبتك. ولكن احلق ذقنك في الصباح. في صالون «فينوس» للحلاقة».

خرجت إلى ليل الصيف الدافىء. قلت لنفسي، مثل الحادثة، القنبلة أيضاً سراب؛ لن نعرف قط متى سوف تظهر، كنا فاشلين بائسين، كان من الواضح أننا قد فقدنا المقامرة التي تدعى تاريخاً؛ الآن نحن مجبرون على تفجير بعضنا البعض لقرون كثيرة ستأتي، على أمل أن نقنع أنفسنا أننا فائزون وأننا نتذوق طعم النصر، مفجرين أرواحنا وأجسادنا لنصل للسماء العليا بواسطة قنابل نضعها في أغطية التروس، الكتب، مجلدات القرآن، وفي صناديق الحلوى المصنوعة من أجل الله، الكتب، التاريخ،

والعالم، كنت أفكر في أن هذا ليس سيناريو سيئاً عندما رأيت ضوءاً في غرفة جنان.

دخلت إلى الفندق وصعدت إلى الغرفة، أمي، أنا فعلاً سكران، رقدت بجانب جنان وغرقت في النوم، مصدقاً أنني أحضنها بين ذراعيّ.

عندما استيقظت في الصباح، راقبت جنان في نومها وهي بجانبي، كان على وجهها نفس القلق والانتباه التي كانت عليه وهي تشاهد شاشة الفيديو عندما كانت جالسة في الحافلة؛ رفعت حاجبيها الكستنائيي اللون كما لو كانت تترقب تسلسل حلم مدهش، كان الصنبور في الحوض ما زال يقطر، تسلل شعاع مغبر من ضوء الشمس إلى الداخل من خلال الستائر، وأصبح في لون العسل حيث سقط على ساقيها، وغمغمت جنان بسؤال في نومها. عندما تقلبت، غادرت أنا الغرفة بهدوء.

شعرت بالصباح البارد على جبهتي وأنا في طريقي إلى محل الحلاقة الذي يدعى «فينوس»، حيث شاهدت الرجل الذي قابلته ليلة أمس، نفس الرجل الذي خطا على سيجارة جنان، كان يحلق ذقنه، وجهه مليء برغوة الصابون، شممت رائحة كريم الحلاقة عندما جلست أنتظر، تعرفت على الرائحة في قلق. التقت أعيننا في المرآة، ابتسمنا لبعضنا البعض. من الواضح أنه كان الرجل الذي سيوصلنا بـ «دكتور فاين».

الفصل الثامن

في طريقنا إلى دكتور «فاين»، جلست جنان في المقعد الخلفي لسيارة من طراز «شيفروليه»، تهوّي لنفسها بنسخة من مجلة «بريد جيودل» وكأنها أميرة إسبانية متعالية، بينما جلست أنا مستقيماً أحصي أشباح القرى.. الجسور البالية... المدن المنهكة، لم يكن سائقنا ـ الذي تفوح منه رائحة صابون الحلاقة «أو بي» ـ ثرثاراً، أحب أن يعبث بالراديو ليستمع إلى نفس الأخبار مجدداً وتقارير الطقس التي تتناقض مع بعضها البعض: الأمطار الخفيفة متوقعة على وسط «أناتوليا»، أو لا.. هناك عواصف رعدية مصحوبة بسيول تنتشر على منطقة «إجين»، أو أنها ملبدة بالغيوم، أو مشمسة.. ظللنا على الطريق لست ساعات تحت السماء الملبدة بالغيوم جزئياً، نقود خلال الأمطار المشؤومة التي جاءت من أفلام القراصنة وأرض الخرافات، بعد نزول الأمطار الأخير الذي ضرب سطح السيارة بلا رحمة، وجدنا أنفسنا فجأة في مكان جدير بالحكايات وكان مختلفاً تماماً.

انتهى الإيقاع الكئيب لمسّاحات الزجاج، كانت الشمس في هذه الأرض الخالية رائعة وكانت تدخل من خلال فتحة التهوية للنافذة اليسرى.. أيتها المملكة النقية كالكريستال، الواضحة والهادئة، سلّمي كل أسرارك لنا! كانت الأشجار التي على أوراقها

قطرات المطر يبدو واضحاً أنها أشجار، مرّ بطريقنا طيور وفراشات مثل طيور وفراشات هادئة وعاقلة بلا أي نية في الطيران والدخول من زجاج السيارة، كنت على وشك أن أسأل أين يتوارى عملاق القصة في هذا المكان الذي يوجد خارج الزمان؟ خلف أية شجرة توجد الأقزام الوردية اللون والساحرة البنفسجية؟ كنت على وشك أن أشير إلى غياب العلامات أو الحروف في أي مكان، عندما مرّت بانسيابية شاحنة عليها لافتة تقول: «فكر قبل أن تعبر الطريق» على الطريق السريع المشرق مررنا عبر مدينة صغيرة، ثم انعطفنا إلى اليسار وسلكنا طريقاً حجرياً؛ صعدنا تلالاً، مررنا بقرية مفقودة أو اثنتين تمّ ردمها بالكامل بالغبار، ألقينا نظرة على غابات مظلمة، وأخيراً توقفنا أمام منزل دكتور «فاين».

كان عبارة عن بناء من الخشب الذي بدا مثل واحد من هذه العزب المحلية التي تمّ تحويلها إلى حانات تحمل أسماء مثل «القصر المرحب»، قصر السماء، قصر البهجة، أو قصر الراحة عندما تتفكك العائلة الكبيرة التي تعيش هناك نتيجة للوفاة.. لسوء الحظ، أو الهجرة، لكن لم تكن هناك أية علامات لعربات إطفاء محلية يحتفظون بها حول هذا المكان، ولا أي جرارات معبرة، أو مطعم ما يدعى «مشويات المدينة» العزلة فقط.. كان هناك أربع نوافذ بالطابق العلوي بدلاً من الست نوافذ المعتادة في مثل هذه البيوت، وكان الضوء في النافذة الثالثة يلقي وهجاً برتقالياً على الفروع الدنيا للأشجار التي أمام المنزل، كانت الحدود الخارجية لشجرة التوت مرئية بالكاد في الظلام، وكانت هناك حركة في الستائر، صوت ارتطام نافذة، وقع خطوات، جرس، ظلال تتحرك، فُتح الباب، وكان الشخص الذي رحّب بنا هو دكتور «فاين» بنفسه.

كان طويلاً، حسن الهيئة، في أواخر الستينيات أو أوائل السبعينيات، ويرتدي نظارة، كان وجهه من النوع الذي لا تستطيع فيما بعد في حجرتك تذكر إذا كان يرتدي النظارات أم لا، كما لا تستطيع تذكر إذا كان بعض الرجال الذين تعرفهم جيداً لديهم شوارب أم لا، كان لديه حضور عظيم.. فيما بعد في حجرتنا، قالت جنان.. «أنا خائفة» لكنها بدت لي فضولية أكثر منها خائفة.

تناولنا العشاء مع الأسرة كلها على مائدة طويلة للغاية على ضوء مصابيح الكيروسين التي تلقي ظلالاً طولية، كان لديه ثلاث بنات.. الابنة الصغرى وتدعى «روزباد»، كانت حالمة وفرحة لكنها ما زلت غير متزوجة بالرغم من أنها كانت في الوقت المناسب للزواج، بدت الابنة الوسطى «روزابل» أشبه بزوجها الطيب ـ الذي جلس أمامي وهو يتنفس من أنفه بصوت مزعج ـ منها إلى أبيها، أما الكبرى الجميلة «روزامند» فقد طُلقت منذ وقت ما، كما استنتجت من المحادثة بين ابنتيها حسنتي السلوك اللتين كانتا في السادسة والسابعة من العمر، كانت أم الوردات الثلاث امرأة صغيرة تمارس الضغط العاطفي؛ ليس فقط عيناها ولكن سلوكها العام كان يقول: احذروا.. إذا ما كدّرتموني! فسوف أنفجر من البكاء، وعلى الجانب الآخر من المائدة جلس محام من المدينة ـ لم أستطع التقاط اسم المدينة ـ الذي حكى قصة عن تنازع الأراضي الذي يعتمد على التنظيمات السياسية، الرشوة، والموت، وكان فرحاً تماماً عندما حقّق له دكتور «فاين» توقعاته بسماعه قصته بفضول، فعيناه تؤيد المحامي برغم أنهما يستنكران ويرفضان الأحداث، كان جالساً بجانبي واحد من هؤلاء الرجال المسنين السعداء بكونهم يقضون سنواتهم الأخيرة من حياتهم وهم يشهدون الحالة النشطة للشؤون في صدر عائلة

كبيرة قوية ولها احترامها، لم يكن من الواضح ما هي علاقة الرجل الكبير بالعائلة، لكنه ضاعف سعادته براديو صغير وضعه بجانب طبقه، لقد وضع أذنه مرات عديدة على الراديو مباشرة ليسمع ـ ربما كان يعاني من ضعف في السمع ـ ثم استدار ناحية دكتور «فاين» وإلى ناحيتي مبتسماً ليكشف عن سنته الصناعية ويقول: «لا أخبار من جيودل!» ثم ـ كما لو كان استنتاجاً طبيعياً لعبارته ـ يضيف: «إن الدكتور يحب المناقشات الفلسفية، ويعشق الأفراد حديثي السن مثلك.. فمن المذهل كم تشبه ابنه!».

أطبق الصمت لفترة طويلة.. أعتقد أن الأم ستنفجر في البكاء، وأدركت الغضب الذي يلمع في عيني دكتور فاين. دقت ساعة الجد التي في مكان ما خارج حجرة الطعام لتعلن الساعة التاسعة، مذكرة إيانا بأن الوقت والحياة أشياء عابرة لا تدوم.

أدركت ببطء فيما مرّت عيناي على المائدة.. الحجرة والأشياء.. الأشخاص والطعام، إن هنا بالتحديد بيننا في هذا المنزل؛ هناك علامات وآثار لحلم ما أو ما شابه لحياة نشعر بها بعمق وذكريات، أثناء هذه الأمسيات التي قضيناها أنا و«جنان» في الحافلة، بعد أن يضع المساعد شريط فيديو ثان في الجهاز بإصرار من بعض الركاب الأكثر حماساً، كنا لبضع دقائق نكون مأخوذين بالسحر الذي كان متهالكاً متردداً، أو شعور بعدم القدرة على اتخاذ القرار الذي كان حاداً لكنه بلا هدف، تاركين أنفسنا للعبة لا نستطيع فهم معناها تماماً بالنظر إلى عواقبها وضرورتها؛ ومرتبكين لكوننا نعيش نفس اللحظة ونحن على مقعد مختلف ومن وجهة نظر مختلفة، شعرنا أننا على وشك اكتشاف سر الهندسة المتوارية والمتغيرة التي تدعى الحياة؛ وبالضبط أثناء ما كنا

نحاول بحماس فهم المعنى العميق الكامن وراء ظلال الشجرة، الصورة الكئيبة للرجل ذي المسدس، التفاح الأحمر على الفيديو، والأصوات الميكانيكية على الشاشة، كنا ندرك أننا ـ يا إلهي ـ قد رأينا هذا الفيلم بالفعل!

صاحبني نفس الشعور حتى بعد العشاء.. استمعنا لفترة إلى راديو الرجل العجوز، الذي كان على المحطة نفسها التي لم أكن لأفوتها قط في طفولتي، جلبت لنا «روزباد» حلوى من العهد الفائت، حلوى «الأسد» بجوز الهند وحلوى كراميل «حياة جديدة» في طبق فضي مماثل للطبق الذي في منزل العم «رفقي». قدمت «روزابل» لنا القهوة، أما الأم فسألت إذا كنا نريد شيئاً آخر، كان هناك على المناضد الجانبية وعلى الأرفف التي في ظهرها المرايا نسخ من الصور الرومانسية التي تُباع في كل البلاد، وسواء كان دكتور «فاين» يشرب قهوته أو يحرك الساعة على الحائط، فقد كان في صورة الأب العطوف في العائلة المثالية على تذاكر اليانصيب القومي، كانت علامات معينة لرقة أبوية وترتيب منطقي لا يمكن تسميته بسهولة يملأ كل الأشياء التي تزيّن الحجرة، مثل الستائر ذات الإطارات المطرزة بالأزهار والتوليب، مواقد الكيروسين العتيقة ومصابيح الكيروسين التي كانت متهالكة تماماً مثل الضوء الذي ينبعث منها، أخذني دكتور «فاين» من يدي ليريني «بارومتراً» على الحائط، وطلب مني أن أنقر ثلاث مرات على الوجه الكريستالي الرقيق. عندما نقرت عليه وتحركت الإبرة قال بأبوة: «غداً سيكون الجو عاصفاً وعنيفاً مرة أخرى».

على الحائط بجانب البارومتر ـ كان من الواضح أن هناك صورة قديمة في إطار كبير ـ وجه شاب صغير، الذي ذكرته «جنان» عندما عدنا إلى حجرتنا، لكني لم أتذكر... سألتها لمن

هذه الصورة التي شاهدناها في الإطار؟ سألتها مثل شخص غير عاطفي هربت حياته بعيداً عنه، مثل شخص ينام وسط الأفلام ويقرأ الكتب بلا اهتمام.

قالت جنان: «لمحمد» كنا نقف في ضوء مصابيح الكيروسين التي أعطوها لنا لنحضرها إلى الحجرة ـ «أما زلت لا تفهم؟ دكتور فاين هو والد محمد. . . !».

أتذكّر سماع أصوات ارتطام في عقلي التي كانت مثل تليفون عام مشؤوم تأبى العملة المعدنية أن تسقط فيه ثم جاء كل شيء مصادفة وشعرت بالغضب أكثر مما شعرت بالدهشة، مدركاً الحقيقة الحتمية التي كانت مثل عاصفة تنحسر عند طلوع الفجر. . لقد حدث لأكثرنا في وقت أو آخر، عندما نجلس ونشاهد فيلماً لمدة ساعة معتقدين أننا نعرف ما يجري قبل أن ندرك أننا كنا الحمقى الوحيدين في دار العرض الذين لم يدركوا الأمر، فنصبح غاضبين.

«إذاً، ماذا كان اسمه الآخر؟».

«ناهيت» قالتها، وهي تطرق برأسها بدراية مثل شخص لديه إيمان بعلم الفلك. . . «هذا الاسم يعني نجم السماء، من الواضح. . كوكب الزهرة».

كنت على وشك القول إنه لو كان لي اسم كهذا وأب يتوافق مع الاسم؛ لأردت أيضاً أن اتخذ هوية مختلفة، عندما أدركت أن الدموع تنهمر من عيني «جنان».

إنني حتى لا أريد أن أتذكر بقية الليلة، كان دوري هو تعزية «جنان»، التي كانت تنتحب لأجل «ناهيت» الذي يعرف بـ «محمد»، وربما لم يكن كثيراً جداً لأسأل، لكنني كنت مجبراً على أن أذكّر

جنان أننا عرفنا بالفعل أن «محمد ـ ناهيت» لم يمت حقاً في حادثة طريق؛ هو فقط جعل الأمر يبدو كذلك، كنا متأكدين من إيجاد «محمد» وهو يمشي في الشوارع الجميلة في مكان ما في قلب السهب، ويكون قد حوّل الحكمة التي استنبطها من الكتاب إلى وجوده في المملكة الرائعة حيث الحياة الجديدة ممكنة.

بالرغم من أن هذا الاعتقاد كان أقوى عند «جنان» منه عندي، خلق القلق عواصف عنيفة في نفس جميلتي الحزينة، هكذا كنت مجبراً أن أفسّر لها طويلاً لماذا أظن أننا على الطريق الصحيح... انظري كيف نجحنا في التسلل بعيداً عن مؤتمر التجار دون الدخول في أية مشكلات! وانظري أيضاً كيف نجحنا في اتباع منطق داخلي الذي اتضح أنه مجرد مصادفة، وانتهى بنا المطاف إلى هذا المنزل؛ حيث قضى الشخص الذي نبحث عنه طفولته، في هذه الحجرة بالذات المليئة بآثاره، القارىء الذي يشعر بالسخرية في لهجتي ربما يدرك أن الميزان قد سقط من عيني، أن السحر الذي غزا كياني كله وأضاء روحي ـ كيف لي أن أخمده ـ قد غيّر الاتجاه، بينما كانت «جنان» حزينة لمجرد أن «محمد ـ ناهيت» قد تمّ افتراض أنه مات، كنت يائساً لأنني فهمت الآن أن رحلاتنا على الحافلات لن ترجع لسابق عهدها.

بعد تناول إفطار من الخبز، العسل، الجبن الإيطالي (ريكوتا) والشاي مع الأخوات الثلاث، رأينا المتحف الرديء في الطابق الثاني الذي أهداه دكتور «فاين» لذكرى طفله الرابع وابنه الوحيد، الذي احترق حتى الموت في حادث طريق، قالت «روزامند» وهي تضع مفتاحاً كبيراً بسهولة مدهشة في ثقب صغير «والدي يرغب في أن ترى هذا».

أسرع قلبي تحت وطأة تأثير شديد وكان ينبض بعنف. . . همست «روزامند» لتشير إلى تقارير مدرستيّ ناهيت الابتدائية والثانوية، وشهادات التقدير الخاصة به. بنبرة منخفضة: كل درجاته كانت ممتازة. . حذاء «ناهيت» الرياضي الذي ما زال عليه الوحل، سرواله القصير ذو الحمالات ياباني الصنع الذي أُرسل في طلبه من متجر في أنقرة يدعى «جونكويل». في الحجرة سيئة الإضاءة، أثناء عثوري على مراسلات ترجع إلى طفولته جعلني أرتجف، وشعرت بالخوف تماماً كما قالت «جنان» إنها تشعر، عندما سحبت «روزامند» الستائر جانباً وهمست أنه أثناء سنوات دراسته في كلية الطب اعتاد أخوها العزيز أن يسهر طوال الليل يقرأ ويدخن حينما يكون في البيت، ثم في الصباح كان يفتح هذه النافذة لينظر إلى شجرة التوت.

كان هناك صمت. ثم سألت «جنان» ما الكتب التي كان يقرؤها «ناهيت» في أثناء تلك الفترة؟ اجتاحت الأخت الكبرى موجة من الحيرة وعدم القدرة على اتخاذ القرار. قالت: «لم يعتقد أبي أنه من المناسب أن تُحفظ هذه الأشياء خارج المنزل». ثم ابتسمت كما لو كانت تعزي نفسها. «لكن يمكنكما أن تلقوا نظرة على هذه الأشياء التي قرأها في طفولته».

كانت تشير إلى مكتبة الكتب التي بجانب الفراش، التي كانت مليئة بمجلات الأطفال والقصص المصورة، لم أشأ أن أقترب أكثر من المكتبة؛ لأنني تمنيت تجنب التعاطف المبالغ فيه مع الطفل الذي قرأ ذات مرة هذه المطبوعات، فضلاً عن خوفي من أن «جنان» قد تصبح عاطفية وتنفجر في البكاء في هذا المتحف الذي أفقدنا شجاعتنا؛ لكن مقاومتي انهارت عندما وصلت يدي بإرادتها الحرة لتلمس صورة على غلاف واحدة من

المجلات الموضوعة بعناية في المكتبة، كانت الألوان على كعب الكتاب تبدو مألوفة إلى حد ما بالرغم من أنها بشكل ما باهتة.

أظهرت الصورة على الغلاف طفلاً في الثانية عشرة من عمره يتشبث بيد واحدة بجذع شجرة ضخم - والتي رسم عليها الأوراق بعناية ولكن نظراً للطباعة السيئة خرج اللون الأخضر عن الحدود - بينما قبض بيده الأخرى على يد طفل أشقر في نفس عمره، منقذاً إياه في اللحظة الأخيرة قبل أن يسقط في هاوية لا قرار لها، كانت علامات الرعب على وجه كلا الطفلين البطلين. كان هناك في الخلفية مشهد أمريكي من الطبيعة ملوناً بدرجات الرمادي والأزرق، وهناك عُقاب يحوم في ترقب لكارثة أو دماء مسفوكة.

قمت بتهجي مقاطع العنوان كما اعتدت أن أفعل عندما كنت طفلاً: «نيبي في نبراسكا». تصحفت خلال القصة المصورة، التي كانت من المجهودات المبكرة للعم رفقي، متذكراً المغامرات التي حدثت خلال تلك الصفحات.

تمّ اختيار الصغير «نيبي» من قبل السلطان ليمثل الأطفال المسلمين في معرض شيكاغو العالمي. وهناك، أخبر طفل يدعى «توم» اتضح أنه هندي أمريكي «نيبي» عن مشكلته، وهكذا ذهبا معاً إلى نبراسكا ليحلاها، كان الرجال البيض الذين يضعون أعينهم على الأراضي - حيث قام أسلاف «توم» باصطياد الجاموس على مدى قرون - يشجعون قبيلة «توم» الهندية على أن يصبحوا مدمنين على الكحول، يعطون البنادق بالإضافة إلى زجاجات الويسكي لشبان القبيلة برغبة في السلوك السيىء، كانت المؤامرة التي سلّط عليها «توم» و«نيبي» الضوء بلا رحمة تماماً: جعل الهنود السالمين يسكرون بما يكفي لكي يثوروا، ثم جعل الجيش الفيدرالي يسحق

المتمردين ويطردونهم من الأرض، مالك الحانة والفندق الثري الذي يحاول دفع «توم» إلى الهاوية المنحدرة يقع فيها بنفسه ويموت، وهكذا ينقذ أطفال القبيلة من الوقوع في المكيدة.

كانت «جنان» تتصفح قصة «ماري وعلي» لأن العنوان بدا مألوفاً لديها؛ كانت عن مغامرات صبي من اسطنبول ذهب أيضاً إلى أمريكا. . يصل «علي» إلى مرفأ بوسطن على متن سفينة بخارية أبحر بها من «جالاتا» للبحث عن مغامرة؛ عند رصيف المرفأ يقابل «ماري»، التي تنتحب بشهقات عنيفة وتنظر إلى المحيط الإطلنطي لأن زوجة أبيها طردتها من منزلها؛ وبدأ الطفلان رحلتهما على الطريق غرباً للبحث عن والدها الغائب. . . مرّا خلال «سانت لويس»، التي تبدو مثل الصورة في القصص المصورة «توم ميكس»؛ شقّا طريقهما وسط الغابات البيضاء «لوا» حيث رسم العم «رفقي» ظلال الذئاب في الجوانب المظلمة؛ ووصلا إلى جنة تحت أشعة الشمس، تاركين خلفهما رعاة البقر الضالين السارقين المسلحين الذين يهاجمون عربات السكك الحديدية، والهنود الذين يحيطون بعربات القطار، في الوادي الأخضر المشرق، تفهم «ماري» أن السعادة الحقيقية ليست إيجاد والدها، لكن فهم مميزات الصوفية من سلام، استسلام، والصبر الذي تعلمته من «علي»؛ وأن تعطي اهتماماً للشعور بالواجب، ترجع هي لتكون مع أخيها في «بوسطن». أما بالنسبة لـ «علي»، فيفكر في نفسه، «عندما تفكر في الأمر، الظلم والشر موجودان في كل مكان في العالم»؛ وينظر للخلف إلى أمريكا من على سطح السفينة التي صعد على متنها شاعراً بالحنين إلى اسطنبول، قائلاً: «المهم هو أن تعيش بحيث تبقى الطيبة بداخلك سليمة».

بدلاً من أن تصبح «جنان» أكثر يأساً كما تخيلت، أشرقت أكثر وهي تقلب الصفحات ذات رائحة الحبر التي ذكرتني بليالي الشتاء المظلمة والباردة في طفولتي، قلت لها إنني أيضاً قد قرأت نفس القصص المصورة حين كنت طفلاً... افتراضاً بأنها لم تدرك السخرية في كلماتي، أضفت أن هذا شيء آخر نشترك فيه أنا و«محمد» الذي يُعرف بـ «ناهيت». افترضت أنني أتصرف كعاشق مهووس يعتقد أن كون حبه غير متبادل فإن حبيبته حتماً بلا مشاعر، لكنني لم أشعر بالرغبة في أن أخبرها أن الكاتب والرسام الذي أبدع هذه القصص كان شخصاً اعتدت أن أدعوه بالعم «رفقي». أخبرتها فقط بمثال واحد عندما شعر المؤلف أنه يريد إخبار القرّاء بما دفعه لخلق شخصيات قصصه المصورة.

لقد وضع العم «رفقي» ملاحظة مختصرة في مقدمة أحد كتبه قائلاً: «الأطفال الأعزاء، أينما أراكم بعد المدرسة، سواء كنتم في عربات الترام أو شوارع منطقتي المتواضعة، أراكم دائماً تقرأون مغامرات «توم ميكس» أو «الطفل بيلي» في مجلات رعاة البقر، أنا أيضاً أحب رعاة البقر الشجعان والشرفاء ورجال شرطة «تكساس».. ففكرت أنني إذا حكيت لكم قصة طفل تركي وسط رعاة البقر الأمريكان فلربما أحببتموها، بجانب أن بهذه الطريقة ستتعرفون ليس فقط على الأبطال المسيحيين، لكن من خلال مغامرات مواطنين أتراك شجعان سيفضي بكم الأمر إلى أن تهتموا بالأخلاقيات والقيم القومية التي أورثنا إياها إسلامنا، من المثير بالنسبة لكم أن يستطيع طفل من حي فقير في اسطنبول أن يسحب المسدس بنفس السرعة التي يسحب بها الطفل بيلي مسدسه أو أن يكون شريفاً وصادقاً مثل «توم ميكس»، فقط انتظروا حتى تقرأوا مغامراتنا المقبلة».

بصبر.. بحرص، وبهدوء تماماً مثلما تأمل «ماري وعلي» العجائب التي صادفتهم في الغرب الجامح، قمت أنا و«جنان» بدراسة الأبطال الذين رسمهم العم «رفقي» في عالم من الأبيض والأسود، الجبال الجميلة، الغابات الموحشة، المدن المليئة باختراعات وعادات غريبة... في مكاتب القانون، في المرافىء المليئة بالسفن، في محطات القطار البعيدة، ووسط الباحثين عن الذهب، التقينا بالمغامرين الذين يرسلون التحية إلى السلطان والأتراك، الزنوج الذين تحرروا من الاستعباد واعتنقوا الإسلام، الطهاة الهنود الذين استشاروا المشعوذين الذين كانوا أتراكاً من وسط آسيا بخصوص طريقتهم لعمل «اليورت»، بالإضافة إلى الفلاحين وأطفالهم ذوي الطبيعة الطيبة والنقية مثل الملائكة، بعد قراءة بعض صفحات من مغامرة دموية حيث حاملو البنادق يقتلون بعضهم البعض مثل الذباب، حيث يمتزج الخير والشر في الأبطال بتغيير الأماكن بتكرار، أو حيث أخلاقيات الشرق تقارن بمنطقية الغرب، واحد من الأبطال الشجعان والطيبين يُصاب بالرصاص في الظهر من قبل طلقة خائنة، وفوراً أثناء احتضاره عند طلوع النهار جاءه تلميح أنه على وشك مقابلة ملاك، لكن العم «رفقي» لم يضع الملاك على الصفحة.

جمعت الأعداد التي تحوي سلسلة من مغامرات تحكي كيف سريعاً ما أصبح «برتف» من اسطنبول و«بيتر» من بوسطن أصدقاء وقلبا أمريكا رأساً على عقب، وأريت «جنان» مشاهدي المفضلة: يمنع «برتف» الصغير بمساعدة «بيتر» مقامراً غير شريف يسرق مدينة وهو أعمى بمساعدة نظام من المرايا قام هو بتجميعها ووضعها معاً؛ ثم يطارد المقامر إلى خارج المدينة بمساعدة رجال المدينة الذين يقسمون أن يقاطعوا البوكر والقمار، عندما تدفق

الزيت الخام من وسط كنيسة وأهل المدينة ـ المنقسمون على أنفسهم ـ على استعداد أن يتشاجروا ويقعوا في مصيدة الاختيار بين مليونيرات الزيت أو مستغلي الورع والتقوى، أنقذ «بيتر» الموقف بأن أطلق حديثاً عن العلمانية بأسلوب «أتاتورك»، مضاء ببعض أفكار عن تأثير الغرب التي تعلّمها من «برتف». ليس هذا فقط، يقترح برتف الصغير فكرة الكهرباء الأولية التي تقود إلى اكتشاف المصباح الكهربائي بواسطة «أديسون» ـ الذي قابله عندما كان «أديسون» الصغير يعيش على بيع الجرائد في عربات السكك الحديدية ـ بإخبار «أديسون» أن الملائكة خُلقت من ضوء، أن الملائكة تملك نوعاً من الكهرباء الغامضة.

لكن فيما بعد ومن بين كل أعماله، كان «أبطال السكك الحديدية» العمل الذي عكس بقوة طموحات ورغبات العم «رفقي» في هذه القصة نرى «برتف وبيتر» يدعمان بناء خط سكة حديدية من الشرق إلى الغرب عبر أمريكا، كان هذا الخط الذي سيصل أدنى البلاد بأقصاها مسألة حياة أو موت بالنسبة لأمريكا، كما كان بالنسبة لتركيا في فترة الثلاثينيات، لكن كان هناك أعداء كُثر لهذه الجهود، مثل شركة «ولز فارجو» أو الأتباع المطيعين لشركة «موبيل» للبترول، رجال الدين الرافضين أن يتركوا السكة الحديدية تمر عبر أراضيهم، أو المنافسين العالميين مثل روسيا، التي تدمر الجهود الحكيمة لرجال السكة الحديدية عن طريق إثارة الهنود، أو بدء إضراب العمال، وتشجيع الشباب على تخريب مقاعد عربات السكك الحديدية بالشفرات والسكاكين، كما كان يحدث للقطارات في اسطنبول.

«لو فشلت اتفاقية السكك الحديدية» كان «بيتر» يقول بقلق في واحد من البالونات: «التنمية في بلدنا سوف تتدهور، وما

يدعوه الناس حادثة سوف يصبح مسألة قدر.. يجب أن نحارب حتى النهاية، يا «برتف»!».

كم اعتدت أن أحب علامات التعجب الكبيرة التي تتبع الصيحات المكتوبة بخط أسود عريض التي تملأ البالونات! «احذر» كان «برتف» ليصيح في «بيتر»، محذّراً إياه ليتفادى السكين قبل أن يطعنه مجرم ما حقير في ظهره. «وراءك!» هكذا كان يصرخ «بيتر» الذي ـ دون أن يزعج نفسه بالنظر للخلف ـ يطوح بقبضته، التي تضرب ذقن أحد أعداء السكك الحديدية، أحياناً كان العم «رفقي» يتدخل مباشرة، واضعاً وسط الصور لافتات صغيرة كتب عليها حروفاً وكلمات واهنة تماماً مثل ساقيه على غرار «فجأة» أو «الآن ماذا؟» و«على حين غرة»، واضعاً لهم علامات تعجب ضخمة في نقطة ما، وليدة تجربتي الخاصة، كان «محمد» الذي «يدعى» بـ «ناهيت» يكون مرسوماً في القصة.

كنت أنا و«جنان» نبحث عن الجمل ذات علامات التعجب عندما قرأنا هذه الجملة: «الأشياء المكتوبة في الكتاب تركت ورائي الآن!» قيل هذا من قبل شخصية أهدت نفسها للحرب ضد الجهل وقيلت لـ «بيتر وبرتف» عندما قاما بزيارته في كوخه حيث عزل نفسه، محبطاً من حياته الفاشلة.

تمالكت نفسي عندما أدركت أن «جنان» أصبحت تنفر من هذه الصفحات، حيث كان كل الأمريكان ذوي النفوس الطيبة شقراً وعندهم نمش، وكل الأشرار أصحاب فم ملتوٍ، حيث كل فرد يشكر الآخر على كل عمل ضئيل، حيث العقبان دائماً ما يجمعون كل الجثث من الأشلاء، وحيث عصارة الصبار تنقذ حياة الناس الذين يموتون من العطش.

بدلاً من أن أحلم بإمكانية حياة جديدة كـ «ناهيت» آخر، قلت لنفسي سيكون من الأفضل أن أحرّر «جنان» من أحلامها المزيفة، كانت قد أصبحت عاطفية وهي تنظر إلى تقارير مدرسة «ناهيت» الإعدادية الخاصة بـ «ناهيت» وصورته على تحقيق شخصيته. ثم جاءت «روزباد» إلى الحجرة فجأة، كما يأتي العم «رفقي» ليساعد شخصياته المحاطة بالحظ السيىء والمشكلات عن طريق وضع اللافتات التي تقول: «فجأة!» أخبرتنا «روزباد» بأن أباها ينتظرنا.

لم تكن لدي أدنى فكرة عما يمكن أن يحدث لنا بعد ذلك، ولا لدي أدنى فهم لأي شيء، سأضع حساباتي لكي أقترب من «جنان». عندما خرجت من المتحف المُهدى إلى فترة «ناهيت» من حياة «محمد»، جاءتني فكرتان غريزيتان: أردت أن أغادر هذا المشهد، أو أردت أن أصبح «ناهيت».

الفصل التاسع

فيما بعد عندما ذهبنا ـ نحن الاثنين ـ في نزهة طويلة في عزبته، عرض علي دكتور «فاين» بكرم الاختيار بين حياتين بديلتين، كلتيهما أريد. . . إن الأمر مصادفة بحتة عندما يبدو الآباء على معرفة ـ كما لو كانوا آلهة في حيازتهم ذاكرة لا نهائية وكتب للتسجيل ـ بالأفكار التي تدور في أذهان أبنائهم. . في الحقيقة، هم بكل بساطة يمارسون رغباتهم غير المحققة في أبنائهم، أو في غرباء مثاليين يذكّرونهم بأبنائهم. . . هذا كل ما في الأمر. . .!

لقد جعلوني أفهم بمجرد أن شاهدت المتحف، أن دكتور «فاين» يرغب في أن نذهب سوية في نزهة ونتحدث. . مشينا بطول حدود الحقول حيث يتمايل القمح مع النسائم؛ عبرنا أرضاً تمّ حرثها؛ فيها عدد من الماشية والأبقار تحكّ أنفها في العشب القليل تحت شجر التفاح الذي كانت ثماره صغيرة وغير ناضجة. . أراني دكتور «فاين» البيوت التي حفرها حيوان الخُلد في الأرض؛ لفت انتباهي إلى الطرق التي صنعتها الخنازير البرية، وشرح كيف أن طيور السُّمنة التي تطير من الضواحي الجنوبية للمدينة متجهة إلى أشجار الفاكهة يمكن أن تعرفها من خفقات أجنحتها غير المنتظمة، فسّر لي إلى جانب ذلك أشياء كثيرة للغاية، متحدثاً بصوت تعليمي، صبور، وليس بعيداً عن كونه عطوفاً.

لم يكن في الحقيقة طبيباً؛ أطلق عليه أصدقاؤه اسم «دكتور» عندما كان يؤدي الخدمة العسكرية لمجرد أنه على دراية بالتفاصيل المفيدة بالنسبة للإصلاحات الصغيرة، مثل الصمولة المناسبة لنوع معين من المسامير أو سرعة قرص الهاتف، لقد عُرف بهذا الاسم؛ لأنه أحب المعدات، وكان يتمتع بالاهتمام بها، ولأنه أدرك أن اكتشاف الخصائص الفريدة لكل غرض أو شيء ينتهي إلى أعلى جودة، لم يدرس الطب ولكنه درس القانون انصياعاً لرغبة والده، الذي كان نائباً في البرلمان، واستمر في ممارسة القانون في المدينة؛ لكن عندما توفي والده وورث عنه كل الأشجار والأراضي التي أشار إليها بسبابته، قرر أن يعيش كما يحب.. فقط كما يحب! وسط منتجات اختارها بنفسه، منتجات اعتاد عليها، منتجات عرفها بنفسه، لقد قام بفتح متجر في المدينة وهذا الهدف في ذهنه.

كنا نصعد التل الذي كان دافئاً إلى حد ما بسبب ضوء الشمس المتردد قليلاً، عندما كشف دكتور «فاين» لي أن الأشياء لها قدرة على التذكر.. مثلنا تماماً، الأشياء أيضاً لديها القدرة على تسجيل ما يحدث لها وتحتفظ بذكرياتها، ولكن معظمنا ليس على وعي بهذا. «المواد تسأل عن بعضها البعض، تتفق، تهمس لبعضها البعض، تبدأ بعزف مقطوعة موسيقية، مكونة الموسيقى التي نسميها العالم»، قال دكتور «فاين»: «فقط الأشخاص المنتبهون يسمعونها، يرونها، ويفهمونها». يمكنه أن يقول إن طيور الحقول كانت تبني عششها حول المكان بالنظر إلى البقع الجيرية على الغصن الجاف الذي قام بالتقاطه؛ وبدراسته للعلامات على الوحل، شرح لي كيف انكسر الغصن في عاصفة ما منذ أسبوعين.

يبدو أنه كان يبيع بضائع سبق واشتراها ليس فقط من اسطنبول وأنقرة ولكن أيضاً من تجار من كل مكان في «أناتوليا»، مثل الأحجار لسنّ السكاكين التي لا تبلى أبداً، سجاجيد مصنوعة يدوياً، أقفال صُنعت من الحديد المطروق، فتيل عذب الرائحة لمواقد الكيروسين، موديلات بسيطة للثلاجات، قلانس مصنوعة من صوف ناعم الملمس، «رونسون» ماركة حجر صوان، مقابض للأبواب، مواقد صُنعت من براميل الجازولين المعاد تصنيعها، أحواض صغيرة لأسماك الزينة ـ أي شيء على الإطلاق يعني له شيئاً، أو أي شيء له معنى، كانت السنوات التي قضاها في المتجر حيث كل أنواع الحاجات الأساسية للبشر يتمّ عرضها في طريقة آدمية أسعد أيام حياته، عندما حباه الله بابن بعد أن أنجب بناته الثلاث، اكتملت سعادته.. سألني عن عمري، فأخبرته.. قال عندما توفي ابنه كان في نفس عمري.

جاءتنا أصوات من مكان ما وراء التل لأطفال غير مرئيين بالنسبة لنا، عندما اختفت الشمس خلف السحب الكثيرة المظلمة التي تصرّ على أن تسافر بسرعة، استطعنا أن نرى عن بُعد الأطفال يلعبون كرة القدم على ملعب عارٍ، كان هناك فارق زمني بين رؤية الكرة وهي تُركل ولحظة سماع الصوت، قال دكتور «فاين»: إن هناك البعض وسط الأطفال يقومون بسرقات زهيدة، وإن سقوط الحضارات العظيمة وتحطم ذكرياتها يشار إليه أولاً بالتداعي الأخلاقي للصغار. فالصغار لديهم القدرة على نسيان القديم بلا ألم وبنفس سرعة تخيلهم للجديد، أضاف إن الأطفال يعيشون في المدينة.

عندما كان يتحدث عن ابنه، شعرت بالغضب.. لماذا يكون الآباء يملؤهم الفخر؟ كيف يمكنهم أن يكونوا في منتهى

القسوة بلا وعي؟ أدركت أن عدسات نظارته تجعل عينيه تبدوان صغيرتين على غير العادة. تذكرت أن ابنه أيضاً كان لديه العينان نفسهما.

كان ابنه ذكياً جداً ـ في الواقع كان عبقرياً ـ ليس فقط لأنه بدأ القراءة في سن الرابعة والنصف، واستطاع أن يكتب الحروف ويقرأ الصحف حتى عندما تكون مقلوبة ووضع قواعد للعب الأطفال التي اخترعها؛ كان يهزم والده في الشطرنج؛ التزم فوراً بحفظ قصيدة صعبة بعد أن قرأها مرتين فقط. . أدركت أن هذه كانت فقط قصص أب قد فقد ابنه لكنه هو نفسه لم يكن لاعب شطرنج ماهراً، لكنني رضخت وقبلت هذه القصص، عندما أخبرني كيف كان هو و«ناهيت» يركبان الخيول، تخيلت نفسي أنا أيضاً أركب الخيول معهما؛ عندما تحدث عن العبادات الدينية المتشددة التي مارسها «ناهيت» خلال سنوات دراسته في المدرسة الإعدادية، تخيلت الاستيقاظ خلال رمضان مع الجدة العجوز في قلب الليل وتناول السحور قبل بدء الصيام من طلوع النهار حتى غروب الشمس؛ بنفس الطريقة التي تصرّف بها «ناهيت» وأخبرني بها والده، أنا أيضاً تألمت، وكنت غاضباً في وجه الفقر، الجهل، والغباء الذي كان حولي من كل ناحية، نعم. . فعلت ذلك! باستماعي لدكتور «فاين»، تذكرت كيف أنني أنا أيضاً كنت شاباً ـ بالرغم من خصاله الرائعة ـ ما زال لديه حياة عميقة في داخله مثل «ناهيت». نعم. . أحياناً عندما كان الآخرون يدخنون ويشربون في تجمع ما، ومنشغلين بمحاولة خلق الدعابات وجذب الاهتمام الذي كان مختصراً جداً، كان ينسحب إلى ركن ويشرد في أفكار رقيقة تخفف من التعبير الخطير في عينيه. . نعم كان يحس بالخِصلة غير المتوقعة في شخص ما يمكن أن يشجعه ويقيم

صداقة معه، فليكن هذا الشخص ابن الساعي في المدرسة الثانوية، أو الشاعر الأحمق الذي يعمل كمشغّل أفلام في السينما الذي دائماً ما يخلط لفائف الأشرطة، لكن هذه الصداقات لا تعني أنه تخلى عن عالمه؛ فبالرغم من كل شيء، كل شخص أراد أن يكون صديقه، صديقه المفضل، أو نوعاً من صاحبه المقرب، كان شريفاً ووسيماً، وكان يحترم الأكبر منه سناً، والأصغر منه أيضاً.........

ظللت أفكر في «جنان». كنت موجهاً نفسي إلى «جنان» مثل جهاز تليفزيون مضبوط على القناة نفسها باستمرار، لكني الآن كنت أفكر في جلوسها في نوع مختلف من الكراسي، ربما لأني كنت أرى نفسي في ضوء مختلف.

«ثم فجأة، انقلب ضدي، لمجرد أنه قرأ كتاباً ما». قال دكتور «فاين» عندما وصلنا إلى قمة التل.

كانت أشجار السرو على قمة التل تتحرك مع الرياح التي كانت باردة وخفيفة لكنها لا تحمل أية رائحة، وراء هذه الأشجار كانت هناك مجموعة من الصخور والأحجار.. في البداية اعتقدت أنها قبر، لكن عندما وصلنا إليها وبدأنا نمشي وسط الأحجار الكبيرة المغطاة بعناية، شرح لي دكتور «فاين» أنها أطلال حصن «سلوقي». وأشار إلى المنحدرات التي أمامنا، وتل مظلم مغطى بأشجار السرو الذي كان في الواقع قبراً، كل الحقول لونها ذهبي لأنها مغطاة بالقمح، والمرتفعات متوارية خلف السحب الممطرة حيث تهبّ الرياح بشدة، وقرية بأكملها بالإضافة إلى ذلك.. كل هذا أصبح ملكه الآن، بما فيه القلعة.

لماذا يدير شاب صغير ظهره لكل هذه الأرض التي تموج

بالحياة، كل هذه الأشجار، أشجار السرو وأشجار الحور، أشجار التفاح وأشجار الصنوبر، كل الطعام الذي وفره أبوه له، بالإضافة إلى مخزون البضائع الذي يتفق مع كل ما ذكر أعلاه؟ ما الذي يجعل شاباً يكتب لوالده أنه لا يريد أن يراه مجدداً قط، مخبراً إياه ألا يرسل أحداً وراءه، أو يتبعه؟ لماذا يريد أن يختفي؟ كانت هناك نظرة محددة تظهر في بعض الأحيان على وجه دكتور «فاين»، ولم أستطع أبداً أن أحدّد إذا ما كانت تعني أنه يريد غرس إبرة في وجهي، أو في وجه أشخاص مثلي، أو في العالم بأسره، أو أنه رجل محبط وبائس أعلن تخليه عن هذا العالم الملعون.. قال: «إن الأمر كله مؤامرة» هناك مؤامرة خطيرة ضده، ضد طريقته في التفكير، المنتجات التي كرّس حياته لها، ضد كل شيء حيوي في هذه البلد.

طلب مني أن أستمع بعناية لما سيقوله، يجب أن أتأكد أنني لن أعتقد أن الأشياء التي يجب أن يقولها هي كلام غير معقول يصدر عن رجل عجوز مصاب بالشيخوخة تمّ احتجازه في مدينة بعيدة معزولة، أو خيالات منبعثة من الألم الذي يشعر به أب فقد ابنه.. قلت إنني متأكد، استمعت بعناية، بالرغم من أنني شردت بعيداً كما يمكن لأي شخص أن يفعل عندما يذهب عقله بعيداً، مفكراً في ابنه.و«جنان».

ناقش لفترة ذاكرة الأشياء؛ كما لو كان يتحدث عن شيء ملموس، شرح باقتناع شديد مبدأ الوقت المثبت بقوة بداخل المادة، تمّ تنفيذ المؤامرة الكبرى تقريباً في الوقت نفسه الذي وصل فيه لأول مرة للمبدأ السحري، الضروري، الشاعري للوقت الذي ينتقل إلينا من الأشياء عندما يحدث اتصال باستخدام أو

لمس شيء ما بسيط مثل ملعقة أو مقص.. للتحدث بالتحديد، حدث الأمر في الوقت الذي كانت فيه الأرصفة المعتادة مليئة بالباعة الذين يبيعون شيئاً ما كئيباً ومسطحاً يُعرض في متاجر بلا رائحة، ولا لون.. في البداية لم يعر أي اهتمام سواء لتاجر «غاز الهلال» الذي يبيع الغاز المعبأ الذي يمد أفران الغاز بالطاقة ـ هذه الأشياء ذات المقابض ـ أو للتاجر الذي يبيع ثلاجات بيضاء كالثلج الصناعي. لكن عندما ـ بدلاً من الزبادي الجميل الناعم الملمس الذي نعرفه جميعاً ـ بدأ الباعة إحضار نوع من الزبادي يدعى «بيرت» (قالها كما لو كان يقول كلمة «ديرت/ قمامة»)، أو بدلاً من مشروب اللبن الرائب التقليدي البارد أو عصير الكرز اللاذع، أصبح السائقون الذين يرتدون قمصاناً مفتوحة العنق يشترون ـ على شاحنات نظيفة وبراقة ـ الشيء المقلد الذي يدعى «تورك كولا» الذي تمّ استبداله في الحال بالكوكاكولا الحقيقية التي يبيعها سادة شرفاء يلبسون أربطة عنق حول رقابهم، نبوعاً من نزوة غبية ما فكر في أن ينشىء تجارة لنفسه، مثل الصمغ «يو ـ اتش ـ يو» المرخص تحت ماركة مسجلة ألمانية وشعارها بومة صغيرة تَعدك أنه يمكن لهذا الصمغ لصق أي شيء تريد لصقه، بخلاف أنواع الصمغ الخاصة بنا المصنوعة من المادة الصمغية لأشجار الأناناس، أو مثلاً شيء آخر يأخذ مكان صابون الطمي خاصتنا مثل صابون البشرة «لوكس»، الذي له رائحة ملوثة مثل الصناديق التي يعبّأ فيها، لكن بمجرد أن وضع هذه الأغراض في متجره الذي كان هادئاً ومسالماً لدرجة أنه بدا موجوداً في الزمن الماضي، أدرك أنه ليس فقط لم يعد يستطيع أن يقول الوقت، ولكنه أيضاً لم يعد يعرف ما هو الوقت، ليس هو فقط ولكن أيضاً بضاعته قد تمّ الضغط عليها ـ مثل العنادل التي

انزعجت من الطيور الوقحة التي في القفص المجاور ـ من قبل وجود تلك الأشياء الوقحة المفتقرة للخيال؛ ولهذا السبب ترك فكرة التجارة، كان غير واعٍ أن فقط المسنين والذباب هم الذين يعرجون على متجره، استمر في عرض هذه المنتجات فقط التي كانت متاحة طبقاً لتقاليد أجداد أجداده.

مثل هؤلاء الناس الذين يفقدون عقولهم من شرب الكوكاكولا لكنهم لا يدركون ذلك، وبافتراض أن عامة الناس قد أصبحوا مهووسين بشرب الكوكاكولا، هو أيضاً يمكن أن يكون تجاهل أو حتى قبل المؤامرة الكبرى؛ فبعد كل شيء، هو لديه تعاملات وصداقات مع بعض التجار الذين يعملون لحساب المتآمرين. ليس هذا فقط، قاومت بضاعته مؤامرة التجار، ربما كان السبب هو التناغم السحري الذي أنشأته الأشياء بين بعضها البعض، لتشمل كل شيء في متجره، كلها من أشيائه المفضلة: المكواة المسطحة، ولاعته، المواقد التي بلا رائحة، أقفاص الطيور، منافضه الخشبية، دبابيس الملابس، المراوح، وكل الأشياء من هذا القبيل.. كان هناك آخرون مثله اتحدوا ضد المؤامرة، مثل الرجل الأسمر المهندم من «كونيا»، جنرال متقاعد من «سيفاز»، تجار من «ترابزون» كسرت قلوبهم ولكنهم ما زالوا مؤمنين بحق و ـ أنت تقول ـ حتى من طهران، دمشق، إدرين، والبلقان، جميعهم انضموا إليه في تكوين منظمة التجار المحبطين الذين نظموا الأنواع المحددة لبضاعتهم، لقد تلقى في الوقت نفسه تلك الخطابات من ابنه الذي كان يدرس الطب بعيداً في اسطنبول. «لا تبحث عني؛ لا تجعل أحداً يتبعني؛ فلقد قررت الابتعاد». أعاد دكتور فاين بسخرية الكلمات المتمردة لابنه المتوفى، الكلمات التي أغضبته.

لقد فهم على الفور أنه عندما لم تستطع عناصر القوى التي تورطت في المؤامرة الكبرى أن تتصارع مع متجره، أفكاره، وذوقه، حاولوا أن يسلكوا طريق الانتصار على ابنه لكي يدمروه هو.. قال بكبرياء: «يدمروني أنا... دكتور «فاين»!» وهكذا قام بفعل ما طلب ابنه منه في خطابه ألا يفعله، آملاً في أن يقلب كل شيء لحسابه. فقام بتعيين شخص ليتعقب ابنه، وطلب منه أن يبقى «ناهيت» تحت المراقبة وأن يكتب تقارير عن سلوكه وتصرفاته، ثم بعد أن أدرك أن جاسوساً واحداً ليس بكافٍ، أرسل شخصاً ثانياً من أتباعه وراء ابنه، ثم أرسل ثالثاً، هما أيضاً كتبا تقاريرهما. كما فعل الآخرون الذين أرسلهم في أثره، أثناء قراءته للتقارير، اقتنع مرة أخرى بحقيقة المؤامرة الكبرى، التي تنمو بواسطة هؤلاء الذين يريدون تدمير بلدنا وهويتنا، ويتخلصون نهائياً من ذاكرتنا الجمعية.

قال: «عندما تقرأ التقارير بنفسك، سترى ماذا أعني.. كل شيء وكل شخص متورط معهم يجب أن يتمّ تعقبه، لقد أخذت على عاتقي العمل الذي كان يجب أن يتم بطريقة صحيحة من قبل الحكومة ـ فأنا لها ـ أنا الآن لدي أشخاص متواطئون، أفراد كثيرون محبطون وضعوا كامل ثقتهم في شخصي».

كان باستطاعتنا رؤية المشهد الذي أمامنا الآن كبطاقة جميلة ـ والذي كان كله من ممتلكات دكتور «فاين» ـ مغطاة بالسحب الرمادية الكثيفة، بدءاً من عند التل حيث مكان القبر، كان المنظر الرائع الصافي يختفي داخل نوع من التذبذب الشاحب، البرتقالي اللون.. قال دكتور «فاين»: «إنها تمطر هناك، لكنها لن تمطر هنا». قال ذلك وكأنه إله يقف على جبل وينظر للكون الذي يتحرك بإرادته هو، لكن في الوقت نفسه كان

في صوته نبرة سخرية، أو حتى عدم رضا عن الذات، التي دلّت على أنه واعٍ تماماً بالطريقة التي كان يتحدث بها.. قررت أن ابنه لا يملك ولَو كمية قليلة من هذا النوع من الحس المرهف، كنت قد بدأت أحب دكتور «فاين».

كانت ألسنة البرق الرفيعة الواهنة تضيء وتومض ثم تختفي في السحاب عندما كرّر دكتور «فاين» مرة أخرى أن ما قلب ابنه ضده كان كتاباً، فلقد قرأ ابنه كتاباً في يوم ما واعتقد أن عالمه كله قد تغيّر.. قال لي: «علي.. يا بني، أنت أيضاً ابن تاجر، وأيضاً في أوائل العشرينيات من عمرك. أخبرني، هل هذا ممكن في هذه الأيام وهذا العهد؟ هل يستطيع كتاب أن يغيّر حياة شخص بأكملها؟» ظللت صامتاً، أنظر إليه من ركن عيني.. «بأية قوة يمكن لسحر قوي مثل هذا أن ينعكس على هذا اليوم وهذا العهد؟ لم يكن ببساطة يحاول أن يقوي اعتقاده الخاص، ولكن للمرة الأولى كان يريد حقاً إجابة مني.. ظللت صامتاً من الخوف، للحظة اعتقدت أنه كان قادماً ناحيتي بدلاً من السير ناحية أطلال القلعة، لكنه فجأة توقف والتقط شيئاً من على الأرض.

«تعال وانظر ماذا وجدت..» قال ذلك وأراني ما في راحة يده.

قال وهو يبتسم: «نبتة ذات أربع وريقات».

لكي يواجه الكتاب والأدب عموماً، قام دكتور «فاين» بتقوية علاقاته مع الرجل المهندم من كونيا، الجنرال المتقاعد من سيفاس، السيد الذي يدعى «هاليس» في ترابزون، وأصدقاؤه الحزانى الآخرون الذين جاؤوا من دمشق، ايدرين، ومن البلقان.

رداً على المؤامرة الكبرى، بدأوا يتاجرون فيما بينهم حصرياً ويأتمنون آخرين جُرحت قلوبهم أيضاً، وينظمون شيئاً ـ بعناية، بآدمية وبتواضع ـ ضد متآمري المؤامرة الكبرى، طلب دكتور «فاين» من كل أصدقائه أن يحتفظوا بالمنتجات التي كانت حقيقية لهم، المنتجات التي هي مثل امتدادات أيديهم وأذرعتهم والتي مثل الشعر الذي يجعل أرواحهم مكتملة، «بكلمات أخرى، أي شيء يجعلهم كاملين» ـ مثل أكواب الشاي الخاصة بهم التي على شكل الساعة الرملية، مباخرهم الزيتية، صناديق أقلامهم الرصاص، ألحفتهم ـ كمقياس ليحول بين كوننا عديمي الحيلة مثل الأشياء الحمقاء الميؤوس منها التي فقدت ذاكرتها الجمعية، التي كانت «كنزنا الأعظم»، لذلك فبرغم المعاناة خلال المأساة بأكملها والنسيان الملقى علينا، فقد ننشىء من جديد وبانتصار «سيادة تقاريرنا السنوية الكاملة عن الوقت الذي كنا فيه في خطر التدمير». وقام كل شخص بكل ما في وسعه بتخزين آلات قديمة، مواقد، صابون خالٍ من الصبغة، شبكات للناموس، ساعات الأجداد، وما إلى ذلك، في متاجرهم، وإذا كان الاحتفاظ بهذه المنتجات ممنوعاً في المتاجر من قِبل إرهاب الدولة الذي يدّعي قانون البلاد، فليحتفظوا بها إذاً في بيوتهم.. في الأقبية، أو حتى في حفر يحفرونها في حدائق منازلهم.

بينما كان دكتور «فاين» يذرع المكان ذهاباً وإياباً، في أحيان كان يضع مسافة بيننا، ويختفي خلف بعض الأشجار وسط أشجار القلعة، وكان الأمر يتطلب أن أنتظره. لكن عندما رأيته يمشي باتجاه تل كان يختفي وراء شجيرة طويلة وأشجار السرو، جريت لكي ألحق به، أولاً نزلنا منحدراً خفيفاً مغطى بنبات السرخس ونباتات شائكة، ثم بدأنا نصعد التل، الذي كان

منحدراً نوعاً ما، تقدمني دكتور «فاين»، وكان يتوقف في بعض الأحيان لينتظرني حتى لا يفوتني شيء من كلامه.

باعتبار أن الأشخاص الذين يتمّ استغلالهم وأتباع المؤامرة الكبرى يعتدون علينا بعنف ـ سواء عن قصد أو دون قصد ـ من خلال الكتب والأدب، قال لأصدقائه، يجب علينا أن نتخذ احتياطنا وحذرنا ضد الأشياء المطبوعة. . سألني: «ما الأدب؟»، وهو يقفز من صخرة إلى أخرى مثل فتى رشيق من فريق الكشافة. . «ما الكتاب؟» فكر في الأمر. . ظل صامتاً لفترة، كما لو كان يستعرض كيف فكر في الأمر بإتقان وبكل التفاصيل، وكم من الوقت أخذت هذه العملية منه؟ شرح لي الأمر بينما يساعدني في التخلص من نبات العليق الذي علق بثنية ساق سروالي. «ليس المذنب هذا الكتاب بعينه فقط ـ الكتاب الذي أوقع ابني في الفخ ـ لكن كل الكتب التي طبعت في معامل الطباعة؛ كلها أعداء للكتب السنوية لزماننا. . ووجودنا السابق».

لم يكن دكتور «فاين» ضد الأدب الذي يُكتب باليد، الذي كان جزءاً أساسياً لليد التي تمسك بالقلم ـ نوع الأدب الذي يحرك اليد، وللتعبير عن الأحزان، الفضول وعواطف الروح، الذي يبهج وينير العقل، ولم يكن أيضاً ضد الكتب التي تخبر الفلاح كيف يتعامل مع الفئران، يوجه شخصاً ما مشتت الذهن فقد طريقه إلى الاتجاه الصحيح، الذي يذكّر الضال بطريقه، أو يخبر ويعلّم الطفل الساذج طبيعة العالم من خلال مغامرات مصورة؛ كان يحبذ كل هذه الأنواع من الكتب التي هي ضرورية في الوقت الحالي كما كانت من قبل، وسيكون شيئاً جيداً إذا كُتبت هذه الكتب بأعداد أكبر. . الكتب التي يعارضها دكتور

«فاين» هي الكتب التي فقدت تألقها، وضوحها، والحقيقة لكنها تدعي أنها متألقة، واضحة، وحقيقية.. هذه الكتب التي وعدتنا بهدوء وسحر الجنة من بين الحدود التي وضعت من قبل العالم، التي ينتجها وينشرها أتباع المؤامرة الكبرى بوفرة ـ عن هذه النقطة مرّ بنا فأر حقل وذهب في غمضة عين ـ بجهدهم المكثف لكي يجعلونا ننسى شاعرية ومشاعر حياتنا. «أين الدليل؟» قال، وهو ينظر إليّ بشك كما لو كنت أنا من طرح السؤال... «أين الدليل؟» كان يتسلق بسرعة وسط الأشجار الهزيلة والصخور المغطاة بمخلفات الطيور.

للحصول على الدليل، يجب أن أقرأ التقارير التي كتبها رجاله المنتشرون في كل مكان في البلد، الجواسيس الذين أرسلهم ليقوموا بالتحريات في اسطنبول، بعد قراءة الكتاب، أصبح ابنه مشتتاً؛ ولم يقم بإلقاء أسرته وراء ظهره فقط ـ الأمر الذي يمكن إعزاؤه لتمرد الشباب ـ لكنه أيضاً أغلق عينيه أمام ثراء الحياة، بكلمات أخرى، «تناغم الوقت غير المعلن»، منفعلاً بنوع من «العمى» ضد «اكتمال التفاصيل المختزنة في كل غرض..» بعد أن استسلم لنوع من «رغبة الموت».

«هل يمكن لكتاب واحد أن يحقّق كل هذا؟» سأل دكتور «فاين». «هذا الكتاب مجرد أداة في أيدي المؤامرة الكبرى».

كان ما زال يقلّل من شأن الكتاب والكاتب معاً، كنت سأرى بنفسي، عندما أقرأ التقارير التي كتبها أصدقاؤه والجواسيس والتقارير التي احتفظوا بها، أن الفائدة التي ترجى من الكتاب لم تكن متفقة مع أهداف الكاتب، كان الكاتب بيروقراطياً متقاعداً فقيراً، ذا شخصية ضعيفة لم يكن حتى يملك

شجاعة معتقداته. . «نوع الشخصية الضعيفة التي يطالبنا بإنتاجها هؤلاء الذين نقلوا لنا عدوى وباء النسيان الذي يهبّ علينا مع الرياح القادمة من الغرب، لاغياً ذاكرتنا الجمعية (وعينا الجمعي). شخص ضعيف، شخص بلا هوية، لا شيء! لقد رحل، دُمر، مسح من على وجه الأرض». جعل دكتور «فاين» الأمر واضحاً أنه لا يشعر بأقل أسف لموت الكاتب.

تسلقنا لبعض الوقت ممراً للماعز، أضاءت ألسنة البرق والرعد الوهاجة سحب الأمطار التي ظلت تغير أماكنها دون أن تقترب أو ترحل؛ ولكن دوي الرعد كان خافتاً لدرجة أنه يُسمع بالكاد، كما لو كنا نشاهد التليفزيون، ولا نسمع الصوت. عندما وصلنا إلى قمة التل، استطعنا أن نرى ليس فقط أملاك دكتور فاين ولكن أيضاً المدينة التي تقف على الأرض الممتدة مثل مائدة أعدّتها ربة منزل مجتهدة، الأسطح المغطاة بالقرميد الأحمر، المسجد ذا المآذن الرشيقة، الشوارع التي تنتشر بحرية، وخارج حدود المدينة، الحدود الخارجية الحادة لحقول القمح وأشجار الفواكه.

«في الصباح الباكر أستيقظ وأبعث بتحية للنهار قبل أن يجد النهار فرصة ليوقظني». قال دكتور «فاين» وهو يتفحص المشهد. . «تشرق الشمس من وراء الجبال، لكن يعرف الفرد أن الشمس قد أشرقت في أماكن أخرى منذ ساعات عن طريق طيور السنونو. . أحياناً في الصباح أمشي كل الطريق إلى هنا لكي أرحّب بالشمس التي تحييني. . الطبيعة ساكنة؛ النحل والثعابين لم تستيقظ بعد، نتبادل أنا والأرض نفس السؤال ـ لماذا نحن هنا في هذه الساعة. . لأي غرض. . لأي غرض عظيم؟ عدد قليل جداً من

البشر يأخذ في الاعتبار هذه الأشياء في توافق مع الطبيعة، إذا كان البشر يفكرون على الإطلاق، فهناك فقط أفكار قليلة مثيرة للشفقة في أذهانهم والتي يحصلون عليها من الآخرين، ولكنهم يعتقدون أنها أصيلة فيهم؛ فهم لا يكتشفون قط أي شيء بتأمل الطبيعة بأنفسهم فكلهم ضعفاء، بلا هوية ولا مبادىء.. هشين.

«حتى قبل أن أكتشف المؤامرة الكبرى التي جاءت من الغرب، كنت قد فهمت بالفعل حقيقة أنه لكي يبقى المرء منتصراً يجب عليه أن يملك القوة والإصرار» قال دكتور «فاين»: «شوارعنا الحزينة، الأشجار التي عانت طويلاً، الأضواء الشاحبة التي لم تعرض عليّ إلّا اللامبالاة؛ لذلك وضعت أشيائي بالترتيب، جمعت مبدأ الوقت الخاص بي، رافضاً الخضوع ولا للتاريخ ولا لهؤلاء الذين يريدون أن يحكموه.. لماذا يجب أن أخضع؟ أنا أثق بنفسي، ولأني أثق بنفسي فإن الآخرين أيضاً يضعون ثقتهم في قوة إرادتي والعدالة الشاعرية لحياتي.. تأكدت أنهم كانوا متعلقين بي، وهكذا اكتشفوا أيضاً التقارير السنوية لزمننا. كنا متعلقين ببعضنا البعض، كنا نتواصل عن طريق لغة سرية، نتراسل مثل العشاق، عقدنا اجتماعات سرية.. مؤتمر التجار هذا الذي يعقد في جيودل - يا بني العزيز «علي» - هو ثمرة معاناة طويلة وصعبة، عملية مخططة بدقة التي تتطلب الصبر الذي يتطلبه حفر بئر بإبرة، ومنظمة تمّ تكوينها بدقة مثل شبكة العنكبوت، لا يهم ما يحدث، فالغرب لن يستطيع ردعنا بعد الآن..».

بعد صمت أضاف هذه المعلومة: بعد ساعات من مغادرتي أنا وزوجتي الصغيرة الجميلة مدينة جيودل، اندلعت النيران في كل المدينة، لم تكن مصادفة أن المطافىء لم تكن قادرة على

التعامل مع الوضع بالرغم من المساعدة التي تلقوها من الحكومة. . لا عجب أن الدموع، شعلات الغضب، التي شوهدت في عيون أعضاء المقاومة، هذا الصخب الذي أثارته الصحف، كانت الدموع نفسها التي تراها عند أصدقائه المحبطين الذين شعروا أن هناك من سرق أرواحهم، شاعريتهم، ذاكرتهم. . . هل عرفت أنا أن العربات احترقت، أن المسدسات قد أطلقت نيرانها، وأن شخصاً واحداً ـ واحد منهم ـ قد فقد حياته؟ الحدث كله قد بدأ بواسطة حاكم المقاطعة بنفسه وبمساعدة الأحزاب السياسية المحلية، عندما منع مؤتمر التجار المحبطين من الاستمرار تحت حجة أنه يهدِّد القانون والنظام.

قال دكتور «فاين»: «إنها صفقة مكتملة. . أنا لست على وشك الرضوخ، كنت أنا الشخص الذي طلب أن يطرح موضوع الملائكة للمناقشة على الملأ، كنت أنا أيضاً الذي طالبت ببناء جهاز تليفزيون يعكس قلوبنا وطفولتنا، كنت أنا الذي صنعت هذا الجهاز، كنت أنا من طلب أن كل الأشياء الشريرة ـ مثل الكتاب الذي أخذ ابني بعيداً عني ـ يتم مطاردتها لتعود إلى المكان الذي ظهرت منه، إلى الحفرة الشيطانية حيث تضطرم وتتلوى. . أدركنا أن مئات من شبابنا قد «تغيرت حياتهم بأكملها» من خلال هذا النوع من الخدع كل سنة، «عالمهم أصبح غير متزن» عن طريق حصولهم على كتاب أو اثنين في أيديهم. . أعطيت كل شيء اهتماماً كاملاً، ليس من الصدفة أنني لم أحضر المؤتمر. . فكون المؤتمر قد أحضر لي شاباً مثلك ليس مجرد ضربة حظ أيضاً، فكل شيء يحدث كما خططت له بالضبط، عندما أُخذ مني ابني في حادث طريق، كان في مثل سنك، اليوم هو الرابع عشر من الشهر، ولقد فقدت ابني في تاريخ الرابع عشر».

عندما فتح دكتور «فاين» قبضة يده الكبيرة، رأيت هناك النبتة ذات الأربع وريقات، التقطها من عنقها وتفحصها قبل أن يتركها تطير بعيداً مع النسيم الخفيف، كان الهواء يهب من اتجاه السحب الممطرة ولكن بصورة غير ملحوظة حتى أنني شعرت به فقط من البرودة على وجهي. تلكأت السحب الرمادية اللون حيث كانت، كما لو كانت لا تستطيع اتخاذ القرار، بدا الضوء ذو الوهج الأصفر يتلألأ في مكان ما على بعد وراء المدينة.. قال دكتور «فاين»: إنها تمطر «الآن» على هذه المنطقة هناك، عندما وصلنا إلى المنحدرات الصخرية على الجانب الآخر من التل، رأينا أن السحب قد انتشرت فوق القبر، كان هناك صقر قد بنى عشه وسط الصخور التي كانت وعرة في بعض الأماكن؛ وللحظة أدرك أننا نقترب، فرفرف بجناحيه في انزعاج وبدأ يحلّق صانعاً قوساً واسعاً على أرض دكتور «فاين»... بهدوء، باحترام، وبنوع من الإعجاب، شاهدنا الطير وهو يسبح في الهواء.

قال دكتور «فاين»: «هذه الأرض لديها القوة والثروة، لتدعم الحركة العظيمة التي ألهمتني بها فكرة مؤثرة ذات هدف واحد والتي راعيتها كل هذه السنوات، لو كان لدى ابني القوة والإرادة القوية ليقاوم الخديعة التي ارتكبتها المؤامرة الكبرى ولم يسمح لنفسه أن ينخدع بواسطة مجرد كتاب بالرغم من ذكائه المذهل، لكان شعر بالقدرة على الإبداع والقوة التي أشعر بها اليوم، وأنا أنظر إلى الأرض من هذه المرتفعات، أعرف أنك اليوم قد أدركت بنفسك الإلهام نفسه، الأفق نفسه، عرفت منذ البداية أن ما وصلني عن حزمك لم يكن مبالغاً فيه على الإطلاق، عندما عرفت عمرك، لم يبق لدي أي تحفظات؛ حتى أنه لم يكن من الضروري أن أنبش في ماضيك، وبالرغم من أنك في السن

نفسه الذي تمّ أخذ ابني فيه بمنتهى القسوة والدناءة، فأنت قد فهمت بالفعل كل شيء بشكل كامل وكاف، جعلك ترغب في أن تشارك في مؤتمر التجار.. معرفتي بك لمدة يوم واحد أظهرت لي بالفعل أنه يمكن لمصير غير معلن أن ينتهي قبل الأوان في فرد ما أن يحيا مجدداً من خلال شخص آخر، لم يكن الأمر عبثاً، إنني سمحت لك بالدخول إلى المتحف الصغير الذي أقمته على ذكرى ابني. أنت وزوجتك.. الشخصان الوحيدان اللذان قاما بزيارة هذا المتحف باستثناء أمه وأخواته، كنت قادراً على تقدير ذاتك هناك، ماضيك ومستقبلك، والآن أنت أصبحت على وعي بخطوتنا المقبلة أثناء تأملك لي، أنا دكتور «فاين». فلتصبح ابني.. خذ مكانه.. استمر في تنفيذ عملي بعد موتي، فأنا تتقدم بي السن، لكن مشاعري لم تتناقص على الإطلاق، أريد أن أتأكد أن الحركة ستبقى على قيد الحياة، لدي معارف في الحكومة، وهؤلاء الذين يكتبون التقارير لي ما زالوا نشطين، ما زلت أتعقب آثار مئات الشباب الذين انخدعوا، سأجعل كل هذه الملفات متاحة لك ـ كلهم بلا استثناء ـ حتى تقرير أنشطة ابني ـ فقط أقرؤهم ـ شباب كثيرون للغاية تمّ أخذهم خارج المسار الطبيعي لحياتهم! ليس من الضروري أن تعلن عن اسم والدك، أو عائلتك، أريد أيضاً أن أريك مجموعة مسدساتي ـ فقط قل «موافق!».. قل نعم لقدرك.. أنا لست شخصاً منحطاً، أنا على وعي بكل شيء، لم يكن لدي وريث ذكر لسنوات انتهت، لقد عانيت؛ وعندما أخذوه بعيداً عني، عانيت أكثر؛ لكن لا شيء يمكن أن يكون أكثر ألماً من أن أترك تركتي بلا شخص يرثها».

كانت السحب الرعدية تنتشر هنا وهناك، وغمر ضوء الشمس مملكة دكتور فاين كما تضيء الأضواء خشبة المسرح،

عندما أضيئت قطعة من الأرض للحظة، تغيّرت الألوان بسرعة على الأرض المستوية المغطاة بأشجار التفاح، القبر حيث أخبرني أن ابنه مدفون، الأرض الجدباء حول حظيرة الماشية؛ ولاحظنا شعاعاً من الضوء مخروطي الشكل يتقدم بسرعة على الحقول مثل روح قلقة لا تحترم الخطوط الفاصلة، فقط لكي يختفي، عندما أدركت أننا نستطيع أن نرى معظم المساحة التي قطعناها مشياً من هذه النقطة، نظرت للخلف، راصداً المنحدر الصخري، ممر الأغنام، أشجار السرو، التل الأول، الغابات وحقول القمح، و ـ مندهشاً كراكب طائرة يرى منزله من أعلى للمرة الأولى ـ ميّزت منزل دكتور «فاين». عندها كنت واقفاً في منتصف الأراضي الشاسعة المحاطة بالأشجار؛ رأيت بوضوح خمسة أشخاص مصغرين يمشون تجاه غابة من أشجار الأناناس والطريق إلى المدينة، وتعرفت على واحدة منهم على أنها «جنان» بواسطة الفستان القطني القرمزي اللون الذي اشترته أخيراً ـ لا . . لم أتعرف عليها عن طريق هذه الحقيقة فقط، لكن من مشيتها، من أسلوبها، رقتها، رشاقتها ـ لا . . من خفقات قلبي، ثم فجأة رأيت قوس قزح رائع، يتجسد بعيداً على مسافة خلف الجبال على حافة مملكة دكتور «فاين» الجميلة.

قال دكتور «فاين»: «يتأمل الآخرون الطبيعة فقط ليروا فيها قصورهم، عدم كفاءاتهم، مخاوفهم، ثم ـ خوفاً من نقاط ضعفهم ـ يرجعون خوفهم إلى كون الطبيعة بلا حدود، إلى جمالها. بالنسبة لي، أرى في الطبيعة أقوالاً قوية تتحدث إليّ، مذكرة إياي بقوة إرادتي الخاصة التي يجب أن أتمسك بها؛ أرى هناك مخطوطاً ثرياً أقرؤه بصلابة، بلا رحمة، بلا خوف، مثل العصور العظيمة والبلاد العظيمة، الرجال العظام أيضاً هم الذين

يستطيعون استجماع قوة كبيرة للغاية في داخلهم لدرجة أنها تكون على وشك الانفجار، عندما يحين الوقت المناسب، عندما تعلن الفرص عن نفسها، عندما تُعاد كتابة التاريخ، تتحرك هذه القوة العظيمة بلا شفقة وبالتحديد كما يفعل الرجل العظيم الذي تمّ إعداده للحرب، ثم يبدأ القدر أيضاً في التحرك بلا رحمة.. في هذا اليوم العظيم، لن يتم إعطاء أي أهمية للرأي العام، أو للصحف، أو للأفكار الحالية، ولا للنزاهة التافهة والمنتجات الاستهلاكية غير المهمة، مثل زجاجات الغاز المعبأ الخاص بهم وصابون لوكس، كوكاكولا ومارلبورو التي خدع الغرب بها مواطنينا المثيرين للشفقة».

سألت «متى يمكنني أن أقرأ التقارير يا سيدي؟».

كانت هناك فترة صمت طويلة.. تلألأ قوس قزح ولمع على نظارة دكتور «فاين» المغبرة الثاقبة مثل قوسين قزح متساويين.

قال دكتور «فاين»: «أنا عبقري..!».

الفصل العاشر

عدنا أدراجنا إلى المنزل، بعد أن تناولنا غداء هادئاً مع الأسرة، قادني دكتور «فاين» إلى مكتبه، وفتحه بمفتاح يشبه إلى حد كبير المفتاح الذي فتحت به «روزامند» حجرة طفولة «محمد» في الصباح، أثناء ما كان يعرض عليَّ الكراسات التي أخرجها من الأدراج والملفات التي أنزلها من الخزائن، أخبرني أنه لم يتجاهل احتمالية أن الأمر الذي كلف به تقارير الاستخبارات والوثائق يمكن أن يتجسد في يوم ما في صورة دولة، لو كانت جهوده ناجحة ـ كما تمّ التصديق عليها من قبل شبكة التجسس التي نظمها ـ لنوى دكتور «فاين» لتأسيس دولة جديدة.

كانت التقارير في الحقيقة مؤرخة وموضوعة في ملفات بمنتهى الدقة، والذي جعل الأمر سهلاً عليّ لأدخل في صلب الموضوع. . . أبقى دكتور «فاين» شخصيات المخبرين الذين قام بإرسالهم وراء ابنه سراً على بعضهم البعض، معطياً لكل عميل اسماً حركياً كان بمثابة ماركة ساعة مميزة لكل مخبر، بالرغم من أن معظم هؤلاء المخبرين تمّ تدريبهم في الغرب، إلّا أن دكتور فاين يعتبرهم ينتمون «لنا»، مفترضاً أنهم كانوا ينتظرون الوقت المناسب لمدة قرن.

قام أول مخبر، واسمه «زينث»، بوضع تقريره الأول منذ أربع سنوات في مارس/آذار، كان «ناهيت» ـ لم يكن قد اتخذ

هويته الجديدة بعد ـ وقتها طالباً في جامعة اسطنبول في «سابا»، في الفرقة الثالثة من برنامج لمدة ست سنوات من الدراسات التي تؤهل لدرجة الطب التي تبدأ في تركيا مباشرة بعد المدرسة الثانوية، أكد «زينث» أنه منذ بدأت الدراسة في الخريف، فإن طالب السنة الثالثة هذا لم يحقق إلّا الفشل الذريع في دروسه؛ ثم أكمل ليلحق تحرياته قائلاً: «إن فشل الشخص المقصود في الدراسة خلال الثلاثة أشهر الأخيرة هو نتيجة مباشرة لخروجه النادر من حجرته في المدينة الجامعية، لم يعد يحضر محاضراته، ولا حتى يظهر في ساعات تدريبه العملي في العيادة أو المستشفى». كان الملف ممتلئاً عن آخره بالتقارير، التي تظهر بالكثير من التفاصيل في أي وقت غادر «ناهيت» المدينة الجامعية وإلى أي مطعم للوجبات السريعة ذهب، هل دخل محل للكباب أم للحلوى؟ مع أي بنك يتعامل ولأي حلاق يذهب؟ لم يكن «محمد» يتلكأ أو يتسكع في كل مرة يقوم بقضاء مشاويره ولكن يعود بسرعة إلى حجرته، وفي كل مرة يختم «زينث» تقاريره الاستخبارية يطلب من دكتور «فاين» العزيز المزيد من النقود ليستمر في «تحرياته».

كان العميل التالي بعد «زينث» الذي عيّنه دكتور «فاين» هو «موفادو»، الذي من الواضح أنه كان مشرفاً في المدينة الجامعية في «كاديرجا»؛ ومثل معظم مشرفي بيوت الطلاب، كانت له صلة بالشرطة، تخيلت أن هذا الرجل الخبير ـ الذي كان قادراً على إبقاء عينيه على محمد ساعة بساعة ـ من المحتمل أنه كتب تقارير فيما مضى عن طلاب آخرين لمصلحة الآباء القلقين في المقاطعات المختلفة أو للمكتب القومي للتحريات، وأنا أرى كيف وصف توازن القوة في المدينة الجامعية بمهارة وحنكة حتى

تقييمه وحكمه له صيغة احترافية، حاد ومختصر. . الخلاصة: لم تكن لـ «ناهيت» أية صلة بالأحزاب الطلابية المعارضة الذين كانوا يكافحون ليحصلوا على السلطة في المدينة الجامعية؛ اثنان من هذه الأحزاب كانا متطرفين متعصبين، واحد كان له صلات بتنظيم «ناقشابند» الصوفي، أما الحزب الآخر فكان اتجاهه يسارياً، كان الشاب الذي يهمنا أمره مكتفياً بذاته، ليس لديه أي احتكاك بهذه الأحزاب، يعيش بهدوء مع ثلاثة أشخاص يشاركونه الغرفة، وكان يقرأ ويقرأ دون حتى أن يرفع رأسه، لا يقرأ شيئاً سوى كتاب واحد بعينه كما لو كان شخص «يحفظ القرآن» («لو كان لي أن أستخدم هذا المصطلح، يا سيدي المبجل») مشغولاً من الصباح إلى الليل بحفظه، بقية العاملين بالمدينة الجامعية الذين يثق بهم «موفادو» تماماً في فهمهم للمسائل السياسية والإيديولوجية، الشرطة، وزملاء شباناً في الحجرة أيضاً أكدوا أن هذا الكتاب لم يكن من النوع الذي يحفظه السياسيون والمتعصبون الشباب عن ظهر قلب، ولكي يظهر أنه لم يأخذ الموقف بجدية زائدة، قام «موفادو» بإضافة ملاحظات قليلة مثل جلوس الشاب لساعات على مكتبه في غرفته يقرأ ثم يحدق خارج النافذة بشرود، أو يبتسم بطيبة أو يقوم ببعض التعليقات اللامبالية رداً على المداعبات الثقيلة التي يتعرض لها في مطعم الجامعة، أو إنه لا يحلق كل صباح كالمعتاد؛ واستمر يطمئن ولي نعمته أن بحكم خبرته هذا النوع من خيال الشباب لا شيء سوى «مرحلة عابرة»، ليست مختلفة عن المشاهدة الدائمة لنفس الفيلم الإباحي، أو الاستماع إلى نفس الشريط ألف مرة، أو طلب نفس طبق الكراث المطبوخ مع اللحم دائماً.

رأيت كيف أن «أوميجا» ـ العميل الثالث ـ الذي بدأ عملية

التجسس في مايو/أيار، كان يتعقب الكتاب أكثر مما كان يتعقب «ناهيت»، فمن المؤكد أنه تلقى أمراً في هذا الموضوع من دكتور «فاين». هذا يدل على أن والده كان يصرّ في الواقع على أن ما أخذ محمد بالتحديد ـ الذي هو ناهيت ـ من سياق حياته هو الكتاب.

قام «أوميجا» باستجواب الكثير من بائعي الكتب في اسطنبول بما فيهم كشك الكتب الذي باع لي نسختي من الكتاب بعد ذلك بثلاث سنوات ونصف السنة، كنتيجة لبحثه المدقق الصبور، صادف الكتاب عند بائعين مختلفين، فالمعلومة التي استنتجها من بائعي الكتب أرسلته إلى مكتبة تبيع الكتب المستعملة، حيث قادته الحقائق التي تلقاها في الوصول إلى هذه الاستنتاجات: تمت إتاحة عدد صغير من هذه الكتب ـ ربما مائة أو مائة وخمسين نسخة ـ من قبل مصدر غير معروف، على الأرجح تمّ بيعها بالوزن لتاجر خردة ما عندما تمّ إخلاء مخزن ما خبيث الرائحة أو لم يعد صالحاً للعمل، ومن هناك انتهى المطاف بالكتب إلى عدة باعة ومكتبة لبيع الكتب المستعملة، تشاجر الممول الذي اشترى الكتب بالوزن مع شريكه، وأغلق محله، وغادر اسطنبول، ولم يكن يمكن إيجاد ومعرفة الممول الأصلي، فكرة أن الشرطة يمكن أن يكون لها يد في إعادة توزيع الكتاب طرحها على «أوميجا» مالك المحل في ناحية متجر الكتب المستعملة، لقد تمّ نشر الكتاب في وقت ما بطريقة شرعية، فقط لتتم مصادرته من قبل مكتب وكيل النيابة وتمّ وضعه في مخزن يخص الأمن الداخلي، ومن هناك ـ كما يحدث غالباً ـ سُرقت الكتب المصادرة على الأرجح بواسطة ضابط شرطة معدم، وقام ببيعها بالوزن لتاجر خردة، وهكذا رجعت مرة أخرى تدور دورتها.

عندما لم يصادف «أوميجا» المثابر أي أعمال أخرى للمؤلف نفسه في المكتبة؛ والأكثر من ذلك أنه لم يجد اسمه في دليل التليفونات، فقام بعرض هذا التخمين: «على الرغم من أن مواطنينا الذين لا يستطيعون تحمل مصروفات تليفون يملكون الجرأة لكتابة كتاب، فأنا أدلي برأيي باحترام أن هذا الكتاب تمّ نشره تحت اسم مستعار».

كان «محمد» ـ الذي قضى الصيف كله يقرأ الكتاب مجدداً ومجدداً ـ قد بدأ تحرياته في الخريف التي قد تقوده إلى المصدر الأصلي للكتاب، كان اسم الرجل الجديد الذي أضافه أبوه إلى الثلاثة الذين يتتبعونه بالفعل على اسم ماركة ساعات سوفيتية الصنع كانت معروفة في اسطنبول خلال السنوات الأولى من الجمهورية التركية. . اسمه «سركيسوف».

بعد أن تأكّد «سركيسوف» أن «محمداً» قد انغمس كلياً في القراءة في مكتبة «بيازيت» القومية، قام بإعطاء دكتور «فاين» الأخبار الجيدة أن الشاب كان ببساطة يستذكر ليعوض عمله غير الكامل في الجامعة، ثم بعد أن أدرك أن الشاب كان يقرأ قصصاً مصورة للأطفال مثل «برتف وبيتر» أو «علي وماري»، ترك «سركيسوف» استنتاجه المتفائل وقام بقول الخلاصة بعد ذلك بطريقة التعزية: ربما كان الشاب يأمل أن يخرج من اكتئابه بالعودة إلى ذكريات الطفولة.

طبقاً للتقارير، خلال شهر اكتوبر/تشرين الأول قام «محمد» بزيارات إلى دور نشر «بابيالي» الذين قاموا مرة أو ما زالوا يصدرون قصص الأطفال المصورة، بالإضافة إلى كُتّاب عديمي الضمير ـ مثل «نيساتي»، على سبيل المثال ـ الذين يكتبون هراء

لمجلات مثل هذه، قال «سركيسوف» ـ الذي اعتقد أن دكتور «فاين» كان يرسل من يتحرى عن الشاب ليعرف ميوله السياسية والإيديولوجية ـ ما يلي عن أناس بعينهم «أقول لك يا سيدي مهما ادعوا مدى اهتمامهم بالسياسة، ولا يهم كم مرة تمسكوا طويلاً بالموضوعات السياسية والفكرية الحالية، فهؤلاء الجدليون ليس لديهم أي اعتقادات حقيقية، يكتبون من أجل المال، وإذا لم يستطيعوا الحصول على المال، فهم يكتبون ليضايقوا الناس الذين لا يحبونهم».

رأيت في تقارير كل من «سركيسوف» و«أوميجا» أن في صباح من الخريف قام «محمد» بزيارة قسم شؤون العاملين بإدارة السكك الحديدية الحكومية في «حايدر باشا»، من بين المخبرين ـ اللذين لا يعرفان بعضهما البعض ـ كان «أوميجا» هو الذي جاء بالمعلومة الصحيحة: «الشاب أراد أن يحصل على معلومات عن مفتش متقاعد».

قرأت صفحات التقارير التي وُضعت في ملفات بسرعة، كانت عيناي تبحث عن أسماء جيراني، شارعي، طفولتي.. بدأ قلبي ينبض بسرعة عندما قرأت أن «محمداً» قد مشى في شارعي وقام بمراقبة نافذة في الدور الثاني في منزل ما ذات مساء، كان الأمر كما لو كان هؤلاء الذين قاموا بتنظيم العالم الرائع الذي سوف أذهب إليه سريعاً قد قرروا أن يجعلوا الأمور أسهل بالنسبة لي بعرض مهارتهم تحت يدي مباشرة، لكن طالب المدرسة الثانوية الذي كنت عليه رجوعاً إلى هذا الوقت لم يكن يعرف أي شيء البتة.

قابل «محمد» العم «رفقي» في اليوم التالي، الأمر الذي

استنتجته شخصياً من التقارير، كلا العميلين اللذين كانا يتتبعان «محمداً» تأكدا من أن الفتى الشاب قد دخل في العنوان «28 شارع سيلفر بوبلار» في «أرنكوي» وبقي بالداخل خمس أو ست دقائق، ولكن لا أحد اكتشف من الذي قام «محمد» بزيارته وفي أية شقة، قام «أوميجا» ـ الذي كان الأكثر مثابرة بين المخبرين الاثنين ـ علىَ الأقل باستجواب الصبي الذي يوصل الأشياء، الذي يعمل عند البقال على ناصية الشارع وتلقى معلومات عن عائلات الثلاث الذين يعيشون في المبنى، افترضت أن هذه هي المرة الأولى التي سمع فيها دكتور «فاين» عن العم «رفقي».

بعد لقائه مع الرجل المحترم الذي يدعى «رفقي»، مرّ «محمد» بأزمة حتى «زينث» نجح في أن يلاحظ ذلك، كتب «موفادو» معلقاً إن الشاب لم يكن يخرج من حجرته على الإطلاق، ولا حتى لينزل إلى مطعم المدينة الجامعية، ولم يره أحد يقرأ الكتاب، ولو حتى مرة. طبقاً لأقوال «سيركيسوف»، فخروجه من المدينة الجامعية كان غير منتظم كما كان بلا هدف، قضى ليلة كاملة يذرع الشوارع الخلفية في «السلطان أحمد» وجلس يدخن في منتزه عام لساعات وفي مساء آخر شاهده «أوميجا» ومعه عنقود من العنب في كيس ورقي، وكان يخرج العنب واحدة بواحدة ليتفحصها كما لو كانت حبات العنب جواهر قبل أن يمضغ كل واحدة ببطء شديد؛ استمر في ذلك لمدة أربع ساعات قبل أن يعود إلى المدينة الطلابية، أطال ذقنه وشعره للغاية، لم يعد يعير مظهره أي اهتمام، كل المخبرين شعروا بأنهم محتاجون لمزيد من النقود متذمرين من الساعات غير المنتظمة التي يقضونها في مراقبة الشاب.

في ظهيرة يوم ما في نوفمبر/تشرين الثاني، أخذ «محمد»

المعدية إلى «حيدر باشا»، ثم ذهب إلى حي «أرنكوي» بالمترو، حيث سار على غير هدى في الشوارع لوقت طويل.. طبقاً لـ «أوميجا»، الذي كان في أثره، مشى الشاب بتثاقل في شوارع المنطقة كلها ومرّ بنافذتي ثلاث مرات ـ على الأرجح بينما كنت أنا أجلس في الداخل ـ وبمرور الوقت بدأ الظلام يحل، فقام باستكمال محمده أمام البناية رقم 28 في شارع «سيلفر بوبلار» وبدأ يراقب النوافذ، ظلّ «محمد» يراقب لعدة ساعات في الظلام تحت الأمطار الخفيفة دون أن يحصل على الإشارة التي أرادها من النوافذ المضاءة ـ وفقاً لكلام «أوميجا» ـ ثمل للغاية في واحدة من الحانات في «كاديكوي» قبل أن يعود إلى مدينته الجامعية.. فيما بعد، ذكر كلٌّ من «أوميجا» و«سركيسوف» أن الشاب قام بنفس الرحلة ست مرات أخرى؛ «سركيسوف» ـ الذي كان أكثر في قوة الملاحظة ـ تعرّف بطريقة صحيحة على الشخص الذي يراقبه الشاب في الحجرة ذات النافذة المضاءة.

تمت المقابلة الثانية بين «محمد» والعم «رفقي» تحت عيني «سركيسوف» مباشرة، أعطى سركيسوف ـ الذي كان يختلس النظر إلى النافذة المضاءة من الرصيف المقابل في البداية ثم واقفاً على حائط الحديقة المنخفض ـ في العديد من الخطابات التالية تفسيرات بديلة للمقابلة ـ التي كان يسميها أحياناً «راندفو» ـ لكن انطباعاته المبدئية كانت أكثر صحة، باعتبار أنها كانت مبنية على الحقائق وما شاهده فعلاً بشكل أقرب.

في البداية جلس الكاتب العجوز والشاب بدون حديث لمدة سبع أو ثماني دقائق على كراسي الصالون الوثيرة في مواجهة بعضهما البعض، وكان هناك جهاز تليفزيون بينهما يُعرض عليه

فيلم لرعاة البقر، عند نقطة ما أحضرت لهم زوجة الرجل العجوز قهوة، ثم وقف «محمد» على قدميه، ملوحاً بعنف ومتحدثاً بثورة وغضب حتى أن «سركيسوف» اعتقد أن الشاب على وشك أن يرفع يده ليضرب الرجل العجوز، الرجل المحترم المدعو «رفقي»، الذي كان يبتسم في البداية بحزن وقف على قدميه هو الآخر ردّاً على الحدة المتزايدة لكلمات الشاب، وقابل أفعال الشاب بالاندفاع نفسه، ثم جلس كلاهما في مقعديهما، وتبعهما ظلهما المخلصان اللذان قاما بتقليدهما على الحائط، واستمعا بصبر لبعضهما البعض قبل أن يصمتا بأسى وهما يشاهدان التليفزيون لبرهة، فقط لتبدأ المحادثة مجدداً، تحدث الرجل العجوز طويلاً بينما يستمع الشاب إليه، ثم غرق كلاهما في الصمت مرة أخرى ونظرا من النافذة دون أن يلاحظا وجود «سركيسوف».

لكن المرأة سيئة الطباع في الشقة التي بجانبهم بدأت تصيح بكل قوتها عندما رأت «سركيسوف» يختلس النظر من النافذة، «النجدة! اللعنة عليك، أيها المنحرف الشرير»، مجبرة التحري سيىء الحظ على المغادرة بأقصى سرعة، دون أن يستطيع مراقبة الدقائق الثلاث الأخيرة من المقابلة التي يشعر أن لها علاقة بمنظمة سرية، جماعة سياسية ذات أبعاد دولية؛ وافترض أيضاً نظرية تآمر، كما جاء في خطاباته التالية.

يشير الملّف الثاني إلى أن أثناء هذه الفترة أراد دكتور «فاين» أن يتمّ اتباع ابنه باهتمام بالغ، واستجاب التحريون بأن أمطروه بوابل من التقارير، بعد مقابلته مع الرجل المدعو «رفقي»، قام «محمد» ـ الذي بدا نصف مجنون بالنسبة لـ «أوميجا» وحزيناً ومتجهماً بشكل غير عادي طبقاً لـ «سركيسوف» ـ بشراء كل

النسخ المتاحة من الكتاب، وحاول توزيع «العمل» في كل أنواع الأماكن الممكنة في كل أنحاء المدينة، مثلاً عند مدينة طلاب «لكاديرجا» (كما قال موفادو)، في أماكن ارتياد الطلاب (زينث وسركيسوف)، وفي محطات الباصات، مداخل السينمات ومعابر المعدية (كما قال أوميجا). كان ناجحاً جزئياً فقط في هذه المهمة، كان «موفادو» واعياً للغاية بأن الشاب الصغير كان متهوراً في جهوده للتأثير على الطلاب الآخرين في بيت الطلاب حيث يسكن؛ ومن الواضح أنه كان يحاول جمع شباب آخرين حوله وحول أماكن ارتياد الطلاب، ولكن لأنه كان موحداً منذ البداية، فلم يكن له تأثير كافٍ. قرأت لتوي أنه كان قادراً على الحصول على بعض الطلاب الذين قابلهم في المطعم وفي الجامعة ـ حيث ظهر فقط لهذا الغرض ـ وأنه تملقهم لكي يقرأوا الكتاب، حين صادفت قصاصة الصحف التالية:

جريمة قتل في منطقة «أرنكوي» (وكالة أنباء أنقرة): «رفقي راي»، مفتش سابق متقاعد في إدارة السكك الحديدية، أُطلق عليه الرصاص وقُتل في حوالي الساعة التاسعة من ليلة أمس على يد شخص مجهول، في طريقه إلى المقهى من شقته في شارع «سيلفر بوبلار»، قام شخص ما بالتحرش به وقام بإطلاق النار عليه ثلاث مرات، غادر المهاجم مسرح الجريمة، والذي لم يكن من الممكن التعرف على هويته على الفور، وجد ميتاً في الموقع متأثراً بالجروح التي تلقاها، خدم «راي» (67 عاماً) بنشاط إدارة السكك الحديدية للدولة في عدة مناصب حتى تقاعد من منصبه الأخير كرئيس للمفتشين، تسبّب موت «راي» في الشعور بالحزن والأسى في الدوائر، حيث كانوا يقدرونه كثيراً.

رفعت رأسي من على الملفات، متذكراً: لقد رجع والدي

إلى البيت متأخراً جداً، يبدو قلقاً إلى حد الجنون. بكى كل شخص في الجنازة. . كانت هناك إشاعة تقول: إن جريمة القتل كانت جريمة غيرة. من كان الشخص الغيور؟ أخذت أبحث في ملفات دكتور «فاين» الدقيقة، حاولت أن أكتشف من هو؟ هل هو «سركيسوف» العملي؟ «زينث» الضعيف؟ أم «أوميجا» المنضبط؟

في ملف آخر، اكتشفت أن التحريات التي صرف عليها دكتور «فاين» مصروفات هائلة قد وصلت إلى استنتاج مختلف، عميل يدعى «هاميلتون واتش» الذي في جميع الاحتمالات عمل أيضاً لحساب المكتب القومي للتحريات قد أرسل خطاباً قصيراً ليمد دكتور «فاين» بالمعلومات التالية:

كان «رفقي راي» هو مؤلف الكتاب، قام بتأليف الكتاب منذ اثنتي عشرة سنة مضت، لكنه كان حينها هاوياً خجولاً، لم يكن قادراً على استجماع شجاعته لنشر الكتاب تحت اسمه الحقيقي، عملاء المكتب القومي للتحريات ـ الذين يملكون دائماً آذاناً مدربة على القصص التي يحكيها آباء ومدرسون بحافز من الخوف على مستقبل أبنائهم وطلابهم خلال هذه الأوقات العصيبة ـ تناهى إلى أسماعهم أن الكتاب قد حاد ببعض الشباب عن الطريق القويم؛ وقاموا باستخراج هوية الكاتب من دار النشر، وتركوا المسألة تأخذ مجراها في أيدي وكيل النيابة المتمكنة المسؤول عن الطبع، تحفظ وكيل النيابة على الكتاب بهدوء منذ اثنتي عشرة سنة، لكن لم يكن من الضروري وضع الخوف من الله في الكاتب الذي بلا خبرة بتهديده بمقاضاته، عندما تمّ استدعاء الكاتب ـ «رفقي راي»، مفتش متقاعد بالسكك الحديدية ـ مبدئياً لمكتب مدعي النيابة، قام بتأكيد ـ مستخدماً لغة تعبر بوضوح عن قناعته ـ أنه لم يكن فقط ضد مصادرة الكتاب،

وأنه لن يعارض الفعل؛ إلى جانب أنه وقّع على الوثيقة التي اقترح أن يكتبها بنفسه دون أي مهاترات، ولم يكتب أي كتاب آخر بعد ذلك، تمت كتابة تقرير «هاميلتون» قبل أن يُقتل العم «رفقي» بأحد عشر يوماً.

بالأخذ في الاعتبار ما كان عليه رد فعل «محمد»، كان من الواضح أنه اكتشف موت العم «رفقي» خلال فترة قصيرة، طبقاً لـ «موفادو»، «الشاب المهووس» الذي أغلق حجرته عليه وهو في حالة سيئة، كما لو كان في حالة تأمل ديني، بدأ يقرأ الكتاب باستمرار من الصباح إلى الليل، ثم كل من «سركيسوف» و«موفادو» ـ اللذين لاحظاه يغادر أماكن ارتياده، اتفقا إلى حد كبير أن نشاطات شابنا لم يكن لها أي مبرر أو معنى ـ في يوم يقوم بالتجول في الشوارع الخلفية في «زيريك» مثل متشرد عاطل، ثم في اليوم التالي يشاهد أفلاماً إباحية طوال فترة الظهيرة في مسرح ما في «بيوجلي». أشار سركيسوف إلى أنه كان يغادر المدينة الطلابية أحياناً في منتصف الليل، لكنه كان غير قادر على تأكيد إلى أين يتجه؟ شاهده «زينث» في حالة مريعة في منتصف النهار؛ أطال شعره ولحيته؛ كان مظهره غير مرتب، وكان يحدق في الناس في الشارع «مثل بومة فزعت من ضوء النهار». ابتعد تماماً عن معارفه، ابتعد عن أماكن وقاعات الطلاب في الجامعة، حيث اعتاد أن يحاول نشر الكتاب، لم يكن له أية علاقة بالجنس الآخر، ولا بدّ أنه حاول أن يفعل شيئاً في هذا الاتجاه ووجد «موفادو» ـ مشرف المدينة الجامعية ـ مجلات إباحية عديدة عندما دخل إلى حجرة «محمد» أثناء غيابه، لكنه أضاف أن هذه الأشياء يقوم بها الطلبة العاديون لإمتاع أنفسهم، في ضوء أن «زينث» و«أوميجا» يعملان دون أن يعرفا بعضهما البعض، كان من

الواضح أن «محمداً» مرّ بفترة كان يشرب فيها كثيراً، فيما بعد.. بعد مشاجرة عامة كان هو طرفاً فيها انفجر غضباً من بعض المضايقات في حانة للطلاب تدعى «الثلاثة غربان السعداء»، أصبح يفضل الحانات المنعزلة المتهالكة التي تقع في الأزقة الخلفية.. لفترة ما، حاول تجديد الاتصال مع الطلاب الآخرين والمجانين الذين يقابلهم في الحانات، لكن كل هذا بلا فائدة، بعد ذلك كان يتلكأ منتظراً لساعات أمام كشك بيع الكتب، باحثاً عن توأم روحه الذي يمكن أن يظهر ليشتري ويقرأ الكتاب. عرف مكان الشباب القليلين الذين نجح مرة في أن يصادفهم ويقنعهم بقراءة الكتاب، لكن طبقاً لـ «زينث» كان سيىء المزاج لدرجة أنه سريعاً ما يفتعل مشاجرة، تمكن «أوميجا» من التنصت على شجار حدث في حانة تقع في زقاق خلفي ما في «أسكاري»، ونجح في سماع رجلنا الشاب ـ الذي لم يعد يبدو شاباً ـ يتحدث بحماس عن العالم الذي في الكتاب، الوصول إلى هناك، البداية، الصمت، اللحظة الفريدة، المجازفة، لكن هذه التحمسات من المؤكد أنها كانت مؤقتة؛ لأن «محمداً» ـ كما يشير «موفادو» ـ الذي كان غير مهندم، وقذر، وفي حالة من الفوضى حتى أنه أصبح مصدر إزعاج لأصدقائه ـ لو بقي لديه بالفعل أي أصدقاء ـ لم يعد يقرأ الكتاب.. «إذا سألتني سيدي»، كتب «موفادو» وهو يرى تجولات وسير رجلنا الشاب التي تنتهي إلى لا مكان، «هذا الشاب يبحث عن شيء ما سوف يخفف عنه همه، وبالرغم من أنني لست متأكداً كلياً أني أعرف ما الذي يبحث عنه، ولا أعتقد أنه هو نفسه متأكداً مما يبحث عنه».

في أحد الأيام حينما مشى بلا هدف في شوارع اسطنبول، وجد رجلنا الشاب ـ الذي كان يتبعه «سركيسوف» عن قرب ـ

«الشيء» الذي يمكن أن يريح حزنه ويجلب السلام لروحه في موقف الحافلات. . بمعنى آخر، لقد وجد الحافلة. . دون أن يحضر حقيبته، دون شراء تذكرة تشير إلى الاتجاه، قام بالركوب بتلقائية على متن إحدى الحافلات التي تغادر بعشوائية؛ و«سركيسوف» ـ الذي ارتبك للحظة ـ قفز أيضاً على حافلة تابعة لشركة «ماجيرس» وانطلق على الطريق ليتبعه.

ومنذ هذه اللحظة قاما بالسفر على نفس الحافلة لأسابيع دون وجهة معينة، من مدينة إلى مدينة ومن موقف إلى موقف، من حافلة إلى أخرى، و«سركيسوف» دائماً في ملاحقة دانية، كانت التقارير التي كتبت بخط رديء ضيق من قبل «سركيسوف» الذي ظلّ يكتب أثناء جلوسه على مقاعد الحافلات المهتزة كانت أوسمة مخلصة للسحر والإثارة لهذه الرحلات غير الآمنة والتي بلا هدف، شاهدا مسافرين فقدوا أمتعتهم وفقدوا طريقهم وأشخاصاً خرقاء فقدوا إحساسهم بالوقت؛ قابلا أشخاصاً على المعاش يبيعون تقويم الحائط، فتيان متحمسين راحلين إلى الجيش، شباب يعلنون عن قيام القيامة، جلسا في مطاعم الاستراحات وتناولا وجباتهما مع شبان مخطوبين، متدربين في محل للإصلاحات، لاعبي كرة قدم، موردي سجائر ممنوعة، قتلة مأجورين، مدرسي ابتدائي، مديرين لدور عرض؛ وناما بجانب مئات الأشخاص متكورين في مقاعد الحافلات وحجرات الانتظار، لم يقضيا ولو حتى ليلة واحدة في فندق، لم ينشأ قط رابطة دائمة أو أي نوع من الصداقة، ولم يسافرا ولو مرة حيث يعرفان وجهتهما.

كتب «سركيسوف»: «كل ما نفعله ـ في الواقع ـ هو النزول

من حافلة والصعود إلى أخرى، كنا نتوقع شيئاً ما، ربما معجزة، أو نوعاً من الضياء ربما ملاك، أو حادثة؛ أنا فقط لا أعرف ماذا، لكن كان هذا ما تراءى لي... كما لو كنا نبحث عن علامة ما ستأخذنا إلى مملكة مجهولة، لكن إلى الآن لم يحالفنا الحظ. حقيقة لم تواجهنا أدنى منغصات حتى الآن تشير إلى أنه ربما هناك ملاك يراقبنا، لا أستطيع القول إذا ما كان الشاب ظلّ على وعي بدوافعي. لا أعرف إذا كنت أستطيع البقاء إلى النهاية المريرة. لكنه كان قادراً على البقاء حتى النهاية. بعد أسبوع كتب «سركيسوف» الخطاب الفاصل، ترك «محمد» حساءه دون أن يكمله في استراحة حيث توقفوا في منتصف الليل واندفع إلى حافلة «الطريق الآمن الأزرق»، تاركاً «سركيسوف» ـ الذي كان يتناول نفس الحساء بملعقة من طبق عميق ـ ليحدق بدهشة بينما «محمد» يبتعد ويختفي، وهكذا أنهى حساءه بهدوء، وكتب تقريراً للدكتور فاين، قائلاً في صدق تام إنه لم يكن محرجاً على الإطلاق. ماذا يجب عليه أن يفعل بعد ذلك؟

بعد ذلك، لم يستطع ولا «سركيسوف» ـ الذي أُمر أن يكمل تحرياته ـ ولا دكتور «فاين» أن يعرفا أي شيء أكثر عن أنشطة «محمد» لأسابيع عديدة، حتى مجيء اللحظة التي صادف فيها «سركيسوف» جثة الشاب الآخر الذي اعتقد أنه «محمد»، كان يضيع الوقت لأكثر من شهر في مواقف الحافلات، مكاتب المرور، وأماكن ارتياد السائقين، يسرع إلى مواقع حوادث الطريق حيث تقوده غرائزه ليبحث عن رجلنا الشاب وسط الموتى، فهمت من خطابات أخرى كُتبت في حافلات أخرى أن دكتور «فاين» قد أرسل أيضاً مخبرين آخرين وراء ابنه؛ واحد من هذه الخطابات تمت كتابته عندما صدمت الحافلة التي كان «زينث» على متنها

بمؤخرة عربة يجرها حصان، وتوقف قلب «زينث» المنضبط من جراء فقد الدماء؛ كانت إدارة شركة «الطريق الآمن» للحافلات هي التي أرسلت الخطاب الملطخ بالدماء لدكتور «فاين»، وظلّ هذا الخطاب غير منتهٍ.

أخذ من «سركيسوف» أربع ساعات للوصول إلى حادثة الطريق، حيث قام محمد بانتصار بإغلاق صفحة حياته كـ «ناهيت». اصطدمت حافلة «السرعة الآمنة» بمؤخرة شاحنة تحمل حبر طباعة، ولفترة كانت الحافلة ـ التي كانت مليئة بالصرخات ـ تتوهج تحت مادة سوداء، فقط لكي تنفجر في منتصف الليل، وتآكلت بواسطة ألسنة اللهب المتوهجة، كتب «سركيسوف» أنه لم يستطع أن يتعرف مباشرة على «الفتى المهووس المسكين الذي احترق وتشوّه حتى لم يعد من الممكن التعرف عليه»، والدليل الوحيد الذي حصل عليه في يده هو البطاقة الشخصية للشاب التي ـ لحسن الحظ ـ لم تأكلها النيران، أكد هؤلاء الذين عاشوا بعد الحادث أن الشاب المتوفى كان يجلس على المقعد رقم 37، لو كان «ناهيت» جالساً في المقعد رقم 38، لكان نجا دون أي خدش، بعد أن عرف «سركيسوف» من واحد من الناجين أن الشاب الذي كان جالساً في المقعد رقم 38 كان في سنه تقريباً، طالب هندسة معمارية يدعى «محمد» ويدرس في جامعة التقنية في اسطنبول، قام «سركيسوف» بتعقب ذلك الشاب وصولاً إلى بيته في «كياسري» ليعرف منه عن ساعات «ناهيت» الأخيرة، لكنه لم يستطع الوصول لهذا الشاب الذي يدعى «محمد». اعتقد «سركيسوف» أنه يجب أن يكون قد ذهب ليرى أبويه بعد الحادثة الرهيبة التي نجا منها، لكنه لم يفعل، استشف «سركيسوف» أنه من المؤكد أن الشاب «محمداً» قد تأثر

بشدة بالحادث المؤسف؛ ولكن لم تكن تلك هي مشكلة «سركيسوف» الراهنة، حالياً الهدف الذي كان يتتبعه طوال كل هذه الأشهر قد مات، كان ينتظر أوامر أخرى ونقوداً من دكتور «فاين». بالرغم من كل شيء، كشفت تحرياته عن أن كل «أناتوليا» ـ بغض النظر عن الشرق الأوسط والبلقان ـ تفور بالشباب الغاضب الذي قرأ كتباً من هذا النوع.

بعد خبر موت ابنه ثم وصول الجسد المتفحم للمنزل، كان دكتور «فاين» يجن من الغضب حتى أنه فصل المخبرين الناجيين، حقيقة أن العم «رفقي» قد قُتل لم تقلل من حنقه، ولكنها فقط بددت تركيزه، موزعة إياه ضد المجتمع كله، في الأيام التي تلت الجنازة، قام دكتور «فاين» بتأجير سبعة تحريين جدد بمساعدة ضابط شرطة متقاعد له علاقات عديدة والذي يهتم بشؤون دكتور «فاين» في اسطنبول؛ وقام بإعطاء أسماء حركية للطاقم الجديد الذي أخذه من كل أنواع المخبرين، بجانب ذلك، قام بتطوير علاقاته أكثر مع التجار المحبطين الذين كان عدوهم المشترك هو المؤامرة الكبرى؛ وبدأ يستقبل منهم نصائح من حين إلى آخر. . هؤلاء الأشخاص ـ الذين فشلت أعمالهم بسبب منافسة من قبل شركات عالمية معينة التي تعمل في أشياء مثل السخانات، الآيس كريم (جيلاتي)، الثلاجات، مشروبات المياه الغازية، الربا، والهامبرجر ـ يرتابون ويكرهون الشباب الذي قرأ ليس فقط كتاب العم «رفقي» ولكن ـ عموماً ـ أي كتب بدت غريبة، مختلفة، أو أجنبية لهؤلاء التجار؛ وإذا ما تلقوا تشجيعاً من دكتور «فاين»، كانوا كلهم مهتمين بتعقب هؤلاء الشباب وإبقاء أعينهم عليهم، جاعلين من هذا محمدهم ليكتبوا بسعادة تقارير غاضبة واضطهادية.

فقط بمجرد أن يُرى إذا كان هناك شخص ما قرأ الكتاب في مدينة محلية، أو في بيت طلاب ذي هواء فاسد، أو في منطقة صغيرة مثل منطقتي، كان يتم إخبار دكتور «فاين» بواسطة واحد من جواسيسه، تصفحت هذه التقارير بينما أتناول العشاء الذي أحضرته «روزباد» على صينية، قائلة: «لم يعتقد أبي أنك تريد قطع عملك..» في الصفحات التي قرأتها وأنا متحمس لأصادف توأم الروح، توقفت بالصدفة عند عدد من الحوادث المدهشة التي جعلت شعر رأسي يقف؛ لكني لم أستطع أن أكتشف لأي حدّ كان هؤلاء الأشخاص توأم روحي.

نتيجة لقراءة الكتاب، توقف طالب طب بيطري، على سبيل المثال ـ يعمل أبوه عامل منجم فحم في «زورنجلداك» ـ عن عمل أي شيء سوى الاحتياجات الآدمية الأساسية كالأكل والنوم، ويقضي كل وقته في قراءة الكتاب، كان هذا الشاب يقرأ في بعض الأيام صفحة واحدة فقط مرات ومرات وفوق الألف مرة، وهكذا يفشل في أن يفعل أي شيء آخر بوقته، وهناك مدرس الرياضيات السكير بمدرسة ثانوية ـ الذي لم يكن يخفي ميوله الانتحارية ـ كان يقضي الدقائق العشر الأخيرة من كل حصة ـ بمعنى، حتى يقف طلابه رافعين أيديهم ـ ليقرأ مقاطع من الكتاب والذي كان يصاحبها موجة مستفزة من الضحك، أما بالنسبة للشاب من «إرزورم» الذي يدرس الاقتصاد، فقام بتغطية حوائط حجرته بصفحات من الكتاب، والذي نتج عنه مشاجرة عنيفة مع زملائه في الحجرة، عندما ادعى أحدهم أن هناك إهانة ضد النبي «محمد» في هذه الصفحات؛ ونتيجة لذلك قام واحد من سكان بيت الطلاب الذي كان نصف أعمى بالصعود على كرسي محاولاً قراءة ما في الركن بين ماسورة الموقد والسقف بعدسة مكبرة،

والذي نتج عنه أن الرجل الحزين الذي يقوم بالإصلاحات قد سمع عن الكتاب وكتب تقريراً عن الحادث للدكتور «فاين»؛ لكني لم أستطع التأكد إذا ما كان الكتاب الذي دمّر حياة طالب من «إرزورم» بمناقشات حول «إذا كان يجب أن يتم تسليمه إلى وكيل النيابة أم لا؟ هو في الواقع كُتب بواسطة العم «رفقي».

كما اتضح بعد ذلك، كان الكتاب مثل لغم طليقة نتيجة لمائة أو مائة وخمسين نسخة يتم تبادلها بالأيدي بالصدفة، أو يتم ذكرها من قبل قراء نصف فضوليين، أو يجذبون الانتباه في أكشاك بيع الكتب؛ أو كتب مشابهة لها نفس الوظيفة السحرية، كانت تزرع أحياناً في واحد من القراء تياراً من الإثارة أو نوعاً من الإلهام، دخل البعض في عزلة مع الكتاب، لكن عند بداية الانهيار الجاد كانوا قادرين على الانفتاح على العالم ونفض حزنهم، كان هناك أيضاً هؤلاء الذين حدثت لهم أزمات أو ثورات غضب عند قراءة الكتاب، متهمين أصدقاءهم وأحباءهم بكونهم غير واعين بالعالم الذي في الكتاب، بعدم معرفتهم أو رغبتهم في الكتاب، ولذلك ينتقدونهم بلا رحمة لكونهم لا يشبهون في أي شيء الأشخاص الذين في عالم الكتاب، كان هناك مجموعة أخرى من الطراز المنظم الذين قرأوا الكتاب لِيَهِبُوا أنفسهم للبشرية وليس للنص، هؤلاء المتحمسون استقروا ليبحثوا عن آخرين مثلهم قرأوا الكتاب، ولو أنهم لم ينجحوا في هذه المهمة ـ والذي كان الوضع دائماً ـ فهم يقنعون الآخرين بقراءة الكتاب، آملين في الانخراط في نشاط يشاركون فيه الأشخاص الذين أدخلوهم في المصيدة، لم يكن لدى هؤلاء النشطين ولا المخبرين الذي يبلّغون عنهم فكرة عن أي نوع من الأنشطة يفعله هؤلاء الناس مشتركين.

أثناء الساعتين التاليتين، وبينما أقوم بتجميع الحقائق من قصاصات الجرائد والأخبار التي تمّ وضعها بدقة في الملفات وسط خطابات المخبرين، عرفت أن خمسة من هؤلاء القراء الذين ألهمهم الكتاب قد تمّ قتلهم بواسطة مخبري دكتور «فاين». لم يكن من الواضح أي مخبر منهم ارتكب أي من جرائم القتل ومتى تمت هذه الجرائم ولأي مبرر؟ كانت فقط أخبار قصيرة تمّ قصها من الجرائد ووضعها في ترتيب منطقي وسط تقارير التنديد، كان هناك ـ بالرغم من ذلك ـ بعض التفاصيل المتاحة عن جريمتين من جرائم القتل، ولأن واحداً من الأشخاص المجني عليهم كان طالباً في الصحافة والذي يترجم لخدمة الأخبار الأجنبية لجريدة «الشمس»، ادعت منظمة الصحفيين للعمل الوطني اهتمامها بالحادث، معلنة أن الصحافة التركية لن تنحني قط للإرهاب المتوحش، تتضمن حادثة القتل الأخرى، نادل تمّ إطلاق الرصاص عليه عندما كانت يداه مليئة بزجاجات فارغة لمشروب زبادي شهير؛ معلنين في مؤتمرهم الصحفي أن جريمة القتل تمّ ارتكابها من قبل عملاء المخابرات الأمريكية المركزية وكوكاكولا.

الفصل الحادي عشر

متعة القراءة ـ التي يشكو من قلتها في ثقافتنا السادة المهندمون الأكبر سناً ـ يجب أن تكون في التناغم الموسيقي الذي سمعته وأنا أقرأ الوثائق وتقارير جرائم القتل في الأرشيف المجنون والمنظم للدكتور «فاين». شعرت بهواء الليل البارد على ذراعيّ، وسمعت في أذنيّ موسيقى الليل التي لم تكن تُعرف في الواقع؛ في هذه الأثناء، حاولت أن أفهم ماذا يجب أن أفعل لأتصرف مثل شاب صغير قد قرر أن يكون قاطعاً في وجه العجائب التي صادفها في عمره الصغير. منذ أن قررت أن أكون شاباً مسؤولاً يحضّر لمستقبله، سحبت قطعة ورق من مخزون دكتور فاين وبدأت أكتب ملاحظات صغيرة ربما تكون ذات نفع.

تركت حجرة الأرشيف وأنا ما زلت أسمع هذه الموسيقى في أذني، بعد ساعة شعرت بداخل أعماقي كم كان كل من العالم ورب المنزل المتحمس بارداً ومادياً، كان الأمر كما لو كنت أستطيع سماع التحريض المشجع لروح غير مكترثة، شعرت برجفة تجتاحني مثل هذا الإحساس العابث الذي يأتي للأشخاص أمثالي عندما نترك المسرح بعد رؤية فيلم مرح ومتفائل، إحساس خفيف مثل الموسيقى التي تمر بأذهاننا، أنت تعرف ماذا أعني: نحن نتعاطف مع البطل، كما لو كنا الرجل ذا النكات الماهرة، الخفة التلقائية، روح الفكاهة الحاضرة والرائعة.

«هل لي أن أحظى بهذه الرقصة؟» كنت على وشك أن أسأل «جنان»، التي كانت تراقبني باهتمام.

كانت تجلس إلى مائدة العشاء مع الأخوات الثلاث، ناظرة إلى كرات الخيط من كل نوع ولون تخرج من سلة من الخوص على سطح المائدة مثل التفاح والبرتقال الناضج الذي يخرج من قرن الوفرة والسعادة. بجانب هذه الأشياء كان هناك أشكال من أشغال الإبرة والتطريز التي تأتي مع مجلة تدعى «البيت والمرأة» التي اعتادت أمي أن تنشغل بها في وقت ما، أزهار للكنافاه، طيور البط الصغيرة اللطيفة.. قطط، كلاب، بجانب الرسومات المتكررة لمسجد من المؤكد أن الناشر قد وضعه، واقتبس الباقي كله من مجلة نسائية ألمانية وحشرها في مجلة نسائية تركية. أنا أيضاً تفحصت كل هذه الألوان في ضوء مصابيح الكيروسين، متذكراً أن الدراما الحقيقية الحياتية التي كنت أقرؤها لتوي قد تمّ تكوينها بمثل هذه المواد الخام الزاهية الألوان، ثم اتجهت إلى ابنتيّ «روزامند» الصغيرتين اللتين جاءتا أمهما ـ غارقتين في هذا المشهد للسعادة العائلية ـ تتثاءبان وتطرفان بعينيهما، قلت لهما: «ما الأمر، ألم تضعكما أمكما في الفراش بعد؟».

تراجعتا للخلف وخافتا قليلاً عندما أراحتا نفسيهما في كنف أمهما، كان مزاجي يتحسن. حتى أنني استطعت أن أسلي «روزباد» و«روزابل» ـ اللتين كانتا تنظران إليّ بارتياب ـ قائلاً: «أنتما زهرتان لم تذبلا بعد».

لكني لم أنجح في قول أي شيء إلى أن دخلت إلى الأماكن المخصصة لاستقبال الضيوف الذكور... قلت للدكتور «فاين»: «لقد قرأت قصة ابنك بأسى شديد».

أجاب: «إن كل شيء موثّق».

قام بتقديمي لاثنين من الرجال نصف مختفيين في الحجرة المظلمة... لا، لم يكونا هذان مخبرين، وأنا أرى كيف أنهما لم يكونا يعملان، أحدهما كان مسجل عقود، لكن ما دام عقلي لا يسجل أشياء في مثل هذه المواقف الكئيبة، فلم أفهم ماذا يعمل الآخر؛ كنت مهتماً أكثر بكيف قدّمني دكتور «فاين»: أنا شاب مُقدّر لي أن أفعل أشياء عظيمة، وأنني هادىء، جاد، وعاطفي؛ استطعت بالفعل أن أجعله يعتبرني مقرّباً جداً له، لم يكن هناك شيء يفوح مني برائحة هؤلاء ذوي الشعر الطويل المستعار الذين يقلّدون الشخصيات في الأفلام الأمريكية، لقد كان يثق بيّ بدرجة كبيرة.. كبيرة جداً.

كم تعاطفت بسرعة مع كل هذا المديح! لم أكن أعرف ماذا أفعل بيدي، لكنني أردت أن أبدو مهذباً، لذلك أحنيت رأسي لأسفل كما يليق بشاب متواضع مثلي أن يفعل وغيّرت الموضوع، وأنا واع تماماً بأن تغييري للموضوع ستتم ملاحظته وتقديره.

قلت: «يا له من مكان هادىء ها هنا في الليل، يا سيدي!».

قال دكتور «فاين»: «لكن شجرة التوت تُصدر حفيفاً، حتى عندما يكون الليل هادئاً ولا يوجد حتى ولو نسمة هواء... اسمع».

استمعنا جميعاً، كنت أشعر بعدم الراحة بسبب الظلام المتجمد في الحجرة أكثر من حفيف الشجرة بالخارج في مكان ما هناك. بالاستماع إلى الصمت أدركت أنه منذ جئت إلى هذا المنزل لم أسمع الناس يتحدثون إلّا همساً.

أخذني دكتور «فاين» جانباً.. قال: «نحن نجلس لكي

نلعب فقط عدة أدوار من الورق، الآن أريدك أن تخبرني يا بني، ما الذي تفضل أن تراه؟ مجموعة أسلحتي، أم ساعاتي؟».

قلت بلا تفكير: «أحب أن أرى الساعات يا سيدي».

في الحجرة المجاورة، التي كانت أكثر ظلمة، شاهد ثلاثتنا اثنين من أطرزة المناضد القديمة «زينث» التي تصدر صوتاً كطلقات الرصاص، رأينا درجاً صُنع بواسطة مستعمرة صانعي الساعات «جالاتا»، الذي كان مغطى بالخشب، تلعب نغمة من تلقاء نفسها، وتُملأ مرة واحدة في الأسبوع، طبقاً لما قاله دكتور «فاين»، هناك مثلها في الجزء المخصص للنساء «الحرملك» في قصر «توبكابي». ثم عندما قرأنا بصعوبة كلمة «سمورنيه» على ميناء الساعة، كنا نحاول أن ندرك في أي ميناء من موانىء «ليفانت» عاش «سيمون س. سيمونيون» الذي صنع ووقّع على ساعة البندول ذات الخزانة المنحوتة من خشب الجوز، لاحظنا أن الساعة العالمية تعرض قمراً وتقويماً يظهران الأيام التي بها قمر كامل، عندما أخذ دكتور «فاين» مفتاحاً ضخماً ليملأ الزنبرك الخاص ببندول الساعة التي على شكل هيكل عظمي والتي تمّ تشكيل سطحها مثل عمامة بأمر من السلطان «سليم الثالث» شعرنا بالقلق، مدركين أن الأعضاء الداخلية للهيكل العظمي هي التي تتحرك، تذكرنا أننا رأينا وسمعنا في أماكن كثيرة منذ طفولتنا بندول ساعات الحائط ما زالت تتكتك مثل طيور الكناريا المحبوسة في أقفاص في منازل كثيرة، اجتاحتنا رجفة عند رؤية المحركات وتحتها كلمات «صنع في الاتحاد السوفيتي» على ميناء ساعة من ساعات «سركيسوف».

«بالنسبة لشعبنا، دقات الساعة ليست فقط وسيلة لإخبارنا

بالوقت، لكنها الرنين الذي يجعلنا على وفاق مع عالمنا الداخلي، مثل صوت سقوط المياه من النافورة في باحة مساجدنا»، قال دكتور فاين: «نحن نصلي خمس مرات في اليوم؛ ثم في رمضان، يكون لنا وقت محدد للإفطار، تناول الطعام عند غروب الشمس، ووقت السحور، الوجبة التي نتناولها قبل شروق الشمس، إن جداول مواعيدنا وساعاتنا هي أدواتنا للوصول إلى الله، وليست وسائل السرعة لنبقى على لحاق بالعالم كما عندهم في الغرب.. لا توجد أمة على الأرض تكرّس نفسها للمواعيد والساعات كما نفعل نحن؛ كنا أكبر عملاء لصانعي والساعات الأوروبيين، فالساعات هي المنتج الوحيد لهم الذي قبلته أرواحنا، لذلك فالساعات هي الأشياء الوحيدة بالإضافة إلى الأسلحة التي لا يمكن تصنيفها إلى أجنبية ومحلية، بالنسبة لنا هناك مكانان يقودان إلى الله؛ الأسلحة والعتاد هي أدوات الجهاد؛ أما الساعات فهي أدوات الصلاة، هم نجحوا في أن يسكتوا أسلحتنا والآن يخططون لهذه القطارات لكي يسكتوا وقتنا أيضاً.. الكل يعلم أن العدو الأكبر لمواقيت الصلاة هو جدول مواعيد القطارات، كان ابني المتوفى على وعي كامل بهذه الحقيقة، ولهذا السبب قضى أشهراً على متن الحافلات ليعوّض وقتنا الضائع، هؤلاء الذين أرادوا أن يخلقوا العداء بيني وبين ابني استخدموا الحافلة ليأخذوا حياة ابني ووريثي، لكن دكتور «فاين» ليس بساذج لينخدع بواسطة مخططاتهم الدنيئة.. تذكر ذلك: عندما يحصل شعبنا على بعض المال، أول شيء يشترونه يكون دائماً ساعة». ربما كان دكتور «فاين» سيستمر يهمس بخطبته المطولة، إلّا أنه تمت مقاطعته من قبل الساعة الذهبية اللون الإنجليزية الصنع من طراز «بريور» ـ التي بها ميناء مزينة بالورود

الحمراء كالياقوت، ومحلاة بصوت عندليب ـ التي بدأت تعزف لحن أغنية عثمانية قديمة، «كاتبي».

بينما رفقاؤه في لعب الورق ينصتون بكل آذانهم للأغنية العذبة عن رحلة الكاتب علي «يسكودار»، همس دكتور «فاين» في أذني «هل اتخذت قرارك بعد؟».

في اللحظة نفسها رأيت من خلال الباب المفتوح في الحجرة المجاورة صورة لـ جنان» المتلألئة في المرآة على التسريحة، وتشتت ذهني.

قلت: «أنا في حاجة للعمل أكثر على الأرشيف، يا سيدي».

قلت ذلك لأتجنب اتخاذ قرار أكثر منه أملاً في الوصول إلى قرار، كنت أمرّ أمام الحجرة المجاورة عندما شعرت بأعين الأخوات الثلاث عليّ، «روزباد» صعبة الإرضاء، «روزابل» سريعة الغضب، و«روزامند» التي جاءت بعد أن وضعت ابنتيها في الفراش، كم كانت عينا «جنان» العسليتان فضوليتين ومصرتين للغاية! شعرت وكأني حققت شيئاً ذا أهمية، والذي أشك في أن كثيراً من الرجال يشعرون بذلك عندما يكونوا في صحبة امرأة جميلة ومليئة بالحيوية.

ولكن كم كنت بعيداً عن أن أكون هذا الرجل! ها أنا ذا جالس، جالس في أرشيف دكتور «فاين»، مع ملفات فوق ملفات من تقارير الاستخبارات أمامي، وأقوم بتخيل وجه «جنان» الذي كبّرته المرآة على التسريحة في الحجرة الأخرى بغيرة، كنت أقلّب الصفحات بسرعة على أمل أن غيرتي المتزايدة قد تحفزني على اتخاذ قرار.

لم أكن بحاجة إلى الاستمرار في البحث طويلاً، بعد جنازة الشاب عديم الحظ من «كايسري» الذي دفنه دكتور «فاين» معتقداً أنه ابنه، بدأ يتخلص تدريجياً من المخبرين القدامى الباقيين وهم «موفادو»، «أوميجا»، و«سركيسوف، أما «زينث» فقد مات، نجح «سيكو» ـ المخبر الأكثر ثقة والذي جاء في وقته من بين المخبرين الجدد الذين عيّنهم دكتور «فاين» ليتتبعوا كل شخص قرأ الكتاب ـ في وضع يده على شاب معين اسمه «محمد» وصديقته «جنان»، طالبان في مدرسة الهندسة المعمارية، التقى بهما صدفة أثناء اقتحامه لبيوت الطلاب، المقاهي، الأندية، وأفنية المدارس على أمل العثور على شخص ما قد يتعرّف على الكتاب، حدث اكتشافه هذا منذ ستة عشر شهراً، كان هذا في الربيع، كان «محمد» و«جنان» قد وقعا في الحب، وكانا يحملان كتاباً يقرآنه لبعضهما البعض بالتفصيل، لم يكن لديهما أدنى علم بوجود «سيكو»، الذي استمر في مراقبتهما لمدة حوالي ثمانية أشهر، لكنها لم تكن مراقبة دانية.

قام «سيكو» بتسليم اثنين وعشرين تقريراً لدكتور «فاين»، مكتوبين في فواصل عشوائية خلال الثمانية أشهر من الوقت الذي اكتشف فيه هو الزوجين حتى قرأت أنا الكتاب وتمّ إطلاق النار على «محمد» في محطة «الميني باص»، قرأت هذه التقارير مجدداً بصبر وغيرة متزايدة بعد منتصف الليل بكثير، محاولاً ابتلاع الاستنتاجات المسممة التي وصلت إليها نتيجة للمنطق الذي وفّره لي الأرشيف حيث كنت أعمل.

1 ـ ما أخبرتني به «جنان» وهي تنظر من نافذة الغرفة رقم 19 حيث قضينا الليل في مدينة «جيودل»، قائلة شيئاً ما

بمعنى أنها لم يلمسها رجل من قبل قط، لم يكن صحيحاً، أكّد «سيكو» ـ الذي تتبعهم ليس فقط في الربيع ولكن أيضاً خلال الصيف عندما لاحظ أن الشابين دخلا إلى الفندق الذي يعمل فيه «محمد» ـ إنهما بقيا في غرفته لعدة ساعات، ليس الأمر أنني لم أشك بذلك، ولكن عندما يشهد شخص آخر بما يمثل لك مجرد شك، ويكتبه على الورق يشعر المرء بأنه أكثر حمقاً.

2 ـ لا أحد وبِمَن فيهم «سيكو» قد ارتاب أن «محمداً» قد يكون هوية جديدة لـ «ناهيت» يدعي أنه يملكها بعد إغلاق صفحة حياته السابقة، لم يشك والده، ولا إدارة الفندق حيث يعمل، ولا مكتب التسجيل في مدرسة الهندسة المعمارية.

3 ـ لم يقم الحبيبان بأي شذوذ اجتماعي لجذب انتباه الآخرين، أكثر من كونهما واقعين في حب بعضهما. لو تمّ حذف العشرة أيام الأخيرة من مراقبة «سيكو»، فلم يكونا حتى يحاولا تمرير نسختهم من الكتاب للآخرين.. إلى جانب ذلك، فهما لم يقرآ الكتاب طيلة الوقت، والذي كان السبب وراء عدم اهتمام «سيكو» بما كانوا يفعلونه بالكتاب، كانا يبدوان كزوج من طلبة الجامعة يتوجهان لحياة زوجية عادية، كانت علاقتهما بزملائهما في الصف متوازنة، درجاتهما جيدة، طموحاتهما متحفظة، لم يكن لهما أي علاقة بأي جماعات سياسية، ولا أي تورطات تحمسية لا تستحق شيئاً، حتى أن «سيكو» كتب ذلك، من بين كل هؤلاء الذين قرأوا

الكتاب، كان محمد الأكثر تعقلاً، والأقل هوساً واندفاعاً من بين كثيرين، ربما لذلك تفاجأ «سيكو» فيما بعد، وربما يكون قد سُرّ بالطريقة التي تطوّرت بها الأمور.

4 ـ كان «سيكو» يحقد عليهما. عندما أجريتُ مقارنات بين تقاريره الأخرى، لاحظت في البداية أنه وصف «جنان» بلغة تقديرية وشاعرية جداً... «أثناء قراءة الكتاب، عقدت الفتاة الشابة حاجبيها برقة، وارتسم على وجهها تعابير كرامة ورشاقة نقية». «ثم قامت بعمل الإيماءة الخاصة بها، وهي تدفع بشعرها بحركة صغيرة وراء أذنها». «أحياناً إذا ما كانت تقرأ الكتاب وهي تقف في صف الكافيتريا، تمطّ شفتها العليا قليلاً، وتبدأ عيناها تلمعان، حتى يُخيل للمرء أن قطرتين كبيرتين من دموعها سوف تظهران في أية لحظة على جانبي عينيها الجميلتين». وماذا عن هذه السطور المدهشة؟ «حسناً يا سيدي، أصبح وجه الفتاة الشابة المنكب على الكتاب رقيقاً جداً بعد نصف ساعة من القراءة، وكان التعبير الذي على وجهها غريباً للغاية وليس له مثيل، حتى أنني تصورت للحظة أن الضوء السحري لا يتدفق من النوافذ ولكن ينبعث من صفحات الكتاب وينعكس على الوجه الملائكي». على النقيض من صفات «جنان» السماوية كان يرى الفتى الشاب الذي بصحبتها على أنه دنيوي وينتمي جداً لهذا العالم. «هذا الشيء ليس إلّا قصة حب بين بنت عائلة محترمة وشاب معدم ينحدر من أجداد غير معروفين». الشاب هو دائماً الشخص الأكثر حرصاً، قلقاً، وبخلاً». «لدى الفتاة الشابة ميل للانفتاح مع

الأصدقاء، لتقترب منهم، وحتى يشاركوها في الكتاب، ولكن موظف الفندق يريد أن يضع حداً لها». «من الواضح أنه يتجنب دائرة أصدقائها لأنه يأتي من عائلة من مستوى منخفض». «فكر في الأمر، فمن الصعب أن تتخيل ماذا ترى الفتاة الشابة في هذا الشاب الكئيب البارد». «إنه متكبر للغاية بالنسبة لكونه مجرد موظف فندق». «إنه واحد من هؤلاء الناس الماكرين الذين ينجحون في أن يبدوا حكماء لأنهم ذوو شفاه مغلقة رفيعة وكتومون صموتون». «وصولي ضعيْف» «لا يملك أي شيء ليعزّز موقفه، يجب أن أقول». كنت قد بدأت أحب هذا الـ «سيكو». لو أنني فقط أستطيع الاعتماد على دقته؛ بالرغم من ذلك، فهو قد أقنعني بشيء آخر.

5 ـ كم كانا سعيدين! بعد المحاضرة، ذهبا إلى مسرح «بيوجلي»، وظلا ممسكين بأيدي بعضهما طوال الفيلم الذي كان عنوانه «ليالي لا تنتهي». جلسا إلى منضدة في الزاوية في كانتين الطلاب، يشاهدان الناس ويتكلمان بحميمية مع بعضهما.. دائماً معاً، سواء كانا يتفقدان واجهات المحال، أو وهما في الحافلة، أو ذاهبان إلى المحاضرات وفي نزهات خلال المدينة، أو جالسان على المقاعد في كشك الشطائر، الساق إلى الساق، يشاهدان نفسيهما وهما يأكلان الشطائر في المرآة؛ وها هما مرة أخرى يقرآن الكتاب الذي أخرجته الفتاة من حقيبة يدها. ثم كان هناك يوم من أيام الصيف! «بدأ سيكو» في اتباع محمد منذ اللحظة التي غادر فيها الفندق، ثم راقبه وهو يقابل «جنان»، التي كانت تحمل حقيبة بلاستيكية،

افترض أن شيئاً ما قد طرأ وانطلق وراءهما، ركبا المعدية إلى «جزيرة الأميرة»، أجّرا قارب تجديف وذهبا للسباحة؛ وأخذا عربة تجرها الخيول، تناولا أكواز الذرة والجيلاتي؛ وعندما رجعا إلى المدينة، صعدا إلى غرفة الشاب، كان من الصعب قراءة كل هذه الأشياء وكانت بينهما مشاحنات وجدال، وأحياناً كان «سيكو» يفسر ذلك على أنه مؤشر سيىء، لكن حتى الخريف لم يكن هناك أي توتر حقيقي بينهما.

6 ـ من المؤكد أن سيكو هو الشخص الذي أخرج المسدس من الكيس البلاستيكي وأطلق الرصاص على محمد في اليوم الثلجي من ديسمبر/كانون الأول قرب محطة «الميني باص»، لكني لم أكن متأكداً تماماً من ذلك، لكن غضبه وغيرته يظهران ذلك، فيما أنا أتذكر صورة الشخص الغامض الذي رأيته من النافذة وهو يعدو مبتعداً عبر الحديقة المغطاة بالثلج، تخيلت أن سيكو يجب أن يكون في الثلاثينيات من عمره، ضابط طموح تخرج من أكاديمية الشرطة، يقوم سراً بعمل تحريات خاصة كوظيفة ثانية لكي يدعم دخله، شخص يعتبر طلاب الهندسة المعمارية «عقماء»، حسناً ثم، ماذا كان تقييمه لي؟

7 ـ كنت ضحية مهانة لمكيدة، توصل «سيكو» إلى هذا الاستنتاج بسهولة حتى أنه شعر بطريقة ما بالأسف لأجلي، ولكنه كان غير قادر على استنتاج أن مصدر التوتر بين الفتاة والشاب كانت رغبة «جنان» في أن يكون لها علاقة بالكتاب، لكن بعد ذلك، من المؤكد أن ذلك

كان تحت إصرار «جنان» أن قررا تجنيد شخص ما ليضعا في يديه الكتاب، قاما بالنظر إلى الطلاب في قاعات جامعة التقنية مثل صائدي الموظفين التابعين لشركة خاصة يتفحصون خلال مجموعة من الموجودين لاختيار المرشح المناسب ليشغل منصباً شاغراً، لم يكن من الواضح لماذا كنت أنا المختار. وسرعان ما أوضح «سيكو» بدقة أنهم كانوا بالفعل يراقبونني، يتتبعونني، ويتحدثون عني، فيما بعد، تمّ مشهد وقوعي في المصيدة بطريقة أكثر سهولة من اختياري. كيف كان سهلاً؟ حسناً، قامت «جنان» بالمشي بالقرب مني عدة مرات في الطرقات، وهي تحمل الكتاب في يدها، وابتسمت لي ابتسامة عذبة، ثم قامت ـ بمتعة كبيرة ـ بتنفيذ الخطة عليّ: كانت قد أصبحت واعية بأني أنظر إليها في صف الكانتين، وادعت أنها يجب أن تضع ما تحمله في يدها أرضاً لكي تتمكن من البحث في حقيبتها عن محفظتها، وضعت الكتاب على المنضدة أمامي؛ وبعد عشر ثوان أو ما إلى ذلك، قامت يدها الرقيقة بخطف الكتاب بسرعة. وللتأكد أنني ـ السمكة المسكينة ـ قد أخذت الطعم، قام كلاهما بوضع الكتاب دون مقابل في كشك على الرصيف تأكدوا بالفعل أنه في طريقي، لكي أرى الكتاب وأنا في طريقي إلى البيت وأتعرف عليه بارتباك ـ آه، ها هو ذلك الكتاب!» ـ اشترِه ـ وهذا ما حدث بالضبط ـ حزيناً على الموقف الذي حدث رغماً عني، قام «سيكو» بكتابة هذه الملاحظة عني: «فتى حالم بلا أي شيء مميّز ليرشحه».

لم أهتم بما كتبه كثيراً، طالما أن لديه نفس الحكم تقريباً

على محمد، حتى أنني وجدت فيه عزاءً كافياً لأستجمع شجاعتي وأسأل نفسي هذا السؤال: «لماذا لم أعترف لنفسي قط أنني اشتريت وقرأت الكتاب كطريقة للتقرب من الفتاة الجميلة؟

ما كان غير محتمل في الواقع - بالرغم من كل شيء - حقيقة أنه بينما كنت أنظر إلى «جنان» بإعجاب واضح، وأحدق فيها مثل طائر سحري مذعور - بكلمات أخرى، بينما أعيش اللحظة الأكثر سعادة في حياتي - لم يكن فقط محمد يراقب كلينا، فعلى مسافة كان هناك سيكو، يراقب ثلاثتنا مجتمعين.

«المصادفة التي أحببتها وقبلتها بسرور، معتقداً أنها كانت الحياة نفسها، اتضح أنها مجرد خيال تمّ بناؤه من قبل شخص آخر» قالها البطل المخدوع، متخذاً قراره بمغادرة الغرفة لرؤية مخزن أسلحة دكتور «فاين»، لكنه ما زال يجب أن يفهم المزيد من أشياء قليلة ويجري المزيد من البحث - بمعنى آخر - فهو يحتاج لساعة أخرى من العمل.

عملت بأقصى ما استطعت وخرجت بقائمة بكل الشباب الذين يحملون اسم «محمد» الذين شُوهدوا يقرأون الكتاب، العمل الذي تمّ عمله من قبل مخبري دكتور «فاين» الذين يهتمون بالتفاصيل والتجار المحيطين من كل مكان في «أناتوليا». عندما رأيت أن «سركيسوف» لم يكشف عن لقب «محمد»، انتهيت بقائمة طويلة نسبياً لم أعرف بعد كيف أقوم بالحكم عليها.

كان الوقت متأخراً، لكنني كنت واثقاً أن دكتور «فاين» كان مستيقظاً ينتظرني، مشيت باتجاه الغرفة حيث كانوا يلعبون الورق على صوت دقات الساعات. ذهبت «جنان» وبنات دكتور «فاين» إلى حجراتهن، أما أصدقاؤه فذهبوا إلى بيوتهم، انزوى دكتور

«فاين» في أبعد ركن من الحجرة حيث كان يقرأ وهو غارق بعمق في كرسي كبير مكتنز كما لو كان يحمي نفسه من ضوء مصابيح الكيروسين.

عندما أصبح واعياً بوجودي، وضع بخفة فتَّاحة الخطابات المرصعة بالصدف في الكتاب الذي كان يقرؤه، ثم أغلقه وقام على قدميه، قائلاً إنه مستعد وكان ينتظرني، ربما أريد أن أستريح قليلاً أولاً، في حالة أن عينيّ كانتا متعبتين من كل هذه القراءة، لكنه كان متأكداً أنني مسرور بكل ما قرأته وعرفته؛ أليست الحياة مليئة بالأوغاد المخادعين والأحداث غير المتوقعة؟ ولهذا قرر أن تكون محمده هي إعادة النظام لكل هذه الفوضى.

قال: «الملفات والقوائم تمّ تحضيرها من قبل «روزابل» بعناية فتاة تعمل على تطريز إطار». «أما «روزاباد» فقمة السعادة بالنسبة إليها أن تكون مسؤولة عن المراسلات كما يجب لفتاة مطيعة أن تكون، تكتب الخطابات للمخبرين المطيعين التابعين لي وفقاً لرغباتي واستجاباتي، كل يوم بعد الظهيرة نتناول الشاي ونستمع لصوت «روزامند» العذب وهي تقرأ لنا الخطابات التي تلقيناها أحياناً، نعمل في هذه الغرفة، أحياناً ننتقل إلى غرفة الأرشيف حيث كنت تعمل أنت، وفي أيام الربيع والصيف الدافئة، نجلس لساعات حول المائدة تحت شجرة التوت، بالنسبة لرجل يحب العزلة مثلي، أقضي هذه الساعات في سعادة حقيقية».

ظلّ عقلي يبحث عن كلمات مناسبة لأمدح كل هذا الحب والإخلاص، كل هذا الاهتمام والنقاء، وكل هذا السلام والنظام. عندما رأيت غلاف الكتاب الذي وضعه جانباً حين رآني، عرفت أنه كان يقرأ عدداً من «زاجور». هل لديه أي علم

بأن العم «رفقي» ـ الذي أمر بقتله ـ حاول ذات مرة عمل نسخة وطنية من هذه القصة المصورة؟ لكن لم يكن لدي البال الرائق لأجادل في النقاط الجيدة في هذه المصادفات.

«هل من الممكن أن أرى الأسلحة الآن يا سيدي؟».

قال إجابته اللطيفة بنبرة متعاطفة أعطتني ثقة: إنه يرحب بي أن أدعوه «دكتور»، أو حتى «أبي».

أراني دكتور «فاين» مسدساً نصف آلي بني اللون تمّ استيراده من قبل قسم الأمن الداخلي من «بليجوم» عام 1956م بعقد مزايدة، مفسراً أنه حتى وقت قريب كان يتم تزويد المناصب العليا فقط في الشرطة بهذه المسدسات ثم أخبرني عن المرة التي انطلق فيها المسدس الألماني الصنع «بارابليوم» بطريق الخطأ ـ الذي يمكن أن يتحول إلى بندقية بواسطة الجراب الخشبي الذي يُستخدم أيضاً كمقبض ـ ومرت الرصاصة عيار «9 ميليمترات» بين اثنين من الخيول المجرية العملاقة، ثم دخلت من نافذة في المنزل وخرجت من النافذة الأخرى، واستقرت في شاحنة للتوت؛ وأكمل قائلاً إنه ـ بالرغم من ذلك ـ سلاح أخرق لتحمله، إذا كنت أريد شيئاً عملياً ويُعتمد عليه، فهو يرشح لي «سميث وويسون» ذا المقبض الآمن ثم كان هناك مسدس لامع ماركة «كولت» الذي يحمّس أي شخص مولع بالمسدسات، والذي لا يحتوي على صمام أمان، ولهذا حتى لو كنت متجمداً في مكانك، فما عليك إلّا أن تتذكر أن تسحب الزناد؛ ويعد يمكن للشخص أن يشعر أيضاً أنه مثل راعي بقر أمريكي وهو يحمل أحد هذه الأسلحة، وهكذا كان اهتمامنا موجهاً إلى سلسلة من الأسلحة الألمانية الصنع «والثر»، الذي تمّ امتصاصه بنجاح

في وعينا القومي، وشبيهه المحلي المرخص، موديل «كيريكال»، كانت هذه المسدسات مميزة في عينيّ أيضاً نتيجة لاستخدامها الواسع الانتشار في الأربعين سنة الأخيرة، بعد أن تمت تجربته مئات آلاف المرات من قبل المولعين بالأسلحة من ضباط الجيش إلى رجال الحراسة الليلية، من صانعي الخبز إلى رجال الشرطة، على أجساد الكثير من المتمردين، اللصوص، أزيار النساء، سياسيين، ومواطنين جائعين.

بتأكيد من دكتور «فاين» أنه لا يوجد أي فارق بين «والثر» و«كيركال» وبعد أن أكد عدة مرات أن كليهما كان جزءاً من أجسادنا بالإضافة إلى أرواحنا، استقر قراري على مسدس «والثر عيار 9 ميليمترات» ذي المطرقة، مسدس يمكن إخفاؤه بسهولة ولا يحتاج أن يتم تصويبه من مسافة قريبة ليقوم بالمهمة، وبالطبع ـ لم يكن هناك حاجة لقول أي شيء قبل أن يهديني دكتور «فاين» المسدس بالإضافة إلى زوج من حافظات للطلقات، وهو يقبلني فوق جبهتي، التي كانت لفتة مناسبة تشير بخفة إلى ولع أجدادنا بالبنادق والأسلحة، قال إنه ما زال لديه المزيد من العمل ليتمه، لكن أنا حري بي أن أذهب إلى الفراش الآن وأحصل على قسط من الراحة.

كان النوم آخر شيء في ذهني، بينما كنت أسير السبع عشرة خطوة من حجرة الأسلحة إلى حجرتنا، مرّ برأسي سبعة عشر سيناريو مختلفاً، قمت بتخزينها جميعاً في ركن واحد من عقلي بينما أقرأ، واستقررت في اللحظة الأخيرة على المزيج الذي يتناسب مع المشهد الأخير، أتذكر أنني دققت ثلاث مرات على الباب الذي أغلقته «جنان»، مسترجعاً مرة أخرى الأعجوبة التي

صنعها عقلي الذي كان ثملاً من كثرة القراءة، لكن لم يكن لدي أية فكرة عما يكون عليه هذا المزيج، حالما طرقت على الباب، قال صوت بداخلي كلمة السر!» ربما لأنني اعتقدت أن «جنان» قد تسأل عن كلمة السر، لذلك أجبت بقوة «يحيا السلطان!».

عندما قامت جنان بفتح القفل ثم فتح الباب، أفقدني التعبير الذي على وجهها شجاعتي، كان تعبيرها نصف مرح، لا.. نصف حزين.. لا.. غامض كلياً، وشعرت كأني ممثل مغمور نسي السطور التي ظلّ يحفظها لعدة أسابيع في اللحظة التي خطا فيها إلى الأضواء، لم يكن من الصعب على الإطلاق أن تخمن أن شخصاً يستعد للتفكير بسرعة سيثق في غرائزه في موقف مثل هذا؛ فضلاً عن محاولة المجيء بمجموعة من الكلمات الخاوية التي يتذكرها بالكاد وهذا ما فعلته أنا، حاولت أن أنسى أنني كنت فريسة ـ على أحسن الفروض ـ وقعت في المصيدة.

قبلت «جنان» على شفتيها مثل زوج رجع من رحلة طويلة، ها نحن أخيراً، بعد كل الأخطار غير المتوقعة، في البيت في حجرتنا، أحببتها كثيراً وفكرت أن لا شيء آخر مهم، لو قدمت الحياة موقفاً أو موقفين صعاب، لكنت أنا المسافر المتمرس الذي لديه الشجاعة ليتقبل ويتعامل معها، كانت رائحة شفتيها كالتوت البري، أدار كلانا ـ كنا الشخصين اللذين قُدّر لهما أن يتمسكا ببعضهما البعض ـ ظهره لنداءات الحياة صعبة المنال المتشددة وكل هؤلاء الذين حاولوا الضغط علينا بتضحياتهم الشخصية، كل هؤلاء الحمقى المحترمين العاطفيين الذين يحاولون ممارسة هوسهم على العالم، كل الأشخاص الذين ينحرفون عن مسار حياتهم، انجذبوا لأفكار جاءت من مكان بعيد جداً. عندما يتشارك اثنان أحلاماً كبيرة،

عندما يكونان رفقاء منذ الصباح حتى الليل لمدة أشهر لا تنتهي، عندما يغطيان كل هذه المساحات الشاسعة معاً، ماذا يمكن أن يكون عائقاً أن ينسوا العالم ليغيبا في عناق، يا ملاكي؟ وفوق كل هذا، ماذا يمكن أن يوقفهما عن أن يصبحا نفسيهما ويجدا اللحظة الفريدة للحقيقة؟

شبح الحبيب الثالث.

أرجوكِ دعيني أقبلك مرة أخرى على شفتيك من أجل الشبح الذي يبقى مجرد اسم في كل هذه التقارير التجسسية ويتجنب أن يصبح شخصاً حقيقياً، ولكن أنا هنا و ـ انظري ـ أعلم أن الوقت يمر ببطء، انظري كيف كل هذه الطرق التي سافرناها موجودة كما هي دون أن تكون واعية بنا على الأقل عندما سافرنا عليها، تمتد وهي معتدة بنفسها، مصنوعة من الأحجار والإسفلت ودفء ليالي الصيف تحت النجوم. دعينا نرقد معاً نحن أيضاً ـ هنا ـ بلا تأجيل لا داعي له..... أرجوكِ، يا حبيبتي، عندما تلمس يداي كتفيك الجميلتين، ذراعيك الرشيقتين الهشتين، عندما أقترب منك، انظري كيف نقترب من هذا الوقت الفريد ببطء وسعادة الذي يبحث عنه كل المسافرين على الحافلة، عندما أضغط شفتي على هذه البشرة نصف الشفافة بين أذنك وشعرك، عندما تُفزع الكهرباء التي في شعرك الطيور التي تمر فجأة أمام جبهتي ووجهي، مثيرة رائحة عطر الخريف في الهواء، وعندما يتصلب صدرك مثل طائر عنيد يحاول الطيران في راحة يدي، انظري، أرى في عينيك كيف أن الوقت صعب المنال استيقظ بيننا كاملاً وصحيحاً: الآن نحن لسنا هنا ولا هناك، ليس في الأرض التي ظللتِ تحلمين بها،

ولا على حافلة ما أو في غرفة فندق معتم في مكان ما، ولا حتى في مستقبل ما الذي يمكن أن يوجد فقط خلال صفحات الكتاب، الآن نحن هنا في هذه الحجرة، كما لو كنا موجودين في زمن ذي نهاية مفتوحة، أنت بتنهداتك وأنا بقبلاتي المحمومة، نحن نتمسك ببعضنا البعض، في انتظار معجزة قد تحدث، في الوقت المناسب! احتضنيني، كي لا ينساب الوقت بعيداً، تعالي، احتضنيني، يا روحي، لكي لا تنتهي المعجزة. أرجوكِ لا تقاومي، لكن تذكري: الليالي في مقاعد الحافلات عندما تفقد أجسادنا نفسها في بعضها البعض، عندما تتشابك أحلامنا وشعورنا معاً؛ تذكري قبل أن تبعدي شفتيك، تذكري رؤية مداخل المنازل في الشوارع الخلفية للمدن الصغيرة التي مررنا بها، رأسانا تضغطان على زجاج النافذة البارد المعتم؛ تذكري كل الأفلام التي شاهدناها وأيدينا متشابكة: الرصاصات التي تنهمر كالمطر، شقراوات ينزلن السلالم، كل الرجال الجذابين الذين تعشقينهم، تذكري كل القبلات التي شاهدناها في صمت كما لو كنا نرتكب خطيئة، ننسى جريمة، ونحلم بأرض مختلفة، تذكري هاتين الشفتين تنسحبان معاً بينما تتحول العينان عن الكاميرا؛ تذكري كيف كنا قادرين على الجلوس في ثبات تام للحظة حتى أثناء ما كانت إطارات الحافلة تدور سبع مرات ونصف المرة في الدقيقة، لكنها لم تتذكر، قبلتها بلا أمل للمرة الأخيرة، كان الفراش غير مرتب هل من الممكن أن تكون قد شعرت بجسد المسدس الصلب؟ تمددت «جنان» على السرير، محدقة في السقف بعمق كما لو كانت تتأمل النجوم، على الرغم من ذلك، لم أستطع منع نفسي من قول: «جنان، ألم نكن سعداء في رحلاتنا على متن الحافلات؟ لنعود ثانية لنركب الحافلات».

بالطبع، لم يكن هذا منطقياً.

سألتني: «ماذا كنت تقرأ؟ ما الذي اكتشفته اليوم؟».

قلت: «أشياء كثيرة في الحياة»، مستخدماً لغة الأفلام المدبلجة ونبرة صوت مسلسلات الدراما». «أشياء مفيدة للغاية في الواقع. هنك الكثيرون ممن قرأوا الكتاب، كلهم أسرعوا إلى مكان أو آخر...... كل شيء مربك والضوء الذي يبثه الكتاب في الناس يغشي الأبصار كالموت، إن الحياة مدهشة للغاية».

راودني شعور أنني أستطيع الاستمرار على هذا المنوال؛ إذا كنت لا أستطيع خلق المعجزات من خلال الحب، أستطيع إذاً على الأقل أن أفعل ذلك عن طريق قول نوع الكلمات الذي يبهج الأطفال، اغفري لي سذاجتي، أيتها الملاك، والخداع الذي لجأت إليه من حاجتي، ولذلك كانت هذه المرة الأولى في سبعين يوماً التي شعرت فيها بهذا القرب من جنان، وأنا راقد بجانبها على الفراش؛ كما يعرف أي شخص قد قرأ قليلاً، فتقليد الدهشة الطفولية هو الخداع الفوري الذي يجربه أشخاص أمثالي انغلقت في وجوههم أبواب الحب الحقيقي، في ليلة أمطرت السماء سيولاً أثناء ما كنا مسافرين من «أفيون» إلى «كيوتاهاي» على متن حافلة يتسرب الماء متدفقاً من سقفها ونوافذها، كان الفيلم الذي رأيناه هو «الجنة الزائفة»؛ لكن «سيكو» أخبرني مؤخراً ـ أليس كذلك ـ أن «جنان» قد شاهدت نفس الفيلم من قبل في ظروف أسعد وأكثر هدوءاً منذ عام، يدها في يد حبيبها.

سألتني الآن «إذاً من هو الملاك؟».

قلت: «اتضح أنه مرتبط بالكتاب، لسنا نحن الوحيدين اللذين يعرفان به، هناك آخرون يلاحقون الملاك».

ـ «إذاً لمن يظهر الملاك؟».

ـ «لهؤلاء، الذين لديهم إيمان بالكتاب، الذين قرأوه بعناية».

ـ «ثم ماذا بعد؟».

ـ «ثم تظلين تقرئين حتى تنتقلي، في صباح ما تستيقظين ويراك الناس ويقولون، يا إلهي، هذه الفتاة قد تحوّلت إلى ملاك في الضوء المنبعث من الكتاب، هذا يعني أنه من المؤكد أن الملاك كان فتاة كل هذا الوقت، يجعلك هذا تتعجبين فكيف لملاك أن يستطيع اجتذاب شخص ما إلى مصيدة. هل يمكن للملائكة أن ترتكب أشياء سيئة؟».

ـ «لا أعرف».

ـ «وأنا أيضاً لا أعرف.. أنا أيضاً أُعمل عقلي في التفكير، والبحث».

هذا ما قلته، أيتها الملاك، ربما لأني كنت أكره أن أخطو خارجاً إلى مناطق من الخطر والاحتمالية، معتقداً أن القطعة الوحيدة الأكيدة من السماء كانت الفراش حيث أرقد بجانب جنان، دع اللحظة الفريدة تخيم علينا، كانت هناك رائحة خشب واهية في الحجرة، وهناك أيضاً عطر جذاب ذكّرني بنوع من الصابون واللبان كنا نشتريه عندما كنا أطفالاً لكننا لم نعد نفعل لأن كمية العبوة أصبحت غير كافية.

شعرت أنني ـ لم يكن لدي القدرة على البحث بعمق في الكتاب ولا الارتقاء إلى مستوى «جنان» من الجدية ـ قد أستطيع في الساعات الأولى من الليل المجيء بالكلمات التي قد توصلنا إلى عدة نقاط؛ لذلك أخبرت «جنان» أن أكثر الأشياء رعباً هو

الوقت نفسه؛ دون معرفته، نحن بدأنا هذه الرحلة للهروب من الوقت، هذا هو السبب لماذا كنا في حركة مستمرة، باحثين عن اللحظة التي يتوقف فيها الوقت، والتي كانت اللحظة الفريدة من الرضا، عندما اقتربنا منها، استطعنا أن نشعر بوقت الرحيل، بعد أن شهدت أعيننا ـ سوية مع الموتى والمحتضرين ـ معجزة هذه المنطقة الرائعة، توجد بذور الحكمة التي في الكتاب أيضاً في الشكل الأكثر طفولة في القصص المصورة التي تصفحناها طوال هذا الصباح، وكان هذا الوقت المناسب لاستخدام عقولنا لنصل لفهم الأمور، لم يكن هناك شيء، في هذا البعيد كانت بداية ونهاية رحلتنا أينما صادف أن نكون، لقد كان محقاً: الطريق وكل الغرف المظلمة مليئة بالقتلة حاملي السلاح ويتسرب الموت للحياة من خلال الكتب.

أمسكت بها، قائلاً: حبيبتي، لنبق هنا، في هذه الحجرة الجميلة، فلنحتفظ بها ونبقي عليها. انظري، منضدة، ساعة، مصباح، نافذة، عندما نستيقظ في الصباح، ستكون شجرة التوت هناك لنعجب بها، وماذا في أن يكون هناك ونحن هنا؟ ها هو إفريز النافذة، ساق المنضدة، الفتيل الذي في المصباح، الضوء والرائحة، إن العالم بسيط للغاية! انس الكتاب. هو أيضاً يريدنا أن ننسى الكتاب يريد أن أكون هو وأن أحتضنك. لكن جنان لم تستوعب أياً مما أقول.

«أين محمد؟».

كانت تنظر إلى السقف في اهتمام بالغ، كما لو كانت الإجابة على سؤالها محفورة هناك، عقدت حاجبيها، بدت جبهتها أعلى، ارتعشت شفتاها للحظة خاطفة كما لو كانت على وشك البوح

بسر، اتخذت بشرتها وهجاً وردياً تحت الضوء الأصفر في الحجرة لم أره من قبل قط. بالتأكيد هذا نتيجة وجبات محترمة ومكان للنمو وسط بيئة محيطة آمنة بعد كل ليالي السفر على متن حافلة ما، أخيراً استعادت جنان بعض اللون في وجهها، ذكرت لها ذلك على أمل أن ـ مثل بعض الفتيات اللاتي يتزوجن فجأة مشتاقات بسعادة لحياة زوجية مستقرة ـ أن تتزوجني.

قالت: «إنني سأمرض، هذا هو السبب، كنت أرتجف في المطر.. سأمرض بالحمى».

كم كانت جميلة! كانت تتمدد وتحدق في السقف، وكنت أنا أرقد بجانبها، معجباً باللون الذي في وجهها، ومحتفظاً بيدي التي تضغط على جبهتها النبيلة بعملية كالطبيب، ظلت يدي هناك كما لو كنت أتأكد أنها لن تهرب مني، كنت أقلب في ذكريات طفولتي، كيف حولت تماماً أشياء عادية في مجال متعة اللمس، مثل الأفرشة، الغرف، الروائح، كانت هناك أفكار وحسابات أخرى تدور في رأسي.. عندما أدارت وجهها قليلاً، استجوبتني عيناها، فسحبت يدي بعيداً عن جبهتها وأخبرتها الحقيقة.

ـ «أنت مصابة بالحمى بالفعل».

فجأة ظهر أمامي كثير من الاحتمالات التي لم تكن جزءاً من خططي، ذهبتُ إلى المطبخ في الواحدة صباحاً وأثناء تعاملي مع الأواني الثقيلة والخيالات في الضوء الواهي، وجدت آنية صنعت الشاي فيها مع أزهار شجرة الليمون المخففة وجدتها في برطمان، متخيلاً كيف سأخبر جنان بأن أفضل طريقة لطرد البرد هي الانزلاق تحت غطاء ثقيل مع شخص ما وبعد ذلك، بينما كنت أبحث بين زجاجات الدواء في الخزانة حيث أرشدتني

جنان، باحثاً عن «إسبرين»، كنت أفكر أنه إذا أصبحت أنا أيضاً مريضاً، فلن نكون مضطرين لمغادرة الحجرة لمدة أيام، تحركت الستارة وسمعت خطوات أقدام على الأرض، ظهر ظل زوجة دكتور «فاين» أولاً ثم ظهرت بنفسها وهي قلقة. قلت: «لا سيدتي، لا شيء، خطير؛ إنها مصابة بسعال لا أكثر».

أخذتني لأعلى. وجعلتني أحضر بطانية ثقيلة من مكان للتخزين، ووضعتها في غطاء، وقالت: «الجميلة المسكينة، إنها ملاك! لا تسبّب لها أي كدر، أتسمع؟ اعتنِ بنفسك». ثم ذكرت شيئاً آخر سوف يبقى دائماً في ذهني: كم أن زوجتي لديها عنق جميل!

رجعت إلى الحجرة ونظرت لعنقها لمدة طويلة.. هل سبق أن لاحظت ذلك؟ نعم، لقد لاحظته وأحببته، لكن الآن بدا طول عنقها جميلاً جداً، لم أستطع التفكير بشيء آخر لبعض الوقت، راقبتها وهي تشرب الشاي بأوراق الليمون ببطء ثم تأخذ الإسبرين، وتلفّ نفسها بالبطانية مثل طفل طيب القلب يتوقع أن «يتعافى».

كانت هناك فترات طويلة من الصمت، غطيت عينيّ بيدي، ونظرت خارج النافذة، اهتزت شجرة التوت بخفة شديدة. يا عزيزتي، شجرة التوت الخاصة بنا تصدر حفيفاً لأقل نسيم.. صمت، كانت «جنان» ترتعش، وكم كان الوقت يمضي سريعاً.

وهكذا لم يمض وقت طويل على حجرتنا حتى اكتسبت هذا الطابع المميز الذي يعرف بـ «الحجرة المريضة». كنت أذرع الدرج صعوداً ونزولاً. وأنا متوتر من أن المائدة، الزجاج، المنضدة بجانب الفراش أصبحت تتحول تدريجياً إلى أشياء مألوفة

للغاية، حميمية للغاية، دقت الساعة الثالثة، سألتني هل ستجلس هنا بجانبي على حافة الفراش؟ أمسكت بقدمها من خلال البطانية. فابتسمت، مخبرة إياي أنني لطيف جداً وأغلقت عينيها، مدعية أنها نائمة، لا، إنها بالفعل غرقت في النعاس، ونامت. . هل كانت نائمة؟ كانت نائمة.

وجدت نفسي أمشي ذهاباً وإياباً. ناظراً للوقت، أسكب الماء من البراد، أنظر إلى جنان، أعاني وأتخبط، آخذ الإسبرين لأتسلى بلا داع، أضع يدي على جبهتها لأقيس الحرارة مراراً وتكراراً حالما تفتح عينيها.

توقف الوقت الذي تدفق تحت ضغط الساعات عند نقطة محددة، والجلد الرقيق نصف الشفاف الذي كنت ملتفاً فيه قد انقطع وانفتح، وجلست جنان على الفراش، وجدنا أنفسنا فجأة نناقش بحرارة متعهدي الحافلات الذين كانوا في الواقع مساعدين للسائقين؛ قال واحد منهم ذات مرة إنه في يوم ما سيتملك مقعد السائق ويقود الحافلة إلى أرض لم تكتشف بعد ثم هناك الشخص الذي قال، اخدموا أنفسكم وتفضلوا اللبان ـ مبلّغاً ركّابنا المحترمين بتحيات شركة الحافلات؛ ثم لم يستطع أن يمسك لسانه، فأضاف، لكن لا تمضغوه كثيراً ـ إخواني ـ لأن اللبان مخلوط بمخدر لكي ينام الركاب مثل الأطفال، معتقدين أن نومهم الهادىء بفضل ممصات الصدمات الجيدة، مهارة السائق الذي لا يسير على اليمين قط، وجودة مركباتنا وشركة الحافلات ثم ماذا عن المتعهد الذي صادفناه على خطين مختلفين من الحافلات، جنان، هل تذكرين ماذا قال؟ ـ من الجيد أن تضحك يا أخي، وقال، المرة الأولى التي وقعت عيناي عليكما عرفت

ببساطة أنكما هربتما معاً لتتزوجا، الآن أرى من الخاتم أنكما تزوجتما، تهاني لكي أختي.

هل تتزوجيني؟ لقد رأينا مشاهد كثيرة تتحقق من روعة هذه الكلمات: عندما يكون العاشقان يسيران تحت الأشجار، أذرعهما حول بعضهما البعض، أو عندما يكونان تحت عمود إضاءة، أو في سيارة - في المقعد الخلفي، بديهياً، أو على الجسر الذي يعبر بحر البوسفور، أو في المطر الذي ينتج تحت تأثير الأفلام الأجنبية، أو عندما يُترك الفتى والفتاة فجأة وحدهما بواسطة العم الساحر أو الأصدقاء ذوي النيات الطيبة، أو عندما يسأل الرجل الغني الفتاة الجذّابة، أن تتزوجه بينما يقفز في حمام السباحة: هل تتزوجيني؟ طالما أنني لم أر قط مشهداً في حجرة المرضى حيث الفتاة ذات العنق الجميل تُسأل السؤال، لم أعتقد أن كلماتي تستطيع أن توقظ في «جنان» مشاعر ساحرة مثل الكلمات التي في الأفلام. إلى جانب ذلك، كان ذهني يفكر في البعوضة الجريئة التي تطنّ في الغرفة.

نظرت إلى الوقت وأصبحت قلقاً، فحصت حرارتها وأصبحت متوتراً، قلت، دعيني أرى لسانك؛ مدت لسانها للخارج؛ كان وردي اللون ومدبباً، ملت فوقها وأخذت لسانها في فمي، ظللنا هكذا لفترة، أيتها الملاك قالت: «لا تفعل، يا عزيزي، أنت لطيف جداً، ولكن دعنا لا نفعل». ثم غرقت في النوم، رقدت على الفراش بجانبها، معلقاً على حافة الفراش، وبدأت أعدّ أنفاسها، فيما بعد، عندما كان النهار على وشك الطلوع، كنت أفكر في أشياء كثيرة ثم أفكر ثانية: سأقول لها، جنان، أنا سأفعل أي شيء من أجلك، جنان، ألا تفهمين كم

أحبك. . . . . . أشياء من هذا القبيل التي دائماً ما يكون لها نفس الفحوى، لفترة فكرت في أن أختلق أي كذبة وأجرها عائداً إلى الحافلات، لكنني بالفعل عرفت تقريباً أين يجب أن أذهب؛ بالإضافة إلي، بعد أن أصبحت على معرفة بجواسيس دكتور «فاين» الذين لا يرحمون وقضيت ليلة في هذه الحجرة مع جنان، كنت على وعي بأنني بدأت أخاف من الموت.

أنت تعرفين كل شيء جيداً، أيتها الملاك، الفتى المسكين كان راقداً بجانب محبوبته، منصتاً إلى تنفسها حتى انبلاج النهار، ناظراً إلى ذقن جنان المستقيم والمميز، ذراعاها الظاهرتان من الرداء الليلي الذي أعارتها إياه «روزباد»، شعرها يشع على الوسادة، وشجرة التوت تصبح تدريجياً لامعة في ضوء الصباح.

ثم تمّ كل شيء بسرعة كبيرة. كان هناك صوت ارتطام في المنزل، صوت وقع خطوات تمر بحذر على بابنا، صوت غلق نافذة بقوة في الرياح التي بدأت تهب مرة أخرى، صوت بقرة تموء، زمجرة سيارة، سعال، ودق على باب حجرتنا، شخص حليق الذقن في منتصف العمر ومعه حقيبة طبية كبيرة، يبدو كطبيب أكثر من أي شيء آخر، دخل الحجرة وتبعته رائحة خبز محمص. كانت شفتاه حمراوين كالدم كما لو كان قد قام بمص دماء مؤخراً، وكانت هناك قرحة قبيحة على جانب فمه. كان هناك خيال مسيطر عليّ بأنه سيجرد جنان من ملابسها ـ التي كانت تحترق من الحمى ـ ويستخدم هاتين الشفتين ليقبل عنقها وظهرها، كان يخرج سماعته من حقيبته الكريهة عندما أمسكت المسدس «والثر» حيث أخفيته وتركت المنزل دون أن ألقي انتباهاً للأم القلقة وهي تقف على الباب.

قبل أن يستطيع أحد أن يراني أسرعت خارجاً إلى الأرض

التي عرّفني عليها دكتور «فاين»، في منطقة مهجورة محاطة بأشجار الحور حيث كنت متأكداً أن أحداً لن يلاحظني ولن تحمل الرياح أي أصوات. أخرجت سلاحي وأطلقت الرصاصات في تتابع سريع، كان هذا كيف استخدمت بعض الرصاصات التي كانت هدية دكتور «فاين»، مؤدياً تمريناً قصيراً على الهدف والذي لم يكن فقط محدداً ببخله، كان أيضاً أخرق للغاية حتى أنه كان مثيراً للشفقة لم أنجح في إصابة جذع شجرة الحور الذي صوبت ناحيته، ولا حتى إصابة واحدة من ثلاث تصويبات على بعد أربع خطوات، تذكرت كوني متردداً بطريقة ما، أحاول بيأس استجماع أفكاري معاً بينما أراقب السحب السريعة الآتية من الشمال، أحزان مسدس «والثر» صغير.......

في الأعلى كان هناك مجموعة من الصخور العالية بشكل كاف لتمدني بنظرة عامة على عزبة دكتور فاين، صعدت لأعلى، وجلست، وبدلاً من أن أغيب في أفكار نبيلة متأملاً عظمة وثراء المشهد، تساءلت في أي مكان بائس ستنتهي حياتي، مرّ وقت طويل ولكن لا أحد من الملائكة، الكتب، الآلهة، أو الفلاحين الحكماء الذين يأتون في أوقات المعاناة الشديدة لمساعدة الأنبياء، نجوم السينما، القديسين، والقادة السياسيين ظهروا ولو لوقت قصير لمساندتي.

لم يكن هناك مساعدة للوضع إلّا أن أعود إلى المنزل، كان الطبيب ذو الشفاه الحمراء كالدم قد شرب بالفعل دم جنان باستمتاع وكان الآن يجلس مع الأم ويشرب الشاي الذي قامت بإعداده البنات الثلاث. عندما رآني، التمعت عيناه على أمل إعطائي نصيحة.

بدأ قائلاً: «يا أيها الشاب!» زوجتك التقطت برداً، وهي

تعاني من الأنفلونزا؛ والأهم من ذلك، أنها على حافة ضعف خطير نتيجة الإجهاد، والإهمال، وقلة النوم. ماذا كنت أنوي (ما الذي أريد الوصول إليه)، أن أجعلها متعبة للموت؟ كيف عاملتها بهذه القسوة؟ نظرت الأم والبنات إلى الزوج الصغير حديث الزواج بسخط ورفض.

قال الطبيب: «لقد أعطيتها دواء له مفعول قوي، سيجبرها ألا تغادر الفراش لمدة أسبوع كامل».

أسبوع كامل! كنت أفكر مع نفسي أن سبعة أيام أكثر من كافية بالنسبة لي، عندما كان الطبيب المدعي ـ الذي بعد أن تناول الشاي وحشر في فمه قطعتين من فطيرة اللوز ـ أخيراً قد استعد للمغادرة، كانت جنان نائمة في الفراش، لذلك أخذت بعض المتعلقات التي اعتقدت أنني ربما أحتاجها، الملاحظات التي أخذتها من الملفات، والنقود، قبلت جنان على عنقها وتركت الحجرة باستعجال كمتطوع في طريقه لإنقاذ بلده، أخبرت «روزباد» وأمها أن لدي بعض الأعمال العاجلة التي لا يمكن أن تنتظر ومسؤولية لا يمكنني التملص منها، وأنا أئتمنكم على زوجتي. قالوا إنهم سيعتنون بها كما لو كانت عروس ابنهم، أشرت بإصرار خاص أنني سوف أعود أدراجي بعد خمسة أيام، وبدون أن أنظر خلفي ـ ولو حتى لمرة واحدة ـ لأرى أرض الساحرات، والأشباح، واللصوص التي تركتها خلفي، بدون حتى نظرة خاطفة على قبر الفتى الشاب الذي من «كياسيري» الذي دُفن بدلاً من ابن دكتور فاين، قصدت المدينة وموقف الحافلات.

الفصل الثاني عشر

على الطريق مرة أخرى! مرحباً هناك، يا مواقف الحافلات القديمة، أيتها الحافلات المتهالكة، يا أيها المسافرون الحزانى، أهلاً! أنت تعرف كيف تسير الأمور، عندما تكون محروماً عادة من مراسم عادية كنت قد أصبحت مدمناً عليها دون حتى أن تكون واعياً بأن لديك عادة، فأنت مأخوذ بالحزن على شعور بأن الحياة ليست على ما كانت عليه، افترضت أنني سأكون حراً من هذا الحزن عندما أركب على متن حافلة قديمة من حافلات شركة «ماجيرس» التي ركبتها من مدينة «ساتيك» التي كانت تحت حكم دكتور فاين سراً، ومتجهة إلى بقية العمران. بعد كل شيء، ها أنا على متن حافلة في النهاية، على الرغم من أنها كانت تسعل، تعطس، ولا تستطيع التنفس كأنها رجل عجوز يتأوه من الألم وهو يصعد الطريق الجبلية، ولكن في قلب أرض الحكايات حيث تركت جنان تحترق من الحمى في الحجرة حيث ترقد، وفي نفس الحجرة البعوضة التي لم أنجح في طردها، تختبىء، منتظرة حلول الظلام، راجعت أوراقي وخططي مرة أخرى، لكي أتمكن من الانتهاء من عملي في أسرع وقت ممكن وأعود منتصراً لأبدأ حياتي الجديدة.

قرب منتصف الليل عندما فتحت عيني وأنا بين النوم واليقظة وأزحت رأسي من على النافذة المهتزة لحافلة أخرى،

راودتني أفكار سعيدة أنه ربما أتقابل هناك لأول مرة معك، يا ملاكي. ولكن كم كان ذلك الإلهام الذي يوحد نقاء الروح مع سحر اللحظة الفريدة بعيداً عني. عرفت أنه لن يكن قريباً أن أراك خارج إحدى نوافذ الحافلات. تبع ذلك أشجار معتمة، وديان كئيبة، أنهار بلون الزئبق الفضي، محطات بنزين مهجورة، ولوحات إعلانات ذات أحرف ناقصة تعلن عن سجائر أو عطور، ولكن كل ما كان في ذهني كانت مخططات شريرة، أفكار دنيئة، موت، والكتاب؛ لم أر اللون الأحمر للضوء على شاشة الفيديو الذي ربما يكون قد غزا خيالي، ولا سمعت الغضيض المثير للشفقة لجزار قلق عائد إلى بيته بعد المذبحة اليومية في المجزر.

في مدينة «الأكالي» الجبلية ـ حيث أنزلتني الحافلة قرب طلوع الشمس ـ كان الجو قد تخطى الخريف، وترك نهاية الصيف، وأصبح بالفعل شتاءً. في المقهى الصغير حيث ذهبت أنتظر المكاتب الحكومية أن تفتح، سألني الصبي الذي يغسل الأكواب، يصنع الشاي، والذي لا يبدو أن لديه جبيناً على الإطلاق لأن خط شعر رأسه يبدأ عند حاجبيه تقريباً، إذا كنت واحداً من الذين يأتون لسماع الشيخ. قلت له نعم، فقط لمجرد قضاء الوقت. خصّني بشاي قوي وأعطى لنفسه شرف مشاركتي الحديث بأنه، بجانب المعجزات التي يصنعها الشيخ ـ مثل شفاء المرضى وإعطاء الخصوبة للنساء العقيمات ـ فموهبته الحقيقية هي ثني شوكة طعام بالنظر بعينيه إليها فقط، أو فتح زجاجة «بيبسي كولا» بلمس غطائها بكل بساطة.

عندما غادرت المقهى، كان الشتاء قد رحل، وتخطى الجو الخريف مرة أخرى، وبدأ يوم صيفي حار بالفعل مليء بالحشرات

الطائرة، ذهبت مباشرة إلى مكتب البريد، مثل شخص ناضج ومخلص يحل المشاكل بالتعامل معها مباشرة ـ وشاعراً بإثارة غامضة ـ نظرت بحرص إلى الموظفين الرجل والمرأة الناعسين وهما يقرآن الصحيفة على مكاتبهما أو يدخنان ويشربان الشاي، وملت على المكتب الأمامي. قامت الفتاة الموظفة التي تبدو مثل الأخت والتي اعتقدت أنها مرشحة محتملة ليتضح أنها ساحرة حقيقية، جاعلة إياي أعرق بغزارة قبل أن تخبرني أن «محمد بولدم» قد غادر لتوه ليسلم البريد ـ ما العلاقة التي تقول إنها تربطكما؟ لماذا لا تنتظر هنا؟ لكن، سيدي، هناك ساعات عمل، هل من الممكن أن تأتي فيما بعد؟ كنت مجبراً على قول إنني زميله من الجيش جاء كل هذا الطريق من اسطنبول وأن لدي تأثيراً كبيراً في الإدارة العامة لخدمات البريد. في هذا الوقت، كان «محمد بولدم» الذي غادر ـ لتوه، منذ وقت قليل، الآن ـ قد وجد وقتاً كافياً ليختفي في الأحياء والشوارع حيث ركضت هنا وهناك بلا أمل، واختلطت عليّ أسماء الشوارع.

بالرغم من ذلك، أثناء استجوابي لكل لواحد ولأي واحد ـ يا من هناك، هل كان محمد ساعي البريد هنا بعد؟ ـ ظللت أفقد الطريق في الشوارع الضيقة للحي الرئيس، كان هناك قط مرقط يلعق نفسه بكسل في الشمس، امرأة متزوجة صغيرة وجميلة نوعاً ما ـ خرجت إلى الشرفة لتضع الملاءات، الأغطية، والوسادات ـ تتبادل النظرات مع بعض العمال الحكوميين الذين تسلقوا سلماً وقاموا بإمالته إلى مركز قوي. رأيت طفلاً ذا عينين سوداوين؛ عرف على الفور أنني غريب. قال بنبرة متعجرفة: «ما الأمر؟» لو كانت جنان معي لكانت أقامت على الفور صداقة مع هذا المتحزلق وبدأت معه مزاحاً ماهراً، وتركتني أنا لأفكر في أن

السبب الذي جعلني أقع في حبها كلية ليس فقط أنها جميلة جداً، لا تقاوم، غامضة جداً، لكن لأنها كانت لتتحدث مع هذا الطفل بمنتهى السرعة.

جلست على مائدة على الرصيف تخص مقهى «الإميرالد» عبر الشارع أمام مكتب البريد، والتي كانت موضوعة تحت شجرة كستناء، في مواجهة تمثال أتاتورك. بعد فترة قصيرة وجدت نفسي أقرأ «بريد الأكالي»: أحضرت الصيدلية المحلية من اسطنبول عقاراً جديداً ضد الإمساك، يُباع تحت العلامة التجارية «ستلوب»؛ وصل إلى المدينة المدرب الذي التقطوه من فريق «بولوسبورت» لكرة القدم ليدرب فريق «الأكالي» للشباب، الذين يعتبرون أنفسهم المنافسين الخطيرين للموسم القادم، إذاً فهناك أعمال بناء في المدينة، كنت أفكر في نفسي، عندما رأيت «محمد بولدم» يدخل مبنى المحافظة وهو ينهج ويزفر، وحقيبة البريد تتدلى على كتفه، أصابني الإحباط بشدة، هذا الكلب الثقيل اللاهث المدعو «محمد» لم يكن في شيء من محمد الذي لم تستطع جنان أن تخرجه من ذهنها.

كان عملي هنا قد انتهى، وباعتبار أن هناك الكثير من الشباب المدعوين «محمد» ينتظرونني على القائمة، حري بي أن أدع هذا المكان الآمن وشأنه وأخرج بسرعة من المدينة، لكن الشيطان جعلني أنتظر «محمد بولدم» أن يخرج من مبنى المحافظة.

كان يسير عبر الشارع إلى الرصيف الظليل بخطوات سريعة قصيرة لرجل بريد عندما استوقفته، متعرفاً عليه باسمه، وبينما ينظر إليَّ في تعجب، احتضنته وقبلته، عاتباً عليه أنه ما زال لم يتعرفني أنا أعز صديق له من الجيش، جلس معي على المائدة

بدافع الشعور بالذنب، وانخدع بألاعيبي القاسية «على الأقل تذكر اسمي»، بدأ يختلق تخمينات بلا فائدة، أوقفته بحدة بعد فترة، وعرضت عليه اسم مستعار اخترته في نفس اللحظة، وجعلته يعلم أنني أعرف الأشخاص ذوي الشأن في إدارة خدمات البريد. كان من نوع الأصدقاء المخلصين، كما بدا الأمر أنه لم يكن حتى مهتماً باحتمالية الترقية في خدمات البريد، كان متعباً جداً ويعمل بجهد حاملاً حقيبة البريد الثقيلة في حرارة الجو المرتفعة، ونظر بامتنان إلى زجاجة المياه الغازية المثلجة التي أحضرها النادل وفتحها بسهولة، لكنه كان راغباً في الهروب بأسرع ما يمكن من زميل الجيش هذا المشكوك في أمره ومن الخجل الذي حطّ عليه من أنه لا يتذكر هذا الرجل البتة. ربما كان هذا نتيجة لقلة النوم، لكنني شعرت بإحساس صاف من الانتقام مرّ بذهني بلطف. «سمعت أنك قرأت كتاباً!» قلت له، وأنا آخذ رشفة من الشاي بجدية كبيرة. «سمعت أنك كنت تقرأ هذا الكتاب، هل هذا صحيح؟ سمعت أنك لا تعير اهتماماً لمن يراك وأنت تقرؤه».

تحوّل وجهه وأصبح شاحباً ورمادي اللون. لقد فهم الموضوع جيداً جداً.

«من أين حصلت على الكتاب؟».

لكنه كان قادراً على أن يلملم نفسه بسرعة. . كان يقوم باصطحاب قريب له إلى المستشفى في اسطنبول، حيث رأى الكتاب في كشك على الرصيف، وانخدع بالعنوان الذي جعله يعتقد أنه كتاب عن العناية بالصحة، فقام بشرائه؛ لكن بعد ذلك لم يستطع أن يلقيه بعيداً، لذلك أعطاه لقريبه الذي في المستشفى.

توقفنا عن الكلام لفترة، هبط عصفور على واحد من الكرسيين الإضافيين على المائدة ثم قفز إلى الآخر.

تفحصت رجل البريد، الذي كان اسمه مكتوباً على جيبه في حروف صغيرة منتظمة، كان في مثل عمري، ربما أكبر قليلاً. لقد جاء في طريقه نفس الكتاب الذي أخرج حياتي عن مسارها وقلب عالمي رأساً على عقب، فلقد شعر بتأثير، وأخذ الصدمة ـ التي لم أكن أعرف الطبيعة الخاصة بها، أو لم أستطع تحديد إذا ما كنت مهتماً بالمعرفة أم لا. كان بيننا شيء مشترك حوّلنا إما إلى ضحايا تابعين أو فائزين. وهذه الحقيقة أزعجتني.

بعد أن لاحظت أنه لم يقلّل من قدر الموضوع بإلقائه جانباً باختصار كما فعل بغطاء المياه الغازية، شعرت أن للكتاب مكانة خاصة في قلبه. من أي نوع من الرجال كان هو؟ كانت يداه جميلتين بشكل غير عادي، ذات أصابع طويلة رشيقة، يمكن أن تقول إن بشرته رقيقة تقريباً؛ كان له وجه حساس، وعينان لوزيتان تشيران إلى أنه أصبح بطريقة ما غاضباً وقلقاً تدريجياً. هل يمكن أن يقال إن الكتاب قد أوقعه في الفخ مثلي؟ هل تغيّر عالمه كلياً هو الآخر؟ هل غرق في الأسى والحزن في بعض الليالي أيضاً عندما كان يجعله الكتاب يشعر بأنه وحيد وبائس في هذا العالم؟

قلت: «على كل حال، أنا مسرور جداً، يا صديقي، لكن حان الوقت لميعاد حافلتي».

اغفري لي فظاظتي، أيتها الملاك، لأني شعرت فجأة أنني قادر على فعل شيء ما لم يكن جزءاً من خطتي. ربما كان يجب أن أريه مأساة قلبي الخاصة كما لو كنت أكشف عن جرح، فقط لأجعل هذا الرجل يبوح بمكنونات قلبه، لم يكن لأنني أكثر

طقوس الإخلاص التي تنتهي بأن نشرب ونسكر معاً، حزن، دموع، وشعور بالأخوة غير المقنع على الإطلاق ـ في الواقع، أحب أن أفعل ذلك مع رفقاء من الحي في حانة مظلمة ـ كان ذلك لأنني لم أرغب في التفكير بأي شيء إلّا جنان، كنت أريد أن أكون وحدي بأسرع ما يمكن لأغرق نفسي في أحلام بالحياة الزوجية السعيدة التي يمكن أن أحصل عليها أنا وجنان في يوم ما، قمت على قدمي من على المائدة فقط عندما قال صديقي من الجيش، «لا يوجد حافلة في جدول المواعيد تغادر في هذا الوقت من أي مكان حول هذه المدينة».

خذ هذه! إنه لم يكن أحمق! كان يفرك غطاء زجاجة المياه الغازية بيديه الجميلتين، مسروراً بأنه كان محقاً تماماً في كلماته.

لم أستطع اتخاذ قرار إذا كان عليَّ أن أخرج مسدسي وأصنع ثقوباً خلال جلده الرقيق، أو أن أصبح صديقه المقرب، صديقه الذي يثق به، رفيقه القدريّ. ربما استقررت على أمر وسط، مثل إطلاق النار على كتفه، فقط لأندم على ذلك وأسرع به إلى المستشفى؛ وفيما بعد في الليل، وكتفه في الضمادة، نقوم بفتح وقراءة كل الخطابات واحداً واحداً في حقيبة البريد الخاصة به، ونحظى بوقت مسلٍ مجنون.

قلت أخيراً: «لا يهم». تركت النقود لأدفع الفاتورة على المائدة بروح مرحة ثم استدرت وغادرت، لا أعرف من أي فيلم سرقت هذه اللفتة، لكنها لم تكن سيئة إلى هذا الحد.

مشيت بسرعة مثل رجل تعنيه الأعمال، مثابر؛ كان على الأرجح يراقبني أمشي مبتعداً، درت حول تمثال أتاتورك وعلى الرصيف الضيق الظليل، وباتجاه موقف الحافلات كان الموقف

فقط معنى مجازياً. إذ كانت هناك حافلة سيئة الحظ بدرجة كافية تجعلها تضطر أن تقضي الليلة في مدينة «ألاكالي» البائسة - صديقي رجل البريد يدعوها «مدينة كبيرة» - لم أعتقد أن يكون هناك حتى كوخ ما ليحمي الحافلة من الثلج والأمطار، رجل فخور حُكم عليه أن يبيع تذاكر في خزانة في حجرة لبقية حياته كان مسروراً بإخباري أنه لا يوجد حافلات قبل الظهر. من الطبيعي، ألا أزعج نفسي بإخباره أن رأسه الصلعاء كانت بنفس اللون البرتقالي بالضبط مثل ساقي الجميلة التي وراءه على تقويم «إطار العام السعيد».

لماذا أنا غاضب هكذا، ظللت أسأل؛ لماذا أصبحت متعكر المزاج للغاية؟ أخبريني لماذا يا ملاكي، أياً كان من تكوني، أينما تكونين، أخبريني! اعتني بي، على الأقل، حذريني كي لا أخفق في تحقيق ما أريد بسبب الغضب؛ دعيني أضع الأمور في نصابها الصحيح بأقصى ما أستطيع، مثلما تعتنين بالمرضى وسيئي الحظ في العالم مثل رب أسرة ينوي حماية عشه؛ اجعليني ألتقي ثانية مع جنان التي تحترق من الحمى.

لكن لم يكن الغضب بداخلي يعرف أي حدود. هل هذا ما يحدث لكل شاب في الثالثة والعشرين من عمره والذي بدأ يحمل مسدس «والثر» معه؟

ألقيت نظرة على ملاحظاتي؛ كان من السهل العثور على الشارع والمحل المقصودين: «مستلزمات الخلاص». مفارش للمائدة يدوية الصنع. قفازات، أحذية للأطفال، قماش الدانتيل، ومسبحة للصلاة في نافذة العرض الصغيرة - تشير بصبر إلى شعر من زمن آخر - التي كانت لتسعد قلب دكتور فاين، كنت على

وشك الدخول عندما رأيت الرجل الواقف وراء المكتب الأمامي يقرأ «بريد ألاكالي»، وشعرت أنني غير متأكد من مواجهته؛ لذلك رجعت أدراجي. هل كان كل شخص في مدينة «ألاكالي» واثقاً من نفسه حقاً؟ أم أن هذا ما بدا لي فقط؟

جلست في مقهى ما شاعراً بأني هُزمت قليلاً، شربت زجاجة مياه غازية محلية ونظمت جيوش عقلي، ذهبت واشتريت نظارة سوداء رأيتها في واجهة الصيدلية عندما مررت أمامها على الرصيف الظليل، قام صاحب الصيدلية العملي بالفعل بقص الإعلان الخاص بالمليّن في الصحيفة ولصقه على النافذة.

بمجرد ما ارتديت النظارة السوداء، كان من السهل عليَّ المخاطرة بدخول محل «مستلزمات الخلاص»، بعد أن حوّلت نفسي لشخص من هؤلاء الرجال الواثقين. فيما أنا أتحدث بنبرة صوت منخفضة، طلبت أن أرى القفازات، هكذا كانت تفعل أمي، لم تكن تقول قط: «أنا أبحث عن قفازات جلدية مناسبة لي»، أو «أريد قفازات صوفية مقاساً متوسطاً لابني الغائب في الجيش». كانت تقول: «أريد أن أرى القفازات!» محدثة نشاطاً وحركة في المتجر الذي يكون وافياً لغرضها.

لكن من المؤكد أن طلبي كان كالموسيقى في أذن الرجل الذي من الواضح أنه المالك والموظف في نفس الوقت. بطريقة حذرة ذكرتني بربة منزل متأففة، وتنظيم يقترب من الهوس للتسلسل الوظيفي الذي يصدر من جندي مُصرّ على أن يكون مساعد ضابط، عرض علي خط إنتاجه بالكامل، الذي أخرجه من الأدراج، من حقائب يدوية الصنع، ومن نافذة العرض، بدا أنه في الستينيات من عمره، كان هناك شعر قصير نامٍ على وجهه،

وكان صوته واثقاً لدرجة تكفي ألا يخون ولاءه للقفازات، أراني قفازات نسائية صغيرة مصنوعة من الصوف المغزول يدوياً، كل أصبع من القفاز صُنع من ثلاثة ألوان مختلفة من الخيط؛ ثم قلب القفازات الصوفية الخشنة التي يفضلها رعاة الغنم من الداخل للخارج ليريني ملمس شعر الماعز «الماراس» الذي يدعم ويقوي راحة اليد؛ لم تستخدم أي صبغات صناعية في الخيوط، التي اختارها بنفسه وقامت سيدات فلاحات بشغل الخيوط لعمل قفازات طبقاً لتعليماته، وقام بتبطين أطراف الأصابع، باعتبار أنها المكان الذي تتلف منه القفازات الصوفية بسهولة. إذا كنت أريد تصميماً عليه زهور على الرسغ، فعليَّ أن آخذ الزوج الذي تمّ تزيينه بأنقى صبغة بالجوز وقماش الدانتيل على طول الحافة، أو هناك شيء آخر، إذا كان هناك شيء ما معين في ذهني، هل يمكن أن أخلع نظارتي السوداء وألقي نظرة على هذه التحفة المصنوعة من جلد الكلاب المنحدرة من سلالة «سيفاس كانجال».

ألقيت نظرة ووضعت النظارة مرة أخرى.

قلت: «أوفان بانيك»، ـ كان هذا الاسم المستعار الذي استعمله في الخطابات التي أرسلها لدكتور فاين يخبره فيها عن أشخاص. «لقد أرسلني دكتور فاين. فهو ليس مسروراً منك على الإطلاق».

قال بنبرة هادئة: «لماذا؟»، كما لو كنت ببساطة أعترض على لون قفاز ما. «محمد رجل البريد مواطن مسالم. لماذا تريد أن تؤذي شخصاً كهذا، وتتجسس عليه؟».

قال: «ليس مسالماً جداً»، وبنفس الصوت الذي استخدمه وهو يعرض القفازات، أوضح: ظلّ الرجل يقرأ الكتاب، وكان

يفعل ذلك بطريقة تلفت الانتباه. كان من الواضح أن ما لديه في عقله أفكار سوداء وقبيحة لها علاقة بالكتاب وبالشر الذي قصد الكتاب أن ينشره. في مرة تمّ القبض عليه في بيت أرملة حيث دخل بدون حتى أن يقرع الباب تحت حجة توصيل خطاب، في مرة أخرى تمت رؤيته وهو جالس ساقاً إلى ساق وخداً إلى خد، مع تلميذ مدرسة في مقهى، على الأرجح يقرأ للطفل كتاباً مصوراً، واحدة من هذه القصص المصورة، بالطبع النوع الذي يقيم قطاع الطرق، المنبوذين سيئي الخلق، واللصوص بنفس المقياس مثل القديسين والأنبياء. «أليس هذا كافياً؟» سألني.

شعرت بطريقة ما أنني لست متأكداً، فظللت صامتاً.

«إذا كان اليوم في المدينة» ـ نعم، لقد قال «مدينة» ـ «فكرة العيش حياة زاهدة تُعتبر شيئاً مخجلاً، ويتم احتقار السيدات اللاتي يضعن الحنة على أصابعهن، فكل هذا بسبب الأشياء التي جلبها الأمريكان للداخل بواسطة رجل البريد هذا، الحافلات، وأجهزة التليفزيون في المقاهي. أية حافلة أحضرتك إلى هنا؟

أخبرته.

قال: «إن دكتور فاين بلا شك إنسان عظيم. أعطاني اتباعي لتعليماته سلام العقل، أحمد الله. لكن أيها الشاب، اذهب وأخبره ألا يرسل لي صبياً مجهولاً ليهاجمني مرة ثانية». كان يعيد القفازات إلى مكانها. «أخبره أيضاً بهذا: لقد شاهدت ساعي البريد في مسجد «مصطفى باشا»، يقوم بإثارة نفسه في مرحاض عام».

«بهاتين اليدين الجميلتين أيضاً». قلت ذلك وغادرت.

اعتقدت أنني سأكون في حالة أفضل بمجرد أن أخرج،

لكن بمجرد أن وضعت قدمي على الشارع المغطى بالحجارة الذي يمتد تحت أشعة الشمس مثل طبق ساخن، تذكرت برعب أن ما زال أمامي ساعتان ونصف لأضيعهما في هذه المدينة.

انتظرت، شاعراً بنوع من الإغماء، متعباً، ومحروماً من النوم على الأخص، معدتي مليئة بأكواب الشاي المعتاد، شاي بالأعشاب، والمياه الغازية التي تناولتها، ذاكرتي مليئة بعناوين لأخبار قصيرة من بريد «ألاكالي»، مجال رؤيتي مليء بسطح مبنى البلدية المغطى بالفخار الأحمر وألوان الأحمر والبنفسجي في اللافتة البلاستيكية اللامعة لبنك المزارعين التي تظهر وتختفي أمام عينيّ مثل السراب، أذناي مليئتان بالطيور التي تزقزق، أزيز مولدات الكهرباء، والسعال أخيراً عندما جاءت الحافلة وتوقفت بهيبة، قبضت على الباب بحماس، لكن تمّ دفعي بعيداً ومزاحمتي. سحبني الناس الذين ورائي للخلف ـ دون أن يشعروا بمسدس الـ «والثر»، حمداً لله ـ ليقصوني عن طريق الشيخ المقدس. مرّ من جانبي يتمايل بعظمة، وعلى وجهه الوردي اللون تعبير حكيم، وهو يحمّل نفسه بالكرامة كما لو كان محملاً بالحزن على من هم منا الذين يعيشون في المعاصي والشر، لكنه بدا راضياً للغاية عن نفسه لكل هذا الاهتمام الذي يتلقاه. ما نفع أن أصل لمسدسي؟ قلت لنفسي، شاعراً بالمسدس في حزامي يضغط على معدتي. صعدت على متن الحافلة لا أعير أحداً اهتماماً.

راودني شعور بأن الحافلة لن تغادر قط وسينساني العالم كله وجنان وأنا جالس وأنتظر في المقعد رقم 38، في هذه الأثناء لم أستطع عدم مشاهدة الزحام الذي يرحب بالشيخ، ورأيت النادل من المقهى عندما جاء دوره ليقبّل يد الشيخ، كان قد انتهى

لتوه من تقبيل يد الشيخ وكان يرفعها بعناية قصوى لأعلى إلى جبهته عندما بدأت الحافلة تتحرك، فيما بعد رأيت رأس بائع المتجر الحزين وسط الرؤوس في الحشد المتموج من البشر، كان يجتاز الطريق وسط الزحام مثل مغتال قرر أن يقتل قائداً سياسياً، لكن بمجرد ما ابتعدت الحافلة، أدركت أنه لم يكن في الحقيقة يحاول الوصول إلى الشيخ، ولكن إليّ.

كانت المدينة قد أصبحت وراءنا عندما قلت لنفسي، انْسَها، ظلت الشمس تتعقبني في مقعدي مثل تحرٍّ مبدع بعد كل منعطف على الطريق أو لحظة من الظل آتية من شجرة، وكانت تحرق رقبتي وذراعي باستمرار وبشدة مثل رغيف الخبز، لكني أخذت أردّد، انسَ الأمر، دعه يمر. بينما تسافر الحافلة الكسولة، مصدرة أصواتاً خنفاء في هذه الأرض الجدباء الصفراء حيث لم يكن هناك لا بيوت ولا مداخن، لا أشجار أو أحجار، وكان الضوء يغشى عيني الخاليتين من النوم، أدركت أن ـ بعيداً عن النسيان ـ هناك شيئاً ما تغلغل بعمق داخل وعيي (ضميري). أثناء الساعات الخمس التي قضيتها في هذه المدينة، حيث ذهبت بسبب اسم صديقي ساعي البريد «محمد» الذي سلمه البائع الحزين، هناك شيء قد تحدّد بالفعل ـ كيف سأتعامل معه؟ ـ أي مشاهد ملونة ومتسقة وأي أشخاص سوف أراهم في كل المدن التي كنت على وشك زيارتها في صورة تحرٍ هاوٍ.

بعد ست وثلاثين ساعة من مغادرتي لـ «ألاكالي» ـ على سبيل المثال ـ كان منتصف الليل وكنت جالساً في المحطة أنتظر الحافلة التالية في مدينة مغبرة وبها دخان تمّ بناؤها على قرية بدت وكأنها تأتي من حلم ما، وأنا أمضغ «بيدا» محشوة بالجبن لأوقف جوع معدتي بالإضافة إلى قتل الوقت الذي لم يكن يمر، عندما

شعرت بظل حاقد يقترب مني من الخلف. هل كان البائع المولع بالقفازات؟ لا. روحه! لا، تاجر غاضب حزين؟ لا. كنت أفكر أنه ربما يكون «سيكو» عندما ـ بانج ـ تمّ غلق باب الحمام بقوة، وقد تحوّل الشبح تماماً من «سيكو» الذي يرتدي معطف المطر إلى رجل ذي طابع أبوي مسالم يرتدي معطف مطر، وعندما انضمت إليه سيدة تقليدية ترتدي إيشارباً على رأسها وابنتهما، تساءلت من أين أتيت بصورة لـ «سيكو» في معطف المطر ذي لون بني باهت، هل كان هذا لأنني قد رأيت في الزحام صديقي البائع الحزين الذي كان يرتدي معطفاً بنفس اللون؟

ظهر التهديد في وقت آخر، ليس كشبح سيكو لكن في هيئة طاحونة كاملة، نمت نوماً هادئاً في حافلة هادئة نسبياً ثم أكملت نومي كأحسن ما يكون في حافلة ثانية لم تكن ثابتة فقط ولكن فيها ممصات أفضل للصدمات، ثم في الصباح، عند طاحونة القمح حيث ذهبت مباشرة لأحصل على نتيجة سريعة وأقابل بائع الكتب الشاب الذي رفضه صانع حلوى «البقلاوة»، اختلقت كذبة بأنني صديقه من الجيش. طالما أن كل الذين أتتبعهم ويحملون اسم محمد كانوا في نحو الخامسة والعشرين، فمن المؤكد أن حجة صديق الجيش التي كانت ذات نفع دائماً مقنعة بالنسبة للعامل الذي تحدثت إليه أولاً، الذي كان أبيض من رأسه إلى أخمص قدميه من غبار الدقيق؛ لمعت عيناه بالود، الأخوة، والدهشة كما لو كان هو أيضاً قد أدى خدمته العسكرية في نفس الوحدة، وذهب مباشرة إلى مكتب الإدارة، انزويت في الركن، ولسبب ما شعرت بشعور غريب من الخطر في الهواء، كانت هناك مطحنة تعمل بالمحرك الذي جعل الدقيق يدور بشؤم فوق رأسي، وأشباح العمال البيضاء المخيفة تتحرك ببطء شديد في

الضوء الأبيض الكئيب حاملة أطراف السجائر المضيئة في أفواهها، شعرت أن الأشباح تنظر إليّ في عداء ويتحدثون فيما بينهم، مشيرين إليّ، ولكني حاولت أن أدعي أنني لا أبالي حيث كنت واقفاً في الركن. بعد ذلك بقليل عندما اعتقدت أنني مهدد من قبل ساقية سوداء رأيتها من خلال فوارق في حائط من أجولة الدقيق، جاء إليّ واحد من الأشباح المنهمكة في العمل ـ يعرج قليلاً ـ وتساءل من أنا حتى أصدر ريحاً هنا، لم يستطع سماعي من أزيز الآلات لذلك كنت مجبراً على الصياح، مخبراً إياه أنني لم أصدر أي ريح. قال، لا، فهو لم يقل سوى أي ريح أتت بك إلى هنا. فسّرت مرة أخرى بصوت عال أنني كنت مغرماً بصديقي من الجيش؛ محمد كان لديه حس فكاهي جميل وكان صديقاً مخلصاً، كنت أقوم بجولة في «أناتوليا» أبيع وثائق تأمين على الحياة والطوارىء عندما تذكرت أن محمداً يعمل هنا. سألني الشبح المغطى بالدقيق عن أعمال التأمين: هل الأشخاص العاملون في هذا المجال حفنة من اللصوص، محتالون وضيعون «أصحاب الثلاث ورقات»، ماسونيون، شواذ يحملون البنادق ـ ربما أكون قد سمعته بشكل خاطىء بسبب بكل هذه الضجة ـ وأعداء آخرون للعلم والمسجد ذوو عقول شريرة؟ لم يكن هناك حل إلّا أن أشرح له، والذي فعلته في تطويل؛ أستمع ونظرة ودودة على وجهه. أخذنا الحوار إلى نظرية أن كل المجالات أو المهن بها السيىء والجيد: هناك أشخاص شرفاء في هذا العالم، كما أن هناك النصابين الأوغاد الذين لا تعرف ما الذي يسعون وراءه. فقط عند ذلك، سألته مرة أخرى عن صديقي محمد، ما الذي أخّره؟ «ألق نظرة يا رجل!» قال الشبح لي، وسحب ساق بنطاله لأعلى، أراني ساقه ذات الشكل الشاذ. «إن «محمد أوكر»

ليس من نوع المخادعين الذي يفكر في الذهاب إلى الجيش بساق كهذه، هل فهمت ذلك؟» إذاً، من أنا بحق الجحيم؟

لم يكن ما حدث من جراء عدم الحيلة ولكن من الدهشة حتى أنني للحظة لم أستطع المجيء بإجابة لهذا السؤال. قلت من المؤكد أنه حدث اختلاط في العناوين ناتج عن ارتباك في عقلي، وأنا على علم كامل أن هذا لم يكن مقنعاً على الإطلاق.

كنت محظوظاً لهروبي دون أن يضربوني، وفيما بعد، أثناء ما كنت أتناول شريحة من «بوريك» أناتوليا الذي يذوب في الفم في فرن صانع الفطائر المحبط الذي هو مخبرنا، فكرت كم كان من الصعب تصديق أن محمداً لم يبد كشخص قد يقرأ الكتاب، ولكن خبرتي علمتني كم من الخطأ أن يفترض الشخص أنه يستطيع معرفة ما يكمن في قلوب الرجال.

لنتخذ ـ على سبيل المثال ـ مدينة «إنسير باشا» حيث كل الشوارع تفوح برائحة التبغ؛ لم يكن فقط رجل الإطفاء الشاب محمد هو الذي قرأ الكتاب، ولكن فريق الإطفاء المحلي بأكمله قد قرأه بنوع من الجدية يثير الدهشة، كانت المدينة مشغولة بالإعداد لمهرجانات يوم التحرير بمناسبة اليوم حين تمّ طرد الاحتلال اليوناني، عندما أتيحت لي الفرصة لأشاهد ـ في صحبة بعض الأطفال وكلب حراسة ودود ـ هؤلاء الأصدقاء من رجال الإطفاء يرتدون خوذات معدنية وعليها شعلة، وهم يرقصون عبر أرض التدريب وشعلات النار تندلع من قمة رؤوسهم، ويغنون في تناغم واحد بلا أخطاء أغنية تقول: «الحريق، الحريق، أرض الوطن تحترق». بعد ذلك جلسنا كلنا معاً لتناول وجبة من لحم الغنم المطبوخ، كان رجال الإطفاء ـ في زيّهم اللامع ذي الأكمام

القصيرة باللونين الأحمر والأصفر ـ يغمغمون بين الحين والآخر بعض الكلمات المأخوذة من الكتاب، إما كمزاح أو ليحيوا حضوري. أما بالنسبة للكتاب، فقد أروني لاحقاً أنهم يحتفظون به في كابينة شاحنة الإطفاء الوحيدة لديهم كما لو كان القرآن الكريم. هل كنت أنا من قرأ الكتاب بشكل خاطىء؟ أم أن رجال الإطفاء هم الذين آمنوا بأن الملائكة ـ ليس ملاكاً منفرداً ـ تتنزل من السماء في ليالي الصيف التي تضيئها النجوم بتألق، وتفوح برائحة التبغ، وترشد الحزين والمهموم لطريق السعادة؟

قام بتصويري مصور المدينة في مدينة ما؛ وفي أخرى، جعلت الطبيب يستمع إلى رئتيّ؛ وفي ثالثة، لم أقم بشراء الخاتم الذي جربته عند صائغ محلي؛ وفي كل مرة أترك هذه الأماكن الحزينة، المغبرة، والمتهالكة، أحلم باليوم الذي تأتي فيه جنان هنا وتؤخذ لنا صورة بالفعل، أو أجعل أحداً يعتني برئتيها الجميلتين، أو أشتري لها الخاتم الذي سيربطنا ببعضنا حتى يفرق بيننا الموت، وليس لمجرد أن نكتشف أمر المصور «محمد»، أو الطبيب «محمد»، أو «محمد» الصائغ، من هم حقاً هؤلاء، ولماذا قرأوا الكتاب بكل هذه العاطفة.

ثم كنت أذهب حول المدينة لبرهة من الوقت، ألوم طيور حمام المدينة لأنها تلقي بمخلفاتها على تمثال أتاتورك، أستشير ساعتي، أفحص مسدسي، ثم أقصد موقف الحافلات، وفي هذه اللحظة عندما يراودني القلق أحياناً بأن أولئك الرجال الأشرار، الأشخاص الذين يرتدون معاطف للمطر، «سيكو» المنضبط وأشباح الجواسيس، كلهم كانوا يتتبعونني. ربما كان هذا الظل الطويل النحيل هو «موفادو» من مكتب الاستخبارات القومي؟ لأن

في اللحظة التي رآني، نزل من حافلة «أدانا» التي ركبها لتوّه. نعم، يجب أن يكون هو؛ من يكون سواه، ومن الأفضل أن أغيّر وجهتي بسرعة، وهذا ما فعلته بالفعل اختفيت في دورة مياه كريهة الرائحة، وتمنيت بلا أمل أن أرى الملاك من نافذة حافلة «الطريق الآمن الفوري» التي صعدت عليها خفية، شعرت بوجود زوج من العيون جعلت الشعر يقف على مؤخرة عنقي، مما جعلني أستنتج أنه يجب أن يكون «سركيسوف» هذه المرة الذي أبقاني تحت مراقبته غير الشريفة. لذلك، في المطاعم ذات الموائد المدعمة بالفورمايكا في أماكن الاستراحة حيث توقفنا في منتصف الليل، كنت أترك كوب الشاب دون أن أنتهي منه وأقصد حقول الذرة لأنتظر حتى موعد رحيل الحافلة، أشاهد النجوم في السماء المخملية الداكنة الزرقة؛ أو ـ أثناء النهار ـ كنت أذهب إلى أي متجر محلي مرتدياً زياً أبيض ووجهي مبتسم، وأغادر المتجر وأنا أرتدي قميصاً أحمر، سترة بنفسجية، سروالاً من المخمل المضلع، ووجهه متجهم؛ في مرات عديدة أجد نفسي أركض في الحر الشديد خلال الزحام باتجاه موقف الحافلات.

بعد كل الركض في الجوار، عندما أقتنع بأن الشبح المسلح قد فقد أثري، أو أصل إلى أنه لا يوجد مبرر محتمل لجواسيس دكتور فاين أن يحولوني إلى مصفاة بوابل نيرانهم، ثم تتبدل العيون الشريرة التي تراقبني من بعيد بعيون أهالي المدينة الودودين ينظرون إليّ بسرور لرؤيتي بينهم.

ذات مرة، فقط لأتأكد أن «محمداً» الذي أبحث عنه والذي ذهب لرؤية عمه في اسطنبول لم يكن محمداً المقصود، صحبت سيدة ثرثارة في طريقها وهي عائدة إلى بيتها بعد يوم من التسوق،

كان هناك في الحقائب المشغولة من الخيط والأكياس البلاستيكية التي حملناها سوياً، باذنجان كبير الحجم، طماطم طازجة، وفلفل مدبب يلمع بصحة تحت أشعة الشمس، وأخذت تتحدث عن.. كم من الرائع أن يبحث الشخص عن صديقه من الجيش، وكم أن الحياة جميلة، وألا أقلق على الإطلاق لأن زوجتي ترقد مريضة في البيت.

ربما كانت الحياة كذلك. في حديقة مطعم يدعى «وجبات لذيذة» في مدينة «كاراكالي»، جلست إلى مائدة تحت شجرة ضخمة وتناولت الكباب الشهي الذي تفوح منه رائحة الزعتر، المُقدم على وسادة من الباذنجان المدخن المخفوق الكريمي، حملت الرياح الخفيفة ـ التي عبثت بالأوراق هنا وهناك ـ رائحة فطائر جاهزة للخبز من المطبخ كانت طيبة تماماً مثل الذكريات العزيزة. في مدينة قلقة بالقرب من «أفيون» لا أذكر اسمها، حملتني قدماي بالرغم عن إرادتي، كما تفعلان في كثير من الأحيان، لمتجر للحلوى حيث توقفت فجأة لرؤية أم كانت بضة ممتلئة في استدارة كالبرطمانات اللامعة المليئة بالحلوى لها لون وردة عتيقة وقشرة يوسفي، واستدرتُ متجهاً إلى الخزينة وأنا أرتعش، نسخة الأم الأصغر سناً والأكثر شحوباً، ذات الستة عشر ربيعاً، جميلة لا يضاهيها جمال ذات يدين صغيرتين، فم صغير، عظام وجنتها عالية، وعيون مسحوبة قليلاً، تنظر لأعلى من تحت مجلة للصور الرومانسية التي كانت تقرؤها وتبتسم بصدق غير مصدق أنها كانت ـ ناظرة إليّ مثل المغويات المتحررات في الأفلام الأمريكية.

في ليلة، كنت أنتظر قدوم الحافلة في محطة مضاءة بأضواء خافتة كما في غرفة معيشة سالمة وهادئة لبيت عصري في

اسطنبول، جالساً هناك مع ثلاثة من ضباط الاحتياط كنت قد قابلتهم ونلعب لعبة ورق قاموا باختراعها وأضافوا إليها وطوّروها فيما بينهم ويسمونها «الشاه المختار». قاموا بقص كروت ورق اللعب من علب سجائر «ينيس» والتي رسموا عليها صوراً لشاه، تنيناً، سلاطين، جنيات، عشاقاً، ملائكة؛ والملائكة ـ اللاتي كن نظائر أنثوية للجوكر ـ كل منهن تمثل إما الفتاة التي تسكن في الشقة المجاورة، أو الحب الأوحد لشخص ما، أو نجمة سينمائية محلية أو مطربة في ملهى ليلي يمكن أن ينام معها هؤلاء الرجال في أحلامهم المثيرة فقط، كما كان الحال بالنسبة للشخص في وسطهم الذي كان أكبر المحبين للمزاح. سمحوا لي باختيار الملاك الرابع، وأظهروا أخلاقاً طيبة بعدم سؤالي حتى عمن كان يمثله، فحتى الأصدقاء الأذكياء والمراعين للشعور قلما يكونون قادرين على فعل شيء كهذا.

كان هناك مشهد واحد للسعادة ضغط عليّ لأشاهده أثناء ما كنت أستمع إلى كل الهراء الذي زودني به المخبرون المحبطون، أجمع ما أستطيع من كل الذين يحملون اسم «محمد»، كل واحد منهم مختبىء في ركن صعب الوصول إليه، أبواب مغلقة أسوار منيعة، حوائط مغطاة باللبلاب، وطريق به رياح هائجة ـ أو أشياء أخرى، كنت أهرب بعيداً لأتجنب كل معاطف المطر، جواسيس تخيلية شريرة تتبعني في موقف الحافلات، ميادين المدن، والمطاعم التي توجد في المحطات.

كان اليوم الخامس لي على الطريق، شربت مشروب الـ «راكي» الذي عرضه عليَّ في كوب شاي ناشر صحيفة «كوريوم الحرة»، لكي يجعلني أفهم بشكل أفضل قصائد الشعر الذي كتبها والذي كان يقرؤها لي؛ وعرفت أن الناشر لن يطبع بعد الآن

مقتطفات من كتابه في قسم «البيت والأسرة» لأنه فهم أنها لا تساعد في مشكلة السكة الحديدية ولا في تقدم البناء في خط «كورم ـ أماسيا»؛ ثم في المدينة التالية، بعد أن قضيت ست ساعات أركض هنا وهناك باحثاً عن العناوين والآثار، أستشيط غضباً لاكتشافي أن هناك مخبراً ما قام باختلاق قارىء غير موجود للكتاب ووضعه في شارع لا وجود له، من أجل أن يستنزف المزيد من النقود من دكتور فاين؛ ووصلت إلى «أماسيا» حيث حلّ الليل سريعاً، كانت المدينة تقع بين جبال وعرة ومنحدرة، كنت قد وصلت إلى منتصف قائمتي الخاصة بالذين يحملون اسم «محمد»، إلى الآن بلا فائدة (دون جدوى)، وكانت ساقاي ترتجف من القلق لتخيل جنان وهي ما زالت تحترق من الحمى في الفراش، لذلك كنت أخطّط لاستقلال أول حافلة لساحل البحر الأسود في الحال بعد الذهاب للعنوان المقصود في المدينة، وأسأل عن رفيقي من الجيش، فقط لأكتشف أنه لم يكن محمداً المعني.

عبرت جسراً يمتد عبر مجرى مائي كئيب ـ اتضح أنه النهر الأخضر الشهير الذي لم يكن أخضر على الإطلاق ـ ودخلت في منطقة تقع وراء الأضرحة التي نُحتت في الصخر في وجه جرف، أشارت المنازل القديمة والكبيرة إلى أن في وقت ما أن الناس الذين رأوا أوقاتاً أفضل ـ الذين يعرفون ماذا يعني الباشاوات أو المواقد العتيقة الكبيرة الحجم ـ قد عاشوا ذات مرة في هذا الحي المليء بالغبار، طرقت على باب أحد هذه المنازل وسألت عن رفيقي من الجيش؛ أخبروني أنه كان بالخارج يقود سيارته، لكنهم سمحوا لي بالدخول وعرضوا عليَّ مشاهد من حياة عائلية سعيدة ومرحة.

1 ـ رب الأسرة محام يتولى قضايا للصالح العام، ويوصل العميل الذي تثقله مشاكله إلى الباب؛ ويأخذ نسخة من علوم القانون من مكتبته الضخمة، ويجلس ليراجعها. 2 ـ عندما قدّمتني ربة الأسرة ـ التي عرّفتني على الوضع ـ إلى الأب المشغول البال، الأخت ذات العيون العابثة، الجدة التي ترتدي نظارة القراءة، والأخ الصغير الذي يفحص مجموعة طوابعه ـ سلسلة أرض الوطن ـ كانوا جميعاً متحمسين وفرحين للغاية، يمثلون كرم الضيافة التركي الحقيقي الذي يمتدحه كثيراً المستكشفون الغربيون في كتب الرحلات التي يكتبونها. 3 ـ سألتني الأم والفتاة العابثة عدة أسئلة بود بينما تنتظران الفرن ليخبز «البوريك» اللذيذ الرائحة الذي أعدّته العمة «سوفيد»، ثم تناقشنا حول رواية «كليماتس» لـ «أندريه موريس». 4 ـ أخبرني ابنهم الدؤوب الذي قضى اليوم بأكمله يعتني بأشياء في مزرعة التفاح الخاصة بهم أنه بصراحة لا يتذكرني على الإطلاق من الوقت حين أدى خدمته العسكرية، لكنه قضى بعض الوقت يبحث عن موضوعات للحديث ربما نتشارك فيها. وأخيراً جاء على ذكر الموضوع، لذلك كان لدينا فرصة لمناقشة كيف كان إسقاط الحافز السياسي لبناء السكك الحديدية وتشجيع المزارع التعاونية للقرية من الاهتمامات يشكل ضرراً.

عندما غادرت المنزل السعيد لأغرق في ظلمة الشارع، فكّرت في نفسي أن هؤلاء الناس لا يمارسون الحب قط، عرفت بمجرد أن طرقت الباب ورأيتهم أن «محمداً» الذي أبحث عنه لا يعيش هنا. فلماذا إذاً بقيت لتسحرني هذه الصورة السعيدة التي تأتي مباشرة من الإعلانات التي تدعو لشراء البيوت بالتقسيط؟ بسبب المسدس «والشر»، قلت لنفسي، شاعراً بوجوده في حزامي. تساءلت إذا كنت يجب أن أستدير ببساطة وأطلق

الطلقات التسعة ملليمترات على النوافذ الآمنة لهذا المنزل؛ لكني عرفت أن هذا لم يكن فكراً حقيقياً، كان أكثر منه همساً يجعل الذئب الأسود الرابض في غابة عقلي المظلمة يهدأ وينام. نم، أيها الذئب الأسود، نم. نعم، فلتذهب للنوم. متجر، ثم متجر، نافذة، إعلان: كانت قدماي ـ الوديعة كحمل يخاف من الذئب ـ تأخذاني إلى مكان ما الآن. إلى أين؟ مسرح الزهور، صيدلية الربيع، محل الموت للفواكه المجففة والمكسرات. لماذا يدخن البائع الشاب ويحدق فيَّ بهذه الطريقة؟ ثم متجر للبقالة، محل للمعجنات، وأخيراً وجدت نفسي أنظر إلى ثلاجات «هامبل ـ ستيل» في واجهة للعرض ذات مقاس معقول، مواقد غاز «الهلال»، صناديق للخبز، مقاعد، أرائك، أدوات طبخ من الصلب المطعّم بالمينا، مصابيح، مواقد من طراز حديث، وعندما رأيت الكلب المحظوظ ذا الفراء السميك، بكلمات أخرى، تمثال من الفخار لكلب يقف على راديو من طراز «هامبل ـ ستيل»، عرفت أنني لم أعد أستطيع التحكم في نفسي.

هكذا كنت أقف أمام واجهة المتجر في مدينة «أماسيا» المحشوة بين جبلين، أيتها الملاك، وبكيت، منتحباً ومنهاراً، أنت تسأل طفلاً لماذا يبكي؛ هو يبكي لجرح عميق بداخله لكنه يخبرك بأنه يبكي لأنه فقد «مِبْراته» الزرقاء؛ كان هذا نوع الحزن الذي اجتاحني وأنا أنظر إلى كل الأشياء المعروضة. ما إحساسك بأن تتحول إلى قاتل من أجل لا شيء؟ أن تعيش بهذا الألم في روحك لبقية حياتك؟ ربما أشتري بعض الحبوب المحمصة من محل الفواكه المجففة والمكسرات، أو أنظر إلى مرآة بقال ما لأرى نفسي، أو أن أعيش في حياة النعيم المليئة بالثلاجات والمواقد، لكن ما زال الصوت الملعون المهدد

بداخلي ـ الذئب الأسود ـ يزمجر ويتهمني بذنبي. لكن أنا ـ يا ملاكي ـ قد آمنت كلية في الحياة ذات مرة وفي الأعمال الطيبة. الآن، متعثر بين جنان التي لا أستطيع الوثوق بها، ومحمد الذي سوف أقتله في لحظة لو استطعت الوثوق به، ليس لدي ما أتمسك به إلّا مسدسي والأحلام بحياة سعيدة فوق السحاب التي تعتمد على خطط وأنظمة متشابكة وراء الإيمان ومشؤومة إلى أقصى حد. صور ثلاجات، ماكينات لعصر البرتقال، المقاعد التي تتدفق في ذهني، مصحوبة بعويل بلا صوت.

جاء الرجل الكبير في السن لمساعدتي على الفور الذي يظهر في الأفلام المحلية ليهدىء من روع الفتى الصغير الباكي أو المرأة الجميلة التي تنتحب، أنا الديك القاسي. قال: «يا بني، لماذا تبكي، يا ولدي؟ هل هناك شيء؟ لا تبك».

كان هذا العم الماهر الملتحي في طريقه إما إلى المسجد ليصلي، أو ليخنق أحدهم.

قلت: «سيدي، مات أبي أمس».

من المؤكد أنه ارتاب في شيء ما. قال: «من هم أهلك، بني؟ أنت بالتأكيد لست من هنا».

«لم يكن زوج أمي يريدنا أن نزوره». قلت وتساءلت إذا كان يجب أيضاً أن أقول: سيدي، أنا ذاهب إلى مكة في رحلة للحج، لكني لم ألحق بالحافلة. هل يمكنك أن تقرضني بعض النقود؟

أثناء ادعائي كما لو كنت أموت من الحزن، مشيت وسط الظلام، وأنا أموت من الحزن. ما زال هذا، قد ساعد في اختلاق كذبتين على غير المتوقع. فيما بعد، هدأت كثيراً على

متن حافلة «الطريق الموثوق فيه» التي أستطيع أن أثق بها دائماً، وأنا أرى على شاشة الفيديو سيدة متأنقة تقود سيارتها بلا شفقة وبدون أي تردد وتدخل في زحام من الرجال الأشرار، وصلت عند الصباح إلى شاطىء البحر الأسود، واتصلت بأمي من عند بقالة البحر الأسود وأخبرتها أنني على وشك إنهاء شؤوني والرجوع إلى البيت مع زوجتي الملائكية. إذا أصرت على البكاء فلتبكِ من السعادة، جلست في محل للمعجنات في منطقة التسوق القديمة، وفتحت دفتر ملاحظاتي، وقمت بعمل بعض الحسابات لأنهي المهمة بأسرع ما يمكن.

كان قارىء الكتاب في «سامسون» طبيباً شاباً يؤدي مهام مهنته في مستشفى «الأمن الاجتماعي». بمجرد أن تأكدت أنه لم يكن محمداً المقصود، صدمني شيء ما بلا مبرر واضح، ربما كان وجهه النظيف الحليق، أو لياقته الجسمانية وسلوكه الواثق. على عكس أمثالي الذين تخرج حياتهم عن الطريق، وجد هذا الرجل طريقة مناسبة ليمتص الكتاب في نظامه واستطاع أن يعيش معه في سلام وفي عاطفة أيضاً. كرهته على الفور. كيف يمكن للكتاب العظيم الذي غيّر عالمي وأربك مصيري أن يؤثر على هذا الرجل كما لو كان قرص فيتامين؟ عرفت أنني سأموت من الفضول لو لم أسأله، لذلك أثرت الموضوع أمام الطبيب عريض المنكبين وممرضته ـ التي بدت مثل «كيم نوفاك» ولكن من الدرجة الثالثة بعينيها الكبيرتين وملامحها المنحوتة ـ مشيراً إلى الكتاب القابع في براءة خادعة تماماً وسط كتالوجات الأدوية على المكتب، كما لو كان أيضاً شيئاً عن الصيدلة والأدوية.

«آه، فالطبيب يحب القراءة!» قالت «كيم نوفاك» الراغبة والقادرة وهي تضحك.

عندما غادرت الممرضة، أغلق الطبيب الباب وراءها، جلس في كرسيه بترو رجل ناضج، وبينما ندخن رجلاً لرجل، شرح كل شيء.

كان هناك وقت في أول شبابه عندما كان متديناً تحت تأثير من عائلته، كان يذهب إلى الجامع أيام الجمعة ويصوم أثناء شهر رمضان. ثم وقع في حب فتاة؛ بعد فترة فقد إيمانه؛ وتبع ذلك، أن أصبح «ماركسياً». شعر بخواء في روحه بعد أن هدأت هذه العواصف، بعد أن تركت آثارها هناك، لكن عندما رأى الكتاب في مكتبة صديق وقرأه، «كل شيء وضع في مكانه». لقد فهم الآن مكان الموت في حياتنا، فقبل حقيقته مثل شجرة في الحديقة لا يمكن نكرانها، أو صديق في الشارع؛ وتوقف عن أن يكون متمرداً. فهم أهمية طفولته، تعلّم أن يتذكر ويحب كل الأشياء الصغيرة من الماضي، مثل مسدس الفقاعات والقصص المصورة، والوقت المناسب في حياته لحبه الأول بالإضافة إلى أول كتاب قرأه على الإطلاق. لقد أحب دوماً موطنه الأصلي البدائي على أية حال، وتلك الحافلات المجنونة والحزينة أيضاً. أما بالنسبة للملاك، ففهم وجوده الإعجازي لسبب ما وآمن به نتيجة لعواطفه. بعد كل هذا الخليط، عرف أن الملاك سوف يجده يوماً ما، وسوف يصعدان معاً إلى السموات؛ فيمكنه ـ على سبيل المثال ـ أن يحصل على وظيفة في ألمانيا.

أخبرني بكل هذا كما لو كان يشرح لي كيف أصنع دواءً (أنفذ علاجاً) بإعطائي (روشتة) وصفة للسعادة. نهض الطبيب، بعد أن طمأن نفسه أن مريضه قد فهم الوصفة الطبية، وكل ما تبقى للمريض الميؤوس منه هو أن يوصل نفسه إلى الباب، كنت على وشك المغادرة عندما قال، وكأنه ينصحني بأخذ

الأقراص بعد الوجبات، «أنا دوماً أضع خطأ وأنا أقرأ؛ أنصحك بأن تفعل بالمثل».

ركبت على أول حافلة متجهة جنوباً، أيها الملاك، كما لو كنت أجري مبتعداً. قلت لنفسي ليس مرة أخرى! لن أغامر بالذهاب إلى ساحل البحر الأسود مرة أخرى قط، وكأن هناك صورة خيالية مميزة مرسومة بوضوح وسط مخططاتي التي تشمل سعادتي المستقبلية، قرى مظلمة، حظائر للماشية مظلمة، أشجار لا تموت، محطات الوقود الحزينة، مطاعم خاوية، جبال صامتة، وأرانب قلقة تمر أمام زجاج نافذتي، قلت لنفسي لقد رأيت أشياء مشابهة من قبل؛ في الفيلم الذي كان يعرض على الشاشة، كان قد مرّ وقت طويل بعد أن اكتشف الشاب اللطيف ذو النيات الحسنة أنه انخدع بطريقة سيئة حتى أنه عنّف الرجال الأشرار أولاً ثم وجّه المسدس إليهم. قبل أن يقتلهم، قام باستجوابهم واحداً واحداً، جاعلاً إياهم يتوسلون طلباً للرحمة، فكر في أن يسامحهم، تردد طويلاً بشكل كاف يعطيهم الفرصة لعمل أي شيء فيه خيانة؛ وكان بعد أن قررنا ـ نحن المشاهدين ـ أن الرجل الشرير كان وغداً يستحق القتل لتنتهي معاناته حتى سمعنا طلقات الرصاص على الشاشة الموضوعة فوق مقعد السائق، هذا عندما نظرت من النافذة مثل شخص يجد رؤية سفك الدماء والقتل شيئاً كريهاً، شاعراً كأنني أسمع كلمات أغنية غريبة صُنعت من طلقات الرصاص، صخب المحرك والإطارات؛ وتساءلت ـ يا ملاكي ـ لماذا لم أسأل الطبيب الوسيم، عندما كان يصف لي الكتاب، عن هويتك.

كانت كلمات الأغنية على هذا الشكل: «دكتور، دكتور،

أعطني الأخبار. . . . .» من هو الملاك؟ يسأل المريض الشاب. الملاك؟ يقول الطبيب الذي يعتقد أنه مهم، يأخذ خريطة، يفردها على المنضدة، وكما يعرض على المريض المثير للشفقة صور الأشعة لأعضائه الميؤوس منها، يشير إلى جبل المعنى، ومدينة اللحظات الفريدة، وإذا كان هذا هو وادي السذاجة، وهذه نقطة الحادثة، إذاً فهذا يجب أن يكون الموت. هل يجب على المرء أن يحب مواجهة الموت، يا دكتور، كما يحب مقابلة الملاك؟

وفقاً لملاحظاتي، كان التالي في قائمتي بالأشخاص الذين قرأوا الكتاب هو موزع لصحيفة محلية في مدينة «إكزبر». بعد عشر دقائق من مغادرتي للحافلة، رأيته يجلس في متجره في منتصف منطقة التسوق، وهو يحكّ جسده المكتنز القصير من فوق قميصه برضا ـ لا يشبه حبيب جنان في أي شيء؛ كوني التحري المستعد والقادر الذي أنا عليه، كنت خلال عشر دقائق على أول حافلة تغادر المدينة. بعد أربع ساعات واستقلال حافلتين، وضعني المشتبه فيه التالي الذي في عاصمة المحافظة في مشكلة أقل وطأة؛ كان هناك في محل الحلاقة أمام موقف الحافلات مباشرة، ينظر إلى الركّاب المحظوظين ينزلون من الحافلة وحزن عميق في عينيه، في يده جاروف وفي اليد الأخرى مريلة نظيفة تماماً، منتظراً رئيسه الذي كان يحلق بهمة لشخص ما. شعرت أني أريد غناء بيت شعر مرّ بذهني.

«تعال، يا أخي، تعال معنا.

هيا نركب الحافلة أنا وأنت.

نذهب إلى أرض رائعة».

أردت أن أكمل للنهاية قبل أن تتركني ملكة الشعر. لذلك

ـ في المدينة التالية التي كانت على بعد ساعة بالحافلة ـ معتقداً أن المشتبه فيه العاطل كان مشتبهاً فيه حقاً، كنت مجبراً على تفتيش أقفاص الطيور القديمة، كشافات، مقصات، ماسك سجائر مصنوع من خشب الورد، وبغرابة كافية، قفازات، مظلات، وكتاب لـ «براونينج» خبّأه المخبر في بئر جافة في باحته الخلفية، هذا التاجر ذو القلب المجروح والسن المكسور قام بإهدائي ساعة «ركيسوف» كتعبير غير مهم عن احترامه وإعجابه بدكتور فاين. بينما كان يشرح كيف التقى هو وثلاثة من أصدقائه بعد صلاة الجمعة في الحجرة الخلفية لمحل العجائن ليناقشوا «يوم الاستقلال»، فكرت في أنه لم يحلّ المساء فقط علينا فجأة ولكن أيضاً الخريف، كان عقلي معتماً من السحب السوداء والمنخفضة عندما أضيء النور في المنزل المجاور، وفجأة ظهر من وسط أشجار الخريف كتفان بلون العسل لامرأة نصف عارية معتدلة الجسم من النافذة، فقط لتختفي كالرجفة. بعد ذلك، رأيت أحصنة سوداء تركض عبر السماء، وحوشاً نافدة الصبر، مضخات للغاز، أحلاماً بالسعادة، مسارح مغلقة، حافلات أخرى، أشخاصاً آخرين، مدناً أخرى.

فيما بعد في هذا المساء، شعرت بأني متفائل عن كوني محبطاً وأنا أتحدث إلى تاجر شرائط كاسيت حتى بعد أن فهمت أنه لم يكن «محمداً» المعني، متنقلاً من موضوع إلى موضوع متحدثاً عن الروح الطيبة التي توفرها أغراضه للناس، عن أن موسم الأمطار قد انتهى، عن حزن المدينة التي جئت منها، عندما سمعت صفارة قطار بائسة وأصبحت قلقاً، اضطررت أن أغادر هذه المدينة على الفور، التي ليست لها اسم في ذاكرتي، وأعود إلى الليل المخملي العزيز حيث ستأخذني الحافلة.

كنت أمشي باتجاه موقف الحافلات، الذي كان في اتجاه صفارة القطار، عندما رأيت نفسي في مرآة دراجة لامعة مركونة على الرصيف. ها أنا هناك، مع مسدسي الذي أخفيه، سترتي البنفسجية الجديدة، ساعة «سركيسوف» المهداة لدكتور فاين في جيبي. الجينز الأزرق الذي أرتديه، يداي الخرقاوان، خطواتي السريعة؛ ثم ابتعدت المحلات والنوافذ وذهبت، وما رأيت في الليل كانت خيمة سيرك على مدخلها صورة ملاك، كان الملاك هجيناً من رسم فارسي لشخص ونجمة أفلام محلية، لكنه ما زال يجعل قلبي يقفز. هذا الطالب الذي انقطع عن دروسه لا يدخن فقط ـ يا سيدي ـ ولكن انظر أيضاً كيف يتسلل إلى خيمة السيرك!

اشتريت تذكرة ودخلت الخيمة، حيث كانت تفوح رائحة العفن، العرق، والتربة، جلست ـ بعد أن قررت أن آخذ راحة من كل شيء ـ وبدأت أنتظر سوية مع بعض المجندين المجانين الذين فشلوا في أن يعودوا إلى وحداتهم العسكرية، قليل من الرجال الذين خرجوا ليضيعوا الوقت، أشخاص حزانى وكبار في السن، وبعض الأطفال وأسرهم التي بدت في المكان الخطأ، لم يكن هذا مثل السيرك الذي رأيته على التليفزيون؛ لم يكن هناك لاعبو الأكروبات المهرة، ولا دببة تقود دراجات، ولا حتى بعض الحواة المحليين. سحب رجل قطعة قماش رمادية قذرة فظهر راديو، الذي ارتفع في الهواء ليتحول إلى موسيقى. استمعنا إلى قطعة من موسيقى تركية، ثم ظهرت امرأة شابة كانت تغني وغنت أغنية ثانية بصوتها الشجي وغادرت، كانت تذاكرنا عليها أرقام، سيكون هناك سحب، كنا نجلس في صبر، هكذا تمّ إخبارنا.

ظهرت المرأة التي غنت من قبل في مظهر آخر، هذه المرة كانت ملاكاً، كانت قد رسمت خطاً عند ركني عينيها، والذي جعلهما يظهران في مظهر ضيق ومسحوب، كانت ترتدي زياً متواضعاً للسباحة من قطعتين مثل النوع الذي ارتدته أمي على شاطىء «ثريا». ثم كان هناك حول عنقها قطعة غريبة من القماش، شيء افترضت في البداية أنه شال غريب حتى رأيت أنه كان ثعباناً لفّته حول عنقها، ملقية طرفيه على كتفيها الرقيقين. هل كنت أرى نوعاً من الضوء غير العادي الذي لم أره من قبل قط؟ أو هل كنت أتوقع ببساطة مثل هذا الضوء؟ أو ربما كنت أتخيله فقط، كنت سعيداً جداً أنني في هذه الخيمة أشاهد الملاك والثعبان مع نحو خمسة وعشرين شخصاً آخرين، اعتقدت أن الدموع ستنهمر من عيني.

فيما بعد، عندما كنت المرأة تتحدث مع الثعبان، فكرت في شيء ما. أحياناً تتذكر فجأة ذكرى بعيدة تبدو منسية منذ زمن بعيد، وتسأل لماذا من بين كل الأوقات تتذكرها الآن ويصبح عقلك مشتتاً (مرتبكاً) كلياً؛ هكذا شعرت، لكنه كان شعوراً بالسلام أكثر منه بالتشتت، كنت أنا وأبي ذات مرة نزور العم رفقي. «أستطيع أن أعيش في أي مكان على الإطلاق، إذا كانت القطارات تذهب هناك، حتى لو كانت مدينة ذات محطة اختيارية في نهاية العالم»، قام بإخبارنا بذلك. «لا أستطيع أن أتخيل حياة حيث لا يمكن للمرء أن يسمع قطاراً قبل أن يسقط نائماً». أنا أستطيع أن أتخيل بسهولة قضاء بقية حياتي هنا في هذه المدينة، مع هؤلاء الناس، لا شيء يستحق أكثر من السلام الآتي من النسيان، هذه هي الأشياء التي فكرت فيها بينما أنظر إلى الملاك وهو يتحدث إلى الثعبان.

خفتت الأضواء للحظة، انسحب الملاك من على المنصة. عندما عادت الأضواء مرة أخرى، تمّ إعلان أنه سيكون هناك استراحة لمدة عشر دقائق، فكرت أنني قد أخرج وأتجوّل حول المكان مع أصدقائي من سكان المدينة الذين كنت سأقضي حياتي كلها معهم.

كنت أشقّ طريقي وسط الكراسي الخشبية عندما رأيت من يجلس على بعد ثلاثة أو أربعة صفوف من المنصة المزعومة التي لم تكن أكثر من قطعة مرتفعة عن الأرض، يقرأ بريد «فيران باج»، وبدأ قلبي يدق بعنف، كان هذا هو «محمد»، حبيب جنان، ابن دكتور فاين الذي افترض أنه مات؛ يعقد ساقيه ـ وهو يمتلك السلام الذي طالما كنت أشتاق إليه ـ ويقرأ صحيفته، غير واعٍ بالعالم.

الفصل الثالث عشر

عندما خطوت خارج الخيمة، هبت رياح خفيفة على ياقتي، نزولاً إلى ظهري ثم شملت كل جسدي، جاعلة إياي أقشعر، تحوّل أصدقائي المستقبليون المواطنون إلى أعداء لا أثق بهم، ظلّ قلبي يدق بعنف، شعرت بوزن المسدس في حزامي، ولم يكن دخان سيجارتي فقط هو الذي أرسله لأعلى ولكن العالم كله.

رنّ جرس، نظرت للداخل: ما زال يقرأ صحيفته. رجعت إلى الخيمة مع باقي الجمهور، جلست خلفه مباشرة بثلاثة صفوف، بدأ «البرنامج». شعرت بدوار. لا أتذكر ماذا رأيت، وما لم أر، ما سمعت، وما لم أستمع إليه، كان عقلي يفكر في مؤخرة عنقه، كانت عنقاً حليقة نظيفة متواضعة تخصّ إنساناً محترماً.

بعد فترة شاهدتهم يسحبون الرقم الفائز من حقيبة جلدية بنفسجية اللون؛ ثم تمّ إعلان الرقم الفائز، صعد رجل مسن بلا أسنان أعلى المنصة، وهو سعيد للغاية. هنأته الملاك، التي كانت ترتدي نفس ثوب السباحة ذي القطعتين وطرحة العروس. وبلا أي تأجيل، ظهر الرجل الذي يبيع التذاكر ومعه نجفة كبيرة يحملها بين يديه.

صاح الرجل المسن الذي بلا أسنان، «يا إلهي! ثريا النجوم ذات سبعة أفرع!».

عندما سمعت الجمهور في الخلف يصيحون باحتجاجاتهم،

أدركت أن من المؤكد أن نفس الرجل يفوز بهذا السحب كل مرة، والنجفة هي نفسها التي تعاود الظهور كل مساء تحت أغطيتها البلاستيكية.

كان في يدي الملاك مكبر صوت لاسلكي، أو نوع من مكبر صوت مزيف لا يكبر صوتها. قالت: «ما مشاعرك؟ كيف تشعر وأنت محظوظ جداً؟ هل أنت متأثر؟»

«أنا متأثر جداً، سعيد جداً، فليباركك الله!» قال الرجل المسن في مكبر الصوت.

«إن الحياة شيء جميل. بالرغم من المشاكل والأحزان التي تتكاثف، فأنا لست خائفاً ولا خجلان من كوني سعيداً للغاية».

قليل من الأشخاص شجعوه.

سألت الملاك: «أين ستقوم بتعليق النجفة؟».

«هذه ضربة حظ» قال الرجل كبير السن، منحنياً على مكبر الصوت كما لو كان قادراً على الحياة. «أنا واقع في الحب، وخطيبتي أيضاً تحبني كثيراً، سنتزوج قريباً وننتقل إلى منزلنا الجديد؛ حيث سأعلق هذه التحفة ذات السبعة أفرع».

كان هناك بعض التصفيق، ثم سمعت صيحات تقول «قبلة، قبلة».

أطبق الصمت على الجميع عندما قبلت الملاك الرجل على وجنتيه، انتهز الرجل العجوز فرصة الصمت وتسلل بعيداً وهو يحمل النجفة.

قال صوت غاضب في الخلف: «لكن بقيتنا لا يفوز بأي شيء أبداً!».

قالت الملاك: «هدوء! الآن أنصتوا إليَّ». أطبق نفس الصمت الغريب الذي حدث أثناء القبلة مجدداً على الجمهور. «سيقع الاختيار على أرقام حظكم أيضاً في يوم من الأيام، لا تنسوا ذلك! ساعة سعادتكم ستأتي فجأة أيضاً»، قالت الملاك. «لا تكونوا متضجرين، توقفوا عن الحسد على الآخرين! إذا تعلمتم أن تحبوا حياتكم، فسوف تعرفون سلسلة الأحداث التي ستقود إلى سعادتكم. إذا كنتم قد فقدتم طريقكم أم لا، فسوف تروني حينها». رفعت حاجباً واحداً في إغراء. «وبالرغم من كل شيء، فملاك الرغبة سيبقى هنا كل مساء، هنا في مدينة «فيران باج!».

انطفأ الضوء السحري الذي كان ينيرها، وأضيء مصباح عادي عار، غادرت مع الزحام، وأنا حافظ على المسافة بيني وبين طريدتي. هاجت الرياح. نظرت عن يميني وعن يساري؛ كان هناك اختناق في المرور في الأمام، لذلك وجدت نفسي أقف على بعد خطوتين خلفه.

«كيف كان الحال، يا عثمان؟ هل استمتعت به؟ قال رجل يرتدي قبعة.

«ليس كثيراً»، قال هو. أسرع للأمام، والصحيفة مطوية تحت ذراعه.

لماذا لم آخذ في الاعتبار قط احتمال أنه يمكن أن يتخلى عن هويته «كـ «محمد» تماماً كما هرب من كونه «ناهيت»؟ وماذا عن هذا الاسم المحدد الذي استخدمه لاسمه المستعار الجديد؟ إذا كنت قد فكرت في الأمر، هل كنت سأفكر فيه؟ لم أفكر فيه حتى. بقيت خلفه، منتظراً أن يبتعد

لمسافة بيننا. بذلت مجهوداً وأنا أتفحص جسده الممشوق ذا الانحناءة الخفيفة. نعم، كان هذا هو الشخص الصحيح تماماً، الشخص الذي وقعت جنان في حبه بجنون، بدأت أتبعه، كان في مدينة «فيران باج» شوارع مصفوفة بالأشجار أكثر من أية مدينة صغيرة ذهبت إليها، كانت طريدتي تتحرك للأمام مباشرة؛ عندما وصل إلى عمود إضاءة، بدا أنه خطا داخل منطقة رديئة الإضاءة؛ ثم، مقترباً من شجرة زيزفون أو كستناء، كان يختفي في قلب الظلام حيث أوراق الأشجار والرياح في هياج، ذهبنا إلى ما بعد ميدان المدينة، بعد مسرح «العالم الجديد»، مررنا بمساحة ضيقة من أضواء النيون التي تخصّ محل العجائن، مكتب البريد، صيدلية، مقهى التي تعكس بتتابع وهجاً أصفر شاحباً، ثم برتقالياً نوعاً ما، ثم أزرق، ثم أحمر على القميص الأبيض التي تلبسه طريدتي؛ والآن نحن ندخل حارة. عندما أصبحت واعياً بالصورة التي بلا أخطاء التي تمثل صفاً من المنازل ذات الثلاثة طوابق، أضواء الشارع، والأشجار التي تصدر حفيفاً، ارتعشتُ من إثارة المطاردة التي تخيلت أنها كانت الشيء المثير بالنسبة لـ «سركيسوف»، «زينث»، و«سيكو» وكل الذين من طرازهم، وبدأت أقترب بسرعة من قميص طريدتي الأبيض غير المميز ومعي الشيء الذي سينجز المهمة.

ثم انفتحت أبواب الجحيم، كان هناك صوت تحطم؛ كنت مجبراً على التخفي في الركن، خذلتني شجاعتي للحظة، خائفاً من أن يكون أحد هؤلاء الجواسيس يتتبعني، لكن كان الأمر مجرد نافذة أغلقتها الرياح، فتحطم زجاجها؛ تلفتت الطريدة حولها في الظلام وتوقفت قصيراً؛ افترضت أنه كان سيتقدم دون أن يراني عندما ـ قبل أن أستطيع حتى أن أسحب صمام مسدس

«والشر» ـ أخرج فجأة مفاتيحه، وفتح الباب، واختفى في واحد من المنازل المصطفة، انتظرت في الجوار حتى أضيء النور في نافذة في الطابق الثاني.

ثم فكرت في الأمر في نفسي، شاعراً بالوحدة كلياً في العالم مثل قاتل، أو قاتل مأجور، شارع متفرع من الشارع الذي استسلم باحترام لقواعد المستقبل، تمايلت أحرف النيون المتواضعة للخلف والأمام مع الرياح التي تخص حانة «إيست إن»، تعِدني بقليل من الصبر، بقليل من النصائح، بقليل من السلام، فراش، وليلة طويلة أفكر فيها في حياتي، في قراري أن أصبح قاتلاً، وفي حبيبتي جنان، لم يكن هناك شيء أفعله حيال هذا إلّا المضي قدماً فيه، طلبت غرفة بتليفزيون لمجرد أن الموظف تساءل إذا كنت أريد واحداً.

دخلت الغرفة وأدرت التليفزيون؛ عندما ظهرت الصورة الأبيض والأسود، قلت لنفسي لقد قمت باختيار موفق. فلن أقضي الليلة مع مهانة قاتل سيىء، لكني سوف أكون بصحبة أصدقائي على شاشة التليفزيون الأبيض والأسود نمزح معاً بسعادة لأنهم قاموا بقتل أشخاص كثيرين جداً لدرجة أنهم يعتبرون الأمر تافهاً، رفعت الصوت، شعرت بالارتياح عندما بدأ الرجال ذوو الأسلحة يصرخون في بعضهم البعض، بدأت سيارات أمريكية الصنع تزيد من سرعتها، تتمايل في منحنيات على الطريق؛ نظرت إلى العالم خارج نافذتي، أشاهد بهدوء أشجار الكستناء المتشابكة في الرياح.

كنت في لا مكان وفي كل مكان؛ ولهذا بدا لي أنني كنت في مركز العالم غير الموجود. من نافذة غرفتي اللطيفة المنعزلة

في الفندق التي كانت تقع في هذا المركز، استطعت رؤية أضواء غرفة الرجل الذي أريد قتله، لم أستطع رؤيته بالفعل، لكني كنت راضياً أنه كان هناك في تلك اللحظة، وكنت أنا هنا لهذه الليلة؛ إلى جانب ذلك، كان أصدقائي في التليفزيون قد بدأوا بالفعل في رشّ بعضهم البعض بالرصاصات. بعد أن انطفأت الأنوار في غرفة طريدتي بفترة قصيرة، غرقت أنا أيضاً في النوم دون التفكير في معنى الحياة، الحب، والكتاب، لكني استمعت إلى أصوات طلقات البنادق.

في الصباح نهضت، استحممت، حلقت، وغادرت دون أن أغلق جهاز التليفزيون، الذي كان يتوقع سقوط الأمطار على كل البلاد، لم أقم بفحص مسدسي ولم أنظر لنفسي في المرآة بغضب مثل رجل شاب ما يقنع نفسه بأن يقتل من أجل الحب وحب كتاب، من المؤكد أنني بدوت في سترتي البنفسجية مثل طالب جامعي متفائل، يسافر من مدينة إلى أخرى خلال إجازته الصيفية، محاولاً بيع موسوعة العالم الجديد من باب إلى باب، طالب جامعي ينطبق عليه الوصف يتوقع أن يجري محادثة طويلة عن الحياة والأدب مع محب للكتب صادفه في الضواحي، ألن يفعل؟ لقد عرفت بالفعل في وقت ما أنني لا أستطيع قتله مباشرة دون تأجيل، صعدت مجموعة من سلالم واحدة، ضغطت الجرس، ترررررن! لكن لا، ماكينة كهربائية ما صدر منها صوت زقزقة، مقلدة طيور الكناريا، إن آخر الصيحات تصل بطريقة ما إلى مدن مثل «فيران باج»، والقتلة يجدون ضحاياهم حتى لو وصلوا إلى آخر الأرض، في مواقف مثل هذه في الأفلام، يتبع الضحايا سلوكاً يوحي بأنهم يعرفون كل شيء ويقولون، «عرفت أنك ستأتي». لكن لم يتم الأمر كذلك.

كان مندهشاً، لكنه لم يكن مندهشاً لدهشته لكنه اختبرها كشيء غير عادي تماماً، كان لوجهه ملامح جميلة، حسناً، بالرغم من أنها لم تكن ذات معنى عميق كما تخيلت أنها ستكون في هذه المناسبة، وكان حقاً ـ حسناً، على كل حال ـ وسيماً.

قلت: «عثمان، لقد جئت».

صمت.

ثم هدّأ كل منا نفسه، نظر إليَّ للحظة ثم نظر إلى الباب بإحراج، كما لو كان ليس لديه أية نية في السماح لي بالدخول، وقال، «دعنا نخرج معاً».

لبس سترته ذات اللون البني الشاحب التي لم تكن مضادة للرصاص، وخطونا معاً إلى الخارج في الشارع والذي كان عذر لشارع، نظر إلينا كلب بغيض على الرصيف وطيور الحمام البري على قمة شجرة كستناء أبق عليها الصمت. انظري، جنان، لقد أصبحنا نحن الاثنين صديقين جيدين! كان أقصر مني قليلاً وكنت أفكر أنه يجب أن يكون هناك شيء في طريقة مشيتي مماثل لطريقة مشيته، التي كانت أكثر الخصال وضوحاً بالنسبة لشباب مثلنا ـ بمعنى آخر، التقاء طريقة الأكتاف وهي تتحرك لأعلى ولأسفل وحركة الخطوات للأمام ـ عندما سألني إذا كنت قد تناولت أي شيء كإفطار. هل أريد شيئاً لآكله؟ هناك مقهى عند المحطة. ما رأيك في تناول بعض الشاي؟

قام بشراء اثنتين من الفطائر الشهية من المخبز، توقف عند البقال وابتاع ربع رطل من جبنة «كاسار» تمّ تقطيعها ولفّها في ورق شمعي. الآن كانت صور الملاك على مدخل السيرك تجذب انتباهنا وتنادينا. . دخلنا المقهى، حيث طلب كوبين من الشاي؛

خطونا خارجين من الباب الخلفي إلى باحة خلفية بها حديقة تطل على المحطة وجلسنا، طيور الحمام البري، التي تبني أعشاشها على أشجار الكستناء أو على حواف الأسطح، ظلت تتنفس دون إعطائنا أي اهتمام، كان هواء الصباح البارد ناعماً، كان هناك صمت، وعلى مسافة كانت هناك موسيقى تنبعث من راديو وبالكاد كانت مسموعة.

«كل صباح قبل أن أبدأ العمل، آتي هنا وأتناول الشاي»، قال ذلك بينما يفضّ غلاف الجبن. «هذا المكان جميل في الربيع، وجميل أيضاً عند نزول الثلج. في الصباح أحب مشاهدة الغربان وهي تمشي في الجليد على الرصيف، والأشجار المغطاة بالثلج، المقهى الجميل الآخر هو «الموطن الأصلي» في الميدان، مكان ذو حجم مناسب لديه موقد ضخم يبعث الكثير من الدفء، الحرارة، كنت أقرأ صحيفتي هناك، أستمع إلى الراديو لو كان مفتوحاً، وأحياناً كنت أجلس فقط، ولا أفعل شيئاً.

«حياتي منظمة، ومرتبة، ومنضبطة... كل صباح أغادر المقهى قبل التاسعة، وأعود إلى منضدة عملي، عند حلول الساعة التاسعة، أتناول قهوتي لأتهيأ لعمل جاد بالفعل، وأكتب، ما أفعله قد يبدو بسيطاً، لكنه يتطلب عناية فائقة، أظل أعيد كتابة الكتاب دون أن أنسى فاصلة واحدة.. حرفاً واحداً، أو نقطة. أريد كل شيء أن يكون مطابقاً، حتى لآخر نقطة وفاصلة، وهذا يمكن تحقيقه فقط من خلال الإلهام والرغبة المماثلين لرغبة وإلهام المؤلف الأصلي، شخص آخر قد يسمي ما أفعله نسخاً، لكن عملي يتجاوز فكرة التكرار البسيط. حين أكتب أشعر وأفهم كل حرف، كل كلمة، كل جملة كما لو كانت كل واحدة هي

اكتشافي غير المسبوق. هكذا، كنت أعمل بدأب من التاسعة صباحاً حتى الواحدة، لا أفعل شيئاً آخر، ولا شيء يستطيع منعي عن العمل. فأنا عموماً أنجز عملاً أفضل في الصباح.

«ثم أخرج لتناول الغذاء. هناك مطعمان في المدينة. مطعم «آسيم» يميل لأن يكون مزدحماً، الطعام في مطعم السكة الحديد ثقيل والمكان يقدم كحوليات. أذهب إلى واحد أحياناً، وإلى الآخر أحياناً أخرى. وهناك أوقات أتناول فيها بعض الخبز والجبن في أحد المقاهي، وأحياناً لا أغادر المنزل على الإطلاق. لا أتناول أي شيء كحولي قط عند الظهيرة. قد أغفو قليلاً في بعض الأوقات، ولكن هذا كل شيء، الشيء المهم هو أن أجلس لأعمل بحلول الساعة الثانية والنصف، أعمل بلا توقف حتى السادسة والنصف أو السابعة، إذا كان العمل يمضي جيداً، فربما أظل أعمل لوقت أطول. إذا أحب المرء ما يكتبه وكان راضياً بقدراته، فيجب ألا يفوّت الفرصة ليكتب كل ما يستطيع، الحياة قصيرة، هكذا تكون الأشياء، وأنت تعرف الباقي، لا تدع شايك يبرد الآن.

«بعد يوم من العمل، أنظر برضا إلى ما فعلته، وأخرج مجدداً، أحب الحديث مع شخص أو اثنين بينما أتصفح الجرائد أو أشاهد التليفزيون قليلاً. فهذا ضروري بالنسبة لي لأني أعيش بمفردي وأنوي أن أستمر في العيش بنفس الطريقة، أحب مقابلة الناس، أدردش معهم، أستمع إلى بعض القصص، وربما حتى أقصّ واحدة. ثم أحياناً أذهب لمشاهدة الأفلام، أو أرى برنامجاً ما على التليفزيون؛ هناك بعض الأمسيات عندما ألعب الورق في المقهى، وأحياناً أخرى أعود إلى البيت مبكراً، وأحضر الجرائد اليومية معي».

قلت: «كنت في خيمة المسرح أمس».

«هؤلاء الناس ظهروا منذ حوالي شهر وبقوا. فبعض سكان المدينة لا يزالون يذهبون لمشاهدتهم».

قلت: «المرأة التي هناك، تبدو مثل ملاك تقريباً».

قال: «إنها ليست ملاك، فهي تنام مع الأشخاص المهمين بالمدينة، وأي جندي صغير يأتي ويدفع نقوداً. هل فهمت؟».

كان هناك صمت. التعبير «هل فهمت؟» أطاح بي من على الكرسي المريح للغضب الساخر حيث كنت مسترخياً سكيراً بعربدة ووضعني على مقعد خشبي صلب غير مريح؛ حيث كنت أجلس بتوتر في حديقة تطل على محطة القطار.

قال: «كل ما قيل في الكتاب وراء ظهري الآن».

قلت: «لكنك ما زلت تكتب الكتاب طوال اليوم».

«أنا أفعل ذلك من أجل المال».

قال ذلك دون أن يبدو أنه يشعر بنصر أو بخجل، لكن أكثر منه كما لو كان يعتذر عن اضطراره لشرح الموقف، كان يكتب الكتاب مجدداً ومجدداً في كراسات مدرسة عادية بخط اليد. وطالما أنه يعمل من ثماني إلى عشر ساعات يومياً في المتوسط، وينجز بمعدل ثلاث صفحات في الساعة، فلقد أتمّ طبعه بخط اليد لكتاب ذي ثلاثمائة صفحة خلال عشرة أيام، فهذا سهل. هناك أشخاص هنا يدفعون أجوراً معقولة لهذا النوع من العمل، مثل الأشخاص المعروفين في المدينة، التقليديين، الناس الذين يحبونه، هؤلاء الذين يعجبون بجهوده، معتقداته، تكريسه لوقته، صبره، أو يشعرون بنوع من السعادة بأنه أحمق يصرّ على غبائه

يعيش بسعادة في وسطهم. . . . . . والأكثر من ذلك حقيقة أنه قد كرّس حياته لمثل هذه الخطة المتواضعة خلقت حوله بدون قصد ـ ولقد قال هذا بتردد كبير ـ نوع رديء من «أسطورة هشة». كانوا يحترمونه، مدركين وجهة النظر في عمله ـ قال هو أيضاً «كيف سأعبر عن ذلك؟» ـ الذي كان مقدساً.

شرح كل ذلك تحت إصرار مني رداً على أسئلتي الاستجوابية؛ فعلى النقيض، لم يظهر أنه يستمتع بالحديث عن نفسه على الإطلاق. بعد الكلام عن امتنانه لعملائه، النية الحسنة للمتحمسين الذين يشترون النسخ المكتوبة بخط اليد من الكتاب، والاحترام الذي يكنونه له، قال، «على كل حال، فأنا أسدي لهم خدمة. أوفر لهم شيئاً حقيقياً، كتاب مكتوب بخط اليد كلمة بكلمة، مكتوب باقتناع، الجسد والروح. وهم يعوضونني بأجور يومية عن عمل يوم. وفي المحصلة النهائية، تسير حياة كل شخص على نفس المنوال».

كنا صامتين. أثناء تناولي الفطائر الطازجة مع شرائح الجبن، فكّرت أن حياته الآن قد استقرت؛ كانت حياته ـ ليكرر ما في الكتاب ـ على نفس المسار. مثلي، بدأ رحلته على الطريق التي بدأت بالكتاب، لكن خلال بحثه، الرحلات والمغامرات مليئة بالموت، الحب، والكارثة، لقد حقق ما عجزت عنه؛ وجد الاتزان حيث تبقى الأشياء في السر للأبد؛ اكتشف سلامه الداخلي، كنت أتناول قطمات حذرة من شريحة الجبن واستمتعت بآخر رشفة من الشاي في قاع الكوب، عندما شعرت أنه يجب أن يكرر يومياً الروتين الخاص بإيماءاته مشتملة على يديه، أصابعه، فمه، ذقنه، ورأسه، الهدوء الذي يأتي من الاتزان الذي اكتشفه

ضمن له وقتاً لا نهائي، لكن أنا ـ حشري وغير سعيد ـ كنت أؤرجح ساقيّ تحت المائدة.

تفاقمت الغيرة بداخلي فوراً، الرغبة في أن أرتكب شيئاً شريراً، لكنني أصبحت واعياً بشيء أكثر كرهاً. إذا سحبت مسدسي وأطلقت الرصاص عليه في حدقة عينه، فسأظل لم أؤثر في هذا الرجل الذي وصل إلى سكون الزمن الأبدي من خلال الكتابة. سيظل فقط يتقدم في طريقه ـ ولكن في هيئة مختلفة ـ خلال الوقت الذي في حالة ثبات تام، كانت روحي القلقة التي لا تعرف الراحة تكافح لتذهب إلى مكان أو آخر، مثل سائق حافلة نسي وجهته.

سألته عن أشياء كثيرة، كانت ردوده بـ «نعم»، «لا»، «عادة» قصيرة جداً حتى أنني أدركت مع كل مثال أنني عرفت الإجابة بالفعل بنفسي، كان مسروراً بحياته. ولا ينتظر أي شيء أكثر من هذا، كان ما زال يحب الكتاب ويؤمن به، لم يكن يشعر بأي حقد تجاه أي شخص. فلقد فهم معنى الحياة، لكنه لا يستطيع أن يشرح ماهيته. فمن البديهي أنه تفاجأ لرؤيتي. لم يعتقد أنه يمكن أن يعلم أي شيء لأي شخص. فكل شخص يملك حياته الخاصة ووفقاً لكلامه ـ كل الحيوات لها صلاحية متساوية. فهو يحب العزلة، لكن ذلك في حد ذاته لم يكن أساسياً لأنه يحدث أن يستمتع بالصحبة كثيراً، أيضاً، كان قد أحب جنان جداً. نعم، لقد وقع في الحب معها. لكن فيما بعد نجح في الهرب منها، لم يكن متفاجئاً أنني نجحت في العثور عليه، كنت لآخذ تحياته العميقة لجنان، كانت الكتابة هي النشاط الوحيد لحياته، لكنها ليست مصدر سعادته الوحيد، عرف أن عليه أن يعمل مثل كل

شخص آخر. فهو يستطيع الاستمتاع بفعل عمل آخر. نعم، فإذا كان يوفر الرزق، فيستطيع القيام بأي نوع من العمل، النظر إلى العالم، كما يمكن أن نقول ـ في الواقع رؤية العالم في هيئته الحقيقية ـ أعطاه ابتهاجاً كبيراً.

كان هناك قطار يدخل إلى المحطة. شاهداه. تبعته رأسانا وهو يذهب بعيداً ويصدر أصواتاً، ليخرج دوائر هائلة من الدخان، قديماً، متعباً، لكنه ما زال يعمل جيداً، مصدراً ضوضاء معدنية وأصوات صفير مثل فرقة موسيقية قروية مضجرة.

عندما اختفى القطار في طريق مصفوف بأشجار اللوز، كان هناك حزن في عيني الرجل الذي أخطط لوضع رصاصة في قلبه بعد قليل على أمل العثور في جنان على الهدوء الذي وجده في إعادة كتابة الكتاب مراراً وتكراراً. تورطت للحظة في روح الأخوة، كنت ألاحظ أن الاستغراق الطفولي في هاتين العينين عندما فهمت لماذا أحبت جنان هذا الرجل لهذه الدرجة، بدت ملاحظتي صحيحة وحقيقية للغاية حتى أنني احترمت جنان لكونها أحبته؛ لكن بعد ذلك بلحظات، ترك الشعور الثقيل بالاحترام المكان لشعور من الغيرة سقطتُ فيه كما لو كنت أسقط منحدراً في بئر.

ثم سأل القاتل ضحيته لماذا استقر على اسم «عثمان» ـ الذي كان اسم القاتل كذلك ـ في الوقت الذي قرّر أن ينضم للنسيان في هذه المدينة الصغيرة الغامضة. «لا أعرف»، قال ذو الاسم المستعار عثمان دون ملاحظة سحب الغيرة في عيني عثمان الحقيقي؛ ثم مبتسماً بلطف أضاف، «لقد أعجبت بك في الحال عندما قابلتك لأول مرة، ربما كان هذا السبب».

نظر بانتباه يقترب إلى حد التقدير والاحترام للقطار الذي يعود من مزرعة اللوز على قضبان مختلفة، يستطيع القاتل أن يقسم أنّ ضحيته ـ الذي كان منغمساً في مراقبة القطار الذي يلمع بشدة في ضوء الشمس ـ قد أصبحت غير واعية كلياً بالعالم بأسره، لكن ليس تماماً. تمّ استبدال نسيم الصباح البارد بقسوة يوم دافىء ومشمس.

قال عدوي: «لقد تجاوزت التاسعة، وقت الذهاب للعمل بالنسبة لي... إلى أين ستذهب؟».

عالماً تماماً ما كنت أفعل، قلقاً وسيىء الحظ لكن ليس بدون أفكار، توسلت لشخص ما بكل إخلاص للمرة الأولى في حياتي: أرجوك، ابق لفترة أطول؛ دعنا نتحدث أكثر؛ دعنا نعرف بعضنا البعض.

كان مندهشاً وربما متوتراً قليلاً، لكنه فهمني، ليس المسدس الذي في حزامي، ولكن عطشي، ابتسم بتسامح حتى أن الشعور بمنزلة متساوية الذي اعتقدتُ أن «الوالثر» أعطاه لي كان يتحطم إلى شظايا. كيف كان المسافر غير المحظوظ قادراً على الوصول بسهولة إلى حدود مأساته بدلاً من الوصول إلى قلب الحياة قد سيطر عليه قلق كاف ليستجوب السيد الحكيم عند هذا الحد عن معنى كل شيء من الحياة إلى الكتاب، الوقت، الكتابة، والملاك!؟

ظللت أستجوبه عن كل ما يعنيه هذا، وظلّ هو يسألني عما أعني بـ «كل هذا». هذا عندما سألته عما قد يكون السؤال المبدئي، لكي أوجهه له. وظلّ يخبرني أن عليَّ أن أكتشف هذا المكان الذي ليس بداية ولا نهاية. وبعد ذلك، ربما لم يكن هناك

حتى سؤال لأطرحه عليه. لا، لم يكن، إذاً ماذا كان هناك؟ ما الشخص الذي يعتمد على كيف ينظر إلى الأشياء. أحياناً كان هناك هدوء يحاول المرء أن يسترجع منه شيئاً ما. أحياناً أخرى يجلس المرء ويتناول الشاي ويجري محادثة شيقة على المقهى في الصباح، كما نفعل الآن، نشاهد المقطورة والقطار، ونستمع إلى هديل الحمام البري، ربما كانت هذه الأشياء ليست كل شيء، لكنها لم تكن ـ بالرغم من كل شيء ـ لا شيء. حسناً، هل كان هناك مكان أبعد، مملكة جديدة نراها بعد كل هذا السفر؟ وإذا كان هناك مكان أبعد، فهو خلال النص؛ لكنه أكّد أنه من غير المجدي البحث عما اكتشفه هو في النص من خارج النص، في الحياة الواقعية. فبالرغم من كل شيء، فالعالم على الأقل بلا حدود، متدفق، وغير مكتمل كالنص.

في هذه الحالة، لماذا تأثر كلانا بشدة بالكتاب؟ أخبرني أن هذا السؤال يمكن فقط لشخص لم يتأثر على الإطلاق بالكتاب أن يسأله. فالعالم مليء بمثل هؤلاء البشر، ولكن هل أنا واحد منهم؟ لم أعد أعرف أي نوع من الأشخاص كنت، كنت شخصاً أنفق بتبذير وفقد أصل روحه على الطريق، محاولاً أن يجعل جنان تقع في حبه، محاولاً تحديد مكان هذه المملكة، وقتل منافسه. لم أسأله عن ذلك ـ يا ملاكي ـ سألته عمن تكونين.

«أنا لم أصادف الملاك الذي تحدث عنه الكتاب قط». قال ذلك لي. «قد يكون الأمر أنك ترى الملاك في لحظة الموت، في نافذة حافلة ما».

كم كانت ابتسامته جميلة، غير رحيمة. كنت لأقتله. لكن لم يحن الوقت بعد. أولاً يجب أن أخرج منه كيف يمكن أن أجد

وأستعيد النقطة المركزية لروحي الضائعة، لكن المأساة التي وقعت فيها لن تسمح لي البتة بأن أسأل الأسئلة المناسبة، الصباح العادي في «أناتوليا الشرقية» التي قالت عنه النشرة الإذاعية الجوية إنه ملبد بالغيوم جزئياً مع أمطار متفرقة، الضوء المبهر في محطة القطار الهادئة، زوج من الدجاجات يتجول بلا وعي عند نهاية الرصيف، زوج من الشباب يتحدث ويحمل حقائب من المياه الغازية من على عربة يد إلى بار للوجبات الخفيفة في المحطة، مدير المحطة الذي كان يدخن سيجارة ـ كل هذه الأشياء ضغطت على اليوم الحالي أثناء ما كان يتقدم في وعيي بالكامل حتى لم يعد هناك مكان متبق في عقلي المشتت لكي يسأل سؤالاً مناسباً عن موضوع الحياة أو الكتاب.

كنا صامتين لوقت طويل. ظللت أتساءل أي سؤال سأوجهه له. وربما كان هو يتساءل كيف سيتهرب مني ومن أسئلتي، بقينا برهة أخرى. الآن، حانت لحظة الاستنتاج أن تظهر، دفع ثمن الشاي، وألقى بذراعيه حولي وقبلني على وجنتيّ. كم كان مسروراً أنه رآني! كم كرهته! حسناً، لا، أنا أحبه. لكن لماذا يجب عليّ أن أحبه؟ فأنا أنوي قتله.

لكن ليس بعد. كان سيمر على خيمة العرض في طريق البيت إلى الحجرة حيث يؤدي محمده المخبولة، في عش الفأر في الشارع الذي استسلم لأوامره وهدوء قواعد وجهة النظر، كنت سآخذ الطريق المختصر مع مسار الطريق الحديدي وألحق به، وأقتله تحت أعين ملاك الرغبة التي قام بتحقيرها.

تركت الوغد الراضي عن نفسه يرحل، شعرت بالغضب من جنان لأنها جعلت نفسها تحبه، لكن بمجرد النظر إلى ظله البائس

الحساس على مسافة كان كافياً لأعرف أن جنان كانت على حق. كم كان عثمان هذا غير حازم، البطل الرئيسي للكتاب الذي تقرؤه! وكم كان هذا مثيراً للشفقة! أنه عرف في أعماق نفسه أن الرجل الذي يريد أن يكرهه كان «محقاً». عرف أيضاً أنه لن يستطيع أن يرغم نفسه على قتله بعد، جلست مستمراً في الحزن لساعتين على كرسي المقهى المهترىء، أؤرجح ساقيّ، أفكر في ماهية المكائد الأخرى التي قد يكون العم رفقي وضعها لي في بقية حياتي.

حول الظهيرة رجعت ـ وأنا محبط ـ إلى فندق «إيس إن»، باحثاً عن كل العالم مثل قاتل محتمل، كان الموظف مسروراً بشكل كاف بالضيف من اسطنبول الذي سيقضي ليلة إضافية ليعرض عليه شاياً. لذلك استمعت لذكريات خدمته العسكرية لوقت طويل للغاية لأنني كنت خائفاً من الوحدة في غرفتي؛ عندما تحول الموضوع إليّ، كنت سعيداً بإخباره بأن عندي «حساباً لأصفيه» لكني لم أستطع «إتمام المهمة بعد».

بمجرد أن خطوت داخل الغرفة، أدرت التليفزيون، الذي كان قد أُغلق. على الشاشة الأبيض والأسود، كان هناك ظل يمشي بجانب حائط أبيض، موجهاً بندقية، وعند وصوله للزاوية، أفرغ خزانة الرصاص في الهدف، تساءلت إذا ما كنت أنا وجنان لم نر النسخة الملونة لنفس المشهد على متن حافلة ما. جلست على حافة الفراش، أنتظر بصبر لأرى بقية مشاهد القتل. الآن، وجدت نفسي أحدق خارج نافذتي في نافذته. ها هو هناك يكتب، بالرغم من أنني لم أستطع أن أستوضح تماماً إذا كان الظل الذي رأيته كان هو حقاً، ولكن ها هو يجلس في سلام فقط

ليشعرني بالحزن، جلست وشردت في مشاهدة التليفزيون لفترة، لكن عندما نهضت كنت قد نسيت بالفعل ما هذا الذي رأيته. ثم وجدت نفسي أنظر إلى نافذته ثانية، كان قد وصل إلى نقطة الثبات عند نهاية الطريق، وكنت أنا عالقاً وسط ظلال من الأبيض والأسود يطلقون النيران على بعضهم البعض. كان قد وصل وعبر إلى الناحية الأخرى؛ كان يملك حكمة الحياة الجديدة التي كانت تختفي من عندي؛ ولم أعد أملك شيئاً إلّا الأمل الغامض بأنني قد أمتلك جنان.

لماذا لا تعرض لنا هذه الأفلام قط كم أن هؤلاء القتلة آسفون ومثيرون للشفقة، يتخبطون في متاهاتهم في غرفة فندق ما؟ لو كنت أنا المخرج، لكنت عرضت أغطية الفراش غير المرتبة، طلاء إطار النافذة المتساقط، الستائر المتهالكة، القميص المتسخ المجعد الذي يرتديه الرجل الذي يدرس ليصبح قاتلاً، دواخل جيوب سترته البنفسجية الذي كان يخرقها باستمرار، الطريقة التي يجلس بها على حافة الفراش وظهره منحن، متسائلاً هل يثير نفسه ليمضي الوقت.

لفترة معقولة بدأت مناقشات مفتوحة مع الأصوات الكثيرة في رأسي حول المواضيع التالية: لماذا تقع النساء الرقيقات والجميلات دوماً في حب رجال متواضعين يعيشون حياة خرجت عن نطاقها الطبيعي؟ إذا نجحت في أن أصبح قاتلاً وإذا أمكن لآثار القتل أن تكون دائماً مقروءة في عيني لبقية حياتي، هل سأملك مظهر رجل بائس، رجل حزين؟ هل يمكن لجنان أن تحبني حقيقة أبداً، حتى لو كان بمقدار نصف ما شعرت به تجاه الرجل الذي سوف أقتل؟ هل يمكنني أن أفعل ما فعله «ناهيت ـ

محمد ـ عثمان»، أكرس نفسي كلياً لكتابة كتاب العم رفقي مراراً وتكراراً في كراسات دراسية؟

بمجرد اختفاء الشمس وراء الشارع في الأفق، حلّت برودة المساء وبدأت الظلال الطويلة في التجول في الشوارع بخبث مثل قطة، بدأت أراقب نافذته دون توقف، لم أستطع رؤيته، لكني اعتقدت أنني أفعل، ركزت نظراتي على النافذة والحجرة التي وراءها دون أن أعير أدنى اهتمام للشخص الذي يأتي من حين لآخر في الشارع، محاولاً أن أصدق أنني أستطيع حقاً أن أرى شخصاً هناك.

لا أعلم كم من الوقت استمر الوضع، لم يكن الظلام الدامس قد حلّ بعد ولم يكن ضوء حجرته قد أضيء بعد، عندما وجدت نفسي في الشارع تحت نافذته، أنادي عليه. ظهر شخص من النافذة المتوارية واختفى في حينها عند رؤيتي، دخلت إلى المبنى، صعدت الدرج بغضب؛ فتح الباب دون أن أضطر إلى جعل الجرس يزقزق؛ لكن للحظة لم أستطع رؤيته هناك.

دخلت الشقة. كان هناك قماش أخضر منشور على المائدة، رأيت عليه كراسة مفتوحة، والكتاب. أقلام رصاص، محايات، علبة سجائر، أعقاب سجائر، ساعة بجانب المنفضدة، أعواد ثقاب، كوب من القهوة التي أصبحت باردة، هناك، كانت أدوات التجارة التي تخصّ شخصاً مثيراً للشفقة حكم عليه بالكتابة لبقية حياته.

خرج من مكان ما داخل الشقة، بدأت أقرأ ما كتبه لأني كنت غير راغب في النظر إلى وجهه. قال: «أحياناً أنسى فاصلة، أو أكتب حرفاً أو كلمة خطأ. وحينها أدرك أنني أكتب دون اقتناع

أو إحساس، فأتوقف. والعودة للعمل بنفس التركيز أحياناً ما تستغرق ساعات، وحتى أيام. أنتظر بصبر الإلهام أن يأتي لأنني لا أرغب في كتابة كلمة واحدة لا أشعر بقوّتها داخلي.

«استمع إليّ»، قلت ببرود، كما لو كنت أتكلم عن شخص آخر بدلاً مني. «أنا لا أستطيع أن أكون نفسي. لا أستطيع أن أكون أي شيء. ساعدني، ساعدني في أن أخرج هذه الحجرة، الكتاب، وما تكتبه أنت من عقلي، وبذلك يمكنني أن أعود إلى حياتي القديمة في سلام».

مثل شخص ناضج ألقى نظرة خاطفة على ماهية العالم والحياة، قال إنه يعرف ماذا أعني، أفترض أنه اعتقد أنه فهم كل شيء. لماذا لم أطلق النار عليه ببساطة هنا وهناك؟ حسناً، لأنه قال: «فلنذهب إلى مطعم السكة الحديدية».

عندما جلسنا في المطعم، أخبرني أن هناك قطاراً عند التاسعة إلّا الربع. بعد أن أغادر، سوف يذهب ليشاهد فيلماً. هكذا قرر بالفعل أن يرسلني لأحزم حقائبي.

قال: «عندما قابلت جنان، كنت قد فقدت الأمل بالفعل في الاقتناع بالكتاب. مثل كل شخص آخر، أردت حياة، لكن يجب عليّ امتلاك كتب أكثر من أي شخص آخر. إلى جانب أن، كل ما مررت به وأنا على أمل أن أجد العالم الذي فتحه الكتاب أمامي أمدّني بميزات إضافية، لكن جنان أشعلتني، وعدتني بأنها ستكشف لي الحياة، كانت مقتنعة بوجود الحقيقة التي أخفيتها أنا عنها، ولم أخبرها بالرغم من أنني عرفت أنها في مكان ما ورائي، أو وراء إدراكي، طلبت مفتاح هذه الحديقة باقتناع حتى أنها أجبرتني على الكلام عن الكتاب وأخيراً أعطيتها إياه. قرأت

الكتاب، وقرأته مرة أخرى، وأخرى، قامت بإغوائي بواسطة تكريسها لنفسها للكتاب، برغبتها المؤثرة للعالم الذي أدركته بداخل الكتاب، كنت غير واع بالهدوء الذي في الكتاب أو ـ كيف أعبر عن هذا؟ ـ الموسيقى الداخلية للنص، كما في الأيام عندما قرأت الكتاب لأول مرة، كنت محملاً بغباء بالأمل في سماع الموسيقى في الشوارع، أو في مكان ما بعيداً، أو في أي مكان في العالم يصادف أن تكون، إعطاء الكتاب إلى شخص آخر كانت فكرتها حين ذاك، كنت خائفاً من كم السرعة التي قرأت بها الكتاب وشعرت به، كنت على وشك نسيان طبيعة الكتاب عندما ـ حمداً لله ـ أطلقوا الرصاص عليّ».

سألته بديهياً ما طبيعة الكتاب التي فكّر بها.

قال: «الكتاب الجيد هو شيء يذكرنا بالعالم بأسره، ربما هكذا كيف كان كل كتاب، أو هكذا يجب أن يكون كل كتاب». توقف عن الكلام. «الكتاب هو جزء من شيء ما الذي شعرت بوجوده ومدته من خلال ما يقوله الكتاب، دون أن يكون موجوداً في الكتاب». قال ذلك، لكنني استطعت أن أرى أنه لم يكن سعيداً بالطريقة التي عبّر بها. «ربما كان شيئاً قد تمّ لأخذه من هدوء (ثبات) أو ضجة العالم، لكنه ليس الهدوء أو الضجة في حد ذاتها». ثم قال إنني قد أعتقد أن ما يقوله هراء، لذلك سيحاول أن يعبّر عنه بكلمات أخرى. «الكتاب الجيد هو قطعة من الكتابة تُلمح بالأشياء غير الموجودة، نوع من الغياب، أو الموت... لكن من غير المجدي أن تبحث خارج الكتاب عن مملكة تقع وراء الكلمات». قال إنه أدرك ذلك بينما يكتب ويعيد كتابة الكتاب، حتى أنه تعلّمه وتعلمه جيداً، كان غير ذات نفع أن تبحث عن الحياة الجديدة والمملكة الجديدة وراء النص. فهو

يستحق بالكامل أن يُعاقب على فعله ذلك فقط. قال: «لكن اتضح أن قاتلي كان أخرق، فقد جرحني في كتفي فقط».

قلت له: إنني كنت أشاهده من نافذة في قاعة «تاسكيسلا» عندما أُطلق عليه الرصاص في باحة محطة «الميني باص».

قال: «كل أسفاري، رحلاتي، رحلات الحافلات أرتني أن نوعاً ما من الحبكة (الخطة) وضعت ضد الكتاب، رجل مجنون يريد أي شخص لديه اهتمام جاد بالكتاب قتيلاً. من هو ولماذا يفعل ذلك، لا أعرف ببساطة. كان الأمر كما لو أنه يفعل ذلك ليقوي عزمي بألا أتحدث عن موضوع الكتاب لأي شخص آخر، أنا لا أريد أن أجلب اللعنة لأي شخص، أو أن أتسبّب في أن تخرج حياة أي شخص عن مسارها، هربت من جنان، لم أعرف فقط أننا لن نجد المملكة التي نتمناها قط، ولكني فهمت جيداً أنها قد تمس بأذى وهي معي من وهج الموت الذي يشعّ من الكتاب».

أتيت على ذكر العم رفقي لأفاجئه وآخذه على حين غرة للحظة، لكي أخرج منه المعلومات التي يخفيها عني. قلت إن هذا الرجل قد يكون المؤلف، ذكرت أنني كنت أعرفه في طفولتي عندما اعتدت أن أقرأ بجنون قصصه المصورة الخيالية. بعد أن قرأت الكتاب، تفحصت بدقة هذه القصص مرة أخرى، على سبيل المثال، «برتق وبيتر»، حيث رأيت أن كثيراً من الموضوعات قد تمّ نشرها بالفعل.

«هل كان هذا محبطاً بالنسبة لك؟».

عندما أخبرني أنه أكمل بطريقة منطقية المعلومات المتوافرة في تقارير «سركيسوف». بعد أن قرأ الكتاب لآلاف المرات، بدا

أنه تذكر شيئاً يذكّره بقصص الأطفال المصورة التي قرأها، قام بتحديد مكان هذه القصص في المكتبات، ووضع يده على التشابهات المدهشة، واكتشف هوية المؤلف، لم يكن قادراً على التحدث مع العم رفقي كثيراً في أول مرة. بعد أن بادرتني زوجته، أثناء المقابلة التي حدثت في المدخل، حاول «رفقي راي» أن يغلق الموضوع بمجرد أن أدرك أن الشاب الغريب الذي يقف على بابه كان مهتماً بالكتاب، رداً على توسلات محمد بقوله: إنه لم يعد لديه عن نفسه أي اهتمام بالموضوع، كان من الممكن أن تتم مقابلة مؤثرة عند الباب هناك بين المعجب الشاب والكاتب العجوز، ولكن زوجة «رفقي راي» ـ التي هي العمة راتيب، أعطيتُ أنا ملاحظة بذلك ـ تدخلت، كما فعلت أنا لتوي الآن، وسحبت زوجها للداخل، وهي تغلق الباب بشدة في وجه هذا الضيف غير المدعو الذي كان من المعجبين.

«كنت محبطاً للغاية، ولم أستطع تصديق ما حدث». قال خصمي الذي لم أستطع أن أقرر هل أدعوه ناهيت، أو محمد، أم عثمان. «لفترة ظللت أذهب رجوعاً إلى المنطقة وأتجسس عليه من مسافة. ثم في نفس اليوم استجمعت شجاعتي ثانية ورننت جرس الباب».

هذه المرة استجاب «رفقي راي» له بإيجابية أكثر. قال إنه ما زال لا يملك أي اهتمام أكثر بالكتاب، لكن الشاب المصر قد يبقى ويتناول بعض القهوة، تساءل من أين حصل الشاب على الكتاب الذي نُشر منذ سنوات عديدة مضت، وأراد معرفة لماذا اختار هذا الكتاب بينما هناك كتب كثيرة رائعة ليقرأها؛ أي مدرسة يذهب إليها الشاب، وماذا يريد أن يفعل في حياته،

إلخ. . . إلخ. «بالرغم من أنني طلبت مرات عديدة أن يكشف لي أسرار الكتاب، فلم يكن يأخذ كلامي على محمل الجد»، قال محمد: «كان محقاً، على أي حال. الآن أعرف أنه لم يكن لديه سر ليكشفه».

لقد أصرّ لأنه لم يكن يفهم هذا حين ذاك، قام الرجل العجوز بشرح أنه تورط في مشكلة عميقة بسبب الكتاب، تمّ الضغط عليه من قبل البوليس ووكيل النيابة. «حدث كل هذا فقط لأنني اعتقدت أنه من الممكن أن أمد بعض البالغين ببعض اللهو والإمتاع كما أقوم بتسلية وإمتاع الأطفال»، قال ذلك. ولو كان هذا ليس كافياً، استمر العم رفقي ليقول، «لم أستطع بالتأكيد أن أدع حياتي بأكملها تتدمر من أجل كتاب كتبته لأسلي نفسي». لم يدرك ناهيت في غمرة غضبه حينها كم أصبح الرجل العجوز حزيناً للغاية عندما شرح أنه تنكر للكتاب ووعد وكيل النيابة أنه لن يطبع طبعة أخرى من الكتاب ولن يكتب قط أي شيء آخر على نفس الموال؛ لكن الآن، عندما لم يعد ولا ناهيت ولا محمد، ولكن عثمان، فهم جيداً حزن الرجل العجوز حتى أنه يشعر بالحرج كلما تذكر وقاحته.

كما قد ينتهي الأمر بأي شاب صغير على ارتباط بالكتاب بإيمان عميق، قام باتهام الكاتب العجوز بعدم تحمل المسؤولية، تغيير الرأي، الخيانة، والجبن. «كنت أرتجف من الغضب، أصرخ في وجهه وأهينه، لكنه كان متفهماً ومتسامحاً». عند نقطة معينة، قام العم رفقي أيضاً على قدميه وقال، «ستفهم الأمر يوماً ما، لكنك قد تكون مسناً جداً حينها لتكون صالحاً لأي غرض». «لقد فهمت الأمر»، قال الرجل الذي تحبه جنان بجنون، «لكني

لا أستطيع القول إذا كنت ذات نفع أم لا. إلى جانب ذلك أعتقد أن الأشخاص الذين قتلوا الرجل العجوز كانوا من أتباع الرجل المجنون الذي كان يتتبعني».

سأل القاتل المحتمل الضحية المحتملة إذا كان التسبب في قتل شخص هو حمل ثقيل بالنسبة له لأن يحمله لبقية حياته، لم يقل الضحية المحتملة شيئاً، لكن القاتل المحتمل رأى الحزن في عينيه وخاف على مستقبله هو، كانا يشربان الراكي بوتيرة بطيئة مثل زوج من الرجال المحترمين؛ ووسط صور القطارات، مشاهد من أرض الوطن، وصور فوتوغرافية لنجوم الأفلام، صورة لوجه «أتاتورك» كان يبتسم بثقة أنه قام بحماية الجمهورية بتركها في رعاية الحشد السكران في هذه الحانة.

نظرت لساعتي، كان هناك ساعة وربع الساعة قبل موعد الرحيل طبقاً لجدول مواعيد القطار الذي يريد أن يشحنني عليه، وكان هناك شعور بيننا بأننا نجحنا في الحديث عن الأمور أكثر من اللازم؛ كما يقال في الكتب، «كل ما يجب أن يقال قد قيل». ظللنا صامتين لفترة مثل اثنين من الأصدقاء القدامى اللذين لا يزعجهما الصمت الذي يطبق عليهما، شاعران أنه قد يكون فارغاً؛ على النقيض، اعتبرنا الصمت ـ على الأقل في اعتقادي الشخصي ـ الشكل الأكثر تعبيزاً للمحادثة.

على الرغم من ذلك، كنت أتأرجح بين الإعجاب به بدرجة كافية لأتطلع إليه والرغبة في القضاء عليه لكي أملك جنان، فكرت للحظة أن أخبره أن الرجل المجنون الذي أراد المؤلف وقرّاء الكتاب قتلي لم يكن سوى والده، دكتور فاين. أردت أن أغرس هذا الألم فيه، فقط لأنني أشعر بالحزن، هذا كل شيء،

لكني لم أخبره. حسناً، حسناً، فكرت في نفسي؛ أنت لا تعرف أبداً، بالطبع؛ لا تفسد عليه خططه.

من المؤكد كانت لديه فكرة بسيطة عن أفكاري، أو على الأقل التقط نوعاً من صدى الموت الغامض عن أفكاري، لذلك حكى لي قصة الحافلة التي قادته إلى نفض الرجال الذين أرسلهم أبوه وراءه من حوله. أضاء وجهه للمرة الأولى. عرف على الفور أن الشاب الجالس بجواره في الحافلة المغطاة بالحبر قد مات في الحادثة، التقط بطاقة هوية هذا الشاب من جيبه والذي كان اسمه محمد وقام باستخدامها. عندما بدأت الحافلة في الاشتعال، كان قد خرج. بعد أن خمدت النيران، جاءته فكرة نيرة، دس بطاقة هويته في جيب الجسد المحترق، وقام بتحريكه إلى مقعده هو، وانسحب بعيداً وذهب لحياته الجديدة، التمعت عيناه مثل عيني طفل عندما كان يخبرني بكل هذا؛ ولكني ـ بديهياً ـ احتفظت لنفسي بمعلومة أنني رأيت نفس الوجه الفرح الآن كما في صور طفولته التي رأيتها في المتحف الذي أهداه والده إلى ذكراه.

صمت مرة أخرى، صمت، وتبعه صمت. أيها النادل، أحضر لنا بعض الباذنجان المحشي.

فقط لمجرد تمضية الوقت، أنت تعرف. لمجرد التسلية، دخلنا في تعميم موضوع موقفنا ـ بكلمات أخرى ـ حياتنا، عينه على ساعته، عيني على عينه، معبراً بين الحين والآخر عن هذا النوع من الأشياء: حسناً، الحياة كانت كذلك. في الواقع، كل شيء كان بسيطاً تماماً، رجل عجوز متطرف كتب لمجلة السكة الحديدية وكان يحتقر السفر بالحافلة وحوادث الحافلات قام بكتابة كتاب من نوع ما، جاءه الإلهام من قصص الأطفال

المصورة التي كتبها بنفسه، ثم، بعد عدة سنوات، رجال شبان متفائلون مثلنا قاموا بقراءة هذه القصص في طفولتهم حدث أن قرأوا الكتاب، وصدقنا أن حياتنا بأكملها قد انقلبت رأساً على عقب، انحرفنا عن مسار حياتنا، السحر في هذا الكتاب! معجزة الحياة! كيف حدث هذا؟

ذكرت مرة أخرى أنني عرفت رجل السكك الحديدية «العم رفقي» في طفولتي.

قال: «يبدو سماع ذلك غريباً، بطريقة ما».

لكننا عرفنا أنه لا يوجد شيء غريب، كل شيء كان مثل ذلك، وهكذا كان كل شيء.

قال رفيقي العزيز: «إن الأمر أكثر من ذلك في مدينة «فيران باج»».

من المؤكد أن هذا نشّط ذاكرتي. قلت، متعمداً وأنا أضغط على كل مقطع وأحدّق في وجهه، «أوقات كثيرة كنت تحت تأثير انطباع أن الكتاب كان عني، أن القصة كانت قصتي».

الصمت. صخب الموت لروح تحتضر، حانة، مدينة، عالم، صوت السكاكين والشوك، أخبار المساء على التليفزيون. خمس وعشرون دقيقة أخرى.

قلت مرة أخرى: «أنت تعرف، لقد صادفت حلوى كراميل «حياة جديدة» في أماكن كثيرة أثناء إقامتي في «أناتوليا». منذ سنوات عديدة، كانت متوفرة في اسطنبول أيضاً. لكنها لا تزال هناك في الأماكن البعيدة، في قاع الصناديق وبرطمانات الحلوى».

«أنت بالفعل وراء السبب الأصلي، أليس كذلك؟» قال غريمي، الذي أخذ كفايته من المشاهد من الحياة الأخرى. «أنت تبحث عن الأشياء النقية، غير الفاسدة، والواضحة. لكن ليس هناك محرك رئيسي للأحداث. فمن غير المجدي أن تبحث عن المفتاح، الكلمة، المصدر، الأصل الذي نحن كلنا مجرد نسخ منه».

لذلك لم يعد السبب أنني أردت امتلاك جنان، لكن لأنه لم يكن يؤمن بكِ ـ يا ملاكي ـ حتى أنني في طريقي إلى المحطة فكرت بعمق في إطلاق النار عليه.

لمبرر ما قام بكسر فترات الصمت المشروخة بقول بعض الأشياء، لكني لم أستطع حتى أن أعطي انتباهي الكامل لهذا الرجل البائس البهي الطلعة.

«عندما كنت طفلاً، بدت القراءة كمستقبل مهني بالنسبة لي التي قد يمتهنها الواحد يوماً ما في المستقبل سوياً مع المهن الأخرى.

«عرف «روسو» ـ الذي عمل كناقل للموسيقى ـ ماذا يعني أن تكتب مرات ومرات ما أبدعه الناس الآخرون».

الآن، ليس فقط لحظات الصمت ولكن كل شيء آخر بدا مشروخاً أيضاً، قام شخص بإغلاق التليفزيون وأدار الراديو على أغنية حزينة بشدة عن لوعة الحب والفراق. كم مرة في حياة الفرد يعطي الصمت المتبادل مثل هذا السرور؟ كان قد سأل لتوه على الفاتورة عندما أسقط ضيفاً غير مدعو في منتصف العمر نفسه على مائدتنا وتطلع إليّ. عندما فهم أنني صديق عثمان من الجيش «عثمان»، قال: «نحن مغرمون بعثمان كثيراً»، محاولاً أن يجري

محادثة. «إذاً كنتما رفيقين في الجيش!» ثم بحذر، كما لو كان يكشف سراً، ذكر اسم زبون ظهر ليحصل على نسخة بخط اليد من الكتاب. عندما أدركت أن صاحبي الذكي يدفع عمولة لوسطاء مثل هذا الشخص مرة أخرى، للمرة الأخيرة ـ أدرك أنه كان من المحتم عليكِ أن تحبي هذا الرجل.

افترضت أن مشهد الفراق ـ بمنأى عن طلقة مسدسي «والثر» ـ سيكون مماثلاً لخطوط النهاية في «برتف وبيتر»، ولكن اتضح أنني مخطىء. في هذه المغامرة الأخيرة، عندما خاض الصديقان المقربان الكثير من المعارك معاً أدركا أنهما وقعا في حب نفس الفتاة وبنفس الهدف، جلسا سوية وقاما بحل المشكلة بود. «برتف» ـ الأكثر حساسية وصمتاً ـ يعرف أن الفتاة ستكون أكثر سعادة مع بيتر الذي يتمتع بطبيعة متفائلة ومنفتحة، لذلك قام بتسليم الفتاة بهدوء لبيتر؛ ويفارق الأبطال بعضهم البعض عند محطة القطار حيث قاموا بالاحتماء بها ذات مرة ببسالة، مصحوباً بشهقات من القرّاء ذوي العيون الدامعة مثلي. في حالتنا، لدينا عميل مولع بالأدب يجلس بيننا والذي لم يعط أي اهتمام للمشاعر المتدفقة للحساسية أو للغضب.

معاً، مشى ثلاثتنا إلى المحطة، اشتريت تذكرة، اشتريت اثنتين من الفطائر اللذيذة مثل التي تناولناها في الصباح. جعلهم «برتف» يزنون لي كيلو من العنب الأبيض الكبير الذي تشتهر به «فيران باج». بينما اخترت بعض المجلات الهزلية، ذهب هو إلى دورة المياه ليغسل العنب. حدّق كل من العميل وأنا في بعضنا البعض، يأخذ القطار يومين ليصل إلى اسطنبول. عندما عاد «برتف»، أشار مدير المحطة بإشارة البدء بإيماءة حازمة ولكن

رشيقة ذكرتني بأبي. تبادلنا القبلات على وجنات بعضنا البعض ثم افترقنا.

كانت بقية الأحداث تشبه أحداث التشويق في أفلام الفيديو التي كانت جنان تحب مشاهدتها على متن الحافلة، أكثر مما تشبه قصص العم رفقي المصورة، الرجل الشاب المعتوه الذي رتّب ذهنه ليقتل من أجل الحب طوّح بالكيس البلاستيكي المليء بالعنب المبتل والمجلات إلى ركن في عربة القطار، وقبل أن يستجمع القطار سرعته، انساب خارجاً من العربة على أبعد جانب من الرصيف. بعد أن تأكد أنه لم يلاحظه أحد، يبقى على بعد ويراقب بعيون الصقر ضحيته والسيد الذي يأخذ عمولة 10%. تحدث الاثنان لفترة ثم تسكعا معاً خلال الشوارع الحزينة والمهجورة قبل أن يفارقا بعضهما البعض أمام مكتب البريد، يراقب القاتل ضحيته وهي تدخل إلى مسرح «العالم الجديد»، ويشعل سيجارة. نحن لا نعرف قط فيما يفكر القاتل في هذا النوع من الأفلام، لكننا نشاهده وهو يلقي سيجارته أرضاً بعد أن ينتهي من تدخينها ـ كما فعلت لتوي ـ ويدوس على عقب السيجارة، يشتري تذكرة للعرض المسمى بـ«ليالي بلا نهاية»، ويسير إلى داخل المسرح بخطوات بدت واثقة، لكن قبل أن يدخل القاعة، تراه يتفحص الحمام، ويتأكد أن لديه مخرجاً للهرب.

بقية الأحداث كانت منشرخة مثل لحظات الصمت التي تصاحب الليل، سحبت مسدسي، حررت صمام الأمان، ودخلت قاعة المسرح حيث كان يعرض الفيلم. كان المكان حاراً ورطباً، وكان السقف منخفضاً. ظهر ظلي حاملاً المسدس على الشاشة

وانعكس الفيلم الملون «تكني كلر» على سترتي البنفسجية، انعكس الضوء القادم من آلة العرض السينمائي على عيني»، لكن المقاعد كانت فارغة إلى حد ما، لذلك حددت مكان ضحيتي على الفور.

ربما كان مندهشاً، ربما لم يفهم، ربما لم يتعرف عليّ، ربما توقع ذلك، لكنه ظلّ جالساً.

«تجد شخصاً على شاكلتي، تعطيه الكتاب وتتأكد أنه سيقرؤه، تتسبب في أن يخرج عن مسار حياته»، قلت ذلك، لكن لنفسي أكثر منه له.

لكي أتأكد تماماً أنني أصبته، أطلقت الرصاص ثلاث مرات من نقطة قريبة في صدره ووجهه الذي لم أستطع أن أراه. بعد صوت طلقة الـ «والثر»، أعلنت للمتفرجين الجالسين في الظلام، «لقد قتلت رجلاً».

بينما كنت أخرج من هناك، ظللت أشاهد ظلي على الشاشة وفيلم «ليالي بلا نهاية» يُعرض حوله، ظلّ شخص يصيح، «مشغل آلة العرض، مشغل آلة العرض».

ركبت على متن أول حافلة تغادر المدينة، حيث فكرت في كثير من الأسئلة حول الحياة والموت. تساءلت أيضاً لماذا في لغتنا نفس الكلمة المستعارة من الفرنسية، «ماكينيست»، تطلق على كل من الشخص الذي يشغل الأفلام والشخص الذي يشغل محركات السكك الحديدية؟

الفصل الرابع عشر

غيّرت الحافلة مرتين، قاضياً ليلة الاغتيال بلا نوم، ثم ألقيت نظرة خاطفة على نفسي في المرآة المليئة بالشروخ في دورة مياه في استراحة ما، لن يصدقني أحد لو قلت إن الشخص الذي رأيته في المرآة يشبه شبح الشخص المقتول أكثر من الشخص القاتل، لكن السلام الداخلي الذي وجده الشخص الميت في الكتابة كان بعيداً حقاً عن الشخص الذي في دورة المياه، الشخص الذي ركب فيما بعد بلا راحة، محمولاً على طول الطريق على مجلات الحافلة.

في الصباح الباكر قبل الرجوع لبيت دكتور فاين ذهبت إلى حلاق المدينة وحلق الحلاق شعري وذقني، كي أقدّم نفسي لجنان في هيئة الشاب الجسور وحسن النية الذي من أجل بناء عش الأسرة السعيدة خاض بنجاح خلال تجربة مريرة، وأصبح وجهاً لوجه مع الموت. عندما وضعت قدمي على أملاك دكتور فاين ورأيت نوافذ المنزل، فكّرت أن جنان تنتظرني في فراشها الدافىء جعلت قلبي يخفق، دوم ـ دوم، وطفق عصفور دوري يزقزق على شجرة الدلب لفترة طويلة في تناغم.

فتحت روزباد الباب. لم ألاحظ المفاجأة على وجهها، ربما لأني منذ نصف يوم فقط قمت بقتل أخيها أثناء مشاهدة فيلم. ربما لهذا السبب لم ألحظها وهي ترفع حاجبيها المتوترين،

لماذا كنت بالكاد أستمع لما كانت تقوله؛ بدلاً من ذلك، كما لو كنت في بيت والدي شخصياً، مشيت مباشرة لحجرتنا، الحجرة حيث تركت جنان على فراش المرض، فتحت الباب دون أن أطرقه لكي أفاجىء حبيبتي. عندما رأيت أن الفراش كان خاوياً، لا يوجد عليه أحد، بدأت أفهم ما كانت تخبرني به روزباد بينما أنا أدخل الحجرة.

احترقت جنان بالحمى لمدة ثلاثة أيام كاملة، لكنها تعافت بعد ذلك. وعندما قامت من فراشها، ذهبت إلى المدينة وأجرت مكالمة هاتفية إلى اسطنبول، تحدثت إلى أمها، وعندما لم يكن هناك أي خبر مني لعدة أيام قررت فجأة الذهاب إلى البيت.

حدقت عيني إلى خارج نافذة الحجرة الخاوية على شجرة التوت في الباحة الخلفية وهي تلمع في نور الصباح، ولكن بين الحين والآخر لم أستطع منع نفسي من النظر إلى الفراش، الذي تمّ ترتيبه بعناية، نسخة جريدة «جيودل» التي كانت تستخدمها جنان كمروحة في طريقنا إلى هنا موضوعة على الفراش المهجور. أعلن صوت بداخلي أن جنان قد فهمت بالفعل أنني قاتل سيىء، وأنني لن أراها مجدداً قط، لذلك فالمبرر قوي أن أغلق الباب وألقي بنفسي على الفراش الذي ما زال يفوح برائحة جنان وأبكي بكل عينيّ حتى يغلبني النعاس. تكلم صوت آخر معارضاً الصوت الأول، قائلاً إن القاتل يجب أن يتصرف مثل قاتل ويتصرف بدم بارد وبدون قلق: جنان بلا شك تنتظرني في منزل والديها في «نيسانتاسي». قبل مغادرة الحجرة، رأيت البعوضة الخبيثة على حافة النافذة و- نعم - قتلتها بضربة واحدة من يدي، كنت على ثقة أن الدم الموجود في معدة البعوضة الذي كان منتشراً على

خط الحب في راحة يدي من المؤكد أنه دم حبيبتي جنان.

اضطررت أن ألحق بجنان عائداً إلى اسطنبول، لكن قبل أن أغادر هذا المنزل وأنا في قلب السيناريو المضاد للمؤامرة الكبرى، فكرت في أن الأمر سيكون ذا نفع وفي مصلحة مستقبلي أنا وجنان معاً أن أرى دكتور فاين، كان جالساً إلى منضدة موضوعة بعد شجرة التوت بقليل، حيث كان يأكل حفنة من العنب باستمتاع كبير، ناظراً من فوق الكتاب أمامه على التلال التي تسلقناها سوية.

هادئان كزوج من الأشخاص لديهم كل الوقت الذي في العالم، تحدثنا أنا وهو عن قسوة الحياة، عن كيف تحدّد الطبيعة في الواقع قدر الإنسان بطريقة خفية، عن الطريقة التي كانت تزرع بها السكينة والهدوء داخل قلب الإنسان بواسطة الفكرة المختصرة التي ندعوها الوقت، عن كيف لا يستطيع الشخص أن يستمتع بمتعة حتى هذا العنب المليء بالعصارة إلّا إذا اختبر الشخص قوة الإرادة الكبيرة والحزم، عن المستوى العالي للضمير والرغبة الضرورية للوصول إلى مصدر الحياة الحقيقية الخالية من أي هزل، وإذا ما كان هذا علامة على النظام العظيم في الكون أو الظهور الهزلي لمصادفة عشوائية ما التي جلبت قنفداً متواضعاً ليندفع ماراً بنا وهو يصدر صوتاً كالحفيف. فمن المؤكد أن قتل رجل يمد الشخص بالنضج؛ كنت قادراً على الربط بين الإعجاب الذي استمريت في الشعور به تجاه دكتور فاين ـ لدهشتي كثيراً ـ وبين الشعور بالتعاطف والتحمّل الذي ارتفع فجأة من أعماقي مثل المرض الكامن. لهذا السبب، عندما اقترح عليّ أن أصحبه في زيارته لقبر ابنه المتوفى. كنت قادراً على الرفض بحزم دون

أن أجرحه: الأيام الطويلة للجهود المكثفة قد أرهقتني حقاً؛ فيجب على أي حال أن أعود للبيت ولزوجتي وأستريح قليلاً، وأثناء ذلك الوقت يجب أن أستجمع شتات نفسي وأقرر إذا ما كنت سأقبل المسؤولية الكبرى التي عرضتها عليّ.

عندما استفسر دكتور فاين ما إذا كانت أتيحت لي الفرصة لأجرب الهدية التي أعطاها لي، فقلت له: إنني وضعت مسدس «والثر» في اختبار وكنت راضياً تماماً عن أدائه؛ ثم متذكراً ساعة «سركيسوف» التي في جيبي، قمت بسحبها للخارج، وضعتها بجانب الوعاء الذهبي الذي فيه العنب، ناقلاً له أن هذا كان تعبيراً عن الاحترام والإعجاب من تاجر مكسور القلب والسن يشعر به ناحيته.

«كل هؤلاء الأشخاص غير المحظوظين الحزانى هؤلاء التعساء، هؤلاء الضعفاء!» قال، وهو يلقي نظرة جانبية على الساعة. «إنهم يريدون أن يعيشوا الحياة التي اعتادوا عليها ويحتفظوا بأشيائهم العزيزة. لأجل هذه النهاية، ربطوا أنفسهم عاطفياً بشخص مثلي. فقط لأني أعطيتهم أملاً في عالم عادل! كم كان قاسياً أن تثبت القوى الخارجية كونها مصرّة على تدمير حياتنا وذكرياتنا! قبل أن تتخذ قرارك بالعودة إلى اسطنبول، فكر كيف قد تكون قادراً على مساعدة هؤلاء الأشخاص ذوي الحياة المحطمة».

فكرت للحظة في فكرة وجود جنان في اسطنبول بسرعة، وأقنعتها بحلو الكلام بالرجوع هنا إلى المنزل، حيث قد نعيش في سعادة إلى الأبد في قلب المؤامرة المضادة للمؤامرة الكبرى...

«قبل أن تعود لزوجتك الساحرة»، قال دكتور فاين، مستخدماً لغة الروايات الفرنسية في الترجمة، «تخلص من فضلك

من هذه السترة البنفسجية التي تجعلك تبدو كمغتال أكثر من كونك بطلاً، هه؟».

وعلى الفور اتجهت عائداً إلى اسطنبول على متن الحافلة، كانت صلاة الصبح يؤذن لها عندما فتحت أمي الباب؛ لم أمدها بأي كلمة تفسير عن «الجنة المنشودة» التي كنت أبحث عنها ولا عن زوجة ابنها الملائكية.

«لا تترك أمك هكذا ثانية أبداً!» قالت، وهي تشغل السخان الغازي وتملأ حوض الاستحمام بماء ساخن جارٍ.

تناولنا الإفطار معاً بهدوء كالأيام الخوالي كأم وابنها، أدركت أن أمي ـ مثل كثير من الأمهات اللاتي ينزلق أبناؤهن إلى تيارات سياسية ومتطرفة ـ كانت محتفظة بفمها مغلق، معتقدة أنني انجذبت إلى قطب مغناطيسي ما في أرض ما وراء النهر، وأنها إذا سألت، فقد أخبرها بأشياء تخيفها. عندما استقرت يدها السريعة الخفيفة للحظة بجانب برطمان العنب الأحمر، رأيت البقع على ظهر يدها، جاعلة إياي أعتقد أنني رجعت إلى حياتي القديمة، هل كان من الممكن لكل شيء أن يستمر كأن شيئاً لم يحدث؟

بعد الإفطار جلست إلى مكتبي ونظرت طويلاً إلى الكتاب، الذي كان مفتوحاً في نفس المكان حيث تركته، لكن ما كنت أفعله لا يمكن أن يدعى قراءة، كان شيئاً مثل التذكر، أو نوعاً من المعاناة......

كنت على وشك أن أغادر لأذهب وأجد جنان عندما اعترضت أمي طريقي.

«اقسم أنك سوف تعود بحلول الليل».

أقسمت؛ وظللت أقسم في كل مرة أغادر فيها البيت في

الصباح لمدة شهرين كاملين، لكني لم أستطع العثور على جنان في أي مكان. . ذهبت إلى «نيسانتاسي»، جبت الشوارع، انتظرت أمام بابهم، رننت جرسهم، عبرت جسور، ركبت معديات، ذهبت لمشاهدة أفلام، أجريت مكالمات هاتفية، لكني لم أتلق ولو كلمة واحدة، أقنعت نفسي أنها سوف تظهر في «تاسكيسلا» عندما تبدأ المحاضرات في نهاية أكتوبر/تشرين الأول، لكنه لم تأت، مشيت في الطرقات في المبنى طوال اليوم؛ أحياناً، معتقداً أن ظلاً يشبه ظلها قد مرّ بجانب النوافذ التي تطل على الردهة، أندفع خارجاً من الفصل وأبدأ فجأة في الجري، وأحياناً أذهب إلى قاعة فارغة وأضيع في أفكار وأنا أشاهد المارة على الرصيف وفي الشارع.

كان في اليوم الذي قام الناس فيه بتشغيل التدفئة المركزية لأول مرة وأشعلوا مدافئهم ـ مسلحاً بسيناريو قمت بتلفيقه بمهارة ـ رننت جرس شقة والديّ زميلتي في الفصل المفقودة، ونجحت في إهانة نفسي كلية بإلقاء الهراء الذي أعددته في تفاصيل كثيرة عليهم، لم يقوموا فقط بعدم تزويدي بأي معلومات عن مكان وجود جنان، لكنهم أيضاً لم يلمحوا إطلاقاً من أين أحصل على أي معلومات، وبالرغم من ذلك، في الزيارة الثانية التي قمت بها لمنزلهم في ظهيرة يوم أحد عندما كان التليفزيون الملون يعرض مباريات كرة القدم بوفرة، عرفت من محاولتهم لإخراج المعلومات مني باستجوابي عن دوافعي بأنهم يعرفون الكثير ولكن لا يقولون، ذهبت إلى مكان مجهول محاولاً أن أستخرج معلومات من أقاربهم وجدت أسماءهم في دليل الهاتف، النتيجة الوحيدة التي استطعت الوصول إليها من المحادثات التي أجريتها مع كل الأعمام

نافذي الصبر، العمات كثيرات الأسئلة، الخادمات الحذرات، وأبناء وبنات الأخ والأخت الوقحين إن جنان كانت في الجامعة تدرس الهندسة المعمارية.

أما بالنسبة لزملاء فصلها في مدرسة الهندسة المعمارية، فقد صدقوا الخرافات التي قاموا باختراعها بأنفسهم حول جنان وكذلك أخبار عن محمد الذي تمّ إطلاق النار عليه بالقرب من محطة «الميني باص»، سمعت البعض يقول: إن محمداً ضُرب بالنار نتيجة لعملية تصفية حسابات بين تجار المخدرات الأغبياء في الفندق حيث يعمل، وسمعت أيضاً همساً أنه وقع ضحية للمتطرفين وهناك من قالوا إن جنان أُرسلت إلى مدرسة في مكان ما في أوروبا، وأن هذه استراتيجية تلجأ إليها العائلات الراقية عادة مع بناتهن اللاتي يقعن في حب شخص خبيث، ولكن أثبتت التحريات التي أجريتها في مكتب التوثيق أن الأمر ليس كذلك.

من الأفضل ألا أتحدث عن التفاصيل الماهرة لعملية التجسس التي قمت بها لأشهر وسنوات، ولا عن المخططات القاسية التي تليق بقاتل، والألوان التي تشبه أحلام شخص سيىء الحظ، بطبيعة الحال لم تكن جنان في أي مكان بالجوار، لم أتلق أي أخبار عنها، ولم أصادف أي شيء من آثارها، درست مواد الفصل الدراسي الذي فاتني، ثم أكملت الفصل الدراسي الثاني، لم نعد لا أنا ولا أتباع دكتور فاين على اتصال ثانية. فلم يكن لدي أي فكرة عما إذا كانوا لا يزالون مشغولين بعمليات الاغتيال. سوية مع جنان قاموا هم أيضاً بالتسلل مختفين من أحلامي كما اختفوا من كوابيسي ثم كان الصيف؛ ثم بدأت السنة

الدراسية الجديدة في الخريف، والتي أكملتها، وكذلك السنة التي تلتها ثم توجهت لأداء خدمتي العسكرية.

قبل أن أنتهي من واجبي الوطني بشهرين، جاءني خبر بأن والدتي توفيت، أخذت إجازة وقصدت اسطنبول في الوقت المناسب للجنازة حيث كانت أمي تدفن، بعد الليلة التي قضيتها عند بعض الأصدقاء؛ ذهبت إلى البيت؛ وعندما شعرت بفراغ المكان أصبحت قلقاً، كنت أنظر للأوعية والأواني المعلقة على حائط المطبخ عندما سمعت الثلاجة تتنهد بحزن وتنعي خلال أزيزها المعتاد. لقد تُركت وحيداً تماماً في هذه الحياة؛ رقدت على فراش أمي وبكيت قليلاً، ثم أدرت التليفزيون وجلست أمامه مثلما كانت تفعل أمي، وأنا أشاهد لبعض الوقت باستسلام للقدر ونوع من فرحة العيش. قبل أن أذهب لأنام أخرجت الكتاب من مكانه الخفي؛ وضعته على المكتب وبدأت أقرأ، آملاً في أن أتأثر كما كنت أفعل عندما قرأته لأول مرة، بالرغم من أني لم أشعر بأن هناك ضوءاً ينعكس على وجهي، أو أن جسدي ينأى بنفسه ويبتعد عن الكرسي حيث جلست أقرأ الكتاب، فإنني كنت أشعر بسلام داخلي.

هكذا بدأت أقرأ الكتاب بطريقة جديدة، لكني لم أعد أتخيل مع كل مرة أقرؤه أن حياتي انجرفت بعيداً بواسطة رياح قوية باتجاه مملكة مجهولة، كنت أحاول الاستيلاء على النمط الخفي لحساب طويل الأجل، أو النقاط الأفضل للقصة، المنطق الداخلي الذي لم أدركه بينما كنت أعيش خلاله... أنت تفهم بالفعل، أليس كذلك؟ حتى قبل أن أنتهي من واجبي العسكري، كنت قد أصبحت بالفعل رجلاً عجوزاً.

هكذا وهبت نفسي لكتب أخرى على نفس الوتيرة، لم أكن أقرأ لأخفّف من حدة الرغبة في روح بدلاً من الروح التي تتلوى بداخلي في ساعة الغسق، أو لأزيد الفرح باتصالي بسعادة بالمهرجان السري الذي يجري في عالم ما وراء الطبيعة، أو حتى ـ آه، لا أعرف ـ أسرع إلى حياة جديدة قد أتقابل من خلالها مع جنان؛ قرأت لأواجه قدري في الحياة بحكمة. . بيقظة، مثل رجل محترم، وأيضاً لأتحمل غياب جنان، الذي شعرت به بعمق، لم أحتفظ بأي أمل أن تعرض عليّ «ملاك الرغبة» قط شمعداناً ذا سبعة أفرع كجائزة تعويضية لأزيّن بها بيتي مع جنان، في بعض الأوقات، عندما أرفع رأسي من على كتاب أقرؤه في الساعات الأولى من الليل بنوع من التوازن والهدوء الروحي، أصبح واعياً بالصمت العميق في الحي، وذلك عندما ظهرت صورة جنان أمام عيني فجأة وهي نائمة بجانبي في إحدى رحلات الحافلات التي اعتقدت أنها لن تنتهي أبداً.

في إحدى هذه الرحلات، التي انتعشت في مخيلتي بألوان زاهية مثل حلم بالجنة في كل مرة أتذكرها، لاحظت أن جبهة جنان وصدغيها مغطيان بالعرق وكان شعرها مبللاً وملتصقاً بعضه بسبب الهواء في الحافلة والذي كان ساخناً بشكل غير متوقع، وكنت أجفف حبيبات العرق بمنديل «كيتهيا» اشتريته من مدينة تحمل نفس الاسم، عندما أدركت أن على وجه محبوبتي ـ شكراً للضوء البنفسجي القادم من محطة الوقود الذي كان ينعكس علينا لفترة قصيرة ـ تعبيراً للسعادة الشديدة والمفاجأة، فيما بعد في مطعم الاستراحة، أشرقت جنان وهي تجلس مرتدية ثوبها القطني المطبوع المبلل بالعرق الذي اشترته من متجر المقاطعة وتشرب أكواباً عديدة من الشاي، وكانت تبتسم بملء فمها وهي تخبرني

بأنها حلمت بوالدها يطبع قبلات على جبينها، لكن بعد فترة أدركت أنه لم يكن والدها وإنما كان رسولاً من مملكة خُلقت من نور، بعد أن ابتسمت، سحبت شعرها خلف أذنيها كالعادة بحركة مرنة، في كل مرة تقوم بها تذوب قطعة من قلبي، روحي، عقلي قبل أن تختفي في ظلام الليل.

أستطيع تقريباً أن أرى بعض قرائي يتجهمون بأسى، بعد أن فهموا أنني أسترجع ما تبقى من تلك الليالي في ذهني، قلبي، روحي.. أيها القارىء الصبور، القارىء المتعاطف، القارىء الحساس، ابكِ من أجلي إذا استطعت، لكن لا تنس أن الشخص الذي تذرف الدمع من أجله ليس إلّا قاتلاً. إلّا إذا لم تكن كذلك، إذا كانت هناك ظروف تخفّف من جدية الجريمة في المحاكم حتى للقتلة العاديين الذين يطلبون الشفقة، الشعور بهم، الرأفة، فإذاً أتمنى أن تنضم هذه الأشياء في هذا الكتاب الذي أنا متورط فيه.

بالرغم من أني تزوجت فيما بعد، عرفت الآن أن كل شيء سأفعله حتى نهاية حياتي ـ التي لا أعتقد أنها بعيدة جداً ـ له علاقة كبيرة أو صغيرة بجنان، قبل أن أتزوج وحتى بعد أن استقررت أنا وعروسي بسنوات في الشقة التمليك التي ورثتها عن والدي وأصبحت خالية بعد وفاة أمي، واصلت الذهاب في رحلات ممتدة بالحافلات على أمل أن أقابل جنان صدفة، تأكدت من خلال هذه الرحلات على مرّ السنين أن الحافلات أصبحت أكبر فأكبر تدريجياً، حتى أنها تفوح رائحة مطهرة بداخلها، وتمّ وضع أنظمة مائية (هيدرولية) للأبواب التي تفتح وتغلق أوتوماتيكياً بلمسة على الزر، وأن السائقين قد خلعوا

قمصانهم الباهتة المبللة بالعرق ويرتدون الآن زياً ذا كتافات مثل الطيارين، حتى مساعدي الحافلات الأشداء تحولوا الآن إلى سادة مهندمين يحلقون ذقونهم كل يوم، والاستراحات كانت مضاءة بشكل أفضل وأكثر رفاهية ولكنها كانت متشابهة فيما بينها برتابة، والطرق السريعة الآن أوسع ومرصوفة بالكامل بالإسفلت؛ لكني لم ألتق بأي أثر لجنان، فلندع جنان لحالها، كان كثيراً أن أطلب أن أجدها وأجد آثارها. لكن ماذا كنت سأعطي لشيء ما جاء من تلك الليالي الرائعة التي قضيتها في صحبتها، أو سيدة عجوز تناولنا معها الشاي ذات مرة وتحدثنا معها، أو حتى قبس من الضوء كنت متأكداً أنه ينعكس من وجهها على وجهي! لكن برؤية الطرق الجديدة التي كانت مليئة بإشارات المرور، الأضواء المتراقصة، ولوحات الإعلانات غير الرحيمة، وحيث أخفى الرصف الحديث ذكريات الشباب، بدا كل شيء منشغلاً لينسانا وينسى ذكرياتنا في أقرب وقت ممكن.

عرفت بعد واحدة من هذه الرحلات المحبطة أن جنان قد تزوجت وغادرت البلاد، بطلكم المتزوج الذي لديه طفلة، رجل الأسرة الطيب والقاتل، كان عائداً للبيت في المساء من عمله في مكتب تخطيط المدينة ـ حقيبته في يده، وبداخلها لوح من الشيكولاتة السويسرية للطفلة، سحب الكآبة في قلبه، نظرة متجمدة من الإجهاد على وجهه ـ وكان يقف على معدية «كاديكوي» المزدحمة عندما جاءت عيناه فجأة في عيني زميلة دراسة ثرثارة من قسم الهندسة. «أما جنان» قالت المرأة الثرثارة، وهي تحصي مرة أخرى زيجات الإناث في دفعتنا، «فقد تزوجت بطبيب من «سامسون»، واستقرا في ألمانيا»، عندما حوّلت عيني بعيداً عن المرأة لأنظر خارج النوافذ المستديرة، آملاً في أن أمنع

المزيد من الأخبار السيئة التي قد تبثها بعد، لاحظت أن الضباب قد نزل على اسطنبول والبسفور، والذي كان حالة نادرة بالنسبة للمدينة. هل هذا ضباب؟» سأل القاتل نفسه. «أم هل هو ركود روحي البائسة؟».

لم يكن من الضروري أن أتحرى طويلاً قبل أن أكتشف أن زوج جنان لم يكن سوى الطبيب الوسيم عريض المنكبين الذي يعمل في مستشفى «سامسون» للأمن الاجتماعي، الرجل الذي ـ على النقيض تماماً من القراء الآخرين ـ نجح في إيجاد طريقة معقولة لامتصاص الكتاب في نظامه والعيش في سلام وسعادة، حتى أنني بدأت أشرب لأمنع ذاكرتي القاسية من تذكيري باستمرار بالتفاصيل المزعجة لمحادثتي عن الكتاب والحياة التي أجريتها مع الطبيب منذ سنوات عديدة مضت في غرفة الكشف الخاصة به في المستشفى؛ ولكن أثبت الشرب أنه لم يكن فعالاً.

بعد أن هدأ كل من في البيت وكل ما تبقى من صخب اليوم كانت لعبة الشاحنة ذات الإطارين المفقودين الخاصة بابنتي، ودميتها الزرقاء كانت تقف على رأسها لتشاهد التليفزيون في وضع مقلوب، كنت آتي ومعي «الراكي» الممزوج بالصودا الذي مزجته بحرص بنفسي في المطبخ وأجلس بجانب الدمية بأدب، أدير التليفزيون، أخفض الصوت، وأستقر على سلسلة من الصور التي لا تبدو فاحشة جداً، أشاهد التليفزيون في حالة من التشتت، محاولاً أن أميّز ألوان السحب التي في رأسي.

ألا تشفق على نفسك! لا تصدق كم أن وجودك وهويتك فريدة في الواقع.. لا تشكي من كيف أن الحب العميق الذي تشعر به لم يتم تقديره حق قدره، قرأت كتاباً ذات مرة، أنت

تعرف؛ وقعت في حب فتاة؛ اختبرت ذات مرة شيئاً عميقاً، لم يفهموني. . . اختفوا. . . ماذا يفترض أن يفعلوا الآن؟ جنان في ألمانيا. . . . في «باخنوفستراس». . . . أتساءل كيف حالها. . . زوجها الطبيب. . . لا تتحدث كثيراً عن ذلك. . . الزوج الأحمق؛ فلنفترض أنني أرسلت إلى ألمانيا كعضو في وفد الأبحاث، فلنفترض أنه في مساء ما جرينا إلى بعضنا البعض عند مبنى المجلس. . . . حسناً مرحباً. . . هل أنت سعيد؟. . . لقد أحببتك كثيراً فيما مضى. . والآن؟ ما زلت أحبك أكثر. . . . أحبك. . . أنا على استعداد أن أتخلى عن كل شيء. . . . سأمكث في ألمانيا؟. . . أحبك كثيراً. . . لقد أصبحت قاتلاً من أجلك. . . . لا تقل ذلك. . . كم أنت جميلة. . . لا تتحدث عن ذلك كثيراً؛ لا يستطيع أحد أن يحبك مثلما أفعل. . هل تذكرين عندما انفجر إطار الحافلة ذات مرة، عندما ظهر حفل زفاف سكير في منتصف الليل، وهكذا. . . . لا تتحدث عن ذلك كثيراً.

أحياناً كنت أشرب حتى أدخل نفسي في غيبوبة، وعندما أصحو بعد ساعات وأجلس على الأريكة، ألاحظ أن الدمية الزرقاء الصغيرة التي كانت تقف على رأسها أصبحت الآن جالسة في وضع معتدل وتشاهد التليفزيون، وأكون مندهشاً: في أي لحظة ضعف قمت بضعها بطريقة صحيحة على كرسيها؟ وأحياناً أكون أشاهد بذهن غائب تصوير أغنية أجنبية على الشاشة، وأتذكر أنني سمعت واحدة من هذه الأغاني عندما كنت أنا وجنان نجلس معاً على متن الحافلة، ينضغط جسدانا في بعضهما البعض، وأشعر بدفء كتفها الهش على كتفي: انظروا إليّ، انظروا إليّ وأنا أجلس هنا وأبكي، مستمعاً إلى الموسيقى التي سمعناها معاً والتي تحوّلت متفجرة إلى ألوان

على شاشة التليفزيون، في وقت آخر، سمعت الطفلة تسعل، لسبب ما، قبل أن تسمعها أمها، واحتضنت الطفلة الصغيرة التي استيقظت بين ذراعي، وحملتها إلى حجرة المعيشة، وبينما كانت تشاهد الألوان على الشاشة، بدأت أفحص بتعجب يدها التي كانت نسخة مصغرة بلا شائبة ليد شخص كبير، حتى إلى آخر منحنى صغير ولكن مذهل لأصابعها وأظافرها، وكنت مشغولاً بالتفكير في الكتاب المسمى بالحياة، عندما قالت ابنتي: «لقد أصبح الرجل «مسطحاً!»».

شاهدنا باهتمام الوجه اليائس للرجل التعس الذي انتهت حياته في بركة من الدماء بعد ضرب عنيف.

يجب على القراء مرهفي الحس الذين يتابعون مغامراتي ألا يظنوا أنني أهملت في نفسي، وأن حياتي أنا أيضاً انتهت بالفعل، وهم يرون كيف أبقى ساهراً إلى منتصف الليل وأسكر. مثل معظم الرجال الذين يعيشون في هذا الركن من العالم، أصبحت أنا أيضاً رجلاً محطماً قبل سن الخامسة والثلاثين، ولكني كنت قادراً على أن أجمع شتات نفسي ـ نتيجة للقراءة ـ وأجلب بعض النظام لعقلي.

قرأت بنهم، ليس فقط الكتاب الذي غيّر حياتي كلها ولكن أيضاً كتباً أخرى، لكن عندما كنت أقرأ، لم أكن أحاول قط أن أعطي معنى عميقاً لحياتي المحطمة، أو أن أبحث عن نوع من التعزية، ولا حتى أن أبحث عن مظهر جميل ومحط أنظار للحزن، هل يمكن أن يشعر الشخص بأي شيء سوى الحب والإعجاب لـ «تشيخوف»، هذا الروسي الموهوب، المصاب بداء الرئة، المتواضع؟ لكني أشعر بالحزن تجاه القراء الذين يحاولون إعطاء

بُعد جمالي لحياتهم المحطمة والبائسة بقيمة معنوية التي يدعونها «التشيخوفية»، متباهين بمأساتهم بجهد ليجعلوها جميلة ومؤثرة؛ وأنا أحتقر الكُتاب المستغلين الذين يضعون مستقبلاً مهنياً باستغلال حاجة هؤلاء القراء للتعزية: لذلك كنت أتوقف عن قراءة العديد من الروايات أو القصص المعاصرة في منتصفها. آه، الرجل المسكين الذي يتكلم إلى حصانه ليخفف من وحدته! يا للأسف، النبيل الضعيف الذي يظل يروي نباتاته التي هي حبه الوحيد، أشفق على الرجل المرهف الحس الذي يجلس وسط أثاثه القديم المستهلك، في انتظار شيء ما لن يأتي أبداً، فلنقل خطاباً، أو حبيباً قديماً، أو ابنته المستهترة، الكُتّاب الذين يختلسون المسودات الأولية للأبطال الرئيسيين لتشيخوف لكي يقدموهم في بلاد أخرى ومناخ آخر، كاشفين لنا عن جراحهم وآلامهم، ولدى كل منهم نفس الرسالة: انظروا إلينا، انظروا إلى كل الأسى والألم الذي نعانيه! انظروا كم نحن مرهفو الحس، مهذبون، مميزون! فألمنا رفعنا إلى حالة أكثر رهافة ونقاء منكم.. أنتم أيضاً تريدون تحويل تعاستكم إلى نجاح، أو حتى إلى نوع من الأفضلية، أليس كذلك؟ في هذه الحالة، ثقوا بنا، وصدقوا الأمر عندما نخبركم أن آلامنا مرضية أكثر من متع الحياة العادية.

لذلك، أيها القارىء، لا تضع إيمانك في شخصية مثلي، ليست مرهفة الحس على الإطلاق، ولا في ألمي وعنف القصة التي أنا مضطر أن أحكيها؛ لكن صدق أن العالم مكان قاسٍ، إلى جانب ذلك، هذه اللعبة المستحدثة التي تدعى رواية - التي تعتبر أهم اختراعات الحضارة الغربية - لا تخص حضارتنا في شيء فإن القارىء يسمع عدم لباقتي في صوتي من خلال هذه الصفحات ليس لأنني أتحدث بصوت خشن من سطح مسطح تمّ تلويثه بالكتب

وإفساده بالأفكار المسممة؛ ينتج إلى حد ما عن حقيقة أنني ما زلت لم أدرك تماماً كيف أسكن هذه اللعبة الأجنبية.

هذا ما أقصد قوله؛ أصبحت شيئاً مثل دودة الكتب من كثرة القراءة لكي أنسى جنان، لكي أفهم ما حدث لي، لكي أحلم بألوان الحياة الجديدة التي لم أحققها قط، ولكي أقضي الوقت بسرور وحكمة ـ على الرغم من أنه لم يكن بحكمة تماماً طوال الوقت ـ لكنني لم آخذ بأي ادعاءات فكرية، والأكثر أهمية، لم أنظر قط باحتقار إلى هؤلاء الذين يفعلون ذلك، كنت أحب القراءة فقط كما أحببت الذهاب لمشاهدة الأفلام، أو تصفح الجرائد والمجلات، لم أكن أفعل هذه الأشياء لأكتسب نوعاً من المميزات، أو للحصول على نتيجة ما، أو ربما لأفكر في نفسي كشخص فوق العادي، أو أكثر معرفة، أو أكثر عمقاً من الآخرين، أستطيع حتى أن أقول إن كوني دودة كتب علمني نوعاً من التواضع، استمتعت بقراءة الكتب لكني لم أكن أحب مناقشتها مع أي شخص آخر، كما عرفت فيما بعد أن العم رفقي لم يكن يحب أن يفعل. فلو أيقظت الكتب في نفسي رغبة في التحدث، فتقوم المحادثة غالباً بين الأصوات التي في رأسي. وأحياناً أشعر أن الكتب التي قرأتها في تتابع سريع أقامت نوعاً من الهمهمة فيما بينها، محوِّلة رأسي إلى فرقة موسيقية «أوركسترا» حيث تصدر مختلف الأدوات الموسيقية أصواتاً، وكنت أدرك أنني أستطيع تحمل هذه الحياة بسبب تلك العروض الموسيقية التي تلعب في رأسي.

فلنفترض ـ على سبيل المثال ـ أنه حدث لي أن استطعت أن أضع مجموعة من الأشعار معاً التي ألهمتني إياها الموسيقى

التي تهمس لي عن موضوع الحب في هذا الهدوء المغناطيسي والألم الذي بدأ بعد خلود زوجتي وابنتي للنوم، وتُركت أنا لأشاهد بتعجب وذهول الألوان المتدفقة المنبعثة من التليفزيون بينما أفكر في جنان، الكتاب الذي جمعنا معاً، الحياة الجديدة، الملاك، الحادثة، الوقت، أياً كان ما قيل عن موضوع الحب في الصحف، الكتب، المجلات، في الإذاعة، التليفزيون، بواسطة كُتّاب الأعمدة في الصحف، آراء المحررين، والروائيين فقد التصق سريعاً بعقلي لأن حياتي خرجت عن مسارها في سن صغيرة نتيجة للحب ـ لو لاحظت أيها القارىء، فأنا يقظ الضمير كفاية لكي لا أدعي أن هذا حدث نتيجة للكتاب.

ما الحب؟ الحب هو الاستسلام. . الحب هو سبب الحب. . . الحب هو التفاهم. . الحب نوع من الموسيقى، الحب والقلب الرقيق شيئان متماثلان. . الحب هو قصيدة حزينة، الحب هو روح رقيقة تنظر في المرآة، الحب فان، الحب هو ألا تكون مضطراً أن تقول إنك آسف. الحب هو عملية تبلور. الحب عطاء. الحب هو اقتسام قطعة من اللبان، فأنت لا تستطيع التحدث عن الحب، الحب هو كلمة خاوية، الحب هو أن تكون متوحداً مع الله. . الحب مرير. . الحب هو مقابلة الملاك. . وادٍ من الدموع، الحب هو انتظار التليفون أن يرن، الحب هو العالم بأسره. الحب هو تشابك الأيدي في السينما، الحب مُسكر، الحب هو وحش، الحب أعمى، الحب هو أن تستمع إلى قلبك. الحب هو الصمت المقدس، الحب هو موضوع الأغاني، الحب جيد للبشرة.

حصلت على هذه اللآلىء دون أن أترك نفسي بالكامل تحت سيطرة الإيمان الأعمى، لكن أيضاً دون أن أنجرف بواسطة

التهكم الذي قد يترك روحي بلا مأوى ـ بكلمات أخرى، بالتحديد الطريقة التي أرى بها التليفزيون، أنخدع بينما أنا واع تماماً أنني أنخدع، أو كوني ها أناذا أضيف أفكاري الخاصة في الموضوع الذي جاء من تجربتي المحدودة ولكنها مكثفة.

الحب هو الرغبة في أن تتمسك بسرعة بشخص آخر وأن تكونا معاً في نفس المكان؛ فهو الرغبة في ألا تصبح مهتماً بالعالم وأنت تحتضن الآخر. إنه رغبة ملحة في العثور على مرفأ آمن لروحك الإنسانية.

أنت ترى، لم أكن قادراً على قول شيء جديد، لكنني ما زلت، قد نجحت بالفعل في أن أقول شيئاً! لم أعد أهتم إذا ما كان جديداً أم لا، على النقيض مما يعتقده المدّعون الحمقى، فمن الأفضل أن أقول عدة كلمات على أن أبقى ساكناً، ما فائدة أن تبقى أفواهنا مغلقة، بحق السماء؟! لماذا نشاهد الحياة بسلبية وهي تطعن أجسادنا وأرواحنا مثل قطار قاسٍ يتقدم ببطء إلى واجهته؟ عرفت رجلاً كان في نفس عمري لمّح إلى أن الصمت أفضل من المحاربة ضد قوى الشر التي تتربص لنا وتدمرنا؛ أقول إنه لمّح لأنه لم يصرّح بقوله ذلك قط، كان جالساً على مكتب مثل صبي مطيع، وظلّ يكتب في كراسة من الصباح حتى الليل كلمات شخص آخر في صمت، أحياناً أتخيل أنه لم يمت وما زال يكتب، وأخاف من أن صمته قد يمتد بداخلي في شكل رعب فظيع.

لقد أطلقت تلك الرصاصات على وجهه وصدره، لكن هل نجحت في قتله حقاً؟ لقد أطلقت ثلاث طلقات فقط، والأدهى من ذلك، أنني كنت بشكل ما أعمى من الضوء القادم من آلة العرض في ظلام دار السينما.

الأوقات التي أصدّق فيها أنه لم يمت، كنت أتخيله ما زال يطبع الكتاب في حجرته، يا لها من فكرة غير محتملة! بينما أحاول خلق عالم كامل أعزّي به نفسي، ما العيب في زوجتي الطيبة، ابنتي الجميلة، تليفزيوني، الجرائد، الكتب، عملي في مجلس المدينة، زملائي في العمل وزملاء مكتبي، الشائعات، القهوة، السجائر، محاولاً حماية نفسي بإحاطتها بأشياء ثابتة. كان قادراً على تسليم نفسه بإصرار للصمت المطبق، في وسط الليل، كنت أفكر في السكون الذي أعطاه لنفسه بإيمان وتواضع، عندما أتخيله يعيد كتابة الكتاب، ومعجزة المعجزات، أن أشعر بذلك بينما هو يفعل بصبر نفس الشيء مراراً وتكراراً على مكتبه، يبدأ الصمت في الحديث معه، المعضلة التي لم أستطع الوصول إليها ولكني حدست من خلال أمنياتي ومشاعري أنها توجد وسط هذا الصمت والظلام؛ وطالما أن الرجل الذي أحبته جنان يظل يكتب فإني أتخيل أن الهمسات الأصلية في أعماق الليل ـ التي كانت غير مسموعة تماماً لشخص مثلي ـ ستحصل على صوت خاص بها.

الفصل الخامس عشر

داهمتني ذات ليلة رغبة ملحة في أن أسمع الهمس حتى أنني أطفأت التليفزيون، ودون أن أوقظ زوجتي التي ذهبت إلى الفراش مبكراً أزحت الكتاب بهدوء عن أباجورتي، وجلست إلى المائدة حيث نتناول عشاءنا كل مساء ونحن نشاهد التليفزيون؛ وبدأت أقرأ الكتاب بحماس متجدد، هكذا تذكرت قراءتي للكتاب لأول مرة منذ سنوات عديدة في نفس الحجرة التي تنام فيها ابنتي الآن، كانت رغبتي قوية جداً في أن يشع نفس الضوء من الصفحات ويضيء وجهي، شعرت للحظة بصورة العالم الجديد تتضرم بداخلي، أحسست بحركة ما، نوع من الرغبة الملحة، فوران قد يكشف عن سر الهمس الذي قد يأخذني إلى قلب الكتاب.

مثلما حدث في الليلة التي قرأت فيها الكتاب لأول مرة، وجدت نفسي مرة أخرى أمشي في شوارع المنطقة، في هذه الليلة الخريفية، كانت الشوارع مظلمة ومبللة؛ على الأرصفة كان هناك بعض الأشخاص في طريقهم لبيوتهم، عندما وصلت إلى الميدان عند محطة «أرنكوي»، شاهدت واجهات عرض متاجر البقالة المألوفة، الشاحنات المتهالكة، الأغطية المهترئة التي غطى به بائع الخضر أقفاص البرتقال والتفاح على الرصيف، الضوء الأزرق الذي يشع من نافذة الجزار، المدافىء الضخمة قديمة

الطراز في الصيدلية، وكنت مقتنعاً أن كل شيء كان في مكانه المعتاد، كان هناك اثنان من الشباب يشاهدان التليفزيون الملون في مكان لارتياد الطلاب حيث ـ في أيام دراستي بالجامعة ـ اعتدت أن ألتقي بأصدقائي من الحي، بينما مشيت في الشوارع، استطعت أن أرى الضوء الملون لنفس البرنامج التليفزيوني ينساب من خلال الستائر نصف المفتوحة في حجرات المعيشة للعائلات التي ما زالت مستيقظة، الضوء الذي يكون أحياناً أزرق، أو أخضر، أو أحمر، أثناء انعكاسه على الأشجار، على أعمدة النور المبللة، وعلى القضبان الحديدية في الشرفات.

كنت أتقدم وعيني على ضوء التليفزيون المنبعث من خلال الستائر نصف المفتوحة عندما توقفت أمام مبنى العم رفقي القديم وحدّقت لبعض الوقت في نوافذ الطابق الثاني، شعرت بإحساس لحظي أنني حر ومجازف، كما لو كنت أنا وجنان قد نزلنا بلا هدف من حافلة ما ركبنا على متنها بطريقة عشوائية، استطعت أن أرى من بين الستائر؛ الحجرة المضاءة بالضوء الصادر من جهاز التليفزيون، لكنني لم أر أرملة العم رفقي التي استطعت تخيل هيئتها وهي تجلس في كرسيها، كانت الحجرة مضاءة بتوافق مع الصور على الشاشة، أحياناً الوردي الزاهي، وأحياناً أصفر شاحب، سيطرت عليّ فكرة أن سر الكتاب وحياتي يكمن هناك في تلك الحجرة.

رفعت رأسي لأعلى بطريقة آمرة على الحائط بين الباحة الأمامية والرصيف، ورأيت رأس العمة «راتيب» وجهاز التليفزيون التي كانت تشاهده، كانت قد جلست بزاوية خمس وأربعين درجة من كرسي زوجها الراحل الخالي، وكانت تشاهد التليفزيون

ورأسها منكمش بين كتفيها تماماً مثلما اعتادت أمي أن تفعل، لكن على غير عادة أمي لم تكن تشتغل الإبرة بل تدخن مثل مدخنة، راقبتها لفترة طويلة إلى حد ما، متذكراً شخصين آخرين قاما بتسلق هذا الحائط فيما مضى واختلسا النظر من النافذة.

ضغطت على الزر عند المدخل المكتوب عليه «رفقي راي». نادت المرأة من النافذة التي فتحت على الفور.

ـ «من هناك؟».

ـ «هذا أنا، يا عمة «راتيب»» قلت وأنا أخطو للخلف بضع خطوات لتتمكن من رؤيتي في الضوء المنعكس من مصباح الشارع. «إنه أنا، ابن رجل السكة الحديد «عاكف». . أنا «عثمان»».

«يا للسماء، إنه أنت يا عثمان!» قالت، وانسحبت للداخل، ضغطت على الزر وانفتح الباب.

حيّتني بابتسامات على باب الشقة وقبلتني على وجنتي قالت: «فلأقبّل قمة رأسك أيضاً»، عندما أحنيت رأسي لأسفل، قبلتني، واستنشقت رائحة شعري بمبالغة كما اعتادت أن تفعل عندما كنت طفلاً.

إيماءاتها ذكرتني أولاً بالحزن الذي شاركت فيه العم رفقي طوال حياتهما معاً، حقيقة أنهما لم يرزقا بطفل قط، ثم تذكرت أنه منذ أن ماتت والدتي، طوال السبع سنوات الأخيرة لم يعاملني أحد كما لو كنت طفلاً، فجأة شعرت بالراحة عندما دخلت، أردت أن أقول شيئاً قبل أن تبدأ هي في طرح الأسئلة.

«العمة «راتيب»، كنت أمر عندما رأيت الضوء؛ أعرف أن الوقت متأخر، لكني فكرت في أن أتوقف لألقي التحية».

قالت: «هذا شيء جيد! اجلس على الكرسي المقابل للتليفزيون؛ فأنا فقط لا أستطيع النوم في الليل، لذلك أشاهد هذه الأشياء، انظر إلى تلك المرأة عند الآلة الكاتبة، إنها أفعى حقيقية، أشياء مريعة تحدث باستمرار لبطلنا الشاب، هذا هو الشرطي، هؤلاء الناس سوف ينسفون المدينة بأكملها. . . . هل أجلب لك بعض الشاي؟».

لكنها لم تغادر في الحال الحجرة لتصنع الشاي، شاهدنا التليفزيون لفترة معاً. «انظر إلى المنحرفة»، قالت، وهي تشير إلى جميلة أمريكية ترتدي الأحمر، خلعت الجميلة بعض ملابسها، تبادلت القبلات مع رجل ما لوقت طويل؛ وشاهدناهما يمارسان الحب خلال سحب دخان السجائر التي كانت العمة «راتيب» وأنا نطلقها في الهواء، الآن، اختفت هي أيضاً عن الرؤية سوية مع السيارات العديدة على الشاشة، الجسور، المسدسات، الليالي، رجال الشرطة، والجميلات، لم أتذكر على الإطلاق أنني رأيت هذا المشهد مع جنان، لكني شعرت بذكريات كل الأفلام التي شاهدناها معاً تدور بداخل وعيي، وتؤلمني.

عندما ظهرت العمة راتيب بالشاي، أدركت أهمية أن أجد شيئاً ما أو آخر في هذا المكان إذا كنت سأصل إلى حلّ أسرار الكتاب وحياتي المحطمة، وكذلك ربما أخفف بعض الألم الذي أعاني منه، هل كان طائر الكناريا الناعس في القفص في الزاوية هو نفس الطائر الذي كان يقفز لأعلى ولأسفل بدون صبر في طفولتي عندما كان العم رفقي يستقبلني في هذه الحجرة؟ أم هذا طائر جديد تمّ شراؤه ووضعه في القفص بعد موت الطائر الأول، والطيور التي تبعته؟ كانت الصور الموضوعة في إطار بعناية

لعربات السكك الحديدية والقطارات ما زالت معلقة في أماكنها القديمة، لكن في طفولتي كنت أراها في ضوء النهار المشرق، وأنا أستمع لنكات العم رفقي وأحاول أن أحل أُحجياته، لذلك كنت حزيناً أن أرى هذه المركبات المنهكة التي تقاعدت طويلاً في إطاراتها المهملة والمغبرة في الضوء القادم من جهاز التليفزيون، في نصف الرفوف التي بها مرآة كانت هناك مجموعة من عصائر الفواكه وزجاجة ممتلىء نصفها بشراب التوت، بجانب هذه الأشياء تقف بين ميداليات خدمة الطرق الحديدية والقداحة التي على شكل عربة قطار؛ خرامة المحصل الخاصة بعم رفقي، الذي اعتاد أن يتركني ألعب بها عندما كنت أزوره أنا وأبي، عندما رأيت الثلاثين كتاباً تقريباً في النصف الآخر للرفوف حيث عربات القطارات المصغرة، منفضدة كريستالية مزيفة، جداول مواعيد القطارات لخمس وعشرين سنة كلها انعكست على المرآة التي في الخلف، بدأ قلبي يخفق بصوتٍ عالٍ.

يجب أن تكون هذه هي الكتب التي كان العم رفقي يقرؤها أثناء السنوات؛ عندما كان يكتب «الحياة الجديدة». اجتاحتني موجة من الإثارة كما لو كنت وقعت صدفة على أثر ملموس لجنان بعد كل هذه السنين وكل هذه الرحلات في الحافلات.

كنا نتناول الشاي ونشاهد التليفزيون عندما سألتني العمة راتيب عن ابنتي، ثم استفسرت عن شخص زوجتي، كنت أتمتم بشيء أو بآخر، شاعراً بالذنب لأني لم أدعوها لحفل زفافي، مخبراً إياها أن عائلة زوجتي تعيش في شارعنا، وتذكرت حينها أن عينيَّ وقعت لأول مرة على الفتاة التي أصبحت زوجتي مؤخراً خلال الساعات الأولى القليلة عندما قرأت الكتاب لأول مرة. أياً

من هذه المصادفات، كانت أكثر تأصلاً وذهولاً حينها؟ هل كانت أنني رأيت أولاً تلك الفتاة البائسة التي تزوجتها بعد ذلك بسنوات في أول يوم قرأت فيه الكتاب على الإطلاق؟ أو أنني تذكرت المصادفة واكتشفت بعد زواجي بسنوات النمط المتخفي في حياتي بينما أجلس في مقعد العم رفقي؟ كانت ابنة العائلة التي انتقلت إلى الشقة الخالية المقابلة لشقتنا عبر الشارع، التي رأيت أفرادها وهم يتناولون وجبتهم المسائية ويشاهدون التليفزيون تحت ضوء مصباح قوي عارٍ، تذكرت أنني لاحظت أن شعر الفتاة كان ذا لون بني فاتح، وشاشة التليفزيون كانت خضراء.

كنت قد انتقلت بارتباك لذيذ يتضمن الحياة، المصادفة، وذكرى، لكن ظللت أنا والعمة راتيب نتكلم عن شائعات الحي، محل الجزارة الجديد، حلاقي، الأفلام القديمة، وصديق لي ترك الحي بعد أن توسع في عمل والداه للأحذية وفتح مصنعاً للأحذية وأصبح غنياً. بينما نجري محادثة تقطعها فترات الصمت، تتركز حول موضوع «أن الحياة مليئة بالشروخ»، التليفزيون مليء بطلقات البنادق، ممارسة الحب الحميمة، صرخات وصياح، طائرات تسقط من السماء، خزانات غاز تنفجر، كلها ترسل الرسالة، «مهما كان ما يحدث، فالأشياء يجب أن تتحطم وتتهشم»؛ ولكننا نفترض أنها مهمة بالنسبة لنا.

في الساعات الأولى من الصباح عندما كانت أصوات الأنين، همهمة الليل، وآلام الموت المفاجئة تمّ استبدالها بفيلم تعليمي عن حياة سرطان البحر الأحمر والأسود على جزيرة الكريسماس في المحيط الهندي، اقتربت أنا ـ التحري المحنك ـ من الموضوع بحذر مثل السرطان العاقل على الشاشة.

«كم كانت الأشياء رائعة رجوعاً إلى الأيام الخوالي السعيدة»، كانت لدي الجرأة لأقول ذلك.

«الحياة رائعة بالنسبة لصغار السن»، قالت العمة راتيب، لكن لم يكن لديها شيء جميل لتقوله عن شبابها الذي قضته مع زوجها ـ ربما لأني سألتها عن قصص الأطفال المصورة، روح رجل السكة الحديد، خيال العم رفقي وقصصه الرومانسية المصورة ـ «لقد أخذ عمك رفقي السرور من فترة شبابنا بهوايته، وهو يرسم ويشخبط أشياء لا معنى لها».

في الواقع، كان رد فعلها في البداية إيجابية تجاه فكرة كتابته وبذل الكثير من الجهد في نشرها لسبب ما، وبهذه الطريقة كان يتم إعطاء العم رفقي رحلات القطارات الطويلة التي يجب على المفتشين أن يقوموا بها، والعمة راتيب لم تكن مضطرة إلى أن تنتظر بمفردها لأيام لا نهاية لها، وعينها على الباب، زوجها يأتي للبيت، بعد ذلك بفترة قصيرة، جاء بفكرة تأليف مغامرات مصورة للأطفال في نهاية مجلة المتحمسين للسكة الحديد، وبذلك يتسنى للأطفال أن يقتنعوا بسبب وجود السكك الحديدية التي هي بمثابة الخلاص لبلادنا. قالت العمة راتيب، وهي تبتسم للمرة الأولى: «بعض الأطفال أحبوها فعلاً، ألم يفعلوا؟» لذلك أخبرتها كم كانت السعادة تملؤني، وأنا أقرأ المغامرات، وأنني حفظت سلسلة «برتف وبيتر» عن ظهر قلب تقريباً.

قاطعتني قائلة: «لكن كان يجب عليه أن يتوقف عند هذا الحد! لم يكن عليه أن يأخذ الموضوع بجدية». فطبقاً لكلامها، عندما لاقى ملحق المغامرات المصورة نجاحاً إلى حد ما، كان خطأ زوجها أنه قرر أن يطبع مجلة منفصلة للأطفال، بعد أن انخدع بالعرض الذي قدمه صاحب دار نشر (بابيالي) وكان رجلاً داهية.

«ومنذ ذلك الحين، كان عليه أن يعمل ليلاً ونهاراً؛ كان يرجع منهكاً من التعب من جولة ما للتفتيش أو وظيفته في الإدارة، فقط ليتوجه فوراً إلى مكتبه حيث كان يعمل حتى طلوع النهار».

أصبحت قراءة هذه المجلات منتشرة لفترة، لكن بعد نجاحها المبدئي، فقدت على الفور جاذبيتها في مقابل تلك القصص الرومانسية التاريخية، مثل «كان»، «كاروجلان»، و«هاكان»، التي تمّ تأليفها استجابة للولع بالمعارك بين المحاربين الأتراك والبيزنطيين، «أصبحت «برتف وبيتر» مشهورة لفترة، لذلك كسبنا بعض النقود»، قالت العمة راتيب، «ولكن الشخص الذي كوّن ثروة حقيقية كان ـ بديهياً ـ ذلك الناشر قاطع الطريق». أصرّ الناشر المنتهز على أن ينحّي العم رفقي قصصه عن الأطفال الأتراك الذين يلعبون كرعاة بقر ولصوص جانباً ويكتب بدلاً منها عن السكك الحديدية الأمريكية، ويبدأ في رسم أشياء على غرار «كاراجلان»، أو «كان»، أو «نصل العدالة». «لن أرسم أي مغامرة لا تشتمل على الأقل صورة واحدة تعرض قطاراً»، استمر العم رفقي يعلن ذلك، وهكذا انتهت علاقته مع الناشر الخائن، لفترة كان يرسم القصص المصورة في البيت ويبحث عن ناشرين آخرين، لكنه توقف بعد فترة من جرّاء تعرضه للرفض.

«وأين هذه المغامرات التي لم تنشر الآن؟» قلت، وأنا أمرر عيني على الحجرة.

لم تجِبْني، ركزت اهتمامها لفترة على الرحلة الصعبة التي يجب على أنثى سرطان البحر الأسود أن تقوم بها وهي تعبر الجزيرة بأكملها لتضع البيض المخصب في بطنها في أكثر اللحظات مناسبة أثناء المد العالي.

«لقد تخلصت من أكثرهم»، قالت: «الدواليب مليئة بالصور، المجلات، قصص رعاة البقر، كتب عن أمريكا وأبطال من الغرب، مجلات عن السينما والأفلام كان ينقل منها الأزياء، آه، وكل الأشياء عن «برتف وبيتر»، الله يعلم ما كل. . . . لقد أحبهم ولم يحبني».

- «لقد عشق العم رفقي الأطفال».

- «نعم، لقد فعل؛ لقد كان كذلك حقاً»، قالت. كان رجلاً طيباً، أحب الجميع. . أين تجد رجلاً مثله هذه الأيام؟».

ذرفت قليلاً من الدمع، ربما شعرت بالذنب لأنها قالت عدة أشياء مريرة عن زوجها الراحل، بينما كانت تشاهد سرطانات البحر التي كانت قادرة على الرجوع إلى الشاطىء دون الوقوع كضحية لطيور البحر أو للبحر الهائج، جففت عينيها بمنديل أخرجته بخفة يد مدهشة، ومسحت أنفها.

قال المحقق الحذر عند لحظة معينة: «وهكذا يبدو أن العم رفقي قد كتب أيضاً كتاباً يدعى «الحياة الجديدة» للبالغين، ومن الواضح أنه قام بنشره تحت اسم مستعار».

«أين سمعت هذا؟» قاطعتني قائلة. «ليس فيما تقول شيء من الحقيقة».

أعطتني تلك النظرة واتخذت مثل تلك النبرة من الغضب الهادىء، وهي تنفث بقوة الدخان من السيجارة التي أشعلتها بشعور بالقهر، حتى أن التحري الحذر كان مجبراً على التوقف.

لم نتحدث لبعض الوقت وما زلت لا أستطيع أن أغادر بعد، منتظراً شيئاً ما أن يحدث، آملاً في أن النمط المتخفي في حياتي قد يعلن عن نفسه أخيراً، انتهى الفيلم التعليمي الذي كان

في التلفيزيون، وكنت أحاول تعزية نفسي بتخيل أن حياة سرطان البحر كانت أسوأ بكثير من حياة البشر، عندما قامت العمة راتيب من مقعدها بحركة حادة وحازمة، أمسكتني من ذراعي وسحبتني باتجاه الرفوف وقالت: «انظر. .!» عندما أضاءت مصباحاً على شكل عنق أوزة، فظهرت صورة في إطار على الحائط.

كان هناك خمسة وثلاثون أو أربعون رجلاً يرتدون نفس السترات، نفس ربطة العنق، وسراويل متشابهة، ومعظمهم لهم شوارب متشابهة، يبتسمون للكاميرا حيث وقفوا على الدرجات التي تقود لمحطة قطار «حيدر باشا».

«مفتشو السكك الحديدية، كل شخص»، قالت العمة راتيب. «كانوا كلهم أكثر اقتناعاً بأن تنمية هذه البلاد تعتمد على السكك الحديدية». أشار أصبعها إلى شخص بعينه «رفقي».

بدا تماماً مثلما أتذكره وقت طفولتي وتماماً كما أتخيله لكل هذه السنين، كان أطول من المعتاد. . رشيقاً. . وسيماً بطريقة ما، شارداً بحزن. مسروراً لكونه مع المجموعة كذلك مسرور لكونه يبدو مثل البقية. . مبتسماً بخفة.

«لم يتبق لي أي شخص في هذا العالم، أنت تعرف»، قالت العمة راتيب. «لم أستطع الحضور لحفل زفافك، لذلك، خذ هذا على الأقل». وضعت في يدي طبقاً فضياً للحلوى أخرجته من الرفوف. «منذ عدة أيام رأيتك مع زوجتك وابنتك عند المحطة، يا لها من امرأة جميلة، أتمنى أن توفّيها حق قدرها».

ظللت أنظر إلى طبق الحلوى في يدي، إذا ادعيت أنني كنت مأخوذاً بمشاعر النقص والذنب، ربما لا يصدقني القارىء؛ دعني أقول، تذكرت شيئاً ـ دون أن أكون حقاً واعياً بذلك الذي

تذكرته، انعكاسات صورة العمة راتيب، أنا، والغرفة أصبحت صغيرة جداً، مكتنزة ومستديرة، ومسطحة على السطح العاكس كالمرآة لطبق الحلوى الفضي، كم من الساحر أن ترى العالم ليس من خلال ثقبي المفاتيح التي ندعوهما أعيننا ولكن أن تراه للحظة من خلال منطق لنوع آخر من العدسات، يشعر الأطفال الأذكياء بذلك، ويجعل ذلك الكبار الأذكياء يبتسمون، كان نصف عقلي في مكان آخر ـ أيها القارىء ـ والنصف الآخر كان عالقاً على شيء آخر، لا أعرف إذا كان يحدث لك، لكنك على وشك أن تتذكر شيئاً، لكن قبل أن تدرك ما أنت بصدد تذكره، لسبب مجهول تقوم بتأجيل التذكر.

قلت متجاهلاً حتى أن أشكرها على طبق الحلوى: «عمة راتيب» وأشرت إلى الكتب في النصف الآخر للرفوف. «هل يمكنني أن آخذ هذه الكتب معي للبيت؟».

«لماذا؟».

«لأقرأهم»، قلت. لم أذكر أنني لا أستطيع النوم في الليالي لأني كنت قاتلاً. «أنا أقرأ ليلاً، التليفزيون يرهق عيني حيث لا أستطيع مشاهدته لفترة طويلة». قالت بشك: «آه، حسناً، لكن عندما تنتهي من قراءتهم، يجب أن تردّهم، لكي لا يبقى هذا الجزء من الرفوف فارغاً، لقد كان زوجي الراحل يقرؤهم طوال الوقت».

وهكذا، بعد أن انتهينا أنا والعمة راتيب من مشاهدة الفيلم في العرض المتأخر جداً عن بعض الرجال الأشرار في مدينة الملائكة التي تدعى «لوس أنجلوس»، ممثلات واعدات غير سعيدات لا يُمانعن ممارسة الحب، رجال شرطة دؤوبون، وشباب جميلو الطلعة يمارسون الحب بلا مبرر (بمنتهى البساطة)

مع أطفال أبرياء في الجنة ثم يقولون أشياء فظيعة ومخجلة عن بعضهم البعض من وراء ظهر بعضهم البعض، رجعت إلى البيت في ساعة متأخرة جداً ومعي اثنان من الأكياس البلاستيكية مليئة بالكتب في يدي. والطبق الفضي على قمة واحد من الأكياس يعكس كيس الكتب، العالم، أضواء الشارع، أشجار الحور الجرداء، السماء المظلمة، الليل الحزين، الرصيف المبتل، ويدي التي تحمل الكيس، ذراعاي، وساقاي اللتان تتحركان لأعلى ولأسفل.

صففت الكتب بدقة على المكتب الذي اعتاد أن يكون في الخلفية ـ حجرة ابنتي ـ عندما كانت أمي على قيد الحياة، لكنه الآن في غرفة المعيشة، نفس المكتب الذي أديت عليه واجبي في المدرسة والجامعة لسنوات وقرأت عليه لأول مرة «الحياة الجديدة» كان غطاء طبق الحلوى عالقاً ولم أستطع انتزاعه لفتحه، لذلك وضعته بجانب الكتب أيضاً؛ وأشعلت سيجارة ثم نظرت لكل شيء بسعادة، كان هناك ثلاثة وثلاثون كتاباً، من بينها مراجع مثل «مبادىء الصوفية»، «سيكولوجية الطفل»، «تاريخ قصير للعالم»، «فلاسفة عظام وشهداء عظام»، «تفسير الأحلام بالأمثلة والملاحظات»، أعمال مترجمة لـ «دانتي»، «ابن عربي»، و«ريلكه» من سلسلة الكلاسيكيات العالمية التي تصدرها وزارة التعليم وأحياناً توزعها دون مقابل على الإدارات والوزارات، مختارات مثل «أجمل قصائد الحب»، «قصص من الوطن»، تراجم لـ«جول فرن»، «شرلوك هولمز»، و«مارك توين» في أغلفة ملونة لامعة، وبعض الأشياء مثل «كون ـ تيكي»، «العباقرة كانوا أيضاً أطفالاً»، «طيور محلية»، «أخبرني بسر»، «ألف أحجية وأحجية».

بدأت أقرأ الكتب في هذه الليلة، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، ظللت ألاحظ أن بعض المشاهد في «الحياة الجديدة»، بعض التعبيرات، وبعض الخيالات كانت مأخوذة إما من أشياء في تلك الكتب أو تمّ اقتباسها بالكامل، لقد انتفع العم رفقي بهذه الكتب بينما كان يكتب «الحياة الجديدة» بنفس السهولة والروتين الذي كان الوضع عليه عندما اقتبس صوراً وكلمات من القصص المصورة مثل «توم مكس»، «بيكوس بيل»، أو «المقنع الوحيد» ليضعها في القصص المصورة الخاصة به.

دعوني أستعرض بعض الأمثلة:

«كانت الملائكة غير قادرين على حلّ المعضلة في خلق الخليقة الذي يدعى الإنسان».

«ابن عربي، رموز الحكمة»

«نحن توأم الروح ورفقاء الدرب؛ فنحن الخلفاء غير المشروطين لبعضنا البعض».

«نيساتي أكالم، العباقرة كانوا أيضاً أطفالاً»

«هكذا رجعت إلى الوحدة في حجرتي وبدأت أفكر في هذا الشخص الطيب. بينما أفكر فيها غرقت في النعاس وظهرت أمامي رؤية رائعة».

«دانتي، الحياة الجديدة، الجزء الثالث»

«هل نحن على تلك الأرض لنقول: منزل، جسر، نافورة، إبريق، بوابة، شجرة فاكهة، نافذة ـ على أحسن الفروض: عمود، برج؟ لكن لتقول تلك الكلمات فأنت تفهم بقوة أن الأشياء نفسها لم تحلم قط بأنه سيتم التعبير عنها».

«ريلكه، مراثي دوينو، المرثية التاسعة»

«لكن لم يكن هناك منزل في الجوار، ولم يكن هناك شيء مرئي سوى بعض الأطلال، وبدا أن تلك الأطلال لم تكن بفعل الزمن لكنها نتيجة لسلسلة من الكوارث».

«جول فيرن، عائلة بلا اسم»

«قابلت كتاباً، إذا كنت تقرؤه، يبدو أنه جزء مغلف، ولكن إذا لم تكن تقرؤه، فيتحول إلى كومة من القماش من الحرير الأخضر... على الفور، وجدت نفسي أفحص الأرقام والحروف في الكتاب، وعرفت من خط اليد أن النص كُتب بواسطة ابن سعادته «عبد الرحمن»، الحاكم الرئيس لـ «أليبو»، عندما عادت إليّ حواسي، وجدت نفسي أكتب الجزء الذي تقرؤه الآن، وفجأة عرفت أن الجزء الذي كُتب بواسطة ابن سعادته ـ الذي قرأته من قبل في غيبوبة ـ كان مماثلاً للقسم الذي أكتبه في هذا الكتاب».

«ابن عربي، الفتوحات المكية»

«تأثير الحب كان أن حتى جسدي ـ الذي كان حينها مخصصاً كلياً لحكمه ـ تحرك غالباً مثل شيء ثقيل غير قابل للحركة».

«دانتي، الحياة الجديدة، الجزء الحادي عشر»

«لقد وضعت قدمي على هذا الجزء من الحياة الذي لا يمكن للمرء بعده أن يراوده أي أمل في العودة».

«دانتي، الحياة الجديدة، الجزء الرابع عشر»

الفصل السادس عشر

افترض أننا وصلنا إلى قسم التفسير في كتابنا لأشهر لا تنتهي قرأت مرات ومرات الثلاثة والثلاثين كتاباً المصفوفة على مكتبي، أضع خطاً تحت كلمات وجمل في الصفحات المصفرة؛ أخذت ملاحظات في دفاتر وعلى قطع من الورق؛ ترددت على المكتبات حيث يحدّق السعاة في القراء بنظرة تقول: «ماذا تفعلون هنا بحق الجحيم؟».

مثل الكثير من الرجال المحطمين الذين غمسوا أنفسهم لفترة من الوقت في قلب الصخب المسمى بالحياة، عندما قارنت الصور الخيالية والتعبيرات المتعددة في قراءاتي، تبينت الهمسات المشفّرة بين السطور والتي من خلالها استطعت أن أتحرى أسرارها، وترتيب هذه الأسرار، بنيت روابط بينهم، وكنت فخوراً بتعقيد شبكة الروابط التي صنعتها، عملت بصبر مثل شخص يحفر بئراً بإبرة، في جهد لكي أعوض إهمالي السابق كثيراً في الحياة، بدلاً من أن أكون مندهشاً أن رفوف المكتبة في البلاد الإسلامية مليئة بالتفسيرات والتعليقات المكتوبة باليد، وكل الذي يجب أن يفعله المرء هو أن يلقي نظرة على عدد كبير من الرجال المحطمين في الشارع لكي تعرف السبب.

على الرغم من معاناتي، حينما أصادف جملة أو صورة أو فكرة جديدة تسرّبت إلى كتاب العم رفقي من مصادر آخر، أكون

في البداية محبطاً، مثل الشاب الذي اكتشف أن ملاك أحلامه ليس ملاكاً كما يبدو؛ لكن عند ذلك، مثل العبد المنصاع للحب الذي كنت عليه، أريد تصديق أن ما لم يبد نقياً من النظرة الأولى كان في الواقع علامة لسر ساحر بعمق أو لأهمية فريدة.

كنت أقرأ وأعيد قراءة «مراثي دوينو»، بالإضافة إلى الكتب الأخرى أيضاً، عندما اتخذت قراراً بأن كل شيء يمكن أن يُحل من خلال وساطة الملاك، ربما السبب أنني افتقدت الليالي التي قضيتها في صحبة جنان مستمعاً إلى كلامها عن الملاك، فضلاً عن الملاك الذي في المراثي الذي ذكّرني بالملاك الذي ذكره العم رفقي في الكتاب. في سكون الليل بعد أن رحلت بوقت طويل القطارات المخيفة عن الحي مصدرة أصواتاً بلا نهاية على القضبان في طريقها شرقاً، اشتقت إلى سماع نداءات ضوء، شيء مؤثر، حياة أحب أن أستحضر ذكراها؛ أدرت ظهري لطبق الحلوى الفضي الذي عكس صورة التليفزيون الذي كان يعمل كما أفعل وأنا جالس أدخّن على مكتبي المكدّس بالأوراق والدفاتر، ومشيت إلى النافذة حيث نظرت من بين الستائر إلى الليل المظلم، ضوء خافت ينبعث من مصباح الشارع أو واحدة من الشقق عبر الشارع كان ينعكس على الفور على قطرات الماء وعلى زجاج النافذة.

من هو الملاك الذي تمنيت أن أدعوه إليّ من قلب السكون؟ مثل العم رفقي نفسه، لم أكن أعرف أي لغة أخرى غير التركية، لكني لم أعر أي اهتمام لحقيقة أنني محاط بترجمات فقيرة وغير دقيقة حُرّفت بواسطة نزوات ولع عابرة في لغة غامضة، تقدمت بنفسي لجامعات، وسألت أسئلة لأساتذة ومترجمين قاموا بالحديث معي بتأفف لكوني هاوياً؛ حصلت على عناوين في

ألمانيا حيث أرسلت خطابات؛ وعندما رد عليّ بعض الأشخاص الطيبين واللطفاء، حاولت إقناع نفسي بأنني كنت أحقق تقدماً ما.

في خطابه الشهير للمترجم البولندي، يقول «ريلكه»: إن ملاك المراثي له علاقة أقل مع ملاك الجنة المسيحية من علاقته مع المخلوقات الملائكية في الإسلام، التي كانت حقيقة استشفها العم رفقي من المقدمة القصيرة للمترجم، بعد أن عرفت ـ من خطاب كتبه لـ «لوي أندريه سالومه» من إسبانيا في أول السنة التي بدأ فيها كتابة المراثي ـ أن «ريلكه» قد قرأ القرآن، الذي «أذهله»، وأدهشه»، انغمست لفترة في ملائكة الإسلام، لكنني لم أجد في القرآن أياً من الأشياء التي سمعتها من أمي، النساء العجائز في الحي، ولا في أي من أصدقائي الذين يعرفون كل شيء، بالرغم من أن هيئة عزرائيل كانت متاحة لنا من مصادر عديدة، فلتكن في كاريكاتير الجرائد أو في ملصقات المرور أو في فصل العلوم الطبيعية، حتى أنه لم يذكر اسمه في القرآن؛ كان يشار إليه فقط بملك الموت، لم أستطع العثور على أي شيء أكثر مما عرفت بالفعل عن الملاك الرئيس «ميكائيل» ولا عن «إسرافيل» الذي سينفخ البوق في يوم القيامة، أغلق مراسل ألماني الموضوع بإرساله لي كومة من الصور للملائكة في المسيحية، تمّ نسخها من كتب الفن، رداً على سؤالي عما إذا كان الاختلاف الذي ذكر في بداية الصورة الثالثة والثلاثين في القرآن من ناحية أن هؤلاء الملائكة يملكون «اثنين، ثلاثة، أو أربعة أجنحة» كانت مقصورة على الإسلام، فضلاً عن الاختلافات التافهة مثل أن القرآن يشير إلى الملائكة كطبقة منفصلة من الخلق، أو أن الطاقم القاسي في جهنم يعتبر أيضاً من سلالة الملائكة، أو أن ملائكة الإنجيل يوفرون رابطة أقوى بين الرب ومخلوقاته، كان هناك القليل أيضاً

ليثبت أن «ريلكه» على حق في تمييزه الخاص بملائكة الإسلام أمام ملائكة المسيحية.

على الرغم من أنني اعتقدت أنه من الممكن حتى لو لم يكن «ريلكه» قد أشار إلى أن الملاك «جبريل» الذي كان يظهر للرسول «مُحمد» «بالأفق المبين»، «تشهد عليه النجوم» «التي تسبح في الفلك المشحون» في نفس اللحظة بين ظلام الليل وضوء النهار، كما في بعض الآيات من سورة «التكوير»، فالعم رفقي ـ عندما كان في مرحلة إعطاء كتابه الشكل الأخير ـ يمكن أن يكون قد فكّر في الكتاب الذي أنزل من قبل الله الذي فيه «كل شيء مذكور». لكن كان ذلك أثناء الوقت الذي اعتبرت أن المؤلف الرفيع للعم رفقي قد جاء للوجود ليس فقط من الثلاثة والثلاثين كتاباً التي كانت في حوذته، ولكن من كل الكتب الموجودة، كلما فكرت في تلك التراجم الفقيرة المتكدسة على مكتبي، النسخ والملاحظات التي تذكر ملاك «ريلكه»، أو مبررات جمال الملائكة، الجمال المطلق الذي يفوق كل ما هو سببي أو عرضي، في ابن عربي، في الخصائص الفائقة للملائكة التي تتعدى حدود وخطايا البشر، قدرتهم على أن يكونوا هنا وهناك في الوقت نفسه، في الزمن، الموت، والحياة بعد الموت، كلما تذكرت أنني قرأت من قبل عن تلك الأشياء ليس فقط في كتاب العم رفقي الصغير ولكن أيضاً في مغامرات «برتف وبيتر».

بحلول الربيع في مساء ما بعد العشاء، كنت أقرأ واحداً من خطابات «ريلكه» للمرة المليون ـ الله وحده يعلم للمرة الكم ـ حيث يقول: «حتى بالنسبة لأسلافنا، منزل، بئر، برج معروف، ملابسهم الشخصية، ستراتهم: كانوا فوق الإحصاء، كانت هذه الأشياء الأكثر شخصية ليتم إحصاؤها».

أتذكر أنني نظرت حولي لدقيقة وشعرت بدوار لذيذ، كانت مئات الظلال السوداء والبيضاء لملائكة تنظر لي ليس فقط من بين الكتب التي على مكتبي القديم، لكن من أماكن أخرى حيث وضعتهم ابنتي الصغيرة الفوضوية، على إفريز النافذة، أعلى جهاز التدفئة المغطى بالتراب، السجادة، المنضدة الجانبية ذات الساق القصيرة، التي كانت تنعكس بعد ذلك على طبق الحلوى الفضي: كانت الصور مقلدات للوحات زيتية أصلية لملائكة، تمّ صنعها في أوروبا منذ مئات السنين، اعتقدت أنني أحببت تلك النسخ أكثر من الأصلية.

«التقطي الملائكة»، قلت لابنتي ذات السنوات الثلاث. «هيا نذهب إلى المحطة ونشاهد القطارات».

ـ «هل يمكن أيضاً أن نشتري حلوى الكراميل؟».

حملتها بين ذراعي وذهبنا لنرى أمها في المطبخ الذي كان يفوح برائحة مطهر وطعام مشوي، وأخبرناها أننا في طريقنا إلى رؤية القطارات، رفعت رأسها عن الأطباق التي كانت تعدها وابتسمت لنا.

سرّني أن أمشي إلى محطتنا الحالية في هواء الربيع البارد، ممسكاً بابنتي بالقرب مني، فكرت بانشراح أنه عندما نعود إلى البيت سأشاهد مباراة كرة القدم، ثم ألحق أنا وزوجتي بمشاهدة فيلم ليلة الأحد، كان متجر الحلوى الذي يدعى «الحياة» عند ميدان المحطة قد تخطى الشتاء بخفض نوافذ المتجر وأعد ثلاجة الآيس كريم التي تعرض قراطيس الآيس كريم، جعلناهم يزنون لنا مائة جرام من حلوى كراميل «مابيل»، نزعتُ الغلاف عن واحدة ووضعتها في فم ابنتي المتلهف، ثم صعدنا أعلى الرصيف.

تماماً عند الساعة التاسعة والست عشرة دقيقة، أعلن القطار السريع القادم من الجنوب عن نفسه ومرّ دون أن يقف أولاً بصوت المحركات الثقيل الذي يأتي من مكان ما عميقاً بالأسفل، كما لو كان يأتي من روح الأرض، وعلى الفور كانت أضواؤه تنعكس على حوائط الكوبري وأعمدة الصلب؛ ثم ـ بينما كان يقترب من المحطة ـ بدا أنه أصبح أكثر هدوءاً، فقط ليثير ضجة بكل قوة محركاته المتنافرة والعنيدة، بينما مرّ بنا شخصان هزيلان يتمسكان ببعضهما البعض، داخل العربات المضاءة بتألق التي سحبها القطار معه وهي تصدر ضجيجاً آدمياً، رأينا الركاب الذين كانوا يميلون للخلف في مقاعدهم، مائلين على النوافذ، معلقين معاطفهم، يشعلون سجائرهم، كلهم غير مدركين تماماً أننا نشاهدهم وهم ينزلقون في غمضة عين، وقفنا في النسيم الواهي والهدوء الذي تركه القطار خلفه، محدقين في الضوء الأحمر في مؤخرة القطار لوقت طويل.

ـ «هل تعرفين إلى أين يذهب القطار؟» سألت ابنتي بتلقائية.

ـ «أين يذهب القطار؟».

ـ «أولاً إلى «إزمت»، ثم إلى «بيلسك»».

ـ «ثم؟».

«إلى «إسكيسير»، ثم إلى «أنقرة»».

ـ «ثم؟».

«ثم إلى «قايصري»، ف «سيفاس»، ف «مالاتيا»».

ـ «ثم؟» قالت ابنتي ذات الشعر البني الفاتح، وهي سعيدة بتكرار نفسها وما زالت تشاهد الضوء الأحمر المرئي بالكاد في مؤخرة القطار (السبنسة) بشعور عابس وغامض.

ووالدها يستدعي طفولته وهو يقول أسماء المحطات التي يتذكرها حيث يقف القطار ـ ثم، ثم ـ بالإضافة إلى تلك التي لم يتذكرها.

من المؤكد أنني كنت في الحادية أو الثانية عشرة من عمري، ذهبت أنا ووالدي إلى منزل العم رفقي ظهيرة يوم ما، بينما يلعب والدي والعم رفقي الطاولة، تناولت بسكويت السكر الذي أعطته لي العمة راتيب في يدي، وكنت أشاهد طائر الكناريا في القفص، ثم طرقت على البارومتر الذي لم أتعلم قراءته بعد؛ كنت قد سحبت لتوي إحدى القصص المصورة القديمة على الرف وقد انغمست في مغامرة لـ «برتف وبيتر» عندما ناداني العم رفقي، كما يفعل دائماً عندما نزوره، وبدأ يسألني.

«قل أسماء المحطات بين «يولساتي» و«كورتالان»».

بدأت بـ «يولساتي، يولوف، كيورك، سيفرايز، جيزن، مادن»، وقلت أسماء البقية دون أن أترك شيئاً.

وهؤلاء الذين بين ««أماسيا» و«سيفاس؟»».

قمت بتكرارهم بسرعة دون توقف لأني قد حفظت جداول مواعيد القطارات الذي يزعم العم رفقي أن كل طفل تركي ذكي يحب أن يحفظها عن ظهر قلب.

«لماذا يجب على القطار الذي يرحل من «كتايت» في طريقه إلى «أوسال» أن يمر بـ «أفيون»؟».

عرفت إجابة هذا السؤال عن طريق العم رفقي وليس من جداول مواعيد القطارات.

«لأن الحكومة لسوء الحظ هجرت سياستها الخاصة بالطرق الحديدية».

قال العم رفقي، وعيناه تلمعان: «وها هو السؤال الأخير، نحن نذهب من «سيتنكايا» إلى «مالاتيا»».

«سيتنكايا، ديميرز، أكيديك، يوليجوني، هسانسيليبي، هيكمهان، كيسيكوبري. . . .» بدأت لكني أخفقت قبل أن أتمهم.

«ماذا بعد؟».

كنت صامتاً، كان مع والدي حجر النرد في يده، وكان يدرس القطع على الطاولة، باحثاً عن مخرج من مأزق شديد.

«ما الذي يأتي بعد كيسيكوبري؟».

طقطق طائر الكناريا في القفص.

عدت أدراجي للوراء ثم بدأت مجدداً بأمل جديد، «هيكمهان، كيسيكوبري»، لكني علقت مرة أخرى عند المحطة التالية.

«وماذا بعد؟».

كانت هناك وقفة طويلة، اعتقدت أنني على وشك البكاء عندما قال العم رفقي: «راتيب، اذهبي واحضري له واحدة من حلوى الكراميل؛ قد يتذكر عند ذلك».

عرضت عليّ العمة راتيب حلوى الكراميل. كما اقترح العم رفقي، تذكرت المحطة التالية بعد «كيسيكوبري» بمجرد أن دسستُ الكراميل في فمي.

بعد خمسة وعشرين عاماً على هذا الموقف، ها هو وابنته الجميلة بين ذراعيه، وهما يشاهدان الضوء الأحمر في ضجيج القطار السريع المتجه جنوبياً، ورجلنا الغبي «عثمان» لم يستطع تذكر نفس اسم المحطة مرة أخرى، لكني أجبرت نفسي على

التذكر لبرهة من الوقت، محاولاً تملق وتحفيز أفكاري، مخبراً نفسي: يا لها من مصادفة! 1 ـ القطار الذي مرّ بنا لتوه سوف يمر غداً خلال نفس المحطة التي لا أستطيع تذكر اسمها. 2 ـ عرضت عليّ العمة راتيب حلوى الكراميل من نفس الطبق الفضي الذي أعطتني إياه كهدية. 3 ـ هناك واحدة من حلوى الكراميل في فم ابنتي، وفي جيبي أقل من مائة جرام من الكراميل.

أيها القارىء العزيز، لقد حصلت على متعة من حيث علقت ذاكرتي حيث تقاطع ماضيي ومستقبلي في هذه الأمسية الربيعية عند نقطة كانت بعيدة تماماً عن كونها عن غير قصد حتى أنني تسمرت حيث كنت أقف، محاولاً استرجاع اسم المحطة.

بعد فاصل طويل، قالت ابنتي وهي بين ذراعي، «كلب».

كان أقذر وأكثر الكلاب إثارة للشفقة من بين كلاب الشوارع يشم ثنيات سروالي، ونسيم رقيق يهب بارداً على المساء المتواضع الذي خيّم على المنطقة، عدنا سريعاً إلى البيت، لكني لم أسرع في الحال لطبق الحلوى الفضي، كان يجب أن أدغدغ ابنتي أولاً، وأهدهدها، ثم أضعها في الفراش؛ ثم نجلس أنا وزوجتي معاً لنشاهد القبلات وجرائم القتل في فيلم ليلة الأحد؛ ثم أقوم بجلب بعض النظام إلى الكتب، الورق، والملائكة على مكتبي قبل أن أستطيع البدء في انتظار ـ وقلبي يخفق ـ ذكرياتي لتتكثف وتصل إلى الدرجة المناسبة.

الرجل ذو القلب العليل الذي وقع ضحية الحب كما وقع أيضاً ضحية لكتاب دعي لمبادئه: التحدث، الذكرى ورفعت طبق الحلوى بين يدي، إيماءاتي كانت بها شيء ما من ممثل مسرح

محلي وهو يرفع جمجمة بيزنطي فقير معتقداً أنها جمجمة «يوريك» المسكين، لكنك لو فكرت في النتيجة، فهي لم تكن إيماءة مزيفة، كم كان مطيعاً اللغز المسمى «الذاكرة» بالرغم من كل شيء: تذكرت في الحال.

هؤلاء القرّاء الذين يؤمنون بالصدفة والحادثة، بالإضافة إلى هؤلاء القرّاء الذين يؤمنون بالعم رفقي لن يتركوا الأشياء للصدفة والحادثة، وربما خمنوا بالفعل أن اسم المحطة كان «فيران باج».

تذكرت ما هو أكثر، عندما نظرت إلى طبق الحلوى الفضي وحلوى الكراميل في فمي منذ ثلاثة وعشرين عاماً ونطقت بالإجابة فجأة، «فيران باج»، قال العم رفقي: «مذهل، برافو!».

ثم.. ثم ألقى حجر النرد الذي أظهر رقمي خمسة وستة، ضارباً قطعتين من قطع والدي بضربة واحدة، وقال: «عاكف»، ولدك هذا ذكي بشكل مذهل، هل تعرف ماذا أنوي فعله في أحد الأيام؟» لكن والدي الذي كان اهتمامه مركزاً على قطعة المحبوسة لم يكن حتى يستمع، لذلك وجّه العم رفقي الكلام لي مباشرة:

«سوف أكتب كتاباً في يوم ما وأعطي البطل اسمك».

«كتاب مثل «برتف وبيتر»؟» سألت، وقلبي يخفق.

«لا، ليس كتاباً مصوراً، لكن كتاباً سأحكي فيه قصتك».

ظللت صامتاً، غير مقتنع. لم أستطع أن أتخيل أي نوع من الكتب قد يكون.

كان ذلك عندما نادت العمة «راتيب»: «ها أنت تقوم بخداع الأطفال مرة أخرى!».

هل كان ذلك مشهداً حقيقياً؟ أو هل كان خيالاً اخترعته ذاكرتي الطيبة ذات النية الحسنة في الحال لتعزية رجل محطم

مثلي؟ لم أتمكن من الفهم قط، لكن لم يكن لدي رغبة في أن أسرع على الفور وأسأل العمة راتيب أيضاً، سرت باتجاه النافذة وطبق الحلوى الفضي في يدي، شردت في أفكار وأنا أنظر من النافذة إلى الشارع، على الرغم من أنني لا أعرف إذا كنت أستطيع أن أدعوه في الحقيقة تفكيراً، أو حتى كلاماً أثناء نومي.

1 ـ أضيئت الأضواء في ثلاثة منازل مختلفة في نفس الوقت.

2 ـ الكلب المثير للشفقة عند المحطة مرّ بي وهو يبدو متكبراً.

3 ـ ما الذي جعل أصابعي تجن خلال كل هذا التشوش العقلي، وتقوم بالتحكم في الموقف وتزيل ـ يا، انظر ـ الغطاء الملتصق بطبق الحلوى دون عناء شديد.

أعترف أنني فكرت للحظة أنه مثلما في الحكايات الخيالية قد ينتج طبق الحلوى تمائم، أو خواتم سحرية، أو عنباً مسموماً، لكن ما يحتويه كان سبع قطع من حلوى الكراميل «حياة جديدة» تذكرتها من طفولتي والتي لم تعد تظهر في محال البقالة ومتاجر الحلوى حتى في أكثر المدن المحلية انعزالاً؛ كان هناك على غلاف كل واحدة ملاك كعلامة تجارية ـ لتصنع في المجمل سبعة ملائكة ـ تجلس بأدب على حافة حرف الحاء في كلمة «حياة»، وسيقانها الجميلة تمتد بخفة في الفراغ بين كلمتي «حياة» و«جديدة»، وتنظر إليّ بامتنان وتبتسم بلطف لكوني حررتها من ظلام طبق الحلوى الذي تحملته طيلة العشرين عاماً الماضية.

نزعت بعناية فائقة وبصعوبة الأغلفة عن حلوى الكراميل التي تحوّلت إلى رخام بفعل الزمن، وأنا على يقين ألا أؤذي الملائكة، كانت هناك أبيات شعر هزلية داخل كل غلاف، لكن لا يمكن القول إنها قدمت أي مساعدة في فهم الحياة أو الكتاب فعلى سبيل المثال:

وراء الكانتين.

تنمو الحشائش الخضراء؛

ما أريد منك

هو ماكينة خياطة.

الأكثر من ذلك، أنني بدأت أكرر هذا الهراء غير المنطقي لنفسي في سكون الليل، قبل أن أفقد عقلي تماماً تسللت إلى حجرتي القديمة كملاذ أخير، وسحبت للخارج الدرج السفلي من التسريحة القديمة بهدوء، وجدت بواسطة اللمس الشيء البلاستيكي المتعدد الأغراض من طفولتي كان يستخدم كمسطرة من ناحية، ومن الناحية الأخرى فتاحة للخطابات، ذات نصل غير حاد وعدسة مكبرة؛ ومثل عميل وزارة المالية الذي يفحص النقود المزيفة تحت ضوء مصباح المكتب، تفحصت الملائكة على أغلفة حلوى الكراميل ذات الأربعة أجنحة الواقفين بثبات في الرسومات الفارسية؛ لم يكن بهم أي شيء من الملائكة التي توقعت رؤيتهم في أي دقيقة من نافذة الحافلة منذ سنوات عديدة، أو نسخهم المطبوعة بالأبيض والأسود ذكّرتني ذاكرتي - في محاولة لتبدو مشغولة - بلا فائدة أنه عندما كنت صغيراً، اعتاد الباعة الذين كانوا أطفالاً بدورهم أن يبيعوا حلوى الكراميل هذه في القطارات، كنت على وشك استنتاج أن شكل الملاك تمّ اقتباسه من مطبوعة أوروبية ما، عندما ركّزت على اسم الصانع الذي ظلّ يبعث لي بإشارات من ركن الغلاف.

المكونات: لوكوز، سكر، زيت نباتي، زبد، لبن، فانيليا.

حياة جديدة (ت.م)(*) حلوى كراميل منتج لشركة الملاك.

للحلوى واللبان، شركة محدودة.

18 شارع بلوومينجدال.

إسكيسير.

كنت في المساء التالي على متن الحافلة المتجهة إلى «إسكيسير»، كنت قد أخبرت رؤسائي في مجلس المدينة أن قريباً لي منعزلاً ووحيداً يسكن بعيداً سقط مريضاً؛ وشرحت لزوجتي أن رؤسائي المرضى عقلياً قد أرسلوني إلى مدن بعيدة ومعزولة، هل فهمتني، أليس كذلك؟ إذا لم تكن الحياة قصة تروى بواسطة أحمق لا يعرف شيئاً، إذا لم تكن الحياة مجموعة عشوائية من الشخبطة على قطعة من الورق كتبها طفل يقبض على قلم رصاص كما تفعل ابنتي ذات الثلاث سنوات أحياناً، إذا لم تكن الحياة مجرد سلسلة قاسية من الحماقات المجردة كلياً من أي شعور، ثم من المؤكد أن هناك نوعاً ما من المنطق لكل المتع والألعاب التي بدت مصادفة لكن العم رفقي قام بوضعها هناك عندما كتب «الحياة الجديدة» وإذا كان الوضع كذلك، إذاً فالمخطط العظيم كان ليضطر أن يقصد وضع الملاك في طريقي، هنا وهناك، كل تلك السنوات العديدة، على كل حال لو نجح بطل عادي ومحطم مثلي في اكتشاف من فم الشخص المعني ـ كما يقال ـ بواسطة الكلام مباشرة مع رجل الحلوى الذي قرر وضع صورة الملاك على غلاف حلوى الكراميل التي أحبها البطل في طفولته، ثم من المحتمل أن يكون قادراً على إيجاد العزاء، في أمسيات الخريف

(*) Trademark ماركة مسجلة.

عندما ينزل الحزن على روحه، في معنى ما تبقى من حياته، بدلاً من الشكوى من قسوة المصادفات.

بالحديث عن المصادفات، كان قلبي الذي يخفق وليست عيني الذي عرف أولاً أن سائق الموديل الأخير لحافلة «مرسيدس» التي أخذتني إلى «إسكيسير» كان نفس السائق الذي قاد الحافلة بنا أنا وجنان منذ أربعة عشر عاماً من مدينة صغيرة ذات مآذن إلى مدينة حولتها سيول المطر إلى مستنقع، كانت عيني ـ بالإضافة إلى بقية جسدي ـ منشغلة بمحاولة أن تعتاد على كل وسائل الراحة الحديثة المتاحة على الحافلات مؤخراً، مثل هدير مكيف الهواء، أضواء القراءة الفردية فوق المقاعد، متعهدو الحافلات يرتدون زياً مثل خدم الفنادق، المذاق البلاستيكي للطعام المغلف في كيس بلاستيكي ذي ألوان زاهية ويقدم على صواني، وفوط المائدة التي تحمل شعار المجنح لوكالة السياحة، بمجرد لمسة زر يمكن للمقاعد الآن أن تتحول إلى أفرشة تميل على سيقان غير المحظوظين الجالسين في المقاعد التي خلفها، الآن كان مخطط للحافلات «السريعة» أن تسافر مباشرة من موقف محدد إلى موقف آخر ولا توجد أي وقفات في مطاعم يسكنها الذباب على طول الطريق، بعض الحافلات وُضع بها مكان للحمام الذي يذكّرك بالكراسي الكهربائية حيث يكره المرء أن يعلق عند وقت الحادث. كان ما ظهر لنصف الوقت على شاشة التليفزيون إعلانات تعلن عن مركبات الوكالة السياحية التي تجرنا باتجاه قلب السهب المغطى بالإسفلت، فبينما يسافر الشخص على الحافلة غافياً أو مشاهداً التليفزيون، يستطيع مشاهدته لمئات المرات كم من الممتع السفر على هذه الحافلة بينما يغفو أو يشاهد التليفزيون، في الوقت الحالي كان السهب الموحش

والمنعزل الذي شاهدناه أنا وجنان من نافذة الحافلة ذات مرة قد تمّ منحه لـ «أشخاص ودودين» ونتيجة لذلك أصبح مليئاً بلوحات الإعلانات التي تعرض السجائر والإطارات، واتخذ السهب وهجاً لألوان متنوعة وفقاً للون طلاء نوافذ الحافلة الذي يحجب الشمس ـ أحياناً بلون الطين البني، أحياناً الأخضر المميز للإسلام، أحياناً لون الزيت الخام الذي يذكرني بالمقابر، لكن بالرغم من ذلك، بالاقتراب من أسرار حياتي التي انزلقت بعيداً وبالاقتراب من المدن المنعزلة التي دفنت في طي النسيان كما تعتقد بقية الحضارة، شعرت أنني ما زلت حياً، ما زلت أتنفس بغضب، وما زلت ألاحق ـ دعني أوضح الأمر بهذه الطريقة، مستعيراً كلمة من الماضي ـ رغبات بعينها.

أفترض أنكم خمنتم أن رحلتي لم تنته في مدينة «إسكيسير» في موقع حيث كانت توجد سابقاً مكاتب ومبنى الإنتاج لشركة الملاك للحلوى واللبان في 18 شارع بلومنيجدال، كان هناك الآن يقف مبنى من ستة طوابق يستخدم كبيت لطلاب «مدرسة الإمام الواعظ». أخبرني الرجل الأكبر سناً في أرشيف الغرفة التجارية لمدينة «إسكيسير» ـ الذي عرض عليّ شاياً بنبات الزيزفون مضافاً إليه نكهة المياه الغازية ـ بعد قضاء ساعات أتصفح خلال الكتب أن شركة الملاك للحلوى واللبان قد أنهت أعمالها «إسكيسير» بغرض نقل أعمالها، والذي يسجل الآن في الغرفة التجارية لمدينة «كيتاهيا».

أصبح من الواضح سريعاً في «كيتاهيا» أن الشركة قد أوقفت أعمالها هناك بعد سبع سنوات من الإنتاج ولو لم أكن فكّرت في الذهاب إلى مكتب التوثيق العام في مجلس البلدية وتتبعت الأمر وصولاً إلى حي يدعى «منزل المنصة»، لما اكتشفت

أن مؤسس الملاك للحلوى واللبان ـ سيد محترم يسمى «ثريا» ـ قد رحل منذ خمسة عشر عاماً عابراً نصف البلاد إلى «مالاتيا»، والتي كانت البلدة الأصلية للرجل الذي تزوجت ابنته الوحيدة في «مالاتيا»، عرفت أن شركة الملاك للحلوى واللبان انتعشت في آخر سنواتها منذ أربعة عشر عاماً تقريباً، وتذكرت أن جنان وأنا قد صادفنا حلوى الكراميل الأخيرة في موقف الحافلات.

عندما لاقت حلوى الكراميل «حياة جديدة» مرة أخرى تشجيعاً في «مالاتيا» والأماكن المجاورة لها، قامت الغرفة التجارية ـ بجهد يشبه إلى حد كبير طبع آخر عملة لإمبراطورية منهارة ـ بنشر مقالة في خطاباتها للعملاء متضمنة تاريخ الشركة التي صنعت حلوى كراميل ذات مرة التي كانت تؤكل في كل تركيا، مذكّرة كيف كانت كراميل «حياة جديدة» تستخدم بدلاً من العملات الصغيرة عند محال البقالة وأكشاك السجائر؛ ثم بعض الإعلانات تصور ملائكة ظهرت في «مالاتيا إكسبريس»؛ وبمجرد أن أصبحت حلوى الكراميل على وشك الرجوع إلى حالتها كالعملات في جيوب الناس مرة أخرى، انتهى كل شيء عندما تمّت رؤية المنتجات بطعم الفاكهة التي تمّ الإعلان عنها بشكل جيد والتي أنتجتها شركة عالمية كبيرة على التليفزيون، وتقوم ممثلة أمريكية شابة ذات شفاه جميلة بتناول هذه المنتجات، كان ذلك في قرية محلية حيث اكتشفت بيع البراميل، أجهزة التعبئة والعلامة التجارية، حاولت تجميع الأجزاء من المعلومات المتوفرة من أقارب زوج الابنة عن مكان وجود صاحب مصنع شركة كراميل «حياة جديدة»، السيد المحترم الذي يدعو «ثريا»، بعد أن غادر «مالاتيا». أخذتني تحرياتي بعيداً إلى الشرق، لمدن بعيدة غامضة لم تظهر حتى في أطلس المدارس الثانوية، مثلما

اعتاد الناس الهرب من الوباء ذات مرة في الماضي، هرب السيد «ثريا» وعائلته بعيداً إلى مدن مغمورة، كما لو كانوا يحاولون الهرب من السلع الاستهلاكية المبهرة ذات الأسماء الأجنبية ـ شكراً لدعم الإعلانات والتليفزيون ـ وصلت من الغرب وغزت البلدة بأكملها مثل مرض مميت معدٍ.

ركبت حافلات، ونزلت من حافلات، درت حول مواقف الحافلات، مشيت عبر مناطق التسوق، بحثت في دار الوثائق، قطاع المكاتب، الأزقة الخلفية، ميادين المنطقة التي تعرض النافورات، الأشجار، القطط، المقاهي. لفترة، في كل مدينة حيث أضع قدمي، مشيت على كل رصيف، توقفت في كل مقهى من أجل كوب من الشاي، اعتقدت أنني قابلت آثار مؤامرة لا ترحم تربط هذه الأماكن بالحروب الصليبية، البيزنطية، وبالعثمانيين، ابتسمت بتساهل لأطفال الشوارع المحنكين الذين يحاولون أن يبيعوا لي عملات بيزنطية مطبوعة حديثاً، معتقدين أنني سائح؛ تقبلت الأمر عندما بلل الحلاق عنقي بكولونيا لها لون البول وتسمى «يورارتي الجديدة»؛ وكنت مندهشاً لأرى أن البوابة العظيمة لواحد من أرض المعارض التي تنفتح فجأة مثل فطر عُش الغراب في كل مكان كانت قد تمّ تفكيكها وجلبها من أطلال «هيتايت» ولم يكن من الضروري بالنسبة لي أن تصبح قوة خيالي ناعمة مثل إسفلت الرصيف الذي مشيت عليه في حرارة منتصف النهار لأفترض أن هناك شيئاً ما من الغبار أثاره الفارس الصليبي الذي استقر على نظارة مناسبة الحجم التي تمثل شعار «زيكي» للنظارات.

لكن في أوقات أخرى شعرت أن تلك المؤامرات التاريخية

والمحافظة التي أعطت هذه الأرض التي قاومت للتغيير كانت تفلس، مدركاً أن أماكن الأسواق ومحال البقالة في المنطقة والشوارع المعلق بها الغسيل، التي كانت تبدو لي ولجنان منذ أربعة عشر عاماً صامدة وثابتة مثل قلعة سلوقية، كانت تلفحها الرياح القوية التي تهب من الغرب، كل تلك أحواض الأسماك، بالإضافة إلى السمكة التي بداخلها، الصمت المتأمل الخاص بها الذي اعتاد أن يميز أماكن التشريفة في المطاعم في العواصم المحلية، قامت بالاختفاء فجأة كما لو كانت استجابت لأمر مختفٍ، من الذي قرر في الأربعة عشر عاماً الأخيرة أن الأزقة الخلفية المغبرة تكون مليئة بالشعارات التي تصرخ على لوحات الإعلانات البلاستيكية اللامعة؟ من الذي قطع الأشجار في ميادين المدينة؟ أثناء تطلعي على المباني السكنية الإسمنتية التي أحاطت بتماثيل أتاتورك مثل حوائط السجن، تساءلت من الذي أمر أن تكون القضبان الحديدية على الشرفات متماثلة برتابة ومن الذي علّم الأطفال أن يمطروا الحافلات بالحجارة؟ من الذي جاء بفكرة استخدام بعض المطهر السام ليملأ به حجرات الفنادق؟ من الذي نشر في كل البلاد تلك الروزنامات التي عليها صور لجميلات أنجلو ساكسونيات يمسكن بإطارات شاحنات بين سيقانهن الطويلة؟ ومن الذي أصرّ أن من الإجباري على المواطنين أن ينظروا لبعضهم البعض نظرات عدائية لكي يشعروا بالأمان في الأماكن الحديثة مثل المصاعد، صفوف تغيير العملة، حجرات الانتظار؟

أصبحت مسناً قبل الآوان، أتعب بسرعة، أمشي أقل ما يمكن، ولم أكن أعي كيف كان جسدي يُجر لمسافة طويلة من قبل جموع الناس ويختفي تدريجياً في وسطهم، لم أنظر في وجوه

هؤلاء الذين يزاحمونني ويدفعونني كما أزاحمهم على الأرصفة الضيقة، ناسياً إياهم في اللحظة التي أراهم فيها كما أفعل مع الأسماء التي لا حصر لها على اللافتات البلاستيكية للمحامين، أطباء الأسنان، والمستشارين الماليين المتدفقة فوق الرؤوس. لم أستطع فهم كيف تحوّلت هذه المدن الصغيرة البريئة وشوارع الأحياء التي بدت وكأنها تخرج من رسومات مصغرة ـ حيث مشينا أنا وجنان نتجول شاعرين بالمرح والسحر كما لو كان سُمح لنا بدخول الحديقة الخلفية لسيدة مسنة طيبة القلب ـ إلى مجموعة من المراحل المخيفة التي كانت نسخاً كربونية من بعضها البعض، مليئة بعلامات الخطر ونقاط التعجب.

رأيت حانات مظلمة وبارات تعمل في أكثر الأماكن غير المناسبة، بالقرب من المساجد وبيوت المسنين، ورأيت عارضة أزياء روسية مسحوبة العينين تتجول من مدينة إلى مدينة ومعها حقيبة ملابس في يدها وتعرض الملابس على الحافلات، في دور العرض العامة، أو أماكن التسوق، ثم تبيع الملابس التي عرضتها لنساء محجبات ومغطيات رؤوسهن، رأيت أن المهاجرين الأفغان الذين اعتادوا أن يبيعوا مصاحف القرآن بحجم أصبعي الصغير تمّ استبدالهم على الحافلات لعائلات من الروس والجورجيين الذين يبيعون ألعاب شطرنج بلاستيكية، منظار مكبر من البلاستيك «باكيلايت»، ميداليات المعارك، والكافيار من بحر قزوين، قابلت رجلاً تخيلت أنه الأب الذي ما زال يبحث عن ابنته، الفتاة ذات الجينز الأزرق التي ماتت ويدها تمسك بيد حبيبها الميت بعد حادث طريق عشته أنا وجنان في ليلة ممطرة، رأيت أشباحاً لقرى كردية مهجورة نتيجة لحرب ظلت غير معلنة، ورأيت كتيبة تتجول في الأماكن

المظلمة في الجبال الوعرة البعيدة، محل لألعاب الفيديو؛ حيث يتجمع المتسربون من المدارس، الشباب العاطل، وعباقرة المدينة ليختبروا قدراتهم، حظهم، وغضبهم، شاهدت لعبة فيديو تتطلب الحصول على خمس وعشرين ألف نقطة ليظهر ملاك اللعبة الوردي اللون ـ الذي صمّمه مصمم ياباني ونفّذه شخص إيطالي ـ ويبتسم بلطف وكأنه يَعدنا بحظ جيد ـ نحن سيئي الحظ ـ الذين يضغطون على أزرار في ظلام غرفة مغبرة خبيثة الرائحة، رأيت رجلاً تفوح منه رائحة صابون الحلاقة «أو بي»، يحرك شفتيه، وهو يقرأ بصوت عال أعمدة الصحفي الراحل «جلال ساليق» التي اكتشفوها بعد موته، رأيت لاعبي كرة قدم من ألبانيا والبوسنة منقولين حديثاً يجلسون ويشربون الكوكاكولا مع زوجاتهم الشقراوات الجميلات في المقاهي في ميدان المدن الثرية الحديثة حيث تمّ هدم المنازل الخشبية لبناء مبانٍ سكنية من الصلب المسلح، رأيت أيضاً بقلق أشباحاً اعتقدت أنها «سيكو» أو «سركيسوف» في حانات قذرة، في أماكن التسوق حيث يتدفق الناس بغزارة مثل البراغيث، أو ينعكسون على نافذة الصيدلية حيث تنعكس أيضاً واجهة المتجر عبر الشارع والتي تعرض فيها الضمادات المطاطة للذين يعانون من الفتق؛ وعند حلول الليل كنت أدفن نفسي في أحلامي الملونة بالسعادة أو في كوابيسي إما في غرفة في فندق ما أو على مقعدي في حافلة.

بينما نحن نتحدث في الموضوع، يجب أن أذكر أنه قبل أن ينتهي بي المطاف في «سون بازار» ـ والتي كانت وجهتي الأخيرة ـ توقفت لوقت قصير في مدينة معزولة تدعى «ساتيك» التي كان دكتور فاين يضعها في قلب البلاد، لكني وجدت أن المدينة تغيّرت جداً نتيجة للحرب والهجرة، بعض فقدان الذاكرة الغريب، حشود

الناس، الخوف والروائح ـ من المؤكد أنك خمنت من عدم قدرتي على صياغة الموقف في كلمات، كيف أن عقلي أصبح مشتتاً وسط الجموع التي تتجول في الشوارع بلا هدف ـ حتى أنني أصبحت قلقاً، خائفاً أن ذكريات جنان ـ التي كانت كل ما بقي لي ـ قد تتحطم، اصطفت الساعات الرقمية اليابانية الصنع في نافذة الصيدلية لتعلن ـ في الحقيقة والخيال ـ أن مؤامرة دكتور فاين الكبرى المضادة ومنظمة المخبرين التي في خدمته قد انهارت منذ وقت طويل؛ ولكي يزداد الأمر سوءاً، اصطفت التجار أصحاب الأكشاك وبضائع مثل المشروبات الغازية، عربات، آيس كريم، وأجهزة التليفزيون في المنطقة المخصصة للتسوق، عارضين لافتاتهم ذات الأسماء التجارية الأجنبية في صفوف.

وبالرغم من ذلك، البطل الأحمق سيىء الحظ الذي كنته، محاولاً اكتشاف معنى الحياة في هذه الأرض التي تعاني من الإفلاس، اعتقدت أنني قد أجد مكاناً ظليلاً لطيفاً وهادئاً يوفر لي ملاذاً سعيداً لأحلامي، حيث يمكنني تنشيط ما في ذاكرتي من وجه جنان، ابتسامتها، والأشياء التي قالتها؛ لذلك مشيت باتجاه المنزل الذي عاش فيه دكتور فاين ذات مرة مع بناته الجميلات، وشجرة التوت التي كانت موقع ذكرياتي، أسلاك الطاقة وقضبان الكهرباء جاءت بالكهرباء إلى الوادي، لكن لم يكن هناك أي منزل في الجوار، ولم يكن هناك شيء يُشاهد سوى بعض الأطلال وبدا أن هذه الأطلال لم تكن بفعل الزمن لكنها نتيجة لسلسلة من الكوارث، حدث ذلك عندما رأيت الأحرف تعلن عن بنك «إيه ـ كي» موضوعة بطريقة ملحوظة على واحد من التلال التي تسلقناها أنا ودكتور فاين ذات مرة حتى أنني بدأت أفكر ـ في تعجب ـ أنني صنعت عملاً جيداً بقتل حبيب جنان السابق،

الذي آمن أنه يستطيع الحصول على سلام الزمن الأبدي وغموض الحياة ـ أياً ما تريد أن تسميها ـ من خلال الكتابة وإعادة كتابة نفس السطور لسنوات لا تنتهي. لقد أنقذت ابنه ـ بالرغم من كل شيء ـ من أن يشاهد كل هذه المشاهد المتهالكة، من الغرق في طوفان من ألعاب الفيديو ولوحات الإعلانات، من الاضطرار إلى أن يصبح أعمى في عالم يفتقر للضوء والدفء ولكن من يحيطني بالضوء وينقذني من هذه الأرض المُحاطة بالغرابة والقوة المتحفظة؟ ذلك الملاك الذي استطعت ذات مرة أن أحلم بألوانه الرائعة البراقة على شاشة خيالي وكلماته التي استطعت سماعها في قلبي الآن لم يعطني أية إشارة.

تمّ إيقاف القطار المتجه إلى «فيران باج» نتيجة للمتمردين الأكراد، لم يكن القاتل ينوي العودة إلى مسرح جريمته، حتى بعد مضي كل تلك السنوات، لكن طالما أنه يجب أن أمر بـ «فيران باج» لكي أصل إلى «سون بازار» حيث ـ طبقاً لمعلوماتي ـ يعيش مع حفيده السيد المدعو «ثريا» الذي فكر في وضع ملاك على حلوى الكراميل الخاصة به، كان الوضع حرجاً أنني أخذت حافلة النهار عبر هذه المنطقة حيث محاربي العصابات الأكراد كانوا نشيطين وبالمضي قدماً كان ما استطعت رؤيته من «فيران باج» من نافذة الحافلة، هذا المكان أيضاً فقد كل ما قد يكون يستحق التذكر؛ ولكني فقط في حالة أن يرى أحد ما القاتل ويتذكر شيئاً، دفنت رأسي في جريدة «ميليت» بينما أنتظر الحافلة أن تغادر.

عندما بدأت الحافلة تتجه شمالاً، أصبحت الجبال مدببة بحدة ويمكن ملاحظتها في الضوء الأول للصباح، ولم أستطع أن أقرِّر إذا كان الصمت داخل الحافلة من جراء الخوف، أو لأننا

جميعاً كنا ـ بطريقة ما ـ نشعر بالدوار من الدوران والدوران حول هذه الجبال القاسية، توقفنا من وقت لآخر نتيجة لنقاط التفتيش العسكرية حيث يتم التفتيش على بطاقاتنا الشخصية، أو لإنزال شخص ما سيضطر للمشي بصحبة السحاب فقط طوال الطريق إلى قريته المنعزلة عن الطريق حتى أن الطيور لا تتوقف هناك، لم أستطع التوقف عن التحديق بإعجاب في الجبال التي كانت رابطة الجأش حتى أنها اعتادت على كل هذه القسوة التي شاهدتها على مدى قرون، قبل أن يلقي القارىء الذي رفع حاجباً وهو يقرأ العبارة السابقة هذا الكتاب جانباً في اشمئزاز الذي يوشك على نهايته، اسمح لي أن أقول فقط إن قاتلاً أفلت من العقاب مسموح له بكتابة هذا النوع من الجمل الوقحة.

افترضت أن «سون بازار» كانت تحت تأثير محاربي العصابات الأكراد، يمكن أن يقال إن المدينة كانت أيضاً تحت تأثير الحضارة الحديثة لأن في اللحظة التي خطوت خارجاً من الحافلة، قابلني صمت ساحر قادماً من حكاية خيالية غامضة عن السلاطين السعداء والمدن المسالمة، لا يوجد شيء واحد يجعلني أعتقد، «هنا سأتجول وأتجول»، من الواضح أنني وصلت ـ كما كنت أفعل دائماً فيما سبق ـ في نفس المكان حيث غُمرت بلوحات الترحاب من كل هذه البنوك، وكل تجار الجيلاتي، الثلاجات، السجائر، وأجهزة التليفزيون، هنا رأيت قطة، كانت تلعق نفسها بإيقاع متكاسل وبدت راضية عن نفسها للغاية في الظل الآمن للحاجز الخشبي الملحق بالمقهى الذي يطل على التقاطع الذي من المؤكد أنه ميدان المدينة، جزاراً سعيداً أمام محل الجزارة، بقالاً رائق البال أمام محل البقالة، بائعاً ناعساً والذباب الناعس أمام كشك للسلع، كانوا جميعاً يجلسون في

ضوء الصباح الهادىء، يذوبون بسلام في الضوء الذهبي في الشارع كما لو كانوا على وعي تام أن أكثر الأنشطة العادية لكونك حياً هي ببساطة السعادة الكبرى، بالنسبة للغريب في مدينتهم الذي نظروا إليه بطرف أعينهم، كان قد انضم في الحال إلى هذا المشهد من الخرافات، متخيلاً أن جنان التي كان يحبها بجنون ذات مرة سوف تظهر له من أقرب زاوية، حاملة في يديها بعض الساعات التي تنتمي إلى أسلافنا، أو مجموعة من القصص المصورة القديمة، وعلى شفتيها ابتسامة تغيظني.

عندما سرت بطول الشارع الأول أصبحت واعياً بهدوء ذهني؛ في الشارع الثاني، شجرة صفصاف باكية لمستني بحنان؛ وعندما قابلت طفلاً ذا جمال ملائكي ورموش طويلة في الشارع الثالث، فكرت في أن أخرج من جيبي قصاصة الورق التي عليها العنوان وأسأله عن الطريق. هل كانت أبجدية عالمي البالي أجنبية بالنسبة له؟ أو هل لا يستطيع الطفل القراءة؟ لم أكن أعرف، لكن عندما نظرت إلى قصاصة الورق التي نجحت أن أجعل موظفاً محلياً يكتب لي العنوان على بعد مائتي كيلومتر جنوباً من هنا، أدركت أن الخط بالكاد مقروء، حاولت استيضاح المقاطع بصوت عال، لكن قبل أن أستطيع قول شارع «راي هيل»، أخرجت سيدة عجوز رأسها من شرفتها وقالت: «هناك.. ها هو هناك، الشارع الذي يتجه لأعلى».

الفصل السابع عشر

يجب أن تكون نهاية الطريق أعلى التل، هذا ما كنت أفكر فيه عندما صدمتني عربة تجرها الخيول تحمل حاويات معدنية مملوءة عن آخرها بالماء وهي تنحرف داخلة الشارع، افترضت أن الماء كان لبناية تحت الإنشاء في مكان ما أعلى التل، أثناء ما كنت أشاهد الماء وهو يخرج من الحاويات بينما تصعد العربة، تساءلت لماذا صُنعت الحاويات من الحديد المغطى بالزنك المجلفن وليس البلاستيك، هل ما زال البلاستيك لا يظهر في هذا المكان؟ لم أتبادل النظرات مع السائق المنشغل ولكن مع الحصان وكنت خجلاً من نفسي، كان شعر رقبته مبللاً بالعرق؛ كان غاضباً ويائساً؛ وهو تحت ضغط ويجر وزناً ثقيلاً، ما كان يبدر منه يمكن تسميته ألماً صافياً وللحظة رأيت نفسي في عينيه الكبيرتين الحزينتين البائستين واكتشفت أن حالة الحصان كانت أسوأ بكثير من حالتي، تسلقنا شارع «راي هيل»، مصحوبين بصوت حاويات الماء المعدنية المزعج، العجلات تصدر صوتاً على الرصيف الحجري، ونفسي المعتادة تلهث صعوداً على التل، انحرفت عربة الحصان إلى فناء صغير حيث يتم خلط المونة، ودخلت أنا ـ بمجرد أن اختفت الشمس وراء سحابة سوداء ـ الحديقة ثم البيت المظلم والغامض الذي يخص المخترع الأول لحلوى

كراميل «حياة جديدة». مكثت ست ساعات في هذا المنزل الحجري المحاط بحديقة.

كان السيد المحترم المدعو «ثريا» ـ صاحب مصنع حلوى كراميل «حياة جديدة» الذي قد يمدني بالمفتاح لأسرار حياتي ـ واحد من هؤلاء الشيوخ ـ في العقد التاسع من العمر ـ الذين يدخنون علبتين من سجائر «سامسون» في اليوم كما لو كان التبغ يحتوي على إكسير يطيل العمر، حياني كما لو كنت صديقاً في عمر حفيده، أو كصديق حميم للعائلة؛ وكما لو كان يكمل قصة توقف عند منتصفها أمس، استمر ليخبرني عن الجاسوس المجري الذي جاء إلى مكان عمله في «كيوتاهيا» في يوم من أيام الشتاء ثم تحدث عن متجر للحلوى في «بودابست»، عن القبعات المتماثلة التي ارتدتها كل النساء للذهاب لحفل راقص في اسطنبول في الثلاثينيات، على النقيض قامت النساء التركيات ببذل مجهودٍ ليبدين جميلات، وهذا من الأسباب التي جعلت حفيده ـ الذي ظل يغادر الغرفة والذي كان في نفس عمري تقريباً ـ يفشل في أن يتزوج، داخلاً في تفاصيل خِطبتين باءتا بالفشل، كان سعيداً لسماع أنني متزوج، موضحاً أنها علامة صحيحة على وطنية مندوب تأمين شاب مثلي راغباً في القيام برحلات طويلة تحرمه من زوجته وابنته لكي يتعرف على البلاد، منذراً المواطنين ويهديهم ليحموا أنفسهم ضد الكوارث.

كان في نهاية الساعة الثانية حين أخبرته أنني لا أبيع تأميناً على الحياة، ولكني كنت فضولياً بخصوص حلوى كراميل «حياة جديدة». تململ في كرسيه، واستدار بوجهه ناحية الضوء الرمادي القادم من الحديقة، وسألني على غير المتوقع إذا كنت أعرف الألمانية، ودون أن ينتظر إجابتي، قال: «شاسهات». ثم أوضح

أن الكلمة «تشكمات» هي مزيج أوروبي صنع من الكلمة الفارسية لملك، «شاه»، والكلمة العربية «مات» كنا نحن من علم الغرب لعبة الشطرنج. في ساحة الحرب المادية، تصارع الجيوش السوداء والبيضاء الخير والشر في أرواحنا. وماذا فعلوا؟ لقد صنعوا ملكة بدلاً من «وزيرنا» وأسقُفاً بدلاً من «الفيل»؛ لكن هذا لم يكن مهماً في حد ذاته. ما كان مهماً، أنهم قدموا لنا الشطرنج مرة أخرى على أنه نصر لذكائهم ومفاهيمهم العقلانية في عالمهم، اليوم نحن نكافح لنفهم أحاسيسنا الخاصة خلال طرقهم العقلانية، مفترضين أن هذا ما أصبحت تعنيه كلمة «متحضر».

هل لاحظت أنا ـ لقد لاحظ حفيده ـ أن طيور اللقلق القادمة إلى الشمال في نهاية فصل الربيع والمهاجرة جنوباً في أغسطس/آب رجوعاً إلى إفريقيا أصبحت تطير على ارتفاع أعلى مما اعتادت أن تفعل في الأيام السعيدة؟ هذا لأن المدن، الجبال، الأنهار التي تطير فوقها كانت في حالة يرثى لها حتى أن تلك الطيور لم تعد تريد النظر إلى مأساة كل تلك الأراضي بحديثه عن طيور اللقلق بمثل هذا الحنان تذكر فنانة «درابيزن» فرنسية ذات سيقان جميلة كانت تقدم عرضاً في اسطنبول منذ خمسين عاماً، ثم تحدث عن معارض وسيرك الأيام الخوالي، وهو يصف بتفاصيل دقيقة نوع الحلوى التي كانت تُباع في هذه الأماكن، التي كانت تشتمل على لون محلي أكثر من الشجن.

قاموا بدعوتي إلى مائدتهم للغداء؛ وبينما نحن نأكل ونشرب بيرة «توبورج» الباردة، أخبرني السيد المسن قصة عن مجموعة من الفرسان علقوا في «أناتوليا» خلال الحرب الصليبية الثامنة ونزلوا إلى تحت الأرض عبر كهف في «كابادوشا». استمر تأثيرهم يزداد على مدى القرون؛ قام أولادهم وأحفادهم بتوسيع

الكهوف وحفروا ممرات وطرقاً تحت الأرض، اكتشفوا كهوفاً جديدة، ووجدوا مدناً تحت الأرض، أحياناً يظهر على السطح عملاء متخفين في هيئة مختلفة من أرض المتاهات التي بلا شمس حيث عاش جموع من الصليبيين، مخترقين مدننا وشوارعنا ويبدأون في إلقاء الخطب علينا حول مجد الحضارة الغربية، وهكذا فأسلاف الصليبيين الذين يدمروننا تدريجياً بالحفر تحت أراضينا يمكنهم أن يرتفعوا فوق الأرض بلطف ليدمروا أفكارنا، هل أعرف أن هؤلاء الجواسيس كانوا يُعرفون بـ «أو ـ بي»؟ وأنه كان هناك نوع من كريم الحلاقة أيضاً يدعى «أو بي»؟

لا أعرف إذا كان «ثريا» هو الذي أثار موضوع إدمان الحمص المحمص الذي اعتبره أتاتورك كارثة قومية كبرى، أو إذا كنت أتخيل ببساطة ذلك في لحظتها وهل هو الذي قاد المحادثة إلى دكتور فاين، أو كنت أنا الذي أشرت إليه من خلال فكرة ما؟ لا أستطيع أن أحدّد. قال إن خطأ دكتور فاين أنه كان مادياً يضع ثقته في الأشياء، مفترضاً أنه يستطيع أن يمنع إهدار الروح الموروثة في الأشياء بواسطة حفظها، لو كان هذا صحيحاً، إذاً فأسواق البراغيث كانت تغرق في الإدراك الروحي ـ إدراك ـ ضوء ـ مشع ـ وهاج ـ منتجات عديدة تستخدم مثل هذه الكلمات، كلها مزيفة ـ مصابيح الضوء، الحجر، ما لديك، أدرك دكتور فاين أنه لا يستطيع إنقاذ أرواحنا الضائعة بمنع فقدان الأشياء، فلجأ إلى الإرهاب. . بديهياً، ناسب ذلك الأمريكان جداً؛ فالمخابرات المركزية الأمريكية هي الأفضل في الخدع القذرة، اليوم تعوي الرياح حيث وقف منزله ذات مرة، وهربت بناته الجميلات واحدة بعد الأخرى، وكان ابنه قد قتل بالفعل، أما بالنسبة لمنظمته فقد انهارت؛ وربما كما يحدث عندما تسقط الإمبراطوريات الكبرى،

يعلن كل قاتل نفسه كحاكم على إقطاعه المحكوم ذاتياً، كان هذا السبب في أن الأرض العظيمة التي من خلال المخطط الماهر الخاص بالعبقري الاستعماري تمت تسميتها «بالشرق الأوسط» كانت تعج بمغتالي الأمراء الاستعماريين الحمقى الذين أعلنوا استقلالهم، أشار بسيجارته ليس إليّ ولكن إلى الكرسي الخالي الذي بجانبي موضحاً المتناقضة الاستعمارية التي شرحها، نحن في نهاية تاريخ الحكم الذاتي الذي يتعلق بالأراضي المستعمرة.

كان المساء يحل على الحديقة الظليلة كما لو كان يحل على مقابر، مكبراً هدوءها، عندما فتح الموضوع الذي كنت أنتظر لساعات أن أقترب منه فجأة، كان يخبرني عن مبشر كاثوليكي ياباني قابله في الأماكن المجاورة لـ «كايسري» الذي حاول أن يجري عملية غسيل مخ في ساحة مسجد، لكنه غيّر الموضوع فجأة: لم يستطع تذكر من أين في هذا العالم قد جاء بفكرة الماركة المسجلة «حياة جديدة» لكنه اعتقد أن الاسم السحري كان مناسباً لأن حلوى الكراميل لها ارتباطات بالنسبة للأشخاص الذين عاشوا على هذه الأرض مدة طويلة نسبياً من الوقت، الذين ربطوا ماضيهم المفقود بمذاق جديد ووعي جديد، على النقيض مما تمّ استنتاجه عموماً، لم تكن كلمة الكراميل ولا الحلوى نفسها تقليداً أو استيراداً فرنسياً بالرغم من كل شيء كلمة «كارا» ـ كما أصبحت عندما انتقلت إلى لغات الهندية الأوروبية ـ كانت أكثر الكلمات أهمية في لغة الأشخاص الذين عاشوا هنا لآلاف السنين، وهي تمثل سابقة لكل الكلمات التي تأخذ صفحات عديدة في القاموس، وهي تعني الأشياء غامقة اللون، الحسنة والسيئة؛ لذلك قام بضم الكلمة لمدة اثنتين وثلاثين سنة في كل غلاف لحلواه، التي كانت جيدة وغامقة اللون.

«نعم ولكن ماذا عن الملاك؟» استفسر مرة أخرى المسافر السيىء الحظ، مندوب التأمين الصبور، البطل التعس.

بدلاً من الإجابة، أخذ السيد العجوز يسرد ثمانية من عشرة آلاف من أبيات الشعر الهزلي السخيف الذي كان يضعه داخل الأغلفة، أشارت الملائكة الصادقة التي لم تكن مخادعة أو مناسبة لذكريات طفولتي إليّ من بين سطور أبيات الشعر السخيف، حيث تعد مقارنتهن بأفضل الجميلات، وتشبيههن بالنساء الصغيرات الناعسات، الغارقات في سحر الخرافات، وتدريجياً منحوهم سمات طفولية كانت كريهة بالنسبة لي.

اعترف السيد العجوز أنه هو بنفسه قد كتب الأشعار التي سردها، فلقد كتب تقريباً ستة آلاف قصيدة من عشرة آلاف قصيدة وُضعت في حلوى كراميل «حياة جديدة» خلال هذه السنوات الذهبية عندما وصل الطلب على الحلوى إلى نسب غير معقولة، كان هناك بعض الأيام حين يأتي بأفكار عشرين من مثل هذه القصائد. «أناستسيوس» ـ الذي صك أول قطعة نقود بيزنطية ـ تمّ طبع وجهه على الوجه الأعلى للعملة، أليس كذلك؟ ذكرني صانع الحلوى العجوز كيف اعتادت الحلوى الخاصة به أن تحفظ في برطمانات زجاجية بين الميزان والخزينة، كيف كانت المنتجات التي تحمل بصمته موجودة في ملايين الجيوب، كيف كانت ذات مرة تستخدم بدلاً من العملات المعدنية، مخبراً إياي أنه تذوق كل الأشياء الفاخرة في الحياة التي قد يستمتع بها إمبراطور ما اختلق ذات مرة نظام صك العملة الخاص به، مثل الثروة، القوة، الحظ السعيد، النساء الجميلات، الشهرة، النجاح، السعادة، كان هذا هو سبب عدم حاجته للحصول على وثيقة تأمين على الحياة،

ولكن ليعوض الأمر لصديقه مندوب التأمين الشاب، يشرح لماذا وضع صورة لملاك على حلوى الكراميل الخاصة به وهو في شبابه عندما كان يتردد على دور العرض، كان يحب مشاهدة ـ بشكل خاص ـ «مارلين دايتريش». لقد عشق بالفعل الفيلم الذي يسمى «ذا بلو أنجل» الذي كان يعرض هنا كـ «الملاك الأزرق»، المأخوذ عن رواية للكاتب الألماني «هينريش مان». قرأ السيد العجوز الرواية الأصلية، التي كان عنوانها «الأستاذ أنرات». إن البروفسور «أنرات» ـ الذي جسّد دوره الممثل «إميل جانينجيس» ـ مدرّس متواضع في مدرسة ثانوية يقع في حب امرأة مومس بالرغم من أن المرأة تبدو ملائكية، في الواقع. . . .

هل كانت هناك رياح قوية بالخارج تصفر خلال الأشجار؟ أو هل كان عقلي يستمع لنفسه وهو ينجرف بواسطة الرياح؟ لبرهة لم أكن «هناك»، كما يقول المدرّسون الطيبون عن الطلاب الأبرياء الحالمين المرتبكين كفاية ليكونوا مدللين، حلقت صورة شبابي التي غلفها الضوء المنبعث من كتاب «الحياة الجديدة» عندما قرأته لأول مرة وهي تمر أمام عيني مثل الأضواء الوهاجة لسفينة رائعة تختفي بلا أثر في ظلمة الليل وفي صمت حيث تنزلت، لم يكن الأمر وكأنني لا أعرف أن الرجل العجوز كان يحكي القصة الحزينة في الفيلم والرواية التي أحبها في شبابه، ولكن كانت كما لو كنت لا أسمع شيئاً، أو أرى شيئاً.

والآن جاء حفيده وأضاء الأنوار، في هذه اللحظة أدركت ثلاثة أشياء في الوقت نفسه: 1 ـ كانت النجفة التي تتدلى من السقف مماثلة تماماً للتي تقدمها ملاك الرغبة في خيمة المسرح في مدينة «فيران باج» إلى الفائز المحظوظ كل ليلة بمصاحبة نصيحة فريدة عن الحياة. 2 ـ أصبحت الحجرة مظلمة جداً لدرجة

أنني لم أعد قادراً على رؤية صانع الحلوى العجوز لبرهة من الوقت ـ الذي كان يدعى «ثريا» التي تعني «مجموعة النجوم»، الدب القطبي. 3 ـ لم يستطع أن يراني أيضاً لأنه كان أعمى.

قبل أن يسخر قارىء عدائي ومحتقر من عقلي وانتباهي لأني لم أدرك لمدة ست ساعات حقيقة أن الرجل أعمى، هل من الممكن أن أسأل بعدائية إذا ما كان هذا القارىء قد أعار اهتماماً وذهناً صافياً لكل منحى في هذا الكتاب؟ دعني أرى إذا كنت تذكر الآن وصف المشهد ـ على سبيل المثال ـ عندما ذكر الملاك لأول مرة؟ أو هل تستطيع القول على الفور ما نوع الإلهام الذي وفّرته قائمة العم رفقي للشركات في عمله الذي يدعى «أبطال الطرق الحديدية» الذي أمدّه بـ «الحياة الجديدة»؟ هل بدأت تفهم المفاتيح التي من خلالها أدركت أخيراً أن محمداً كان يفكر في جنان عندما أطلقت عليه الرصاص في دار العرض؟ في حياة الذين هم مثلي الذين خرجت حياتهم عن مسارها، يقدم الحزن نفسه في صورة غضب الذي يريد التعبير عن نفسه كمهارة والرغبة في أن تكون ماهراً هي التي تفسد كل شيء في النهاية.

تخطّيت أحزاني الخاصة، وأدركت أن الرجل المسن كان أعمى عندما لاحظت الطريقة التي نظر بها لأعلى إلى النجفة التي تلقي ضوءها علينا، وأنا أنظر إليه للمرة الأولى بنوع من التحفظ، نوع من الإعجاب والتقدير ـ أو بصراحة ـ نوع من الحسد، كان طويلاً، رشيقاً ونحيفاً ـ بالأخذ في الاعتبار سنه ـ وكان لائقاً إلى حد ما، عرف كيف يوظّف يديه وأصابعه بمهارة، ما زال عقله يتحرك بكثير من الطاقة، وكان قادراً على التحدث لست ساعات دون أن يفقد اهتمام القاتل الحالم الذي يرفض بعناد أن يصدق أنه

أي شيء آخر سوى مندوب تأمين، لقد كان قادراً على تحقيق نوع من النجاح في شبابه الذي كان مليئاً بالسعادة والتحفيز؛ وعلى الرغم من أن نجاحه قد ذاب في معدة ملايين الناس، وحتى الستة آلاف قصيدة من الشعر الهزلي التي كتبها انتهى بها المطاف في صفائح القمامة، فقد منحوه الشهرة وفكرة متفائلة عن مكانه في العالم؛ والأكثر من ذلك، كان قادراً على أن يدخّن علبتي سجائر في اليوم ـ باستمتاع كبير ـ حتى أصبح في الثمانين ونيف من عمره.

في الصمت أحس بحزني خلال نوع من القدرة على الإدراك الذي يأتي مع الإصابة بالعمى، وحاول أن يعوضني عنه: هكذا كانت الحياة؛ هناك الحادثة، هناك الحظ، هناك الحب، هناك الوحدة؛ هناك الفرح؛ هناك الحزن؛ هناك الضوء، الموت، وأيضاً السعادة التي كانت هناك ولكن غير واضحة؛ من الضروري ألا يتجاهل المرء كل هذا، في الثامنة كان هناك بثّ للأنباء على الراديو الذي أداره حفيده في الحال؛ وهل يمكن أن أبقى وأشاركهم وجبتهم المسائية.

اعتذرت كثيراً، مدعياً أن كثيراً من الناس كانا ينتظرونني ليحصلوا على بوليصة تأمين في مدينة «فيران باج». وبسرعة كافية قبل أن يعرف أي شخص ما يجري، خرجت من الباب نزولاً إلى ممر الحديقة ثم الشارع وبمجرد أن أصبحت بالخارج رأيت كيف كان الهواء متجمداً في هذه الأمسية الربيعية، خمنت كم يكون الشتاء قاسياً هنا، ووجدت نفسي أقف في وحدة أكثر من أشجار السرو الواقفة في الفناء.

ماذا كنت سأفعل بعد الآن؟ لقد عرفت ما هو ضروري ـ كما عرفت ما ليس ضرورياً ـ وقد وصلت إلى نهاية كل

المغامرات، الرحلات، والألغاز التي استطعت اختراعها بنفسي، كانت مرحلة الحياة التي يمكن أن أدعوها مستقبلي مختفية في الظلام تماماً مثل مدينة «سون بازار» وراء التل التي - بغض النظر عن بعض أضواء الشارع الكئيبة - كانت غارقة في الظلام، معزولة تماماً عن الحياة الليلية المتلألئة، الزحام المليء بالحياة، والشوارع المضاءة جيداً، لكن عندما بدأ كلب ما يزمجر في جدية، نزلت من على التل.

أثناء انتظاري للحافلة التي ستأخذني مرة أخرى إلى مرح وصخب لافتات إعلانات البنوك، السجائر، المشروبات، أجهزة التليفزيون، تحوّلت بلا هدف في شوارع هذه المدينة الصغيرة التي تقع عند نهاية العالم؛ الآن لم يعد لدي المزيد من الأمل أو الرغبة في أن أصل لمعنى الحقيقة الموحدة للعالم، للكتاب، ولحياتي، وجدت نفسي وسط مظاهر حرة لا تصف ولا تلمّح لأي شيء، شاهدت خلال نافذة مفتوحة أسرة مجتمعة حول مائدة يأكلون عشاءهم. هكذا كانوا، كما تعرفهم ببساطة، عرفت أن هناك دروساً لتعليم القرآن من ملصق معلق على حائط المسجد، عند المقهى ذي الحائط الخشبي، رأيت بلا كثير من الاهتمام أن مياه غازية «برانش» لا تزال مثابرة ضد كل أنواع الهجمات من قبل كوكاكولا، بيبسي، وشويبس، شاهدت رجل الإصلاحات أمام محل الدراجات عبر الشارع وهو يصلح إطار دراجة في الضوء القادم من داخل المحل، وصديقه الذي يتسكع معه، يدخّن ويثرثر بلا انقطاع.. لماذا اعتقدت أنهما صديقان؟ ربما كانا متورطين في صراع ويفوران بالعداء لبعضهما البعض، في حلتهم، لم يكونا ممتعين إلى حد زائد ولا مملين إلى حد زائد، بالنسبة لهؤلاء القرّاء الذين يعتقدون أنني متشائم جداً، دعوني

أوضح الأمر بطريقة صحيحة ففي أثناء جلوسي في مقهى ذي تكعيبة خشبية رائعة، فضّلت مشاهدتهما على عدم مشاهدتهما.

وصلت الحافلة وغادرت مدينة «سون بازار» بهذا الشعور، درنا حول جبال وعرة مراراً وتكراراً، ثم استمتعنا بقلق إلى صرير الفرامل ونحن ننزل التل، توقفنا عدة مرات عند نقاط التفتيش حيث أخرجنا بطاقات هويتنا من أجل الدورية العسكرية كنا قد تخطينا الجبال، والمنطقة العسكرية ونقاط التفتيش عندما بدأت الحافلة تزيد من سرعتها كما تشاء، وسارت بجنون وبلا تحكم عبر الأرض المستوية، وبدأت أذني تلتقط النغمات الحزينة في الموسيقى المألوفة التي تصنعها زمجرة المحرك وصرير الإطارات.

ربما لأن الحافلة كانت الأخيرة من الحافلات قوية التحمل، متينة ولكنها مزعجة لشركة «ماجيرس» القديمة التي اعتدت أنا وجنان أن نستقلها، ربما لأننا كنا فوق طريق إسفلتي خشن حيث تدور الإطارات ثماني مرات في الثانية مُصدرة ذلك الصوت الأنيني المميز، ربما لأن ماضيي ومستقبلي ظهرا في الألوان البنفسجية والرمادية على الشاشة حيث العشاق الذين أساؤوا فهم بعضهم البعض ينتحبون في فيلم من صنع «ستوديوهات يسيلسام» ـ لا أعرف لماذا، ولم أعرف لماذا ـ ربما لأن غريزة ما قادتني لأجد المعنى الذي لم أستطع إيجاده في الحياة في النمط الخفي للصدفة، جلست في المقعد رقم 37 ـ ربما لأني ذهبت إلى المقعد حيث كانت ستجلس، رأيت الليل المخملي المظلم والذي بدا غامضاً وجذاباً للغاية بالنسبة لنا حتى أنه بدا كما لو كان بلا نهاية مثل الوقت، الأحلام، الحياة، الكتاب وعندما بدأت الأمطار التي بدت أكثر مني حزناً

في الطرق على النوافذ، رجعت للوراء في مقعدي وتركت نفسي للموسيقى والذكريات.

بدأت السماء تمطر بشدة متزايدة، موازية للحزن الذي ازداد في قلبي، ثم تحولت إلى سيل عند منتصف الليل، مصحوبة برياح تطيح بحافلتنا وبرق بنفس اللون البنفسجي لزهر الحزن التي تنمو في عقلي، مرّت الحافلة القديمة التي يتسرب إليها الماء من حول النوافذ بمحطة للوقود غير مرئية بسبب السيل والقرى الموحلة المليئة بأشباح من مياه، وهدّأت من سرعتها لتأخذ المنحنى إلى استراحة، عندما غمرتنا اللافتة النيون التي تقول «مطعم شارع الذكريات» بالضوء الأزرق، أعلن السائق المرهق، «ثلاثون دقيقة، استراحة إجبارية».

كنت أنوي ألا أتحرك من مقعدي لأشاهد بمفردي الفيلم الحزين الذي أدعوه ذكرياتي؛ لكن الأمطار التي تدفقت بغزارة على سطح الحافلة القديمة كانت تكثف الحزن الثقيل بشدة في قلبي، كنت خائفاً من أن أكون قادراً على تحمّل هذا؛ هربت مع بقية الركاب نقفز خلال الوحل، والجرائد والأكياس البلاستيكية تحمي رؤوسنا.

اعتقدت أن الاختلاط مع الزحام قد يكون جيداً لي؛ سوف أتناول بعض الحساء وحلوى المهلبية، وأنا ألهي نفسي بمتع مادية في الحياة، بدلاً من أن أصبح عاطفياً وأنا أقلّب خلال الجزء الفائت من حياتي التي تركتها خلفي، قد ألملم شتات نفسي، محولاً الأفكار العقلانية الخاصة بعقلي على الجزء الممتد أمامي، صعدت درجتي السلم، جففت شعري بمنديلي، ودخلت الحجرة المضيئة بشكل جيد التي تفوح فيها رائحة الدهون والسجائر، سمعت بعض الموسيقى التي تركتني أرتجف.

مثل شخص عاجز خبير يستطيع أن يشعر بنوبة قلبية وهي تأتي، أتذكر أنني تعثرت بيأس في محاولة أن آخذ حذري لأبتعد عن الأزمة، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ لم أستطع أن أطلب ـ وهل أستطيع؟ ـ منهم أن يغلقوا الراديو، فقط لأنه عندما صادفت أنا وجنان بعضنا البعض بعد الحادثة، سمعنا نفس النغمة، وأيدينا متشابكة، لم أستطع الصراخ لأخبرهم أن يزيلوا صور نجوم السينما، لمجرد أننا قضينا ـ أنا وجنان ـ وقتاً طيباً ونحن ننظر إلى الصور، نضحك ونتناول وجبتنا هنا في هذا المطعم بالذات الذي يُدعى «شارع الذكريات». وطالما أنني ليس معي في جيبي أقراص النيتروجلسرين المضادة لأزمتي القلبية فقد وضعت على صينيتي طبقاً من حساء العدس وبعض الخبز، وكأس «راكي» مزدوجاً، ورجعت إلى مائدة في الركن. . بدأت الدموع المالحة تسقط في الحساء الذي قلبته بملعقتي.

لا تتركوني استمر مثل أولئك الكتّاب الذين يقلدون «تشيخوف» محاولين استخراج من ألمي كرامة كوني إنساناً التي يمكن لكل القراء المشاركة فيها؛ بدلاً من ذلك، بوصفي كاتباً من الشرق، اسمح لي أن أنتهز الفرصة لأحكي قصة. . باختصار: رغبت في أن أعزل نفسي عن الآخرين، شخص مميز كان لديه هدف مختلف تماماً، هنا في الجوار، يعتبر هذه جريمة لا تُغتفر. قلت لنفسي لقد تلقيت هذا الحلم المستحيل من قصص «العم رفقي» التي قرأتها في طفولتي، لذلك فكرت مرة أخرى فيما كان يفكر القارىء الذي يحب أن يستخلص أخلاقيات القصة كل هذا الوقت؛ كان لأن الأشياء التي قرأتها في طفولتي أنذرتني مسبقاً أنني سأتأثر بشدة بـ«الحياة الجديدة». ولكن مثل الرواة الكبار القدماء للقصص التحذيرية، لم أصدق عبرة القصة بنفسي، لذلك

ظلت قصة حياتي ببساطة حكاية فردية خاصة بي وفشلت في أن تخفف آلامي، لقد خفق قلبي منذ وقت طويل لهذا الاستنتاج القاسي الذي تنزّل على عقلي ببطء، كنت أنتحب بدون تحكم مع الموسيقى التي تنبعث من الراديو.

أدركت أن حالتي لم تعطِ انطباعاً جيداً لأصدقائي الركاب الذين كانوا يقلبون حساءهم ويزدرون أطباق الأرز، لذلك تسللت إلى دورة المياه، غسلت وجهي ببعض الماء الدافىء والغامق الذي نزل متدفقاً من الصنبور، مغرقاً ملابسي بالماء؛ مسحت أنفي، وأخذت وقتي، ثم رجعت إلى مائدتي.

بعد فترة، عندما نظرت إليهم من ركن عيني رأيت الركاب الآخرين يتأملونني من ركن عيونهم بطريقة ما بدت مريحة. الآن ظهر بائع متجول عجوز كان ينظر إليّ بدوره وهو يحمل في يده سلة من الفراولة وينظر في عيني مباشرة.

قال: «هوّن عليك! هذا أيضاً سوف يمر.. هيا، خذ بعض حلوى النعناع، فهذا جيد لكل ما يضايقك».

وضع على مائدتي حفنة صغيرة من حلوى النعناع التي تحمل اسم تجاري «بليس».

ـ «كم ثمنها؟».

ـ «لا، لا، إنها هدية مني».

كان ذلك بمثابة تعزية لي من هذا الرجل الطيب الذي يعطي بعض الحلوى لطفل يبكي في الشارع... حدّقت في وجه رجل الحلوى الأبوي الطابع مثل هذا الطفل، وأنا أبدو مذنباً، دعوته بـ «العم» معنى مجازي، ربما لم يكن حتى أكبر مني بكثير.

قال: «اليوم نحن منهزمون كلية، لقد قام الغرب باستنفادنا،

وطأونا بأقدامهم عندما مروا، قاموا بغزونا حتى وصلوا إلى حسائنا، حلوانا، ملابسنا الداخلية، لقد دمرونا، لكن في يوم ما ربما بعد ألف سنة من الآن سوف ننتقم لأنفسنا؛ سننهي هذه المؤامرة بإخراجهم من حسائنا، من حلوى اللبان الخاصة بنا، من أرواحنا، الآن هيا تابع وتناول حلوى النعناع، لا تبكِ على اللبن المسكوب».

هل كانت تلك هي التعزية التي كنت أبحث عنها؟ لا أعرف! لكن مثل الطفل الذي يبكي في الشارع مستمعاً بجدية إلى القصة التي يحكيها الرجل اللطيف، فكرت لفترة في كلمات التعزية ثم فيما أنا أسترجع مفهوماً تكلم عنه كُتّاب النهضة الأوائل بالإضافة إلى «إسماعيل حقي» من «إرزوم»، وجدت فكرة لأعزّي نفسي واعتبرت أنهم قد يكونون على حق في اعتقادهم أن الحزن هو مادة تنتشر من المعدة إلى المخ، واتخذت قراراً أن أعير اهتماماً أكثر لما أتناوله وأشربه.

قطعت الخبز ووضعته في الحساء ثم تناولته بالملعقة؛ تناولت رشفات حذرة من كأس «الراكي» وطلبت كأساً آخر مع شريحة من البطيخ مثل رجل عجوز حذر يهتم بما ينزل إلى معدته، شغلت نفسي بالطعام والشراب حتى حان وقت مغادرة الحافلة. صعدت إلى الحافلة وجلست في أي مكان. أتصور أنه من الواضح: أنني أردت أن أترك خلفي الرقم المعتاد للمقعد رقم 37.. حيث كنت أفضّل الجلوس، سوية مع كل شيء آخر مرتبط بماضيّ. ويبدو أنني سقطت نائماً.

بعد غفوة طويلة وبدون انقطاع حيث نمت مثل طفل رضيع، صحوت عندما توقفت الحافلة قرب الصباح ودخلت إلى إحدى الاستراحات الحديثة والتي هي مركز الحضارة، كنت مسروراً

بطريقة ما لرؤية الفتيات الجميلات في إعلانات الكوكاكولا والبنك على الحائط، المشاهد على التقويم، مزيج غير متناسق من الألوان الزاهية في كلمات الإعلانات التي تدعوني بصوت عال. . «الهامبرجر المكتظ» الذي يخرج من الخبز المستدير في الحافظة الزجاجية في ركن منها كانت هناك لافتة تشير بحكمة بالإنجليزية «اخدم نفسك/خدمة ذاتية»، وصور الجيلاتي التي تأتي في ألوان مثل لون طلاء الشفاه الأحمر، أصفر مثل زهور الربيع، أزرق حالم.

جلبت لنفسي بعض القهوة وجلست في ركن في الضوء الباهر للمكان، بينما هناك ثلاثة أجهزة تليفزيون مفتوحة، شاهدت فتاة صغيرة ذات ثوب أنيق لم تنجح في وضع نوع من «الكاتشب» على أصابع البطاطس المقلية الذي يأتي في زجاجة بلاستيكية وتحتاج مساعدة أمها، كانت هناك زجاجة بلاستيكية لنفس النوع «اللذيذ» من «الكاتشب» موضوعة على مائدتي، والحروف الصفراء الذهبية على الزجاجة تعدني بأنني إذا قمت بجمع ثلاثين من أغطية تلك الزجاجات خلال ثلاثة أشهر ـ التي كانت صعبة الفتح حتى أنها تتبعثر على ثياب الفتيات الصغيرات عندما تنفتح أخيراً ـ ثم ترسلهم على العنوان التالي، كنت سأكون مناسباً لدخول المسابقة التي ستأخذ الفائز في رحلة لمدة أسبوع لعالم «ديزني» في «فلوريدا». الآن أحرز واحد من فرق كرة القدم هدفاً على شاشة التليفزيون الذي في المنتصف.

شاهدت نفس الهدف يُحرز مجدداً في حركة بطيئة مع كل الرجال الآخرين الجالسين إلى الموائد، أو المنتظرين في صف «الهامبرجر»، شاعراً بالتفاؤل الذي لم يكن على الإطلاق على السطح لكنه كان متعقلاً كما لو كان مناسباً للحياة التي

تنتظرني، أحب مشاهدة مباريات كرة القدم في التليفزيون، التكاسل في المنزل أيام الآحاد، أسكر في بعض الأمسيات الذهاب إلى المحطة مع ابنتي لمشاهدة القطارات تجربة أنواع جديدة من الكاتشب، القراءة، النميمة مع زوجتي وممارسة الحب، تدخين السجائر، والجلوس في سلام وشرب القهوة في مكان أو آخر، كما كنت أفعل الآن تماماً، وإلى جانب ألف شيء آخر، لو اعتنيت بنفسي ونجحت في أن أعيش ـ فلنقل ـ طويلاً مثل صانع حلوى الكراميل العجوز الذي كان اسمه على اسم مجموعة النجوم، فأنا لدي نصف قرن آخر أمامي لأستمتع بكل هذه الأشياء. . . . للحظة شعرت باشتياق قوي لبيتي، زوجتي، وابنتي، تخيّلت كيف سألعب مع ابنتي عندما أصل للبيت عند الظهيرة يوم السبت، ماذا سأشتري لها من متجر الحلوى في المحطة، وبينما تلعب هي بالخارج بعد الظهر. . كيف سنمارس الحب أنا وزوجتي بصدق، بعاطفة، وبدون إهمال، ثم كيف سنشاهد جميعاً التليفزيون فيما بعد، وأنا أدغدغ ابنتي ونضحك معاً.

أيقظتني القهوة بالفعل، في الصمت العميق الذي تنزّل على الحافلة قبل الصباح مباشرة.

كان الشخص الوحيد المستيقظ بخلاف السائق هو. . أنا، جالساً وراءه مباشرة، إلى يمينه قليلاً، كان هناك حلوى نعناع في فمي، عيناي مفتوحتان على اتساعهما، محدقاً في الطريق الإسفلتي الناعم الممتد عبر السهب، الذي بدا بلا نهاية، مركّزاً على العلامات على الخط الأوسط والأضواء الأمامية للشاحنات التي تمر بنا من حين لآخر، كنت أنتظر طلوع النهار بفارغ الصبر.

لم يمض أكثر من نصف ساعة عندما بدأت أميّز أولى علامات الصباح من النافذة التي على يميني، مما يعني أننا كنا نسافر في اتجاه شمالي، أولاً الحدود الخارجية للأرض المقابلة للسماء بدت وكأنها أصبحت مرئية بغموض، وبلا تمييز ثم الخط الخارجي للحدود بين الأرض والسماء وقد اتخذ لوناً قرمزياً حريرياً غزا السماء المظلمة في ركن واحد ولكن دون أن يضيء السهب؛ لكن الخط الفاصل الوردي اللون كان دقيقاً جداً، ورقيقاً جداً وغير عادي. . حتى أن كل الحافلات التي لا تكلّ ـ التي انطلقت عبر السهب مثل حصان جمح يسرع باتجاه الظلام سواء رغبت أم لم ترغب ـ والركاب الذين عليها كانوا ينهضون في حالة صياح آلي لا فائدة منه. لا أحد كان واعياً بذلك، ولا حتى السائق.

بعد بضع دقائق، ونتيجة للضوء الشاحب المنبعث من خط الأفق الذي تحوّل إلى اللون القرمزي قليلاً، بدت السحب الداكنة في الشرق وكأنها مضاءة على طول الحواف، أدركت شيئاً وأنا أنظر إلى الأشكال الرائعة التي تصنعها السحب الحانقة في الضوء الواهي التي ظلت تمطر بلا هوادة فوق سطح الحافلة طوال الليل: طالما أن السهب ما زال حالك الظلام، في الضوء الواهي داخل الحافلة. . استطعت رؤية وجهي وجسدي منعكساً على زجاج النافذة أمامي مباشرة، وفي الوقت نفسه استطعت رؤية الحمرة القرمزية السحرية، السحب الرائعة، والخطوط المكسورة في الطريق السريع التي تكرّر نفسها بلا كلل.

أثناء النظر إلى الخط المكسور في المنتصف في أشعة أضواء الحافلة، تذكرت المقطع، نفس مقطع الأغنية المتكرر والذي يرتفع من روح المسافر المرهق المكتئب الذي يركب

الحافلة المتهالكة لإيقاع الإطارات التي تدور بنفس المعدل، المحرك الذي يئن بنفس الوتيرة، والحياة التي تعيد نفسها بنفس القدر، والتي تتكرر بواسطة أقطاب القوى على الطريق السريع: ما الحياة؟ فترة في الزمن. ما الوقت؟ حادثة... ما الحادثة؟ حياة.. حياة جديدة... وهكذا كان مقطعي المتكرر، في الوقت نفسه كنت أتساءل متى سيختفي انعكاس صورتي عن زجاج النافذة؟ ومتى سيظهر أول شبح لشجرة أو ظل لحظيرة ماشية في السهب؛ في تلك اللحظة السحرية حيث التوازن بين الضوء داخل الحافلة وخارجها حتى أن عيني أُغشيت فجأة بضوء قوي.

في هذا الضوء الجديد على الناحية اليمنى لزجاج النافذة، رأيت الملاك.

كان الملاك قريباً جداً مني ولكن.. كم كان بعيداً. بالرغم من ذلك كنت ما زلت أعرف أن الضوء العميق، البسيط، والقوي كان من أجلي. بالرغم من أن الحافلة اندفعت خلال السهب بكل قوتها، فلم يقترب الملاك أو يتراجع، حجب عني الضوء الساطع رؤية كيف يبدو الملاك بالضبط، لكنني عرفت من الإحساس بالحيوية، الإحساس بالخفة، الإحساس بالحرية الذي شعرت به بداخلي أنني تعرفت على الملاك.

لم يشبه هذا الملاك أياً من هؤلاء الذين في الصور الفارسية، ولا يشبه الملائكة التي على أغلفة حلوى الكراميل، ولا يشبه البتة الملائكة المصورة والمطبوعة أو حتى الحضور في أحلامي الذي اشتقت لسماع صوته. كل هذه الأعوام.

للحظة رغبت في أن أقول شيئاً، أن أتحدث مع الملاك... ربما لأني ما زلت أشعر بالإحساس الغامض

بالعبث والمفاجأة، لكني لم أصدر أي صوت؛ أصبحت قلقاً، كان الشعور بالود والمحبة، التواصل، والرقة الذي شعرت به منذ اللحظة الأولى ما زال حيّاً داخلي؛ أملت في أن أجد السلام في ذلك، معتقداً أنها اللحظة التي كنت أنتظرها كل هذا الوقت، لكن لأخفف من حدة الخوف الذي نما داخلي أسرع من سرعة الحافلة، تمنيت أن تمدني اللحظة بالأجوبة على الوقت، الحادثة، السلام، الكتابة، الحياة، والحياة الجديدة.

كان الملاك عديم الشفقة كما كان بعيداً ورائعاً، ليس لأنه تمنى أن يكون كذلك، ولكن لأنه كان شاهداً فقط ولم يكن يستطيع فعل شيء أكثر، في الضوء الرائع لطلوع النهار، رآني جالساً في حيرة وقلق في مقعدي في الأمام، راكباً على متن علبة الصفيح التابعة لشركة «ماجيرس» التي تندفع مسرعة خلال السهب نصف المضاء؛ وهذا كل شيء. شعرت بالقوة غير المحتملة لما هو قاس وحتمي.

عندما استدرتُ ناحية السائق بغريزية، رأيت الزجاج الأمامي بأكمله يشع بضوء قوي غير عادي، كانت هناك شاحنتان تسابقان بعضهما البعض على بعد نحو ستين أو سبعين ياردة من حافلتنا، وكلتاهما توجه أضواءها العالية إلينا وتقتربان بسرعة في وضع معاكس مع حافلتنا، عرفت أن الحادثة لا يمكن تجنبها.

تذكرت انتظار السلام الذي يتبع الحوادث التي عشت خلالها منذ سنوات. . . . الشعور بالتحول بعد الحادثة التي تبدو وكأنها مصورة بالحركة البطيئة؛ تذكرت الركاب الذين كانوا يتناثرون هنا وهناك، كما لو كانوا يتشاركون معاً الوقت الذي جاء من الجنة وسرعان ما سيستيقظ كل الركاب الناعسين، وسكون الصباح ستخترقه صرخات سعيدة وصيحات وقحة؛ وعلى العتبة

بين العالمين، كما لو كنا نكتشف الدعابات الأبدية الموجودة في فضاء بلا جاذبية، كنا سنكتشف ـ مجتمعين ـ بارتباك وإثارة وجود الأعضاء الداخلية المليئة بالدماء، الفواكه المسكوبة، الأجساد المسحوقة، وكل تلك الأمشاط، والأحذية وكتب الأطفال التي خرجت من الحقائب الممزقة.

لا . . لسنا مجتمعين، الأشخاص المحظوظين الذين قدّر لهم أن يعيشوا خلال اللحظة الفريدة التي تتبع الصخب الهائل للحادثة سيكونون وسط هؤلاء الركاب الذين تركوا على قيد الحياة الجالسين في المقاعد الخلفية، أما بالنسبة لي، جالساً بارتياح في المقعد الأول في الأمام، ناظراً إلى ضوء الشاحنتين القادمتين، أغمضت عيني في ذهول وخوف تماماً كما نظرت ذات مرة إلى الضوء الرائع المنبعث من الكتاب، سأنتقل على الفور إلى عالم جديد.

عرفت أنها ستكون نهاية حياتي . . ولكن أردت فقط أن أعود إلى البيت، لم تكن لدي أية رغبة في الموت على الإطلاق، ولا في العبور إلى الحياة الجديدة.

اسطنبول

1992 ـ 1994

يبدأ "أورهان باموق" روايته بداية مدهشة حيث يقرر «قرأت كتاباً في يوم ما فتغيرت حياتي كلها".

ويبدأ البطل بحثه عن تأثير هذا الكتاب فيمن قرأه قبله. ويتذكر أثناء ذلك أن كتباً أنتقل قراؤها من الحانة إلى الجامع وكتباً أخرى تحول قراؤها من مواطنين إلى ثوار أو إلى لصوص.

يعشق البطل الفتاة التي رأى معها الكتاب لأول مرة ويبدأ رحلته معها للهرب من أسر المدينة الحزينة ومفردات الحياة القديمة بحثاً عن حياة جديدة. تناسب الكتاب الذي غير مجرى حياته.

وواقعاً تحت سحر الكتاب يستعرض البطل "أسطنبول" الآن في زمن العولمة وذلك على متن باصات تقطع البر الاناضولي وتربط مدناً حديثة ذات طابع غربي بقرى نائية ما زالت تقييم في العصور الوسطى.

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

ISBN 978-614-404-132-1
9 786144 041321